الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة



شعر الهذليين

في العصرين الجاهلي والإسلامي

تأليف
دكتور أحمد كمال زكي

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة
١٣٨٩هـ — ١٩٦٩م

شعر الهذليين

في العصرين الجاهلي والإسلامي

المكتبة العربية

تصدرها

وزارة الثقافة

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

شعر الهذليين

في العصرين الجاهلي والإسلامي

تأليف

دكتور أحمد كمال زكي

المحتوى

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

— ١ —

هذه محاولة لدرس شعر قبيلة كاملة على أساس متميز . وأنا إذ أقدمها هنا بعنوان « شعر الهذليين فى العصرين الجاهلى والإسلامى ، نقد وتاريخ » أرجو أن أسجل انى لم اقدم عليها إلا بعد ما تبين لى أنها نوقشت من قدمائنا مناقشة لغوية نحوية ، فتعرضت خلال ذلك إلى نوع من النقد أثار أمامى أكثر من مشكلة .

والواقع أن هذا النقد لم يصل إلينا منه إلا إشارات مقتضبة ، ولكنها صادقة الدلالة على ماوصل إليه الهذليون من براعة وإجادة . وكان أهم من ذلك كله أنها دلت على وجود شىء يربط بينهم ، ويجمعهم فى صعيد واحد ، أو يوجههم وجهة قد لاينحاز عنها أحدهم على الإطلاق .

وهنا وضحت الفكرة ، وأردت أن أحمل شعرنا على ما يشبه هذه المذاهب التى تراها عادة فى الأدب الغربى ، وإذ ذاك لم أتردد فيما عقدت عزمى عليه ، خاصة وقد ثبت أنه أثر عن العرب دواوين كاملة لقبائلهم . وتفرق هذه الدواوين فى كتب مستقلة يدل — بوجه ما — على إمكان حدوث هذه الدراسة المدرسية .

نعم ، من الممكن أن نعثر على سمات تجمع شعراء القبيلة الواحدة . بل إن وجودهم فى بيئة خاصة ، وخضوعهم لجو واحد ، وسيرهم على تقاليد بعينها كل ذلك لابد يوجد فيهم نوعاً من الاستقلال الفكرى والعاطفى ، ولا بد أن يكون لهذا أثره فى إنتاجهم الأدبى !

ومن هنا نشعر بما لديوان الهذليين من تفرّد ، ونرى فيه هذه السمات التى تجمع شعراءه فى مذهب خاص . فدراسته إذن على أنه أثر لمدرسة شعرية امر ضرورى ليكون فهمنا للأدب العربى أعمق وأقوى . وما دراسة مدرسة أوس ابن حجر إلا محاولة كمحاولتى هذه ! وكل ما أحبه أن تفتح هذه المحاولة باباً للبحث عما اختفى من دواوين القبائل ثم تدرس دراسة مدرسية وتحمل على مذهب معين .

— ٢ —

ويقع ما كتب عن الهذليين منذ قديم فى قسمين : قسم سمى (ديوان الهذليين) وهو برغم ما ضاع منه أكبر مجموعة شعرية حفظتها الأجيال الواحدة من قبائل العرب ، وقسم آخر نراه هنا وهناك فى بطون الكتب القديمة ، فاتخذتها مراجع لى ، ولاحظت أن فيها شيئا كثيراً من التعميم ، وشيئا أكثر من الإيجاز وعدم الوضوح ، إلا أنها كانت تكفى للدلالة على ما خلفته هذيل فى نفوس الأقدمين .

وفى العصر الحديث بدأت طائفة من المستشرقين بنشر مخطوط لهذيل وجد فى ليدن عام ١٨٥٤ ، واخذ المشتغلون بالأدب فى دراسته ، فلم يخرج عملهم عن أن يكون تحقيقا لما كان عليه الديوان قبل أن تتعاقب عليه الدهور . ولكنهم فى خلال ذلك كانوا يعلقون وينقدون ، دون أن يسرفوا أو يغلوا ، بل دون أن يتكلفوا دراسة تاريخية علمية تقفنا على ما يريده الباحث من قبيلة كان لها شأن كبير فى حفظ اللغة وتدوينها .

كما شاركت دار الكتب المصرية فى هذه الحركة الأدبية فبدأت منذ عام ١٩٤٥ بنشر أشعار جماعة كبيرة من الهذليين معتمدة فى عملها على مجموعة كان يملكها الشنقيطى . ومع كل ما حرصت عليه من تحقيقه فيها ، فقد ظل الكثير مبهما ، وقر الهذليون فى نفوس المتأدبين ناسا لا تاريخ لهم ، ولا ضابط لحياتهم ، وليس لهم من ماضيهم إلا بعض ماقاله شعراؤهم ، فكان على أن أوضح الغامض ، وأكمل الناقص ، وأرد ما كان قائما على الحدس والتخمين إلى مايشبه الجزم واليقين .

ولست أريد بعد ذلك إلا أن أتحدث عن هذه الدواوين ، فهى مصدرى الأول ، بل هى المتن الذى استندت إليه دائما . وكانت وحدها قوام دراستى فى جل فصول البحث . وحرصت قبل أن آخذ بها على أن أعرضها على مقاييس

التحقيق ، ونظرت فيها نظرة مدققة فاحصة ، فتبين لى أن ما روته من شعر مضطرب من الناحية التاريخية ، وأن بعض قصائدها لم يقدم بأى تقديم ، وبعضا ثالثا تنوزع فى قائله . ولكن هذا كله لم يجعلنا نزورّ عنها أو نشك فيها لاسيما ان تنازع الرواة فى نسبة ما اختلف عليه لم يكن يتعدى القبيلة نفسها ، فكان الشعر هذليا قلبا وقالبا إذا صح هنا استخدام هذا التعبير .

على أنى فرقت من الدواوين بين المخطوط وما طبع منها . وقارئها يلاحظ فى سهولة أنها جميعا لم تكن شيئا هينا ، وأنها لم تصل إلينا كاملة ، ولكن ماوصلنا منها مقدار كبير يكفى لنحكم به على الخصائص العامة التى تميز كل ماقيل للهذليين ، حتى ذلك الذى ضاع لهم .

اما المخطوطات فقد عنيت بإثبات جامع الشعر فيها ، فرأينا بعضها يروى عن السكرى أو عن غير طريق السكرى ، وبعضها الآخر يؤخذ عن الأصمعى . حتى إذا طبعت رأينا كتاب (شرح أشعار الهذليين) يروى كله عن الأول ، ورأينا (البقية) تروى فى معظمها عن الأصمعى . ولاحظت ذلك دار الكتب فعلقت خطأ على البقية بقولها إنها الأشعار التى لم توجد فيها شرحه السكرى . والمطبوعان على أى حال صورة منظمة لمخطوط ليدن المذكور .

ومن المخطوطات أيضا المجموعة التى كان يملكها الشنقيطى ، وهى ضمن مجموعة شعرية أكبر تضم كثيراً من دواوين العرب . وحين نسخها العالم المغربى لم يذكر إلا أنه نقل عن أصل موجود فى المدينة المنورة ، وإلا أن مافيها مروى بعضه عن السكرى وبعضه الآخر عن غيره . واهتمت دار الكتب بهذه المجموعة فأخرجتها فى ثلاثة أجزاء كل منها بعنوان (ديوان الهذليين) .

أما المطبوع ، فقسم منه منقول عن مخطوط ليدن ككتابى شرح أشعار الهذليين والبقية ، وقسم آخر منقول عن نسخة الشنقيطى الخطية . الأول مجموعة طبعت فى أوربا ، والثانى مجموعة طبعتها دار الكتب . والمجموعتان قيّمتان حقًّا إلا أن الأخيرة تمتاز بكثرة مافيها من تعليقات وتقييدات ، وإن يكن هذا لاينفى قصوراً وقع فيها من حيث إن بعض الشعراء المذكورين فيها لم تذكر لهم قصائد بأكملها أو ذكرت لهم أبيات مبتورة .

— ٣ —

تلك هى مصادر بحثى ، اما منهجى فيه فلا يحتاج إلى أن نقف عنده فنطيل الوقوف ؛ فهو فى بابين ، جعلت أولهما فصلين . وقد قصرت الفصل الأول على أصل هذيل ووصف منازلها ومناقشة تاريخها منذ الجاهلية حتى نهاية العصر الأموى . وجعلت الفصل الثانى تصويراً لحياة القبيلة الاقتصادية والاجتماعية. وكان فى الحق تمهيداً لازماً لفهم شعرها وسبيلا لتقسيمه تقسيما ثنائياً على نحو ما سنجد فيما بعد .

وأما الباب الثانى ، فقد جعلته فصولا خمسة وصلت فيها بين فن الهذليين وحياتهم . وجعلت الفصل الأول منها حديثاً عن دواوين الشعر ومادته ورواته . وفى الثانى تحدثت عن المعانى التى طرقها شعراؤنا . وجعلت الثالث دراسة نقدية للشعر وبياناً لخصائصه الفنية ، وقد ظهر لى بعد عرض النصوص المختلفة على مقاييس البحث أنا بإزاء مدرسة شعرية كمدرسة أوس بن حجر إلا أنها مدرسة اللفظ الغريب والصورة المجسمة والعاطفة الحزينة والمنزع القصصى .

فإذا تجاوزنا هذا الفصل إلى الرابع وجدناه نقله إلى بحث لغوىّ قد يكون طويلا ، ولكنه ضرورى لتقويم الشعر . وبيان أثره عند العلماء من حيث استشهادهم به ورجوعهم إليه فى تفسير الغريب .

والفصل الخامس عبارة عن دراسة تطبيقية لكل ما اتبعته فى بحثى فتحدثت فيه عن شاعرين كل منهما يمثل جانباً من مجتمع هذيل . أما الأول فهو أبو ذؤيب يمثل المستقرين منه ، وأما الثانى فهو أبو خراش يمثل الصعاليك الذؤبان ، وبذلك حققت فى الشعر هذه الثنائية التى رأيناها فى حياة القبيلة الاجتماعية .

— ٤ —

وبعد ، فهذا وصف مجمل لما سيجده القارئ فى بحثى هذا ، وسيرى أنى حرصت فيه على أن أجمع بين الجانب التاريخى والجانب النقدى . وكنت فى ذلك دائم الاتصال بمراجع كثيرة تفاوتت بين التاريخ والنقد والأدب ، وهى وإن كانت كثيرة الغناء جمة الفائدة فإنها فى حاجة إلى التنظيم والتمحيص . وأشهد أنى عانيت من بعضها كثيراً .

الباب الأول

تمهيد

في

تاريخ هذيل

وحياتها الاقتصادية والاجتماعية

الفصل الأول

تاريخ هذيل

— ١ —

أصل هذيل وبطونها

حينما نريد أن نتكلم عن هذيل ، لا ينبغى أن ننسى أنها قبيلة شمالية ، تنتهى بنسبها إلى مضر . وليس هذا بالشيء الغامض فيحتاج إلى بيان ، لا ولا هو ظن يصح قبوله أو رفضه ، إنما هو حقيقة يظفر بها الباحثون فى أنساب العرب بغير مشقة أو عناء .

وهذيل هذه ، لا نرى واحداً يختلف فى شأنها ، ويضطرب فى عدّ أفخاذها ، فكل شيء ميسر ممهّد ، كأن المحققين من حُفاظ الأنساب قد بلغوا من الإحاطة بأمرها مبلغاً لا سبيل إلى الشك فى صحته .

ولا يعنينا أن نقف هنا عندما انتهى إليه هؤلاء الذين أدلوا بدلوهم فى علم النسب ، أو فن النسب — كما يسميه بروفنسال فى مقدمة الجمهرة — فإن حظه من القيل والقال عظيم . ومن المحقق أنه قد اعتراه غير قليل من الخلط والاضطراب والفساد ، مما يضطرنا إلى أن نتمهل فى عرض ما نريد ، ونشك فيه ، ونحاول له تحقيقاً وتمحيصاً . إلا أن شيئين يطمئناننا على ما نرمى إليه .

أما الأول — فهو أن صحة النسب ظاهرة يتصف بها البدو بوجه خاص ، لعدم نزوع متحضر إليهم فيكون الاختلاط . وقديماً أشار إلى ذلك ابن خلدون فقال إن الصريح من النسب إنما يوجد فى متوحشى القفر ، وذلك لما اختصوا به

من نكد العيش وشظف الأحوال وسوء الموطن ، فلا ينزع إليهم أحد من الأمم يأنس بهم ويعيش معهم » فيؤمن عليهم — لأجل ذلك — من اختلاط أنسابهم وفسادها ، ولا تزال بينهم محفوظة صريحة . واعتبر ذلك فى مضر من قريش وكنانة وثقيف وبنى أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة ، لما كانوا من أهل شظف ومواطن غير ذات زرع وضرع ، وبعدوا عن أرياف الشام والعراق ومعادن الأدم والحبوب ، كيف كانت أنسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيهم شوب »[1] .

فنسب هذيل إذن صريح من هذه الناحية ، فهى كانت متبدية ، ولم تتح لها الفرصة لتختلط بأحد فى هجرة ، أو يختلط بها أحد أراد أن يأنس بها .

وأما الشىء الثانى فهو أن هذيلا كانت عشائر مفرقة فى أرجاء الحجاز ، ولم يكن يجمعها صعيد واحد كما سنرى فيما بعد ، وشىء مثل هذا خليق أن يحفز كل هذلى إلى حفظ نسبه والتعلق بأصله احتفاظاً برابطة القُربَى وتمسكاً بالعصبية القبلية ، ودفعاً لعدوان المنافس ، وتحديداً لموقف الغريب أو الجار أو الحليف منها .

ونريد بعد هذا الاطمئنان أن نرجع إلى ما عساه يكون اتهاماً لنا فى صراحة نسب هذه القبيلة وصحته ، فقد قيل إن ثمة قبيلة أخرى تحمل اسم هذيل وكانت تسكن أطراف مكة وعند الطائف[2] ، ولكنها لم تنسب إلى أب ، ولم يعرف لها أصل ، ولا ترجع على أى حال إلى مدركة بن إلياس . ولست أعرف — فى الحقّ — وجهاً يرجح صحة هذا القول ، ولا أريد أن أذهب فى تأويل وجود هذه القبيلة أى مذهب ، ويكفى أن نسأل : لماذا لم يعرض لها القدماء من محققى الأنساب ؟ لماذا لم يذكرها ابن حزم مثلاً فى جمهرته ؟

إن الحديث عن هذه القبيلة وبطونها الاثنتى عشرة لم يجر إلا حديثاً ، ولم يكن له حظ من شيوع إلا فى هذه الأيام . ألا يدل ذلك بوجهٍ ما على أنَّ هذه التسمية وجدت فيما بعد ، بل ربما فى العصر الحديث فقط ؟ بل أكاد أومن أن

(١) مقدمة ابن خلدون ١٠٣ .

(٢) راجع على سبيل المثال (معجم قبائل العرب) لعمر رضا كحالة ٣ : ١٢١٣

انتساب البطون الاثنتى عشرة ــ بغير وجه حق ــ إلى هذيل ليس إلا لما خلفته هذه القبيلة فى نفوس الحجازيين من الحمية والشجاعة والإباء. على أن خير موقف إزاء هذا إنما هو موقف الشك حتى يستطيع التاريخ الصحيح أن يقول كلمته فيتبدد كل غموض .

وعلى هذا النحو نمضى فيما نريد فإذا هذيل فى سلسلة النسب الغالبة : هذيل ابن مدركة بن إلياس[١] . وإلياس هو ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان[٢] ويقال إن عدنان أحد أعقاب قيدار ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل[٣]، وأبناء قيدار هذا يؤلفون جماعة العرب التى أهلكها بختنصر[٤] .

وفى مقتضب ياقوت كلام عن هذيل يرويه ابن الكلبى[٥] . ولا شك أن فيه من الدقة فى التحرّى والعناية فى الاستقصاء الشىء الكثير ، غير أنّ من ينعم النظر فيه يرى أن الدهر فعل فيه الأفاعيل ، فقد طمست حروفه وأكلت الرطوبة كثيراً من ورقاته . أما ابن حزم ــ وهو كصاحب المقتضب يأخذ عن ابن الكلبى ــ فهو يورد لنا سلسلة النسب واضحة سليمة ، وما أظن أنها تنقص عن مقتضب ياقوت فى شىء .

فإذا أعرضنا عن جمهرة ابن حزم لفترة ما ، وجدنا النويرى يتكلم كلاماً واضحاً فى عمود النسب فيقول : « ومن مدركة ــ غير عمود النسب ــ بنو هذيل ابن مدركة[٦] » جاعلاً بذلك هذه القبيلة فى المرتبة الثانية بعد خزيمة . ويبدو أنه كغيره ممن تكلم فى النسب يستند إلى أن كثرة الولد كانت فى خزيمة ، فقد أوجدت هذه أسداً وكنانة ، ومن كنانة ظهرت قريش .

ويمضى النويرى فيقول : « ومن هذيل بطنان لصلبه : بنو لحيان وسعد .

(١) نسب عدنان وقحطان ٦ .
(٢) ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب ٩ .
(٣) النويرى فى نهاية الأرب ٢ : ٣٣٩ .
(٤) راجع تاريخ ابن خلدون ٢ : ٢٣٩ .
(٥) راجع ، المقتضب من جمهرة أنساب العرب .
(٦) نهاية الأرب ٢ : ٣٦٤ نسخة محفوظة بدار الكتب تحت رقم ١٠٥ م تاريخ .

ومن قبائل سعد بن هذيل بنو خناعة بن سعد ، وبنو صاهلة بن كاهل بن الحارث ابن تميم بن سعد بن هذيل » وإلى ذلك ذهب ابن خلدون والمسعودى والأخير هذلى كما سنرى . أما ابن عبد ربه فيقول « منهم لحيان بن هذيل بطن . وخناعة ابن سعد بن هذيل بطن . وحريث بن سعد بن هذيل بطن . وكاهل بن سعد بن هذيل بطن ، وصاهلة بن كاهل بن الحرث بن سعد بن هذيل بطن . وصبح - وهو ابن كاهل - بطن . وكعب بن كاهل بطن[1] » فهو يتجاوز سعداً إلى أولاده فيعدد خناعة وكاهلاً وغيرهما بينما يقف عند لحيان ولا يورد أحداً من أولاده .

وليس من بأس إذا عرضنا فى ذلك لما يرويه السويدى إذ يقول : « إن هذيلاً بطن من خندف من مضر ، وكان له من الولد سعد وخباب بطن وعميرة وهرمة بطن[2] » واستناداً إلى ما يقول يصعد سعد إلى عميرة فهذيل ، وهذا يخالف أقوال النسابين . والعجيب أنه يروى فى موضع آخر أن كاهلاً وعمراً ابنان للحارث بن تميم بن سعد بن هذيل[3] . فأين فى هذه السلسلة عميرة ؟ وفى الموضع الأول يقول إن سعداً هذا لم يكن تميم من أولاده لصلبه ، ويجعل نسبه هكذا : تميم بن خناعة بن سعد بن عميرة بن هذيل[4] . مع أنه سبق فجعل تميماً ابناً لسعد ابن هذيل[5] .

ولا أريد أن افسر هذا الاضطراب على غير أساس ، ولكن فى انفراد السويدى بهذه الروايات ما يغرينا بالشك فيما يزعم . اللهم إلا إذا اعتبرنا سعد عميرة غير سعد بن هذيل ، وبذلك نقبل أن يكون لهذيل - غير سعد ولحيان - عميرة وخباب وهرمة . وليس ببعيد ألا يكون لهؤلاء الثلاثة أبناء يحدثنا عنهم التاريخ ، فربما يكونون قد انقرضوا فلم يشأ واحد من النسابين أن يعرض لهم بما لا غناء فيه .

---

(١) العقد الفريد ٢ : ٥٧ .

(٢) سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب ٢٢ .

(٣) المرجع السابق ٢١ .

(٤) نفس المرجع ٢٢ .

(٥) نفس المرجع ٢١ .

أما ابن حزم ، فيجعل لهذيل سعداً ولحيان . ويعد من أبناء لحيان طابخة ودابغة فيتفق فى ذلك مع السويدى(١). ويقول إنهما كان لهما عدد ، وكان من ولد دابغة المحبق الهذلى واسمه صخر بن عبيد بن الحارث وابناه سلمة وسنان وقد روى عنهما الحديث(٢) ، وسنرى فيما بعد أنه كان للمحبق شأن أى شأن . أما طابخة فكان له أسامة بن عمير ، وفى السبائك أنه كان فقيهاً شريفاً فى قومه(٣)، ويروى ابن حزم عنه أنه كانت له صحبة وابنه أبو المليح المحدث وأول شعراء هذيل وهو أبو قلابة من طابخة وكان سيد لحيان وعم المتنخل الشاعر الهذلى الكبير ، وكان لطابخة أيضاً الحارث بن صعصعة(٤). وإلى هنا ينتهى كل حديث عن لحيان ، فإذا ذهبنا نتلمس فى الكتب الأخرى أكثر من ذلك لم نجد شيئاً واضحاً وراءه ، فابن حزم نقل عن الجمهرة الأولى كل ما قاله ابن الكلبي على أكبر الظن .

وأما سعد فكان كثير الولد متشعب العشائر . وكان له خريب ، وفى ديوان الهذليين جريب(٥) ، وتذكر المصادر أن أبا كبير الشاعر كان ابناً له ، ويضيف ابن حزم أن الحطيئة منه أيضاً(٦)، وفى ذلك من الغلوّ والإسراف ما يملأ قلوبنا شكاً ، إذ القول فى أمر هذا الشاعر وتنقله بنسبه فى القبائل شائع ذائع ، وليس من الخطأ أن نرفض هذه الرواية .

ولسعد أيضاً خناعة ورهم وتميم . وقد ولد تميم الحارث ومعاوية وعوناً ، وكان العدد فى بنى معاوية(٧)، ويروى السويدى أن كان للحارث كاهل ويصعد إليه الصحابى الكبير عبد الله ابن مسعود(٨). أما ابن حزم فيروى نسبه هكذا:

---

(١) الجمهرة ١٨٥ والسبائك ١٢ .
(٢) الجمهرة ١٨٥ .
(٣) ص ٢١ .
(٤) ص ١٨٥ .
(٥) طبعة دار الكتب ٢ : ٨٨ .
(٦) الجمهرة ١٨٦ .
(٧) نفس المرجع والموضع .
(٨) السبائك ص ٢١ .

عبد الله بن مسعود بن غافل ابن حبيب بن شمخ بن فار بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد ابن هذيل(١) . وهذا يخالف مايذهب إليه السويدى إذ يقول إن صاهلة كان أخاً لكاهل وليس ابناً له . على أن ذلك ليس بشىء يمس الجوهر ، وليس أيضاً مما يثير الدهشة لأن اختلاف جمهور النسابين فى هذا الصدد أمر مشهور .

ويقف ابن حزم عند ذلك الصحابى طويلاً ، ويذكر أخويه عتبة وعميساً وأولادهما، كما يذكر أبناءه هو فى شىء من الاستقصاء والتطويل ممالاداعى لذكره ، اللهم إلا ما يرويه عن المسعودى المؤرخ وأنه أحد أعقاب عبد الرحمن بن عبد الله ابن مسعود ، واسمه الكامل على بن الحسين بن على بن عبد الله بن زيد بن عتبة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود ، وإلا ما يرويه عن والى (القطقطانة) أيام على وهو عمرو بن عميس بن مسعود(٢). وهو ابن أخى صاحب النبى .

وتكلم بعد ذلك — فى شىء من الإيجاز — عن صبح بن كاهل وذكر أنهم كانوا عشائر نزلوا حوالى مكة فكان لهم بها عدد وعدة ومنعة ، وكان منهم أبو بكر الهذلى الفقيه(٣). ويضيف المسعودى أن الرياسة كانت فيهم(٤) ، والسويدى يقول إنه وصاهلة كانا أخوين وأبوهما كاهل(٥).

وعندى أن ما يروى بعد ذلك ليس بذى غناء ، وإنما أردت بهذا التطويل أن أبسط صورة كاملة لأصل هذيل ونسبها فى مضر . فإذا كان ثمة اضطراب فهو ليس مما يثير خلافاً كبيراً ، ولا أكاد أرى مع ذلك كله تناقضاً يمس الصميم . وبحسبنا أن تكون هذيل من مضر وأن لها سعداً ولحيان . . . بطنين كبيرين سكنتا الحجاز وشغلتا الناس بما كان لهما من تراث شعرى ضخم ومجد حربى كبير .

---

(١) السبائك ص ٢١ .
(٢) الجمهرة ١٨٦ .
(٣) نفس المرجع ١٨٧ .
(٤) مروج الذهب ٢ : ١٥٥ .
(٥) سبائك الذهب ٢١ .

— ٢ —

منازل هذيل

(ا) إقليم الحجاز :

استطاعت هذيل أن توزع عشائرها على منطقة بالحجاز بين خطى عرض ٢٠°و٢٥°شمالاً. وأول شيء نلاحظه أن هذه المنطقة جزء من سلسلة جبال فى غرب شبه جزيرة العرب، تبلغ أقصى ارتفاع واتساع لها فى اليمن، ثم تمضى شمالاً فى عرض أربعة أيام قد تنقص أو تزيد كما يقول الهمدانى(١)، تاركة على الساحل الغربى غوراً منخفضاً يطلق عليه فى بعض جهاته، اسم تهامة.

أما هذه الجبال فهى السراة وتنقسم قسمين : شمالية وجنوبية، ويفصل سراة الشمال عن سراة الجنوب بلاد عسير. وفى السراة الأولى سكن الهذليون، وهى تنحدر انحداراً فجائياً إلى الساحل بينا يتدرج هذا الانحدار نحو هضبة نجد، وتتخللها وديان كثيرة، وفيها قامت بعض المدن أشهرها مكة والطائف والمدينة.

وفيما كتب عن هذا الإقليم قديماً نرى ابن الكلبى يجعل الطائف والمدينة من نجد فى حين اعتبر مكة تهامية(٢). وينقل ياقوت عن الأصمعى أن كلا من المدينة والطائف فى الحجاز وأما مكة فهى تهامية(٣). ولست أدرى لماذا يفصلون بين هذه المدن وكلها من السراة الشمالية سواء كانت فى شرقيها أو فى غربيها. ومكة بالذات تدل النتوءات الصخرية التى تحيط بها على أنها تكونت فى انخفاض التوائى للسراة.

والإقليم فى جملته يوجد فى منطقة تكون نهايتها العظمى للحرارة عالية فى الصيف، وفى الشتاء يقل المتوسط الحرارى عن عشرين درجة مئوية، بينما يتراوح الفرق السنوى بين ٧°و١٨° مئوية(٤)، وهذا — كما نرى — فرق

---

(١) صفة جزيرة العرب ٦٧ .

(٢) ذكر ذلك البكرى فى معجم ما استعجم ١ : ١٠ .

(٣) معجم البلدان ٣ : ٢١٨ .

(٤) جوستاف لوبون — حضارة العرب ١٨٢ .

هائل . وفى الداخل لا تهبط الحرارة نهاراً إلى أقل من ٤٣° وليلا إلى ٣٨° ، ولكنها تعتدل فى المناطق الجبلية أو القريبة من البحر(١).

والأجزاء الواقعة جنوبى خط عرض ٣٠° شمالا تتعرض للرياح التجارية الشمالية الشرقية وهى رياح جافة لهبوبها من يابسة . والرياح الموسمية لا تصل الحجاز حتى تكون قد أفرغت ماءها فى مرتفعات اليمن الجنوبية .

والأمطار كعنصر حيوى أهم ما يحتاج إليه الإقليم ، ويترقب سكانه نزولها ، ويصلون لها صلاة خاصة إذا تأخر موعدها . وحين تنزل قد تستمر أياماً ، وقد تدوم بضعة أشهر ولكن متى احتبست تعرض الإقليم كله للقحط المميت . وربما اقترن هذا القحط بريح السموم وهى إلى جانب قلة الماء أشد ما تقاسيه القوافل فى كل بلاد العرب(٢) .

وسنرى أن بعض شعراء هذيل يحتفلون بالمطر ، فيصف أبو ذؤيب السحاب ويقف عنده طويلاً ، ويتحدث عن البرق والرعد والسيول . ويحذو حذوه كل من ساعدة بن جؤية والمتنخل فى شعر لا يكثر كما يكثر عندهما . وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على شدة ارتباط حياة هؤلاء وغيرهم من العرب بالماء ، ورغبتهم فيه ، وتعلقهم به مع ندرته ، وقد قال الأصطخرى « ولا نعلم بأرض العرب نهراً ولا بحراً »(٣) .

(ب) إقليم شاذ :

ويظهر أثر قلة المطر فى كثرة الصحارى بشبه الجزيرة . وتقتحم هذه الصحارى إقليم الحجاز ، فإذا هو بقاع قاحلة جرداء إلى جانب مناطق غنية خصبة . وليس مظهر هذا التناقض هو ذاك فقط ، إنما نجده واضحاً من الناحية الجغرافية أيضاً ، فبينما نجد الجبال العالية التى تتجمد قممها كجبل غزوان — وكانت تسكنه هذيل — نجد إلى جانبها أغواراً موغلة فى العمق وتركد فى

(١) نفس المرجع ٥٢ .
(٢) جوستاف لوبون – حضارة العرب ٥١ .
(٣) كتاب مسالك الممالك ص ١٥ .

حرارة قاسية . وإلى جانب الوديان الخصبة ذات الجو المعتدل نشاهد قفاراً وعساء الرمال دقيقة الحصى . وفى موضع تدبّ الحياة وينمو الكلأ وتورق الأشجار، وفى موضع آخر تموت التربة ويمتنع الماء وتقفر الأرض .

وسنحاول فيما يلى أن نعرض لأشهر مناطق الغنى فى هذا الإقليم مكتفين بها ، واضعين نصب أعيننا أن هنالك كثيراً يقابلها . وليس هذا الحديث استطراداً ، وإنما هو ضرورة لفهم المحيط الذى كانت تضطرب فيه هذيل ، وسنرى أن مكة والمدينة والطائف كانت أهم مايغشاه الهذليون .

١ — مكة :

بلد عتيق يقع جنوب مدار السرطان قرب الخط الحادى والعشرين من خطوط العرض . ويذكر الاصطخرى أنه قائم فى شعاب الجبال ، وبه دار الندوة غربى المسجد الحرام ، ويشرف على هذاالمسجد من شرقه (أبو قبيس) ومن غربه (قعيقعان) والجبل الأول أكبر وأضخم . وفى مكان منه الصفا وأما المروة فهى حجر من قعيقعان(١) . وليس بمكة ماء جار ، وليس لأهلها فيها آبار يستقون منها اللهم إلا بئر زمزم وهذه لايمكن الإدمان على شرب مائها . ولا نجد بجميع مكة شجراً مثمراً إلا شجر البادية ، فإذا جاز امرؤ الحرم وجد عيون ماء وآباراً وأودية ذات زرع ونخيل .

٢ — المدينة :

شمالى مدار السرطان قرب خط العرض الرابع والعشرين . وهى فى المساحة نصف مكة تقريباً ، وتقع فى حرة سبخة الأرض ، ولها نخيل ، وبها زروع ، وتأخذ ماءها من الآبار . وفى شمالى المدينة على مقدار فرسخين جبل أحد . وقريب منها مزارع واسعة فيها ضياع أهل البلد . وفى جنوبها (الفرع) على أربعة أيام، وبين الفرع والمدينة وادى العقيق أخصب وديان الإقليم ، وبه أعذب آبار الناحية ، ويقع على أربعة أميال من المدينة فى الطريق إلى مكة(٢) ، وأبو الفداء

(١) كتاب مسالك الممالك ١٥ .

(٢) نفس المرجع ١٧و١٨ .

يقول إنه واديان الأعلى منهما يلي (الحرة) إلى منتهى البقيع (مقابر المدينة) ، والآخر أسفل من ذلك(١) .

٣ — الطائف :

غرب مكة إلى الجنوب قليلاً . وهي في بيئة غنية كثيرة المياه . وأكثر ثمارها العنب . وتمتاز بطيب هوائها واعتدال جوها لأنها تقع على ظهر جبل غزوان . وأكثر فواكه مكة منها .

وكان الاتصال بين هذه المدن مستديماً . ويحدد ابن خردازبة الطريق من مكة إلى الطائف فيمر بقرن المنازل ميقات أهل اليمن والطائف . وثمة طريق أخرى تبدأ بعرفات ثم بطن نعمان ثم تصعد إلى عقبة حمراء تشرف على الطائف ، والداخل إليها يهبط أولاً ثم يصعد عقبة خفيفة(٢)

وأما طريق الجادة من المدينة نحو مكة فإلى (الشجرة) ميقات أهل يثرب ، ثم السيالة وفيها آبار فـ (الرويثة) ، ثم (السقيا) وفيها نهر جار وبستان . ومن السقيا إلى (الأبواء) ثم (الجحفة) بتهامة والبحر منها على ثمانية أميال . ومن الجحفة إلى (عسفان) وفيها أربعة آبار ، ومنها إلى (بطن مر) فيه عين وبركة ، ومنه إلى مكة مسافة ستة عشر ميلاً(٣) .

ومع كل ذلك فليس ثمة حياة متصلة على رءوس هذه الطرق . وإنما هي بقاع حية مبعثرة في فلاة وبين صخور . والاصطخري نفسه يقول « وليس بين المدينة ومكة منزل يستقل بالعمارة والأهل جميع السنة إلا الجحفة » ثم يقول « إن ينبع بها ماء ونخيل وزروع »(٤) .

وفيما عدا هذا فالقفار كثيرة منوعة ، والأباطح واسعة غريبة ، والأرض تتداولها الصلابة حيناً والسهولة حيناً آخر . والخارج إليها من الطائف مثلاً

---

(١) كتاب تقويم البلدان ٦٩ .
(٢) كتاب المسالك والممالك ١٣٤ .
(٣) نفس المرجع ١٣٠ .
(٤) كتاب المسالك والممالك ٢١ .

يشعر بالفرق الهائل بين نوعين من الطبيعة ، فالأولى تدب فيها حياة نضرة ، والثانية يطبق عليها ذبول مقبض ، ويمتص رمقها أحياناً جفاف قاتل ، ويباعد بين المناطق مسافات طوال كل حجر فيها يقص مأساة من مآسى اليأس والموت .

أفلم نكن إذن على حق حين وصفنا الإقليم بالشذوذ ؟ وهل نتوقع فيه بعد ذلك حياة رتيبة منظمة هادئة ؟ لقد كان أثره فى ساكنيه قوياً عميقاً ، ولوّن حياتهم ألواناً فيها من التناقض ما لا سبيل إلى إنكاره ، فهم مضطرون دائماً إلى التنقل وإلى النزاع ، وهم كذلك مضطرون إلى أن يربطوا حياتهم بشيئين : « الماء والحيوان » !

فإذا لم يجد المرء واحداً منهما ألفى نفسه وجهاً لوجه أمام الجوع وهو شر آفات العربى . على أنه فى هذه الحالة قلما يستكين ، وسيرى نفسه فى آخر الأمر مسوقاً إلى حياة سنعلم من أمرها فيما بعد شيئاً كثيراً . ولو قد أردنا أن نرسم الخطوط الأولى فى تصوير حياة سكان الإقليم قلنا : هناك حجازى سكن القرى ومواطن الخصب فأمن على حياته ، وحجازى آخر رعى وصاد ونهب . ولن نتعجل إذا قلنا إن المجتمع الهذلى مثل كل هذا أحسن تمثيل .

(ح) سَراة هذيل :

رسم البكرى منازل هذيل فى صورة مقتضبة سريعة فقال « وكانت لهذيل جبال من جبال السراة ، ولهم صدور أوديتها وشعابها الغربية »(١) فهى فى الحجاز ، ذلك الإقليم الذى أبت أن تتركه كما فعل غيرها من بطون مضر طيلة العصر الجاهلى . ومع هذا فقد كانت أسرع قبيلة تفرقت على الممالك فى العصر الإسلامى حتى ليقول ابن خلدون إنها لم يعد لها فى الحجاز حىّ يطرق(٢) .

أما كيف نزلت السراة بالذات فأمر لا سبيل إلى الجزم به أو القطع فيه برأى ، إنما هم يروون أن قبيلتى مضر وربيعة ظلتا بالحجاز متحالفتين حتى وقعت بينهما الحرب فارتحلت ربيعة ، وانقسمت مضر إلى قيس عيلان وخندف ،

---

(١) معجم ما استعجم ١ : ٨٨ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ٢ : ٣١٩ .

وخندف هي أم طابخة ومدركة . وقد حدث أيضا أن شب قتال بينهما فظعنت قيس وبقيت خندف ، ثم لم تلبث طابخة أن رحلت إلى نجد فى حين ظلت مدركة فى تهامة وما حولها(١) .

ولما نزلت كنانة جنوبى الحجاز احتلت هذيل السراة ، وأصبح لها صدور أوديتها وشعابها الغربية كما يقول البكرى . أما مسايل تلك الشعاب والأودية فقد أشرفت على الفرع الضخم من مدركة وهو خزيمة . هذا فى حين كان من جيرانها (فهم) و (عدوان) من قيس عيلان .

وحياة السراة شاقة . . هذا ما لا سبيل إلى إنكاره ، ويبدو أن نزولها هذه الجبال كان شيئا لم تجد منه بدًّا ؛ فهى فى مدركة فرع صغير إذا قيست بخزيمة . وكان هؤلاء قد سكنوا سفوح السراة الغربية مشرفين على تهامة فى أودية غنية جمة الماء .

ونستطيع أن نحدد سراة هذيل فنقول إنها كانت بين مكة والمدينة ، وأشرفت على تهامة من غربها ، وانحدرت شرقاً إلى نجد انحدارا تدريجياً فاتصلت بالطائف حيث كان للقبيلة قربها بعض عشائر . على أن هذيلاً هبطت إلى جنوبى مكة والطائف حتى اتصلت بعسير أو شمالى اليمن ، فقد رُوى أن بنى صاهلة كانوا أقصى هذيل نحو اليمن(٢) .

وابن خلدون يحاول أن يحدد منازل هذيل فى السراة فيقول « وسراتهم متصلة بجبل غزوان المتصل بالطائف ، ولهم أماكن ومياه فى أسفلها من جهات نجد وتهامة بين مكة والمدينة »(٣) ، وهو بذلك يعطى الصورة الكاملة للآفاق التى كانت هذيل تنشط فيها . والواقع أنها لم تسكن كل هذه المساحة الواسعة ، إنما كانت تنتقل فيها مع وجود قرى صغيرة لها تسكنها هنا وهناك ، وكان نشاطها أوضح ما يكون حول مكة ، حتى لقد ظن الكثيرون — خطأ — أن

---

(١) معجم ما استعجم ١ : ٨٧ .

(٢) البقية — ٢٥ وقال الهذلى يشير إلى من كان من هذيل فى شق اليمن :

ألا أبلغ يمانينا بأنا ... قتلنا أمس رجل بنى حبيب

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢ : ٣١٩ .

منازلها كانت هناك فقط ، وسنحاول فيما بعد أن نتكلم بشيء من التفصيل عن منازل هذيل .

١ — شمالى مكة :

وهى منازل كانت بظاهر الحرم فى بادية مقفرة تتداولها الجبال . وابن خرداذبة يوضح حدود الحرم وأعلامه فيقول إنها « من طريق المدينة على ثلاثة أميال . ومن طريق جدة على عشرة أميال ، ومن طريق اليمن على سبعة أميال ، ومن طريق الطائف على أحد عشر ميلاً ومن طريق العراق على ستة أميال »(١) .

وليس من شك فى أن هذيلاً سكنت وراء هذه الأعلام ، وهى اليوم رسوم دارسة لم يبق منها إلا القليل « فثم علمان عند الحديبية ، وعلمان عند التنعيم فى طريق القادم من المدينة إلى مكة . . وعلمان عند عرفة فى طريق القادم من الطائف . . وعلمان عند أضاءة فى طريق القادم من اليمن »(٢) .

وأقرب الأعلام إلى مكة علما التنعيم على نحو فرسخين منها فى واد يقال له نعمان(٣) وكانت هذيل تستقر فيه متربصة على أكبر الظن لمن يريد العمرة أو الوافدين على الحرم والخارجين منه فى تجارة . ويمتد هذا الوادى شمالاً ، كما تقع أطرافه الجنوبية بين مكة والطائف مما جعل أبا الفداء يقول « إن نعمان واد بين مكة والطائف يقال له نعمان الأراك »(٤) .

ولبنى لحيان فى هذا الوادى عسفان . وهى قرية جامعة بها غُـران على نحو ما يرويه البكرى عن الأصمعى(٥) ، ويروى ياقوت عن السكرى أنها على مرحلتين من مكة على طريق المدينة ، وأن الرسول غزا اللحيانيين بها(٦) .

---

(١) كتاب المسالك والممالك ١٣٢ .
(٢) هيكل — فى منزل الوحى ٢٦٠ .
(٣) معجم ما استعجم ١ : ٣٢١ .
(٤) تقويم البلدان ٧٨ .
(٥) معجم ما استعجم ٣ : ٩٩٢ ، معجم البلدان ٦ : ١٧٤ .
(٦) نفس المرجع ٢ : ٦٧٨ .

وعلى ثلاثة أميال من مكة شمالا كان لهؤلاء أيضا رهاط . ويقول ابن الكلبي إنها من أرض ينبع ، وهذه من أعراض المدينة أو من قراها التي في أوديتها ، وكانت بطرف شمنصير من ناحيته الشرقية ، وهو أحد جبال تهامة لم يَرْقَه أحد ولم يعرف إنسان ماذا في قمته ، ولكن المياه تفيض حواليه من عيون تربو على السبعين[1] ، وسنرى أن هذه القرية كانت موضع سواع — صنم هذيل — تعكف عليه وتتقرب عنده .

وفي جنوب يثرب كانت هناك (أنف) وهي من ديار بني قرد من هذيل ، ويروي البكري أنها كانت تلي ديار بني سليم في وادي (عاذ) ونقل عن السكري أنها داران إحداهما فوق الأخرى وبينهما ميل ويقولون (أنف عاذ)[2] ، وتمتد منازل هوازن في هذا الوادي[3] . وفيه اجتمعت هذيل على بني ظفر من سليم فكان يوم أنف عاذ .

وقريب من أنف موضع يقال له (الجرف) وكان يسكنه بنو سهم بن معاوية وقد اختلف في بعده عن المدينة فقيل إن المسافة بينهما ميل أو فرسخ[4] . وقيل عشرون فرسخاً أو مرحلتين أو ليلتين في وادي النقيع[5] . ويهمنا هذا الموضع بالذات لأن فيه ظفر بنو سليم في وقعة شديدة دارت الدائرة فيها على بني سهم[6] .

وليس هذا فقط هو كل ما كان لهذيل بين مكة والمدينة ، فقد أعرضنا عن الكثير ، وبحسبنا أن نقول إن هذه القبيلة ملكت هذه الأرباض وجعلتها ميداناً لنشاطها ، وأظن أن ذلك هو ما دعا أمية بن أبي عائذ الهذلي إلى أن يقول :

هذيلٌ حموا قلب الحجاز وإنما حجاز هذيل يفرع الناس من عل[7]

(١) نفس المرجع ٢ : ٨١١ .
(٢) معجم ما استعجم ١ : ٢٠١ .
(٣) المرجع السابق ٣ : ٩١٠ .
(٤) نفس المرجع ٢ : ٣٧٧ .
(٥) هامش المرجع السابق ١ : ٢٦٦ .
(٦) الأغاني ١١ : ١٤و١٥ .
(٧) صفة جزيرة العرب ٤٩ .

٢ — فى تهامة :

وكانت هذه المنازل تتناثر فى الغور مما يلى البحر بعيداً عن ديار خزيمة ، وهذه البقاع تمتاز بارتفاعها الشاهق ، وانحدارها الشديد ، ووعورتها الهائلة ، إلا أن هذيلاً استطاعت أن تجد لها بعض الوديان تنزلها وتستقر فيها . ويلاحظ أن هذه المنازل كانت تكثر كلما اقتربت من مكة ، وعلى الطريق الذاهبة إليها كانت عشائر القبيلة تربض فى نخلة اليمانية ونخلة الشامية ، وقد ورد ذكرهما فى شعر هذيل كثيراً .

ويقول ياقوت إن وادياً يصب فى نخلة اليمانية يقال له (يدعان) ووادياً آخر يسمى (سبوحة) أما نخلة الشآمية فيجتمع مع النخلة الأولى فى (بطن مر) مكونين وادياً واحداً[١] . وفى نخلة اليمانية كان لهذيل (أيام) و (أبيم) وهما شعبان بينهما مسيرة ساعة من نهار[٢] وفوق النخلة (الضهياتان) وهما شعبان يجيئان من السراة[٣] ، وبينهما وبين (يسوم) جبل يقال له المرقبة كانت هذيل تجعل فيه رقباءها[٤] .

وأما نخلة الشامية فكان بأعلاه (علىّ) وهى عينا (البردان) و (التنضب)[٥] . وفى جنوب ذلك كانت هذيل تشارك كنانة فى بعض جبال وأودية ، فكان أعلى وادى (ادام) لهذيل وأسفله لكنانة[٦] . وكان يمتد شرقاً إلى عرفة ، وثم واد آخر يقال له (بشائم) ويصب فى (بشَمَى) كان لهذيل أعلاه ولكنانة أسفله ، و (حدثة) و (حلية) و (الفجن) كلها وديان كان أعلاها لهذيل وأسفلها لكنانة[٧] .

فإذا رحنا نقترب من مكة نجد بلداً لهذيل يقال له (داءة) فى جنوبى نعان[٨] .

---

(١) أبو القاسم الزمخشرى — الجبال والأمكنة ١٢ .
(٢) المرجع السابق ٣ .
(٣) نفس المرجع ١٠١ .
(٤) الألوسى — بلوغ الأرب ١ : ١٩٤ .
(٥) الجبال والأمكنة ١١ .
(٦) المرجع السابق ٢ .
(٧) نفس المصدر ٤١ و ١٠١ .
(٨) معجم ما استعجم ٢ : ٥٣٠ .

ويذكر ياقوت أن ثلاثة شعاب تخرج منه وتعرف لدى هذيل باسم (المراخ) وإلى الجنوب من هذا كان لها (سعيا) حتى قيل إنه بلد باليمن أو ما يليه[1]، ويبدو أن بعض منازل خزيمة كانت تمتد إلى هذا الجزء مجاورة أرض كنانة من ناحية البحر، وفى أخبار شعراء هذيل الذؤبان أنهم كانوا يغيرون على هذه الأجزاء.

هذا ومن الأودية الشهيرة التى سكنتها هذيل فى تهامة (عليب) وكانت تنحدر إليه المياه من أعجاز السراة، وقيل إنه كان قرية قريبة من مكة نفسها[2].

وإذا كنا قد أطلنا فى ذكر بعض الأسماء فإن ما أهملناه أكثر، وذلك إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن منازل هذيل هنا كانت فى هذه البقاع متعددة، ونستطيع أن نلتمس لذلك أسباباً هى أن المياه تكثر هنا فضلاً عن أن المناخ أخف وطأة بالقياس إلى الشرق إذا اتجهنا فيه، فإذا علمنا أن القبيلة كان لها الأماكن العالية أمكننا أن نلمس إلى أىّ حد كانت تستطيب الحياة فى هذه الأنحاء، برغم أنها كانت تجاه قبائل قوية كخزيمة وكنانة، وكان الصراع بينهما شديداً متصلا.

٣ — شرقى وجنوب شرقى مكة :

وإلى الشرق من مكة تتكاثر الجبال وتتلاحم، ولا تكاد تنفرج إلا قليلاً فتكشف عن أودية ضئيلة عكس ما رأينا فى تهامة. ومن هذه الأودية (الجعرانة) وهو ماء بين الطائف ومكة ولكنه إلى مكة أقرب[3]. وقيل إنه على ثلاثة عشر ميلا من مكة[4]، وينتهى بسلسلة من الجبال الضخمة تنحدر إلى نجد وتشرف على الطريق الهابطة نحو الطائف. ولقد سكنت هذيل هذه البطاح، وكمن شذاذ هافى مخابئها، واحتشد كثير من ذؤبانها يسطون على الآمنين الوادعين أو يروّعون القوافل التى كانت تقطع الطريق بين مكة والطائف. وهنا يجب

(١) المرجع السابق ٣ : ٧٣٩ .

(٢) نفس المرجع ٣ : ٩٦٥ .

(٣) معجم ما استعجم ٢ : ٣٨٤ .

(٤) فى منزل الوحى ٢٦١ .

أن نذكر أن حركة الاتصال كانت قوية بين المدينتين فوجد الشذاذ فى ذلك ميداناً للنهب يشجعهم على الفرار طبيعةُ الإقليم ذى الشعاب والأخاديد العميقة .

وأشهر أماكن هذيل هنا جبل غزوان والاصطخرى يقول عنه « وليس بالحجاز — فيما علمته — مكان هو أبرد من رأس هذا الجبل ، ولذلك اعتدل هواء الطائف ، وبلغنى أنه ربما جمد الماء فى ذروة هذا الجبل . وليس بالحجاز مكان يجمد فيه الماء سوى هذا الموضع »(١). ويروى الألوسى أن بطنه كثير الفواكه غنى بساتينه التى ترويها العيون والجداول(٢) .

وكان لهذيل بعض منازل فى عرفة أو قربها وبين هذه والطائف تقع الأطراف الجنوبية لوادى نعمان(٣) ، وعلى بعد فرسخ واحد منها (ذو المجاز) تربض فى أصل (كبكب) أحد جبال هذيل ، وكانت بها سوق القبيلة ، وكان العرب يقصدونها حينما يرون هلال ذى الحجة ويقيمون بها سوقهم ثمانية أيام متتابعات . وفى اليوم الأخير — وهو يوم التروية — يأخذون حاجتهم من الماء ويُغِذّون السير إلى عرفة قبل أن يدخلوا مكة معتمرين .

وبين عرفة والمأزمين — وهما جبلان — واد يقال له (عرنة) أو بطن عرنة . ويقول الاصطخرى إن عرنة ليس من عرفة(٤) . وأما البكرى فيقول إنه وادى عرفة نفسها(٥) . وهو على أى حال منزل من منازل هذيل وكان يعمر بالناس أيام الحج فتجد عشائر هذيل منهم ألواناً من الكسب وفنوناً من التجارة .

وعلى بعد ثلاثة أميال من مكة شرقاً يوجد شعب (منى) طوله نحو ميلين(٦). وبين منى وعرفة كان لهذيل جبل (مكنان) وغربه قريباً من المزدلفة (المشعر) ويعبر المرء إليه من منى بوادى (محسر) وكانت العرب تنزل فيه قبل الحج لتشعر جمالها ، وذلك بضربها على سنامها حتى يسيل الدم منها .

(١) كتاب مسالك الممالك ١٩ .
(٢) بلوغ الأرب ١ : ١٩١ .
(٣) راجع صفة جزيرة العرب ١٢١ .
(٤) مسالك الممالك ١٥ .
(٥) معجم ما استعجم ٣ : ٩٣٥ .
(٦) مسالك الممالك ١٥ .

وأما أقصى وادى نعمان فكان ازدحام هذيل فيه واضحاً إذ كانت تستقر فيه متربضة للسفر فتسطو عليهم وتوقع بهم . وكان لها به (نخلة) ، ويقول البكرى عن أبى عبيدة إن سوق عكاظ كانت فيما بين الطائف ونخلة(١) ، وقيل إن بينه وبين الطائف خمسين ميلا(٢) .

والطائف تذكرنا دائماً بباديتها الواسعة وفيها جبل (بردى) الذى سكنته هذيل على نحو ما يصوره شعرها ، وكان الماء ينحدر منه إلى الوهاد العميقة فى فصل المطر فيكون لأبنائها فى سفوحه مرتع سخى للإبل ، وفى شعر أبى ذؤيب إشارات كثيرة له ولنحله وخلاياه .

وفى شمال الطائف منخفض به (العرج) وأبو الفداء يقول عنها إنها قرية جامعة فى نواحى الطائف(٣) وقد نزلتها هذيل فوجدت فيها خيراً كثيراً وعوضت بها بعض ما حرمت منه فى الطائف وكان من فيها من أبناء هذيل يربطون حياتهم بحياة أهل الطائف . وفى شعر أبى ذؤيب ما يدل على أنه كان يعرف خمارة البلد ، كما جاء فيه أن صاحبته عابت عليه وجوده بوادى (قران) قرب الطائف(٤).

(ى) أثر طبيعة الإقليم فى نفوس الهذليين :

وإذا أردنا بعد ذلك أن نعطى لبيئة هذيل صورة عامة جامعة قلنا إنها نفس الصورة التى ترسم لإقليم الحجاز كله ، فكان من الهذليين من يسكن الشعف ، ومنهم من كان يهبط إلى الوديان ، ثم كان منهم من يقطع البادية ويضرب فيها متلصصا أو فى تجارة أو فى رحلة صيد . ويعلم الله أن حياتهم كانت تغلب عليها القسوة ، ونحن لا نستطيع أن نفهم هذه الحياة بغير ذلك ، اللهم إلا إذا وضعنا الفقر إزاءها . أجل القسوة والفقر ، كلاهما ليس فى وجوده ريب أو نزاع ، وكلاهما لعب فى حياة هذيل دوراً كبيراً ولو حاولنا أن نبحث عن العلة فى ذلك لا نجد إلا طبيعة الإقليم ، بل كان لهذه الطبيعة آثار قوية نلخصها فيما يلى :

---

(١) معجم ما استعجم ٣ : ٩٥٩ .
(٢) فى منزل الوحى ٣٦٤ .
(٣) كتاب تقويم البلدان ٦٩ .
(٤) ديوان الهذليين طبعة دار الكتب ١ : ٨١ .

١ — أما الأثر الأول فهو أن مرتفعات الحجاز تقف أمام أىّ تجمع كبير للقبيلة . وهنا يجب أن نذكر أن حياة القرى والمدن تساعد دائماً على الاستقرار وعلى التجمع فى محيط واحد ، أما الجبال فهى مهما تتسع فلن تكون منبسطة انبساط أرض القرية ، ولذا كان مجال الحياة فيها ضيقاً . ومن المعروف عن سكان الجبال أنهم متفرقون دائماً وقلما تجمعهم رابطة إلا إذا كان مبعثها القوة .

على هذا الأساس نفسر سبب تفرق هذيل فى أرض الحجاز ؛ بل كانت مرتفعاته هى السبب الأول — عندى — فى السرعة الهائلة التى ذابت بها هذيل فى المجتمع الإسلامى ، واستطاعت الممالك الإسلامية أن تمتص هذه العناصر الثائرة التائهة فى شعاب الجبال فى وقت وجيز ، حتى إننا لا نستطيع أن نلمس لهذيل مجتمعاً كبيراً فى العصور الإسلامية ، فكان تاريخها باهتاً .

٢ — والثانى نتيجة للأول ونجد أصوله فى نفس الهذلى . ودعنا مما يقال من أن الصحراء والجبل يخلقان من أبنائهما رجالا أقوياء فيهم كبر وإباء ، فذلك شىء واضح لا يحتاج إلى دليل . إنما وراء هذا ما هو أبعد وأعمق ، وراء هذا جهل الهذليين بحياة الجماعة ، ألم نر أن الجبال فرّقت بين عشائرهم ؟ وطبيعى أن يضفى هذا التفرق على نفوسهم شيئاً كبيراً من التوجس والحذر ، فقد كانوا عرضة لغدر غادر أو اعتداء قوى ، ومن هنا كان الهذلى يعمل على أن يكون يقظاً جريئاً لا يهاب شيئاً . ولعل هذا يفسر الكثرة الملحوظة من الشذاذ فيهم .

وآية ذلك كله أن روح الهذلى كان روحاً فردياً ، وكيف يؤمن بجماعة وهو لا يحيا فى جماعة ؟ فالفردية إذن كانت أثراً هامّـا من آثار الطبيعة الجبلية . وسنرى أنها هى التى تُسير أبناء هذيل ، وتحدد حركاتهم وترسم لهم آفاقهم ، وهى التى جعلت الكثير منهم ينسلخ عن المجموعة ويعيش لنفسه وبنفسه يحدوه إلى ذلك حبه للبقاء .

٣ — والثالث هو أن الهذلى كان دائم التنقل . والحق أن للأقالم الجبلية أثراً كبيراً فى حياة ساكنيها ، وفى نظمهم الاقتصادية ، وحياتهم الاجتماعية . فهم مضطرون بحكم البيئة إما إلى التنقل مع حيوانهم وراء الماء والكلأ ،

وإما رغبة فى الطرد والقنص ، وإما ميلاً إلى تعقب القوافل عساهم يجدون فيها زاداً لهم .

وكان هــذا ظاهراً فى الهذليين ، فإذا هم يتوزعون فى السراة وفى وديانها ، وإذا منازلهم تتعدد وتتداخل فى منازل غيرها من القبائل حتى أصبحنا نرى الـكثيرين تختلط عليهم معرفة ساكن هذه البقعة أو تلك ، ورحنا نسمع مثلاً أن عسفان كانت لهذيل ، وكانت كذلك لبنى المصطلق[1] .

٤ — والرابع يرتبط إلى حد بعيد بما عرف عن الإقليم فى جملته من جدب . وكان لهذا الجدب أثره الفعال فى نفس الهذلى وفى تـكوين شخصيته وتقويمها ، إذ كان فقيراً والفقر نتيجة لازمة للجدب كما نعرف . فهل يقف عند الفقر فيستسلم ويموت ؟ إن الحياة ليست هينة بهذا القدر . وهو من أجل ذلك مضى يحل مشكلته بالسطو ، وإذا بالجبال نفسها تشجعه على أن يستريح إلى هذا الحل ، وإذا هو يلجأ إليها دائماً يستخفى فيها فتخفيه وتساعده على الفرار . وكذا نقول إن الجبال كانت تساعد الـكثير من أبناء هذيل على حياة شاذة وتيسر لهم دائماً سبل الهرب .

٥ — والأخير يفسر لنا وجود جماعة العدائين والفُرّار فى هذيل ، وسنعرض لها فيما بعد بشىء من التفصيل ، ذلك لأنها كانت مظهراً اجتماعياً لوّن حياة القبيلة لوناً خاصاً عرفت به واشتهرت .

---

(١) معجم ما استعجم ٣ : ٩٤٢ .

— ٣ —

هذيل فى العصر الجاهلى

(ا) عهد الأساطير :

تاريخ العرب الجاهلى قديم ممعن فى الغموض ، وليس لدينا من أخبارهم الأولى ما يصح أن يعتمد عليه لفهم كل ما أحاط بحياتهم من صعاب وخطوب ومحن . والمسألة تبدو كأنهم كانوا فى سبات لم يستيقظوا منه إلا قرب ميلاد المسيح . وفى الحق أنه ليس يعنينا شيئاً هـذا القديم للإلمـام بتاريخ هذيل ومقارنته بتاريخ غيرها من القبائل أو ربطه بها ، فذلك أمر لا ينقص شيئاً من الصورة التى نريد أن نرسمها للقبيلة .

وأول ما يلقانا من ذلك القديم ما يرويه الطبرى بسنده « أن تبعا خرج فى العرب يسير حتى تحيروا بظاهر الكوفة . . . فبقى فيها من ضعفة الناس فسميت الحيرة لتحيرهم . وخرج تبع سائراً فرجع إليهم وقد بنوا وأقاموا . وأقبل تبع إلى اليمن وأقاموا هم ، ففيهم من قبائل العرب كلها من بنى لحيان وهذيل وتميم وجعفى وطيء وكلب » .(١)

ونحن لا نكاد نطمئن إلى ذلك حتى يقابلنا نص آخر يجعل لحيان من قحطان ينفيها عن عرب الشمال إذ يقول : « وخرج — أى تبع — سائراً ثم رجع إليهم وأقاموا ، فأقرهم على حالهم وانصرف راجعاً إلى اليمن ، وفيهم من كل القبائل من بنى لحيان وهم بقايا جرهم » . قال ابن الكلبى : « لحيان بقايا جرهم »(٢) ، وكذا نشعر بالحيرة ، ثم تزداد حيرتنا حين نجد الهمدانى يقول : « لحيان من بقايا جرهم ، دخلت فى هذيل(٣) » . فكيف دخلت فيها ولماذا ومتى ؟

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ١ : ٦٨٦ .

(٢) المرجع السابق ١ : ٧٤٩ .

(٣) شرح تاج العروس مادة «لحى» .

كل هذه الأسئلة تعترضنا ونحن نمرّ على نص الطبرى الثانى ، ويبدو أن لحيان كانت من الضعف والتفكك ، بحيث وجدت الخير فى الانضمام إلى نفر من هذيل كان قد ارتحل إلى الشمال . على أنى أرجح أن لحيان هذه لم تكن لحيان هذيل ، وعلى ذلك لسنا ملزمين بالبحث فى كيفية دخولها فى هذيل بن مدركة . فالثابت أن هذه القبيلة كان لها لحيان قبيل الإسلام . وأرى أن الرواة قد اختلط عليهم الأمر وحملوا على هذيل لحيان جرهم ، وأما وجود (هذيل) مع من وجد فى الحيرة فأمر مشكوك فيه ولا يبعد أن يكون لفظها استطراداً جاء من الراوى عفواً .

ولندع ذلك لنرى هذيلاً بالحجاز تحاول أن توقع بتبع وهو فى طريق عودته إلى اليمن ، ويروى الطبرى أنه حين وصل الدف من جمدان بين عسفان وأمج أتاه نفر من هذيل وأغروه بغزو مكة — يريدون إهلاكه — زاعمين أن فى أهلها — على غناهم — ضعفاً ، فأرسل إلى حبرين أتى بهما من المدينة واستشارهما فنصحاه بالعدول عن مكة إلا إذا أراد الحج وقالا له : ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك . فقبض عليهم وقطع أيديهم وأرجلهم(١) .

والقصة نفسها يرويها أبو الفرج بشىء من التفصيل دون أن يمس الجوهر(٢). ونحن لا نريد أن نعلق عليها أو على رواية الطبرى ، إذ واضح من السياق أن هذيلاً لم تكن تبيّت سوءاً لأهل الحرم ، ولم تضمر لهم شراً ، وغاية ما فى الأمر أنها طمعت فى مال تبع يأتيها دون مشقة أو تعب . ثم إن التحقيق فى مثل هذه الأساطير أمر لا سبيل إليه لأن حوادثها سبقت التاريخ الموثوق به .

وتمضى فترة طويلة بعد ذلك فلا نسمع خلالها عن هذيل شيئاً حتى يفتح الأحباش اليمن فيبنى أبرهة كنيسة ضخمة يقال لها القليس أراد أن يصرف إليه حاج العرب عن مكة . ولما تسامع أهل الشمال بهذا النبأ خرج واحد منهم إلى القليس فقعد فيه وأتى أمراً غضب له أبرهة ، ولما التمس ذلك الرجل وجده قد رجع إلى أهله فأقسم ليسيرنّ إلى البيت فيهدمه . وكان لديه آنذاك رجال من

(١) تاريخ الرسل والملوك ١ : ٩٠٣ .
(٢) الأغانى ٣ : ١١٥ وما بعدها .

العرب جاءوا يلتمسون فضله وفيهم محمد بن خزاعى بن خرابة الذكوانى ثم السلمى وأخوه قيس . وأمر أبرهة فجعل محمداً على مضر وسار إليها حتى إذا نزل ببعض أرض كنانة سمع به أهل تهامة وأرسلوا عنهم رجلاً من هذيل يقال له عروة بن حياض فقابل رسول أبرهة ورماه فقتله(١) .

وكأنما كان ذلك ما انتظره أبرهة فسار عام الفيل فى قوة أىّ قوة إلى الشمال حتى نزل (المُغمَّس) وثَمَّ بعث على خيل له رجلاً حبشياً إلى مكة فاستاق أموال تهامة من قريش وغيرها وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب سيد البلد الأمين . وهناك همت هذيل وقريش وكنانة بقتاله ولكنها علمت آخر الأمر ألاّ طاقةَ لها به فقعدت عن القتال(٢) .

ولم ينتظر أبرهة إلا ريثما عاد الجيش ثم أرسل حناطة الحميرى إلى مكة يسأل عن سيدها ويستدعيه فانطلق معه عبد المطلب وبعض بنيه . وكان فيما يزعم بعض أهل العلم قد ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة حين بعث إليه حناطة بعمر بن عدى ابن الديل بن بكر بن عبد مناف بن كنانة وهو يومئذ سيد بنى بكر ، وخويلد ابن واثلة الهذلى وهو يومئذ سيد هذيل فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى ذلك عليهم(٣) .

ولا تعنينا القصة بعد ذلك ، إذ يظهر أن دور هذيل قد انتهى ، حتى إذا انصرف أبرهة منهزماً وجد من يقول إنه وأعوانه من كندة وحمير والحبش قد نفروا فى جبال هذيل فوجد الهذليون فيهم مغنماً فقتلوا منهم وأسروا كثيراً. وتمكن أبرهة من أن يفلت ويأخذ معه رهائن من كنانة وغيرها ، ولجأت كنانة إلى هذيل وقالت : اخرجوا بمن عندكم من أسراء كندة وحمير والحبش . وأرادت بذلك أن تفتدى بهم أسراها باليمن .

وخرج بأسرى أبرهة معقل بن خويلد أخو بنى سهم بن معاوية الهذلى وغافل بن صخر أخو بنى قريم بن صاهلة بن كاهلة بن الحارث حتى قدما

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ١ : ٩٣٤ .

(٢) المرجع السابق ١ : ٩٣٦ والسيرة بالروض الأنف ١ : ٤٣ .

(٣) المرجعان السابقان ١ : ٩٣٩ و ١ : ٤٤ على التوالى .

على أبرهة فافتديا بأسراهم أسرى بنى كنانة (1) ، وفى ذلك يروى السكرى عن معقل أنه قال قصيدته التى مطلعها :

إما صرمتِ جديدَ الحبال منا وغَيَّركِ الآشِبُ (2)

وذلك حين رجع بسبي العرب . ولكن الأصمعى يزعم أن الذى قالها أبوه خويلد بن واثلة بن مطحل ، فيكون خويلد هو الذى وفد على ملك الحبشة (3).

وواضح أن هذا الخلاف لا ينفى دور هذيل الذى قامت به فى أعقاب حرب الفيل بل إن رواية أخرى تذهب إلى أبعد من ذلك ، وتزعم ان كان لمعقل هذا ابن عم يقال له ابن حية ، وكان قد أمسك أسيرا أبى أن يدفعه إليه وهو ذاهب إلى اليمن للفداء وكان الأسير ذا شرف . فلما ألح معقل فى طلبه توعده ابن عمه ولا ندرى بعد ذلك ماذا تم من هذا الوعيد ، غير أن الرواية تمضى فتقول : وكان أبو يكسوم — وهو أبرهة — قد عرض على معقل لينكحه ويقعد عنده فقال معقل فى ذلك — قال الأصمعى — بل قالها خويلد أبو معقل هذا وهو عند ملك الحبشة — ورواها ابن الأعرابى لخويلد أيضاً .

ألا مِن حَوالِ الدَّهْرِ أصبحتُ جالسا
أُسامُ النكاحَ فى خزانة مرثد (4)

أى مِن تغيّره وصرفه .

(ب) هذيل المحاربة :

وإذا عدنا نحدّد الفترة التى نريد أن نبدأ بها بحثنا بالقرن السادس الميلادى نجد هذيلاً قد توافر لها كل ما توافر لقبائل العرب الأخرى قبل الإسلام ؛ فكان ثمة نظام داخلى لها سنعرض له فيما بعد بشىء من الإسهاب ، وكان

---

(1) شرح أشعار الهذليين طبعة لندن ١١٢ .
(2) ديوان الهذليين طبعة دار الكتب ٣–٦٨ وفى البيت خرم . الآشب : العائب يقال أشبه بهذا القول أى عابه وأصله الذى يخلط الكذب بالحق .
(3) شرح أشعار الهذليين ١١٢ .
(4) المرجع السابق ١١٥ .

إلى جانب ذلك النظام تقاليد تربطها بالقبائل الأخرى ، وهى ما يمكن أن نسميها بالسياسة الخارجية للقبيلة .

ويرسم الأستاذ الشايب هذه السياسة بصورة عامة تنطبق على كل قبيلة فيقول : « أما السياسة الخارجية للقبيلة أو علاقتها بالقبائل الأخرى فقد قامت على المنافسة والتربص والعداوة ، ويظهر ذلك فى الغزو الدائم والسطو على المال والمتاع والتعدى على الحمى والجار ، فبقدر ما كان التناصر بين أفراد القبيلة كان التخاصم بين القبائل فى سبيل الشرف والرياسة أو المال والعيش . لذلك كانت حياة القبائل الجاهلية حمراء مصبوغة بالدم لا نكاد نرى سلماً دائماً وهدوءاً شاملاً ، ولا يكاد يمر يوم دون غارة شنعاء أو قتال رهيب حتى عرفت عنهم الأيام[1] » .

ومن هنا نستطيع أن نفهم ونقرر سياسة هذيل الخارجية ، ونتلمس فى سهولة الأسباب التى من أجلها وقعت أيامها . والواقع أن ظروف هذيل كلها كانت تهيء لها هذه الحياة المضطربة المصبوغة بالدم ، وكانت تدفعها دائماً إلى أن تختار الجانب الأحمر لكى تعيش . وما كان صراعها فى سبيل سؤدد تتطلع إليه إذ كان — على ما يظهر — لا يعنيها كثيراً ، وإنما كان أكبر ما تطمح إليه أن تظفر بما تجد فيه غناء ، وتأخذ من الإبل وغير الإبل ما يكفى حاجتها .

وإذا كانت القبيلة كلها تتربص الدوائر بغيرها فقد كان من أفرادها أيضاً ما يفعل ذلك على حدة ، حتى لقد عرف عن هذيل أنها قبيلة الغزاة الشذاذ . أجل كثر فيها هؤلاء الذين اعتادوا أن يقيموا حياتهم على ما ينهبونه من غيرهم ، فكنا بذلك نرى الصراع يأخذ طريقين : طريقاً جماعياً ترضاه القبيلة وترسم له وتسير فيه . وطريقاً فردياً كان فى الحق باباً هاماً من أبواب الرزق فى حياة الصعاليك الذؤبان . ولعل الشاعر الهذلى لم يكن مسرفاً حين قال :

نَشَأْنا بنى حَرْبٍ تَرَبَّتْ صِغارُنا
إذا هِىَ تُمْرَى بالسَّواعِدِ كَرَّتِ

(١) تاريخ الشعر السياسى ٢٧ . يجب أن نقبل هذا الكلام بحذر لأن التاريخ يؤكد أن الحرب لم تكن سنة الحياة الجاهلية ، بل كانت هناك فترات سلام طويلة يتحول فيها العرب إلى ما يعود عليهم بالجدوى .

وتحملُ فى الأبطال بِيضاً صَوارِما
إذا هى صابتْ بالطوائف تَرَّتِ
وما نحن إلاّ أهلُ دارٍ مقيمةٍ
بنعمان مَن عادت من الناس ضَرَّتِ(١)

ويعجب شاعر آخر بقومه أيّما إعجاب ويطربهم ، ويزهو بهم ؛ فهم ناس تربيهم الحروب ولا يكون منهم إلا الرجل القوى المنحزم الجرىء الذى يصبر على الشدائد وقد مرن على الغزو والقتال :

أناس تربينا الحروبُ كأننا جِذالُ حِكاكٍ لوّحتها الدَّواجن
ويبرح منا سَلْفَعٌ متلبِّبٌ جرىءٌ على الضراء والغزو مارِن(٢)

ويريد أن يصف ذلك السلفع المتلبب ليرينا كيف تربيهم الحروب ، فالرجل مشرف أضمره القتال حتى صار كأنه بقية لجام ، وأتعبه الغوار ، ونتأت عظام صدره من فرط هزاله . وأما أولاده فهم غبر سفح الوجوه حتى لكأنما يتقلبون فى حمى قاسية .

مُطِلّ كأشلاء اللجام أكَلَّهُ الـ غِوارُ ولما تَكْسَ منه الجَناجِنُ
له إلدَةٌ سُفْعُ الوجوه كأنهم يصفِّقهم وَعْكٌ من المُوم مارِن(٣)

والقارىء لشعر عبد مناف بن ربع الهذلى لا يكاد يجد إلا ذلك الفخر بقومه والاعتداد بهم . وهو يشير فيه إشارات قوية إلى شجاعتهم وإبائهم وصبرهم على القتال وولوعهم به ، ونشاطهم فيه وإيقاعهم بأعدائهم ، يقول فى أحد بنى ظفر :

---

(١) الشعر لحذيفة بن أنس فى ديوان الهذليين ٣ : ٢٩ .
تمرى : تحرك ، السواعد : مجارى اللبن فى الضرع ، صابت : أنزلت ، بالطوائف بالنواحى ، ترت : قطعت .

(٢) الشعر للمعطل فى ديوان الهذليين ٣ : ٤٧-٤٨ .
جذال : واحدها جذل وهى خشبة تنصب للجربى تحتك بها ، لوحتها : أهمتها ، الدواجن يريد الإبل ، سلفع : جرىء ، متلبب : متحزم ، الضراء : الشدة ، مارن : مدرب .

(٣) ديوان الهذليين ٣ : ٤٩ .
الجناجن : عظام الصدر ، سفع : حمر ، يصفقهم : يقلبهم ، الموم : الحمى ، يريد بالوعك الحمى نفسها .

تركناه يخِر على يديه   يمُجّ عليهما عَلَقَ الوتين
فما أغنَى صياحُ الحىّ عنه   ووَلْوَلَةُ النساء مع الرنين
وإنا قد قتلنا مَنْ علمتم   ولستم بعدُ فى قُفٍّ حصين(١)

وأما ساعدة بن العجلان فيدافع عن بنى خثيم من هذيل ويهجو حصيباً الضمرى قائلاً :

فلا تعرض لِذِكْرِ بنى خُثَيْم   فإنهمُ لَدَى الهيجا أسود
همُ تركوا صحابَكَ بين شاصٍ   ومرتفقٍ على شَزَنٍ يميد
وهم تركوا الطريقَ وأسلكوكم   على شَمَّاءَ مَسْلَكُها بعيد(٢)

ويطول بنا الحديث كثيرا إذا سرنا فى هذه الطريق ، وحسبنا هذه الشواهد لتدل بها على صورة هذيل العامة ، وكانت كما نرى مهيبة فيها مِنَ البأس والقوة ما أنطق شعراءها بكثير من الشعر الحماسى الملتهب . ومن هنا لا نعجب حين نجد محدثاً غربياً يقول عن هذيل إنها قبيلة الحرب والشعر(٣) distinguished in the annals of war and poetry وقديما قيل مثل ذلك تماما .

أما أنها قبيلة الشعر فبإجماع الكثيرين ، وسنرى آية ذلك فيما بعد .

وأما أنها قبيلة الحرب فماذا نتوقع منها وقد قر قرارها على أن ترسم سياستها الخارجية على أساس من القوة ؟ لقد كان لا يعنيها إلا أن تجعل علاقتها بغيرها علاقة حرب وقتال وكذا كثر أعداؤها وخافتها القبائل حتى قريش نفسها ، وقد حكى أن أبا جهل تردّد كثيراً قبل أن يفكر فى إيذاء ابن مسعود . . ذلك الفتى الهذلى الذى كان يذيع فى جرأة عاتية دعوة محمد(٤) .

أجل هذه هى هذيل . . هذيل التى كان لا يعنيها أحد ، كنانة كان أو مزينة أو فَهْماً أو عدوان أو هوازن أو بجيلة ، فلا عَلَى المعطل إذن حرج حين يقول :

(١) ديوان الهذليين : ٢ : ٤٨ .
(٢) ديوان الهذليين ٣-١٠٩ ، ١١٠ .
(٣) A Dictionary of Islam; 187
(٤) طه حسين فى الوعد الحق ٨٤ .

فأىُّ هذيلٍ وَهْىَ ذاتُ طوائفٍ يوازن من أعدائهـا ما نُوازنُ
وفَهْمُ بنُ عمرو يَعْلِكون ضريسَهم كما صَرَفَتْ فوق الجذاذِ المَسَاحنُ
إذا ما جلسنا لا تزال تزورنا سُلَيمٌ لدى أبياتنا وهوازنُ (١)

وليس من بأس أيضاً إذا سخر مالك بن خالد الخناعى بمالك بن عوف النصرى وذلك حين يقول :

فلا تتهَدَّدنا بقَحْمِك إننا متى تأتِنا نُنْزِلْك عنه ونُعقَرِ
فبعضَ الوعيدِ إنها قد تكشَّفَتْ لأشياعِها عن فَرْجِ صَرْماءَ مُذْكِرِ (٢)

فهو يقول لا تتهددنا بهذا الجواد الذى تركبه ، فأنت متى تأتنا به تنزلك عنه ونعقره . وخفف من وعيدك بالحرب فهى لا تأتى إلا بالشر كالناقة لا تلد إلا الذكور .

فإذا دارت الدائرة على هذيل وباءت بالخسران ، لا تسكت على الهزيمة ولا تطمئن لها وتسعى للثأر حتى تناله . ويحدثنا مالك الخناعى عن يوم العرج ويذكر أن قومه إن كانوا قد غلبوا فيه فقد نالوا من أعدائهم حين لقوهم فى عكاظ بعد ذلك ، فكان ثمة قتلى بقتلاهم وسبى بسبيهم ومال بمالهم .

أبأنا بيَوْم العَرْجِ يوماً بمِثْله غَداة عكاظِ بالخليط المفرَّق
فقَتْلى بقتلاهم وسَبْياً بسَبْيهم ومالا بمالٍ عاهنٍ لم يُفَرَّقِ (٣)

وهذا — على أى حال — ينتهى بنا إلى أيام القبيلة. وما كان لها فيها ، أو كيف أنها كانت — ككل أيام العرب — تُرَدّ إما إلى عامل اقتصادى ، وإما إلى عامل أدبى ، وذلك ما سنتناوله فيما يلى بشىء من البسط والتفصيل .

---

(١) ديوانا لهذليين ٣ : ٤٥ و ٤٦ ذات طوائف : ذات نواح ، يوازن : يكون بحذائهم ، الجذاذ : حجارة الذهب تكسر ثم تسحل على حجارة تسمى المساحن حتى يخرج ما فيها من الذهب ، والرحى تسمى مسحنة ، جلسنا : أتينا نجداً .

(٢) ديوان الهذليين ٣ : ٧ .
بقحمك : بفرسك ، تكشفت : لقحت يريد الحرب ، صرماء : التى لا لبن لها .

(٣) نفس المصدر ٣ : ٨ عاهن : حاضر ، يقول كان يوم العرج علينا فأبأنا به يوما بمثله يريد جزيناهم حين لقيناهم بعكاظ فكان منهم قتلى كقتلانا وأسرى بأسرانا .

(ح) أيام هذيل :

وهى قد تناولها ذلك الشعر الذى قلنا عنه أو ينبغى أن نقول عنه إنه شعر السياسة الخارجية لهذيل . والواقع أن ذلك الشعر شديد الوضوح فيما أثر عن القبيلة من تراث أدبى ، مما يجعلنا نقول — ونحن مطمئنون — إن هذيلاً لم تكن تميل إلى شىء كما كانت تميل إلى الحرب .

ونرسم الخطوط البارزة لشخصية هذيل ، فإذا هى خطوط نارية تشقها السيوف وتقومها الحراب . وإذن فهى قبيلة ثائرة أبداً ، مهاجمة دائماً ، كأنما أخذت على نفسها عهداً أن تتربص لغيرها وتنافسه لا فى سيادة تطمع فيها، وإنما فى قوت أو متاع أو مرعى لها فيه حاجة ، أو فى اعتزازٍ بنفس أو غضب لجار أو أخذٍ بثأر .

فأيامها ككل أيام العرب ، ترد إلى هذين العاملين الاقتصادى والأدبى . أما الأول فهى تلتقى فيه مع أية قبيلة . وأما الأدبى فكان ينقصه دائماً عنصر الرياسة ، إذ لم يرد فى شعرها ما يدل على أنها كانت قبيلة ترغب فى سلطان ، فلم تكن كقريش أو تميم . . إنما هى تحيا كما شاء الله لها أن تحيا موزعة مشتتة ، تأخذ نفسها بما أثر عن هذه القبائل التى لم يكن يغريها سلطان أو يدفعها تطلع إلى رياسة .

فلنقل إذن إن أيامها كانت تستند إما إلى حاجة اقتصادية تريد بها أن توفر لها حياة رغدة ، وإما إلى عصبية تبدو مرة تحفياً بقوتها واعتزازاً بنفسها ، ومرة غضباً لجار أهين ، ومرة تبدو دفاعاً عن أبنائها .

على أنى أبادر فأقول إن فى شعر هذيل ناحيتين تمثلان صراعها ، وتتناولان أيامها ، وتعرضان لها بالوصف والتعليق . فإذا كنا أعلنا عن ناحية تمثل علاقة القبيلة بغيرها ، فثمة ناحية أخرى لها فى عنوان هذا البحث نصيب ، وأعنى صراع بطون القبيلة نفسها ، فنجمت عن ذلك أيام داخلية تناولها الشعراء .

وإذن فأيام هذيل قسمان :

احدها يصور ذلك الاحتكاك الخارجى الدموى ، وفيه كانت هذيل تشترك

بطن أو أكثر من بطن ، ومن ذلك أيامها مع خزاعة وثمالة وفهم وعدوان وكنانة .

والآخر يصور اشتباكاً داخليًّا ، كانت العشيرة الهذلية فيه تحارب العشيرة الهذلية فى سبيل العيش أيضاً ، أو فيما يجرى مجراه من هذه الأمور التى كان يصطرع العرب عليها من قديم . ومن ذلك يوم الأحث بين بنى لحيان وبنى الحرث بن تميم(١) . ومن ذلك ما كان يقع بين بنى لحيان أيضاً وبنى خناعة بن سعد (٢) .

أما عن أيامها مع غيرها فما كان مع سليم يوم أنف والقدوم ، وظهر الحرة ، وثنية العقيق ، وسُمْنى ، ونبط أو ذات البشام ، ويوم الجرف .

ومما كان مع خزاعة يوم غزال ، ويوم بدالة ، ويوم يرويه الجمحى ، ويبدو أنَّ العراك كان متصلاً بينهما حتى بين أفرادهما(٣) .

ومما كان مع فهم يوم ذى حَماط ، ويوم نيات أو يوم الأطراف ، وصور ، والغار ، وصيرة ، وكانت هذيل شديدة الوطأة على هذه القبيلة وكثيراً ما تعرضت لغزوات الذؤبان منها .

ومما كان مع هوازن يوم البوباة ، ويوم الرجيع . ومع كنانة يوم نعمان أو يوم الحقاب ويوم ذى كندة ، ومع جهينة يوم الحليت . ومع الأزد يوم حَلْية .

وثمة أيام أخرى مثل الأمليح والمليح والعرج وعكاظ والليث والهزر . وقد عرض لها الشعراء ولم يحدثنا الرواةُ عنها بما يزيدنا اتصالا بها ويعلمنا من أمرها أكثر مما تحدثت به القصائد . وسنحاول فيما يلى — قبل أن نتكلم عما كان بين بطون هذيل نفسها — أن نوضح الأصل الذى قامت عليه هذه الأيام ، وسنجد أن العاملين الاقتصادى والأدبى يفسران أسباب هذه الحروب .

---

(١) ديوان الهذليين ٣ : ٣٦ .
(٢) ديوان الهذليين ٣ : ٣٦ .
(٣) ديوان الهذليين ٣ : ٧٠ .

والعامل الأول شديد الوضوح عند هذيل ، فهو يتصل بكيانها ويرتبط بأسلوب حياتها . وكانت القبيلة تظهر فيه إما مغيرة وإما مغاراً عليها ، وفى الحالتين نجد أساس الحرب شيئاً مادياً ، فهذيل تدفعها للقتال رغبة فى النهب والسلب ، وأعداؤها يكيلون لها بنفس الكيل فيطمعون فيها وينشدون عندها ما تنشده هى عندهم .

وأما العامل الأدبى فتمثله رغبة القبيلة فى الانتقام والثأر ، وقد تكون هى أيضاً عرضة لذلك ، فالأمر واحد عند الجميع ، ولا ينام إلا من أثأر . وليس من سبيل بعد ذلك إلى أن نحاول لنرى أنها حاربت لرفع ضَيْم أو التشبث بحرية . وأما حماية الجار فتمثله وقائع عشائرها بين نفسها ، وكان بشكل محدود وفى نطاق ضيق ، اتجاهه فردى فى أغلب الأحيان ، وسنتناول ذلك فى موضعه .

وهكذا نردّ أيام هذيل إلى ثلاثة أسباب :

١ — رغبتها فى النَّهْب والسَّلْب .

٢ — تعرضها لطمع جيرانها .

٣ — الثأر والانتقام .

أما عن الأول ، فقد كانت حياة هذيل شاقة ، فكان لابد لها أن تجد مصدراً تتعيش منه ، فضلا عن أنها ككل العرب كانت تجد فى نفسها دائما رغبة فى النهب وطمعاً فى السبي . ألم نقل قَبْلُ إن علائق القبائل بعضها ببعض كانت نزاعاً وقتالاً ؟ على أنى هنا لا أتحدث إلا عن ذلك الغزو الجماعى أو الغزو المشروع الذى ترضاه القبيلة وتتعاون عليه عشائرها ، أما الغزو الفردى فَلَهُ فى غير هذا الفصل مجال آخر .

ومن أطرف ما يلقانا فى ذلك يوم ذى حماط ، وفيه خرجت غازية من بنى قريم يريدون حيًّا من فهم لبنى عدى رهط تأبط شرا ، وفى الوقت نفسه خرجت غازية من فهم تريد بنى صاهلة ، فالتقى الجميع عند ذى حماط — ماء فى صدر الليث — فلم يلبث أن استعر القتال بينهما وفيه دارت الدائرة على فهم ،

وقتلت غازيتها حتى لم يبق منها إلا رجل واحد من بنى هلال بن علقمة فَرَّ عارياً . وفى ذلك قال سلمى بن المقعد القرمى قصيدته التى مطلعها :

أفلتَ منـــا العلقمى تـَزَحـُّفــاً وقد خفَقَتْ بالظهر واللمة اليد(١)

وكانت هذيل تغير كثيرا على خزاعة ، ويروى أن معقل بن وائلة — وكان سيد قومه — أغار عليهم فقتل عشرة رهط منهم المحتطب وعامر بن أقرم ، ثم خرجت هذيل بعد ذلك فى يوم بدالة والتقت بهم فقتلت منهم أربعين أو خمسين رجلاً . وقال فى ذلك عبد مناف بن ربع الهذلى :

أنَّى أصادف مثلَ يوم بدالة ولقاءُ مثلِ غداة أمس بعيدُ
شهد الرجال ذوو الجدود فأفلحوا إنَّ المحاول بالعلاء عتيد(٢)

وكان من حديث بنى صاهلة بن كاهل أنهم غزوا بنى سليم بن منصور فوجدوهم بسبي خمسين بيتاً . وتفصيل الرواية أن رجالاً من بنى حبيب من سليم خرجوا لحمر بأسفل الوادى الذى قروا فيه ، فترصدهم بنو صاهلة ثم أباحوا دورهم . وسمع رجال سليم جلبة الحى فظنوها حس الحمر واردة ، ولما انتبهوا قبيل الصبح رأوا بنى صاهلة يخرجون بالسبي فأدركوهم وفيهم كليب بن عهمة سيد بنى سليم يرتجز ، فقعد له رجل من هذيل حتى إذا تمكن منه رماه بسهمه فقتله ، فانكفأ قومه راجعين . وفى هذا اليوم يقول شاعر بنى صاهلة عبد بن حبيب أخو بنى قريم :

ألا أبلغ يمـــانينا بأنّــا قتلنا أمس رجْـل بنى حبيب(٣)

الثانى : وهنا نجد هذيلاً يغار عليها لأسباب مادية أيضاً ولا دخل للثأر والانتقام . وتقابلنا أيام كثيرة ، تارة كانت هذيل تنتصر فيها ، وتارة أخرى تدور عليها الدائرة . وأول مايلقانا مصوراً غارة ليلية يوم الهزر ، وذلك أن حيـّا من سليم بيتوا ناساً من هذيل فقتلوهم قتلا شديداً ، وكان فى هذيل رجل

(١) البقية ٣١ .
(٢) البقية ٣١ .
(٣) المصدر السابق ٨ . وقد مر بنا البيت وقلنا إنه يعنى بيمانينا من كان من هذيل فى شق اليمن ، ورجل : رجالة .

يقال له أبو ماعز قر في أسفل الدار التي بيتت ، فسمع الهاتفة آخر الليل فلما أتاهم وجد القوم قد ماتوا(١) ويعرض أبو ذؤيب لهذه الليلة ويرثي ابن عجرة أحد القتلى وكانوا سبعة :

أبعد ابن عجرةَ ليثِ الرجا ل أمسى كأن لم يكن ذا نفر
وهمْ سبْعةٌ كعوالي الرِّما ح بيضُ الوجوه لطافُ الأُزر

إلى أن يقول :

فلو نُبذوا بأبي ماعزٍ حديد السنان وشاهي البصر
وبابني قُبَيْسٍ ولم يُكلَما إلى أن يُضيءَ عمودُ السحر
لقال الأباعدُ والشامتو ن كانت كليلة أهل الهَزَر(٢)

ولعل يوم البوباة أقوى ما يفسر هذا السبب ، وفيه نرى بني كاهل تنزل ظاهر البوباة إثر غيث طلبا للرعى . ونزل معها بنو جريب بن سعد بن هذيل ، فجمعت لهم هوازن عدتها ورئيسها يومذاك مالك بن عوف النصري ثم أوقعت بهم واستاقوهم وإبلهم وكل مايملكون .

وجاء الصريخ إلى بني مازن بن معاوية وقرد بن معاوية فخرجوا وراء هوازن حتى إذا رأوها عائدة بالسبي انقسموا لها قسمين . أما بنو مازن فتقدموا حتى تربصوا لها على شرف المنقبة بينا تأخر بنو قرد وراءها . حتى إذا اقتربت من بني مازن انقضوا عليها ، ثم أتاها من خلفها بنو قرد فلم يفلت منها أحد سوى مالك ابن عوف . وشهد أبو ذؤيب هذا اليوم وكان في القوم يضرب وهو يرتجز :

أدْرَكَ أربابُ النعم وحمى الضربُ وجم
بكل ملحوب أشم مذلَّق مثل الزُّلم
ردوا السبيَّ والنعم ياحبَّذا ريح بدم(٣)

---

(١) المصدر السابق ٢٧ .
(٢) ديوان الهذليين ١ : ١٥٠ ، ١٥١ .
(٣) في ديوان الهذليين ١ : ١٦٤ (طبعة دار الكتب) .
أدرك أرباب النعم .. بكل محلوب أشم .. مذلق مثل الزلم .
ملحوب : قليل اللحم ، مذلق : محدد ، الزلم : القدح .

وقال أبو شهاب المازنى فى هذا اليوم قصيدته التى مطلعها :

ألا ياعناء القلب من أم عامر ودينته من حب من لا يجاور

ولمعقل بن خويلد بيت هو :

فأما ابنُ عوف فاستمر برمية لها عائد بين اللهى واللهازم

ولما رجع مالك بن عوف كان مغيظاً فأنشأ يقول :

إنى زعيم أن تقادَ جيادُنا نقابَ الرجيع فى الريح المسيَّر

فأجابه مالك بن خالد بقصيدته التى مطلعها :

أمال ابن عوف إنما الغزو بيننا ثلاث ليال غير مغزاةِ أشهر(١)

وفى العام التالى خرج مالك بقومه وقصد هذيلاً بالرجيع يغزوهم ، فهزمته هذيل وقتلت أخاه ربيعة وعقرت فرسه فهرب شداً على قدميه . وكان يوم الرجيع هذا آخر عهدهم بالقتال إذ كان الله قد جاء بالإسلام(٢) .

ومن الأيام المشهورة مع سليم (يوم الجرف) . وفى الأغانى أن عمرو بن عاصية السلمى ثم البهزى خرج يغزو هذيلاً فى جماعة من قومه فصادف بنى سهم وكانوا قد حذروه وكمنوا له ولقومه . ثم أصاب الغُـزاة عطش فخرج ابن عاصية ومعه قربته إلى إحدى آبار هذيل يحرسها شيخ وفتيان ، فلما دخلها أقبل عليه فتية هذيل فأحس بهم ورمى بسهمه فأصاب قدم الشيخ فأرداه ، ولكن الفتيين وثبا عليه وأسراه وتعاوراه بأسيافهما حتى قتلاه . ولما بلغ أخاه عرعرة بن عاصية قتلُ أخيه جمع لهذيل جمعاً فيه فوارس بنى سليم وبنى رعل وسرى إليها فكان اللقاء فى الجرف حيث دارت الدائرة على هذيل ، وغنمت سليم أسرى كثيرة وأصابت امرأة عرّتها من ثيابها واستاقتها مجردة وفى ذلك يقول عرعرة :

ألا بلغ هذيلاً حين حلت مغلغلة تَخُبُّ مع الشفيق

(١) راجع القصة كاملة فى البقية ٨ وما بعدها ، ودم عاند : يسيل جانباً .

(٢) المصدر السابق ١١ .

مقامكم غداة الجرف لما . . . . (١)

ومما يروى فى هذا الصدد أن بنى ظفر — وهم من سليم — كانوا فى حرب دائمة مع خناعة من هذيل فدل خناعى يوماً بنى ظفر على بنى واثلة بن مطحل وهم بالقدوم من نعمان فبيتوهم وقتلوا ابنَىْ واثلة خالداً ومخلداً وصبيةً ثلاثة من بنى حراق ، فقال المعترض بن حيواء الظفرى :

قتلنا مَخْلَداً وابنَىْ حراق وآخر جَحْوَشا فوق الفطيم

فأجابه عبد مناف بن ربع الهذلى :

ألا أبلغْ بنى ظفر رسولا وريبُ الدهر يحدث كلَّ حين(٢)

ثم خرج المعترض بن حبواء فى العام التالى معاوداً يغزوهم فكان يوم أنف عاذ المشهور . والتقى المعترض ببنى قرد فى أنف . وهما داران بينهما قرابة ميل على نحوما ذكرنا . وكان الذى دل بنى ظفر على قرد دبية السلمى ، وكان له أخوال فى بنى جريب بن سعد بن هذيل ، وقُتل فى هذا اليوم مع من قتل . ومما يروى أن جيش سليم كان فيه حمار فسمى جيش الحمار ، وفى ذلك يقول عبد مناف بن ربع :

ألا ليت جيشَ العيرِ لاَقوْا كتيبةً ثلاثين مِنَّا صَرْعَ ذات الحفائل(٣)

وهكذا نجد أن القتال كان عنيفاً بين هذيل وسليم ، وسليم أخو هوازن ، وكلاهما من قيس عيلان . وقد استمرت الحرب بينهما حتى جاء الإسلام فإذا رسول الله يقول : يا هذيل ! لأوصينك بسليم ، وياسليم لأوصينك بهذيل(٤) .

الثالث : شىء أدبى أريد به الثأر ، وهو كظاهرة اجتماعية عامة كان يثير العرب فى بطاحهم وقراهم . إذ كان يدفعهم دائماً إلى بذل نفوسهم رخيصة دون

(١) الاغانى ١١ : ١٥ .
(٢) البقية ٤ يريد أن ما يريبك من الدهر يجىء كل وقت .
(٣) البقية ٥ — ديوان الهذليين ٢ : ٣٨ و٤٣ ، صرع : ناحية ، ذات الحفائل : موضع .
(٤) فى البقية ٢٥ : لا أوصينك وهو تحريف .

أى إحجام . ولم يكن فى ذاته أقوى عند هذه القبيلة أو تلك ، ولم يكن مقصوراً على بطن دون بطن ، بل كان فى النفوس واحدا ، اللهم إلا فى حالات يؤثرون فيها السلامة وينشدون الصلح فتكون (التعقية(١)) .

وفى حياة هذيل يلعب الثأر دوراً هاماً ، ويُقَدِّر لها أياماً كانت تخوضها دون كلال أو ملال. ولم تكن تلجأ إلى التعقية إلا فى حالات شاذة فتتعرض للقدح والذم . وهذا المتنخل الهذلى يهجو ناساً من قومه كانوا مع ابنه الحجاج يوم الأميلح حين قتل وآثروا الصلح وارتضوا التعقية قال :

لا ينسأِ اللهُ منا معشراً شَهِدوا يومَ الأميلح لا غابوا ولا جرحوا
كانوا نَعائمَ حَفّانٍ منفَّرةً مُعْطَ الحلوق إذا ما أدركوا طَفَحوا
لا غَيَّبوا شِلْوَ حجاجٍ ولا شهدوا جَمَّ القتال فلا تسألْ بما افْتَضَحوا
عَقُّوا بِسَهْمٍ فلم يشعرْ به أحدٌ ثم استفاءوا وقالوا حبذا الوَضَح(٢)

وفيما عدا ذلك لم أقع فى أشعار هذيل على ما يفيد أنها رضيت بسهم الاعتذار، كذلك لم يَرْوِ لها الرواةُ سابقة ولا لاحقة ، وإنما هى مولعة بالثأر دائماً ، تتعطش للانتقام ممن ينال منها ، وهل هى مِن الضعف بحيث تلوذ بالتعقية حيلةِ الضِّعاف ؟

وكذا انتهت إلينا أيامٌ سببها الثأر ، وأذكر منها يوم (ظهر الحرة) ويروون عنه أن بنى صاهلة كانوا يطلبون وتراً فى بنىَ سُلَيم فأغاروا عليهم . وكان بنو صاهلة ينزلون أقصى هذيل نحو اليمن فجاءهم رجل من بنى كاهل بن عامر بن برد يقال له العجلان بن خليدة وأرشدهم إلى بعض منازل سليم على ماء بظَهْر الحرة ، وقيل إنها كانت خمسين بيتاً أو ستين يسكنها بنو هلال بن قدم . ولما اقتربوا تواروا بينا تقدمهم الرجل وهو يرتجز قائلاً :

(١) التعقية : سهم الاعتذار ويرمى به فى الفضاء دلالة على قبول الدية ، ويقال اعتقّ المعتذر أى أفرط فى اعتذاره .

(٢) ديوان الهذليين ٢ : ٣١ لا ينسأ : لا يؤخر الله آجالهم ، حفان : صغار النعام ، معط الحلوق : لاريش على رقابها ، طفحوا : عدوا وعلوا فى الأرض ، عقوا : رموا بسهم الاعتذار فى السماء فإن رجع مضرجا فقد نهى عن أخذ الدية وإن رجع بلا دم فإن الدية تؤخذ ويتم الصلح ! استفاءوا : رجعوا ، الوضح : اللبن .

يا رجلا ما بعثوا مثلَ الزُّلَم يسرى على رُبْدِ الأفاعى فى الظُّلَم
أخضل ثوبى وقُريم فى المَضَمّ لله أم غافل كيف احتزم
لعلما تنظر بالغز والهرم دونكمُ بنى هلالِ بن قدم
فقتّلوهم وأسروهم فى الخَزَم

وفعلاً اندفع بنو صاهلة وخرجوا على بنى هلال وقتلوهم وأسروا العائذين : عائذاً ، ومعوذاً(١) .

ويوم (الحُلَيْت) صورة صادقة لما نحن بصدده ، ويروى الأصمعى والجمحى أن أباضبّ كان لا يأتيه نبأ بقتل هذلى إلا خرج يقتل قاتله . وفى يوم جاءته امرأة من بنى سهم بن معاوية وقد قُتل لها أخ يقال له عصمة الأضياف قتله أسلم أخو بنى جُهَينة ، فخرج يأخذ بثأره هو والركاب ابن أخته فوجد القوم فى دبر الحليت، فبيّتهم هو وصاحبُه ثم أصابا القوم وقتلا مسعوداً سيد جهينة وانصرفا فخرج القوم فى آثارهما فلم يلحقوا بهما. وفى ذلك يقول أبو ضب قصيدته الوحيدة التى ذكرت له مع أربعة أبيات أخرى ، ومطلع القصيدة :

ألا علمتَ أبا إياسٍ مشهدى أيامَ أنت إلى الموالى تَصْخَدُ (٢)

ومثل ذلك أيضاً يوم (حلية) وكان من شأنه — على ما يرويه الجمحى — أن سبعة نفر من بنى صاهلة خرجوا يغزون حيًّا من الأزد بحلية يقال لهم ثابر . فلما قدموا قتلتهم ثابر إلا رجلا منهم واحداً انفلت — أحد بنى ملاص — فبلغ ذلك بنى صاهلة وهم بنخلة ، فغضب سلمى بن المقعد وحلف لا يمس رأسه غِسْل ولا دهن حتى يقتل بهم . فغزاهم ببنى صاهلة فوجدوهم بحلية فأباحوا ديارهم . وفى هذا اليوم روى لسلمى بن المقعد هذا البيت :

رجال بنى زبَيْد غيَّبَتْهُم جبال أمولَ لا سُقِيَتْ أمولُ

---

(١) البقية ٢٥ — الزلم : القدح ، الربدة : لون الرماد وهو هنا يقول إنه دليل جرىء، أخضل : أخضل بالدم أى ندى به ، المضم : المجمع أو حيث ضمهم الوادى ، غافل : غافل ابن صخر القرمى رئيس بنى صاهلة ، احتزم : أى احتزم ثوبه ، الهرم : يريد كأنك تنتظر أن تغزو إذا هرمت ، الخزم : شجر ألياف تتخذ منه الحبال .

(٢) البقية ١١ .

وسبعة أبيات أولها :

إنا نزعنا من مجالس نخلةٍ فنجير من حُشُنٍ بياض الْمَلَما(١)

وثمة يوم (ذو شقين) يبدأ بخروج نفر من هذيل يطلبون بنى عبد بن عدى ابن الديل بن بكر من كنانة ، وكان عليهم حذيفة بن أنس الهذلى . وترصد هذا القوم حتى قالوا تحت أراكٍ بالعرض فوثب عليهم وقتلهم واستاق هو وأصحابه شاءهم . ويبدأ دور الثأر بعد ذلك ، تبدؤه كنانة ؛ فقد خرج بنو عبد حتى حلوا الحضر ، فوجدوا بعرس هذليين يرميان الصيد فقتلوا أحدهما وأعجزهما الآخر . وهم راجعون سمعتهم أم حذيفة يذكرون ذلك فأخبرت به ابنها فذهب يستصرخ عليهم طوائف هذيل ويوعدهم بالثأر .

على أن العبديين يرتحلون فى هذه الأثناء وينزل دارهم بعض بنى سعد بن ليث ابن بكر فهاجم حذيفة بقومه ليلا وهو يحسبهم بنى عبد . وقتل ابنَ امرأةٍ منهم وأباها فقالت : يا لسعد بن ليث ، ما رأيت مثل هذه الليلة قط ! فأدرك حذيفة خطأه وصاح فى قومه : ارفعوا عنهم !

ويروى ابنُ الأعرابى أن هذيلاً قتلت أيضاً غلاماً مسترضعاً كان فيهم ، وهو ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وقد وضع الرسول عليه السلام دمه يوم الفتح . وفى ذلك قال حذيفة قصيدته التى مطلعها :

غَلتْ حربُ بكرٍ واستطار أديمُها ولو أنها إذْ شُبَّت الحربُ برتِ

وفيها يعترف بخطئه ويأسف لأنه أصاب قوماً لم يرد أن يصيبهم .. فهو يقول:

وأخطأ عَبْداً ليلة الجِزْعِ عَدْوَتى وإياهمُ لولا وُقُوها تَحَرَّتِ

أصبنا الذين لم نُردْ أن نصيبَهُمْ فساءت كثيراً من هذيلٍ وسَرَّتِ

أسائل عن سعدِ بن ليثٍ لعلهم سِواهم وقد صَابتْ بهم فاستحرَّتِ(٢)

وهذا يوم (الرجيع) وفيه نرى خزاعة هى التى تطلب الثأر فى هذيل ،

---

(١) البقية ٣٣ .

(٢) ديوان الهذليين ٣ : ٢٦ ، ٢٧ استطار : تشقق ، برت : وفت ، عدوتى : حملتى ، وقوها : وقاهم القدر منها ، تحرت : قصدت إليهم ، صابت : أوقعت ، فاستحرت : فاشتدت .

وذلك أن معقل بن خويلد خرج فى بنى سهم يغزو خزاعة فأصاب منهم داراً عظيمة بِيلِفْت وغنم نعماً وسبياً كثيراً ، وخرج بقومه يسوق ذلك حتى نزل الرجيع فأدركته خزاعة وقد أمن واغتر ووضع السلاح وانصرف قومه إلى الماء يغتسلون ، فهجم عليهم الخزاعيون وقتلوا رجلين ووثبوا على معقل، فقتل منهم أنساً وأنيساً وخذاما أولاد أبى صُرُد الخزاعى ، ثم رجعوا بسبيهم فقال معقل فى ذلك قصيدته :

ألا من مُبْلغٍ صُرُدًا بِمكرّى على أنس وصاحبه خذام
وِلاءً عند جنبهما أُنَيْس ولم أجزع من الموت الزؤام(١)

ولسنا بحاجة بعد ذلك إلى أكثر مما أوردناه ، وسواء أصح لنا أن هذيلا كانت لا تنام على ثأر أم لم يصح ، فإن من المستبعد أن تنكر عليها هذه الرغبة الثائرة . والباحث فى تاريخها على أى حال يبهره — فى العصر الجاهلى — ما يروى من تطاولها على جيرانها — مجموعة كانوا أو أفراداً — وكم شهدت بوادى الحجاز وقراه غزوات هذيل ! وتَـرَدُّدُ هذا الغزو بين أسبابه المختلفة المادية والأدبية لا يجعلنا نغفل قيمة الثأر فيه .

كل ذلك يحفظه التاريخ ، وتدل عليه أشعار الهذليين ، فلما جاء الإسلام وكان الفتح لا نعود نجد منها قتالا لثأر أو لغير ثأر . حتى إذا نهض بنوا أمية وملكوا البلاد وقروا فى الشام ، انصرفت هذه القبيلة إلى حياتها الخاصة فى المكان الذى قدر لها(٢) ، وبالأسلوب الذى رضى عنه الدين الجديد .

(د) صراع هذيل الداخلى :

ويتصل ذلك بوجه ما بحياتها الاجتماعية . وهل خَلَت حياة عربية من صراع بين عشائر القبيلة الواحدة ؟ إن واقع الحياة فى بيئة عنيفة عنيدة كان يقرر ذلك النزاع ، فلم ينتج إلا الأسى والمقت ، ولم يخلف إلا نفوساً مرهقة ودماء تراق . فإذا أضفنا إلى هذا غزو القبيلة الجماعى وهجمات الثائرين منها استطعنا أن نفهم لماذا شاع فن الرثاء عندها !

(١) المصدر السابق ٣ : ٦٦ .
(٢) معظم بطون هذيل استقر جنوبى البصرة فى البادية .

هكذا كانت حياة القبيلة . . حياة ملئت بضروب من العناء ، نهضت فيها نفوس طامحة إلى الفوز بالقوت ، راغبة فى معاش هادئ قرير ، لا يؤمن أصحابها إلا بوجودهم فى أفق ضيق وحدّ محدود .

وليس من شك فى أن هذا كان يتعارض مع سائر الرغبات تعارضاً قوياً . ويثير فى النفوس الحقد والضغينة ، ويدفعها إلى امتشاق الحسام فى كل وقت . ومع استمساك بطون هذيل بعصبيتها — على عادة العرب — ورغبتها فى نصرة أبنائها على أعدائهم ، فإن تفرقها وفقرها كانا يدفعانها فى أغلب الأحيان إلى أن تتحارب وتتنازع فيما بين نفسها ، وهى بعد لا تريد إلا القوت أو حماية الجار أو ما يجرى هذا المجرى .

ونحن إذا أردنا أن نتبين صدق ذلك قرأنا شعرها ، فإذا هو يطلعنا على صفحات محزنة ، ليس لنا أن نبعد فى تَقَصِّى أسبابها لأنها كانت أبسط مما نتصور .

وأظهر ما يلقانا يوم (الأحث) وسببه أدبى هو الغضب لجار ، ويروى الجمحى أن كان للحيان جار أخذه رجل من بنى خزيمة بن صاهلة بن كاهل وباعه فقال أبو قلابة عم المتنخل الشاعر الهذلى وسيد بنى لحيان : انطلقوا لنكلم بنى عمنا فى جارنا الذى أخذوه .

ثم قدموا لبنى خزيمة وسيدهم وبرة بن ربيعة ونادوهم من بعيد : يا بنى خزيمة ردوا علينا جارنا ! فأبوا ، وتوعدهم بنو لحيان ، ونزع واحد منهم بسهم فقتل وبرة . وتصارخ بنو كاهل فجاء إليهم بنو عمرو بن الحارث من نعمان وأدركوا بنى لحيان بصعيد الأحث فجعلوا يقتلونهم .

وغضب بنو لحيان ، وخرج أبو قلابة فى أهله إلى قوم وبرة ، فأدركه رجل من حلفاء بنى كاهل وطاب منه أن يستأسر ، ثم أقبل عليهم بنو الحارث بن تميم ، فلم يزالوا يقتلونهم حتى غيبهم الليل . ومن ذلك اليوم انتقلت بنو لحيان إلى غران وفيدة ، وكانت قبل تنزل المزوم وزخمة والبان وعرق ولهم من المياه كساب(١) . وقد تناول أبو قلابة هذا اليوم فى شعره وذكره فى قصيدته التى مطلعها :

---

(١) راجع الخبر كاملا فى البقية ١٣ و ١٤ .

يا دار أعرفها وحشـا منازلها بين القوائم من رهط فألبان(١)

ويعرض فى القصيدة لبعض منازل لحيان ، ويذكر قصة الرجل الذى طلب منه أن يستأسر ويختمها بأبيات ثلاثة حزينة تصور لوعته على ما حدث .

وشبيه بذلك يوم (العرج) يشبهه فى أن الدافع إليه حماية الجار ، ودخلت فيه لحيان طرفاً ثانياً ، وفى هذه المرة كانت هى الباغية . ويروى الجمحى فيه أن كان لأبى جندب جار من خزاعة يقال له حاطم . نوقع به بنو لحيان وقتلوه هو وامرأته واستاقوا إبله . وكان أبو جندب يومذاك مدنفاً ، وعلم أن القاتل هو زهير الأغر ، فلما استبل خرج إلى مكة واستلم الركن فعلم الناس أنه يريد شرًّا وسمعوه يقول : لو هلكت فى جوارها بكيا علىّ وطلبا بثأرى لأنهما كريمان.

فلما فرغ من طوافه خرج مع الخلعاء من بنى بكر وخزاعة ، واستجاشهم على بنى لحيان فقتل فيهم وسبا من نسائهم وذراريهم ، ثم جعلهم بعد ذلك هدفاً لهجائه وسخريته(٢).

والواقع أن مسألة الجوار لعبت دورا هاماً فى حياة هذيل . ومن المحقق أن عناية أبنائها بها ترجع إلى عقيدة ثابتة فى نفوسهم وهى : أن الأيام قد تدور على بعضهم فيجاورون غيرهم . وسنرى فيما بعد أن كثيرين من هذيل كانوا جيراناً لقبائل أخرى ، بل كان الهذلى يجاور غير رهطه الأدنين .

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى صراع هذيل الداخلى ، فتقابلنا رواية عن الأصمعى تقول إن بنى لحيان كانوا فى حرب مستمرة مع بنى خناعة بن سعد ، فإذا أصابت خناعة أحداً من بنى لحيان قتلوه ، وإذا أسر هؤلاء خناعيًّا باعوه . وحدث أن أخذ بنو خناعة عمراً ومؤمّلاً وأرادوا قتلهما ، فخرج معقل بن خويلد فى أشراف قومه — وكان سيداً فيهم — فلم يزل يترضَّاهم حتى أطلقوهما وهم يقولون : يا بنى لحيان أثيبوا إخوانكم وأحسنوا فإنهم قد أطلقوا لكم إخوانكم . وبينما كان معقل يلتمس الثواب لخناعة جاءه أنَّ قومه غضبوا

---

(١) ديوان الهذليين ٣ : ٣٦ .

(٢) ديوان الهذليين ٣ : ٨٦ و ٨٧ و ٨٨ .

لما يفعل ويأتمرون به ويعدون العدة لقتله فقال عدة أبيات أولها :

أبلغْ أبا عمروٍ وعمراً رسالةً وجُلَّ بنى دُهمان عنى الرّسائلا

وفيها يحاول أن يهدئ الخواطر ، ويطَمئن النفوس ، ويذكرهم بالعمومة التى تربط بين الجميع ، فيقول :

بنو عمِّنا فى كل يومِ كريهةٍ ولوقرَّبَ الأنسابُ عمْراً وكاهِلا(١)

ويوم (العَوْصاء) أو (الرحى) آية أخرى لذلك الصراع ، وسببه حاجة اقتصادية ؛ فهو نزاع حول ناقة قتلت خطأ . وفى ذلك يروى أن رجلاً من بنى قريم اسمه ساعدة بن عمرو ، كان هو وأخوه يرعيان غنماً لهما . فبينما هما مريحان الغنم فى ظلمة ، سمعا خَشْفاً فى أجمة ملتفة النبت يقال لها العوصاء ، فظنا أن ثمة رجلا يريدها . فقام ساعدة ورمى بسهم فسمعا رغوة بعير لعمرو بن قيس المخزومى — أحد بنى شمخ رهط عبد الله بن مسعود — ولما علم هذا بمصرع ناقته غضب وأنشأ يقول قصيدته التى مطلعها :

أصابك ليلةَ العوصاء عَمْداً بسهمِ الليلِ ساعدةُ بنُ عمرو

فَرَدَّ عليه ساعدةُ ببيتين من نفس البحر والروى وأفحش له فيهما ، فطار بينهما الهجاءُ ونال بنى قريم عامة فغضب هؤلاء وردوهم إلى بنى مخزوم فقال فى ذلك سلمى بن المقعد هذين البيتين . .

ألا أبلغ لديك بنى زبيد فدونكمُ بنى شمخ الضلال
أتونا يبتغون وَلاءَ حِلْفٍ فألفَيْناهمُ شَر الموالى

فرجع بنو شمخ فى قومهم . وبينما كان عمرو بن قيس يطعم لقاحاً له بنجد فى جانب الرحى ، وجده قوم من بنى زليفة يطلبون وتراً فى بنى شمخ فقتلوه ورجعوا وهم يرتجزون :

أبلغْ أبا نصر وأبلغ نَصْرا أعنى أبا الطمَّاح قولاً شَزْرا

(١) ديوان الهذليين ٣ : ٧٠ و ٧١ .

أنا قتلنا بأخينا عمرا نعقل فيه جَفْرةً أو جَفْرا
أو نسالكُ القوم طريقاً وَعْرا(١)

ومهما نجتهد بعد ذلك فى تعليل هذه الظاهرة وشيوعها فى هذيل ، فنحن ملزمون أن نعترف بفساد حياة القبيلة فى هذا العصر . وإذا قيل لنا إن تميماً تعرضت لمثل ذلك أيام جرير والفرزدق قلنا إن هذا كان متأخراً وفى ظروف لعبت السياسة فيها دورها ، وكانت تثيره هذه النقائض التى شغلت الناس وشُغِل الناسُ بها وَدَحاً طويلاً من الزمن ، فلا محل هنا للمقارنة .

وليست تخلو هذه الظاهرة من بعض الهجاء ، فإن للحرب فنوناً والهجاء واحد منها . ولكن الهجاء لم يكن يستمر طويلاً ، ولم يكن يشغل من الشعر الهذلى قصائد كثيرة . بل لم يكن يشغل من القصائد إلا أبياتاً قلائل من ذلك ، مثلاً هجاء معقل بن خويلد لبنى رُهْم ، وعُتيبة ذى المِجَنَّيْن(٢) .

وأخيراً نظن ان من الوفاء للبحث أن نرى كيف كانت هذيل تتمسك بعصبيتها ، وتقف بطونها أمام خصمها صفاً واحداً برغم كل شيء . وأمامنا الآن حادثة خلاصتها أن كان بين بنى لحيان وبين بنى سليم حرب ، وكان بنو سليم آنذاك بواد عون بنى سهم بن معاوية من هذيل . ولما أرادت سليم غزو اللحيانيين جمع معقل بن خويلد ألف رجل من السهميين — وكان منهم — فقال له بنو سليم : أتريد أن تعضد بنى لحيان علينا وبيننا وبينكم ما قد علمتم ؟ فأجاب معقل : وهل يسلم القوم بنى عمهم ؟ إن تقصروا عنهم فنحن على ما كنا عليه ، وإن تقاتلوهم لا نخذلهم . فانصرف بنو سليم عن اللحيانيين وقد علموا أنّ معقلاً لن يخذلهم .

وعرض لذلك معقل بن خويلد — وهو ابن واثلة بن مطحل السهمى — فى شعره فقال :

---

(١) راجع البقية ٣٥ وما بعدها ، والجفرة : العناق بفتح العين وهو دابة أرضية جارحة وهو الأنثى من أولاد المعز قبل استكمالها السنة ، الجفر : الجدى ، وكلاهما لا يجوز فى العقل ولكن لعله أراد أن يقلل من شأنه أو لعله استعاره للإبل .

(٢) راجع ديوان الهذليين ٣ — ٦٥ .

تقول سُليمٌ سالمونا وحاربوا   هذيلاً ولم تطمع بذلك مطمعا
فأما بنو لحيان فاعلمْ بأنهم   بنو عمّنا مَنْ يَرْمِهِمْ يَرْمِنا معا(١)

والبيت الأخير فيه من الإيثار الحبيب ما يعبر عن ذلك الرباط الذى يجمع بين عشائر هذيل أمام الأعداء .

(هـ) أيام صغيرة :

ولست بسبيل عَرْضٍ لهذه الأيام كما عَرَضت لغيرها قَبْلُ . ذلك بأنّ من أشد الأشياء عُسْراً على الباحث أن يحاول استكشاف قضايا عامة من جزئيات قليلة الخطر .

وكثيرون هؤلاء الذين يشتغلون بالأدب وينسون هذه القاعدة ، ويروحون يحملون الشاردة الواحدة أكثر مما تطيق ، ويجدون فيها أكثر مما تحمل . وليس ذلك شيئاً يرضاه العلم ، ويقرره الواقع ، ويقبله التاريخ .

ولقد وجدت أن كتب هذيل حُشِدَت بما سماه الرواةُ أياماً ، وما هى بأيام إذا فهمنا منها هذه الوقائع الحربية التى تشترك فيها المجموعة . وإذا أخذنا بما يزعمه الرواةُ فيما يحكونه عن هذيل كانت أكثر القبائل معارك ، مع أننا رأينا أن أيامها لم تكن من الضخامة بحيث يأبه بها عالم كابن عبد ربه مثلاً(٢) .

فلنقل إذن إن هذه التسمية فيها من التجاوز الشىء الكثير . وفيها من البعد عن الحقيقة مايجعلنا نرفضها جميعاً على أنها أيام ، وإلا فهل نعد هذه الحادثة التالية يوماً كظهر الحرة مثلا ؟ إنهم يطلقون عليها يوم (المغمَّس) فإذا فتشنا فيه لا نجده إلا حادثة غدر عادية ، حادثة فردية من الخطل تسميتها يوماً .

والرواية أن أبا المورق وجنيدباً كانا يسكنان سرِفا والحرم ، فأحس الأول من بنى ليث بن بكر غدراً فارتحل ، بينا قعد جنيدب جاراً لدار من بنى ليث ، ثم إن غيثاً وقع فى المغمس وراء الحرم بأميال فقال بنو ليث له : اخرج معنا إلى هذا الغيث ! فلما خرج قتلوه وأخذوا إبله(٣) .

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١٠٢ .
(٢) راجع «كتاب الدرة الثانية فى أيام العرب ووقائعهم» من كتاب العقد الفريد .
(٣) البقية ٢٨ .

والأصمعى يروى أن من أوقع بجنيدب رجلان من بكر ثم من بنى أشجع ، وفى ذلك قال المورق :

تركتُ العادَ مَقْلِيـا ذميماً إلى سَرِف وأجددت الذهابا

وعرض لهذه الحادثة حسان بن ثابت حين هجا رجلاً من أشراف بنى بكر يوم أحد فقال :

لحَى اللهُ قوماً لم ندع من سَراتهم لهم أحداً يَنْدُوهمُ غير ناقب[1]

ليس لنا بُدّ إذن من أن نصف أمثال يوم المغمس بحوادث عارضة ، تجرى فى كل وقت ، وتقع كل حين من غير أن تكون أياماً ذات خطر . ونحن فى ذلك نفهم هذيلاً كما ينبغى أن نفعل ، ونؤرخ لها بالقدر الذى تستحقه دون ما إفراط على الحقيقة ، ودون أن نحمل الشوارد فوق ما تحمل . ونخرج منها بأشياء هى منها براء . فإذا لم نفعل يطول بنا القول من غير أن نضيف جديداً ، فقد قرّ الرأى على أن هذيلاً كانت قبيلة الحرب .

(و) ديانة هذيل :

اشتهرت هذيل بصنمها سُواع[2] وهو — فيما يرويه القدماء — كان واحداً من الأصنام التى عبدت فى قوم نوح . وقيل إنه كان هو ويغوث ويعوق ونسر من النفر الصالحين فلما هلكوا أقيمت لهم أنصاب يذكرهم بها الناس ، فلم يزالوا هكذا حتى خلفت الخلوف فعبدوا[3] .

وعن ابن الكلبى أن أول من اتخذ تلك الأصنام من ولد إسماعيل وسموها بأسمائها حين فارقوا دين إسماعيل هذيل ، اتخذت سواعاً فكان لها برهاط من أرض ينبع[4] . أما ذلك الذى دعاها إليه فهو الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل

---

(١) البقية ٢٩ أجددت : جددت أو اجتهدت ، يندوهم : يجلس إليهم فى ناديهم ، ناقب : رجل .

(٢) سواع بالضم كما فى كتاب الله وقيل سواعاً بالفتح وبه قرأ الخليل — بلوغ الأرب ٢ : ٢٠١ .

(٣) الروض الانف ١ — ٦٢ .

(٤) كتاب الأصنام ٩ .

ابن مدركة بن إلياس بن مضر[١] وكان المنتظر أن يتولى هو سدانته أو رهطه الأقربون على الأقل ، إلا أن هذا لم يحدث ، وآلت السدانة إلى بنى لحيان[٢] . وفى هذا يتفق القدماء جميعاً سوى ابن حبيب فيزعم أن هذه السدانة كانت فى بنى صاهلة[٣] ، وهؤلاء من بنى سعد بن هذيل .

وروى أن سواعاً كان فى الأصل ابن شيث أحد أبناء آدم ، وأن يغوث ويعوق ونسراً كانوا من أبنائه(٤). وإذا كان ذلك فيه من الوضوح ما لا يخفى علينا شيئا فثمة رواية أو أكثر من رواية تزعم أن سواعاً لم يكن رجلاً ، وأنه صنم كان على هيئة امرأة(٥). وقد أخذ بذلك الأستاذ بالمر وقال إنه ربة Female Deity يرجع عهدها إلى ما قبل الطوفان(٦).

وواضح أن هذا الزعم جاء متأخراً جداً ، فهو من هنا لا يستحق أى اهتمام . ولكن يبدو أن أصحابه اختلفوا حول اشتقاق الاسم ودلالته الجنسية ، أذكر هو أم أنثى ؟ بل قد تقل القيمة العلمية التى وصل إليها هؤلاء العلماء حين يزعمون أن هذه الربة كانت فى همدان(٧) ، فيبعد بذلك الشك فى سواع هذيل .

والظاهر أن القبيلة لم تكن تعبأ به كثيراً ، وآية ذلك أنها لم تتناوله فى شعرها وهو تراث ضخم تناول نواحى كثيرة من حياة الجاهلية . ويروى ابن الكلبى فى هذا الصدد عن أبى صالح عن ابن عباس « ولم أسمع لهذيل فى أشعارها له — أى لسواع — ذِكْراً ، إلا شعر رجل من اليمن »(٨) ولعله من همدان وقد عرض له فى إشارة سريعة حيث يقول :

---

(١) نفس المرجع ٥٧ .

(٢) المرجع السابق ١٠ .

(٣) المحبر ٣١٥ .

(٤) الروض الأنف ١ : ٦٢ والأصنام ٥١ .

(٥) السيرة الحلبية ٣ : ١٩٦

(٦) A Dict.onary of Islam : 623

(٧) A Dict. of Isl.: 192

(٨) كتاب الأصنام ١٠ .

تراهم حول قَيْلِهِمُ عكوفاً كما عَكَفت هُذيلَ على سُواع
تظل جنابه صَرْعى لديه عتائر من ذخائر كل راع(١)

أما مكانه فقد حدد برهاط من أرض ينبع أو بطن نخلة ، ويروى ابن حبيب أنه كان فى نعمان(٢). وهذه الرواية تنقصها دقة التحديد إذ كانت أرض نعمان واسعة ممتدة .

والقول بأنه كان فى بطن نخلة تعوزه الدقة أيضاً . فأى النخلتين قصد ابن الكلبي ؟ أظن أنه يعنى نخلة الشامية لأنها كانت أكثر قرباً لرهاط من النخلة الأخرى(٣) .

والرواية عن تلبيته يتفرد بها ابنُ حبيب ، ويورد النص فترى فيه غموضاً ولا تتبين فيه الصواب لا سيما فى الجزء الأخير منه . يقول ابن حبيب « وكانت تلبية من نسك لسواع : لبيك اللهم لبيك .. أبنا إليك ... إن سواع طُلبن(٤) إليك »(٥) .

وإذا كانت قبيلتنا قد اشتهرت به فإنها لم تنفرد بعبادته ، فقد رأينا بنى همدان يشاركونها فيه . . هكذا يروى(٦) ، وإن كنت أستبعد عكوف هذه القبيلة اليمنية عليه ، فهى لم تكن مجاورة لهذيل أو لبنى لحيان بالذات . وفى الروايات أنهم كانوا قرب صنعاء ويختلطون بحمير ، ومن المعقول أن يدينوا باليهودية وإلا فالأقرب أن يعبدوا يعوق ، وكان صنم خيوان على ليلتين من صنعاء .

على أنه قد صح أن بعض مضر عَبَدَ سُواعاً(٧) ، وكانت كنانة تصلى له بل روى أنه جعل لها(٨) . ويتوسط ابن حبيب فيقول إن كنانة وهذيلاً ومزينة

(١) نفس المرجع ٥٧ .
(٢) المحبر ٣١٥ .
(٣) سنرى أن هناك نخلتين .
(٤) كذا فى الأصل .
(٥) المحبر ٣١٢ .
(٦) A Dictionary of Islam, 192 ومعجم قبائل العرب ٣ : ١٢٣٥
(٧) الأصنام ٥٧ .
(٨) الملل والنحل ٢٩٤ و ٢٩٦ .

وعمرو بن قيس بن عيلان كانوا يعبدونه[1]. وهذا شيء نقبله لا سيما أنه لم يكن ثمة وحدة فى عبادة الصنم . بمعنى أن القبيلة لم يكن يعنيها أن تنصرف إلى صنم واحد ، ومراجعة بسيطة فى كتاب الأصنام ترينا أن كثيراً من القبائل كانت تعبد صنماً خاصاً بها وأصناماً أخرى كانت لغيرها . فهل كان ذلك من باب المجاملة ؟

فلنقل على أى حال إن سواعاً كان صنماً اشتهرت به هـذيل وشاركها فى عبادته بعض مضر وكنانة ومزينة وقيس .

وأخيراً نقول إن هذا الصنم ظل قائماً تعـكف عليه هذيل ، وتقوم على أمره لحيان ، ويحج إليه بطون من العرب حتى فتح الله مكة لنبيه الـكريم فأرسل السرايا حول مكة لهدم الأصنام ، وقد نزل عمرو بن العاص برهاط وكسر الصنم وهدم بيته . وفى ذلك يقول « فانتهيت إلى ذلك الصنم وعنده سادنه فقال لى : ما تريد ؟ فقلت : أمرنى رسول صلى الله عليه وسلم أن أهدمه قال .. لا تقدر ! قلت لمَ ؟ . قال تمنع ، قلت حتى الآن أنت على الباطل ؟ ويحك ، وهل يسمع أو يبصر ؟ قال : فدنوت منه فكسرته وأمرت أصحابى فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا فيها شيئاً . ثم قلت للسادن : كيف رأيت ؟ قال : أسلمت بالله »[2] .

---

(١) المحبر ٣١٥ .

(٢) سيرة ابن هشام ٥٢ والطبقات الكبير ٢ : ١٠٥ .

— ٤ —

هُذَيل فى فجر الإسلام

(١) الحركة الأولى :

ولسنا ندرى على التحقيق كيف أسلمت هذيل ولا متى أسلمت . ولا نعرف فى واقع الأمر حقيقة الدور الذى كانت تلعبه فى تلك الفترة الحرجة ، فاتساع رقعتها وتفرق عشائرها فيها وسكوت كتب التاريخ عنها .. كل ذلك يحول دون الجزم بشىء من هذا القبيل ، إنما تروى الأخبار أن النبى صلى الله عليه وسلم حين كُلِّف بالدعوة كان يأتى ذا المجاز — وهى كما سنرى سوق هذيل — يعرض نفسه على الناس داعياً إلى الدين الجديد(١) . وكأنما ذلك كان نوعاً من الاحتكاك بين هذيل والرسول .

وتسكت الأخبار هنا سكوتاً تاما ، ولا نجد ما عساه يلقى الضوء فيبدد ذلك الغموض المظلم ونتعرف بعض ما نريد . ولكننا نسمع أن عبد الله بن مسعود كان من أوائل الذين أسلموا وآثروا صحبة النبى(٢) . بل كان أول مسلم استطاع أن يجهر بالقرآن فى مكة بعد الرسول(٣) . ثم كان أحد من هاجروا إلى الحبشة(٤) فراراً من أذى قريش وإيثاراً للدين الجديد .

وإذا كان هذا حالة فردية لا يعتد بها فيما نريد إثباته فهو يشعر — على أىّ حال — بأنه كان هناك من أسلم من هذيل حين بدأ النبى ينشر دعوته .

ومع ذلك فلسنا فى حاجة إلى أن نقف هنا فنطيل الوقوف ، إذ يبدو أن كل شىء كان يجرى فى وضعه الطبيعى . رسول ينادى بجديد ، وقوم يقفون أمامه مترصدين ، ومن هؤلاء هذيل ، ألم تك حول مكة محور الصراع ؟ وهذا

---

(١) راجع السيرة الحلبية ٢٠٢ .
(٢) سيرة ابن هشام ١٦٣ .
(٣) نفس المرجع ٢٠٢ .
(٤) المرجع السابق ٢١١ .

ابن إسحاق يروى أن النفر الذين كانوا يؤذون الرسول فى بيته أبو لهب ، والحكم بن أبى العاص بن أمية ، وعقبة بن أبى معيط ، وعدى بن حمراء الثقفى ، وابن الأصداء الهذلى — وكانوا جيرانه(١) .

ثم كانت الهجرة الكبرى فغزوة بدر . وفى العام الثالث تقع أحد فيكون لقريش فيها بعض ما تريد ، ويحس الرسول بأن الناس بدءوا يستهينون به ، وينظرون إليه نظرة من لايستطيع أمراً ، فأسرع يضرب ضربته ، وعلم أن ثمة حركة كبيرة تدبر فى الخفاء ضده ، لامن قريش وإنما من هذيل ، فقد خيل إلى بنى لحيان أن من السهل أن يجدوا ظفراً كهذا الذى وجدته قريش فى أحد ، أو ربما أحسوا أن عليهم أن يشاركوا مشاركة فعلية فى مقاومة محمد ليظفر ا منه بشىء يفيدون منه .

وتَزَعَّم حركة هذيل سفيانُ بن خالد بن نُبَيْح الهذلى زعيم اللحيانيين . واستطاع أن يجمع حوله حشداً كبيراً من الثائرين على الرسول . على أن الله لم يشأ أن تمضى هذيل فيما اعتزمته وإذا بالرسول يبعث من يُحبط أمرها ويقتص منها فتموت الحركة الأولى وتقر الثورة .

ولندع ابن سعد يروى لنا طرفاً من هذه الحركة فى طبقاته إذ يقول : « بلغ رسول الله أن سفيان بن خالد الهذلى ثم اللحيانى — وكان ينزل عرنة وما والاها فى ناس من قومه وغيرهم — قد جمع الجموعَ لرسول الله ، فبعث الرسول عبد الله بن أنيس ليقتله فقال : صفه لى يارسول الله . قال إذا رأيته هبته وفرقت منه وذكرت الشيطان — قال — وكنت لا أهاب الرجال ، واستأذنت الرسول أن أرحل فأذن لى فأخذت سيفى وخرجت إلى خزاعة(٢) حتى إذا كنت ببطن عرنة لقيته يمشى ووراءه الأحابيش ومن ضوى إليه . فعرفته بنعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته فرأيتنى أقطر . فقلت : صدق الله ورسوله ! قال : من الرجل ؟ فقلت رجل من خزاعة سمعت بجمعك لمحمد فجئتك لأكون معك» ! قال : أجل إنى لأجمع له !

---

(١) كذا فى الأصل ولعلها خزاعة هذيل .

(٢) السيرة ٢٧٦ .

فمشيت معه ، واستحلى حديثى ، حتى انتهى إلى خبائه وتفرق عنه أصحابه حتى إذا هدأ الناس وناموا اغتررته فقتلته ، وأخذت رأسه ، ثم دخلت غاراً فى الجبل ، وضربت العنكبوت علىّ .

وجاء الطلب فلم يجدوا شيئاً فانصرفوا راجعين . ثم خرجت فكنت أسير الليل وأتوارى بالنهار . حتى قدمت المدينة[1] » .

والقصة تحدد لهذه الحركة تاريخاً وتقول إن خروج عبدالله بن أنيس إلى ابن نبيح الهذلى كان يوم الإثنين لخمس خلون من المحرم على خمسة وثلاثين شهراً[2] . أى فى العام الثالث الهجرى . وهى على أى حال أول مايروى عن احتكاك الرسول . وكان لها أعمق الأثر فيما حدث بعد ذلك ، فقد أسفت هذيل لما حل بابن نبيح وبدأ بنو لحيان يكيدون للنبى . وظهر صراحة أنهم لم يكونوا أقل من قريش سخطاً على محمد وصحبه ولو كانوا يملكون القوة لما ترددوا فى أن يثأروا .

(ب) يوم الرجيع :

ثم مضى شهر بعد ذلك وجاء إلى النبى وفد من عضل والقارة يقولون : يارسول الله إن فينا إسلاماً وخيراً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا فى الدين ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام . فبعث معهم — على مايقول ابن هشام — ستة من أصحابه[3] ، أو عشرة كما يروى السهيلى عن البخارى[4] .

وما يعنينا العدد بقدر مايعنينا ماوقع ، فملابسات الحادث تدل على أن بنى لحيان كانوا يدبرونه ويحكمون خطة الثأر . وهنا نجد روايتين تصفان الدافع إلى ذهاب الوفد من نجد إلى المدينة .

أما الرواية الأولى فتجعل ذلك الدافع دينيا ، فالقوم — على مارأينا — بهم رغبة فى الإسلام وميل إلى الأخذ به وتفهمه . ونحن لانصدق أن يقع ذلك

(١) كتاب الطبقات الكبير ٢ : ٣٥ .
(٢) نفس المرجع والموضع .
(٣) السيرة ٦٣٨ .
(٤) الروض الأنف ٢ : ١٦٧ .

من قوم فى البادية مع ماعرف فيهم من نفاق وكيد للإسلام بل نجد فى بعض آى القرآن وصفاً قارعاً صادقاً على ضعف إيمانهم وذهاب عقيدتهم « الأعراب أشد كفراً و نفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ماأنزل الله على رسوله »[1] فاذا كانت هذه حالهم فمن أين جاءتهم هذه التقوى ؟ وكيف تفتحت صدورهم فجأة للنبي ؟ أليس يكفى هذا لنلقى ذلك الدافع من حسابنا ؟

وأما الرواية الثانية فيرويها الواقدى قائلا « لما قتل سفيان بن خالد بن نبيح الهذلى مشت بنو لحيان إلى عضل والقارة فجعلوا لهم فرائض على أن يقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكلموه ، فَيُخْرج لهم نفراً من أصحابه يدعونهم إلى الإسلام فنقتل من قتل صاحبنا ونخرج بسائرهم إلى قريش فنصيب بهم ثمنا ... »[2] .

ولسنا بحاجة إلى أن نقول إن هذه الرواية أقرب إلى التصديق من غيرها . وما يروى بعد ذلك يتقابل فى نقطة واحدة ، هى أن الرسول اختار أصحابه وأرسلهم مع وفد عضل والقارة ، وهم — على مايروى الطبرى — مرثد بن أبى مرثد الغنوى ، وخالد بن البكير ، وعاصم بن ثابت ، وخبيب بن عدىّ ، وزيد ابن الدثنة وعبدالله بن طارق . وأمرّ عليهم مرثداً[3] .

خرج القوم من المدينة إلى نجد . وبدءوا يقطعون البطاح حتى انتهوا إلى الرجيع — وهو ماء لهذيل قريب من عسفان شمال غرب مكة — وهنا ظهر ماأخفاه وفد عضل والقارة فاستصرخوا هذيلا ، فلم يرع القوم وهم فى رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم فأخذوا أسيافهم ليقاتلوهم فقالوا لهم : إنا والله مانريد قتلكم ، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم .

فأما مرثد بن أبى مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت فقالوا : والله لانقبل من مشرك عهداً ولا عقداً . وخرج عاصم فقاتل القوم حتى قتل وقتل

(١) سورة التوبة ٩٧ .
(٢) الواقدى فى المغازى ٣٤٥ .
(٣) تاريخ الرسل والملوك ١ : ١٤٣١ .

صاحباه . فلما قتل عاصم أرادت هذيل اخذ رأسه لتبيعه من سلافة بنت شهيد ، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنيها فى أحد لئن قدرت على رأسه لتشربَنَّ فى قحفته الخمر فمنعته الدَّبْـر ..

وأما زيد بن الدثنة ، وخبيب بن عدى ، وعبدالله بن طارق فلانوا ورقوا ورغبوا فى الحياة فأعطوا بأيديهم فأسروهم ، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم . حتى إذا كانوا بالظهران انتزع عبدالله بن طارق يده من القيد ثم أخذ سيفه ، واستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه .

وأما خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة . قال ابن هشام : « فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة »[1] .

هذا يوم الرجيع . . يوم أتيح لهذيل فيه أن تغنم كثيرا ، فقد استطاعت ان تثأر لابن نبيح وتمكنت إلى جانب ذلك من تخليص أسيرين لها بمكة . ولكنها لم تنجح فى أخذ رأس عاصم بن ثابت فضاع منها ماعلقت عليه آمالاً ، ثم هى خسرت حب النبي لها إن كان النبي قد أحب من المشركين أحداً ، وعرضت نفسها لجيشه يغزوها ، ثم لغضب كثير من المسلمين . ولعل هذا مايفسر سبب سكوت معظم الرواة عن التحدث عنها والاهتمام بها لاسيما بنى لحيان .

وفى أعقاب ذلك تبلبلت الأفكار ، وثارت النفوس ، وتحركت المطامع ، وانطوى النبي على أحزانه وكتم صحبه وَجْدهم ، واستسلم بعض أهل المدينة لنوع من الشك وأخذ المنافقون يقولون : ياويح هؤلاء المفتونين الذين قُتِلوا هكذا ، لاهم قعدوا فى أهليهم ولا هم أدوا رسالة صاحبهم . فنزل قوله تعالى « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه » .

وهنا نجد شاعر الرسول حسان بن ثابت يتصدى لهذيل فيهجوها بشعر كثير ويعرض لبنى لحيان خاصة ، ويرميهم بالغدر ويسخر منهم ويأخذهم بشىء كبير من العنف[2] ثم يقفنا على أن زهير بن الأغر وجامعاً الهذلى هما من باعا خبيباً لقريش وذلك حين يقول :

---

(١) السيرة ٦٣٨ .

(٢) راجع على سبيل المثال ما جاء فى الروض الأنف ٢ : ١٧١ .

أبلغ بنى عمـرو بأن أخاهمُ شراه امرؤ قد كان للغدر لازما
شراه زهيرُ بن الأغر وجامعٌ وكانا جميعاً يركبان المحارما
أجرتم فلما أنْ أجرتم غدرتمُ رَكنتم بأكناف الرجيع لهاذما(١)

وتتوارى هذيل بعد ذلك ، فيحارب الرسول بنى النضير . فيروحون يؤلبون قريشاً وغيرها من العرب عليه ويدعونهم إلى حربه ، فيحزّب الكفار ، ويذهبون إلى المدينة فى عشرة آلاف فتكون وقعة الخندق سنة خمس من الهجرة ، وانتهت هذه الوقعة بجلاء بنى قريظة عن المدينة ، فنسمع أن كان فيهم نفر من هذيل أسلم منهم أربعة(٢) .

(حـ) غزوة بنى لحيان :

وأنشأت الظروف بعد ذلك تواتى المسلمين ، وبدا أنهم فى سبيل حياة آمنة وادعة ينظّمون حياتهم . ويوفرون عيشهم ، ويخلصون لعبادتهم . ولكن الرسول لاينسى قتلى الرجيع فيخرج « فى جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من فتح بنى قريظة إلى لحيان يطلب بأصحاب الرجيع خبيب بن عدى وأصحابه ، وأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة . فخرج من المدينة . . . . حتى نزل على غران ، وهى منازل بنى لحيان واد بين أمج وعسفان إلى بلد يقال له ساية ، فوجدهم قد حذروا وتمنعوا فى رءوس الجبال فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخطأه من غرتهم ماأراد قال : لو أنا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أنا قد جئنا مكة . فخرج فى مائتى راكب من أصحابه حتى نزل عسفان ، ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغ كراع الغميم ثم كرا ، وراح قافلاً(٣) .

ونحس أن الرسول هنا أراد غزواً كبيراً ، فهو يخرج إلى عسفان فى مائتى راكب فكم كان الجيش إذن كله ؟ ألا يدل ذلك على أنه — عليه السلام — إنما كان يريد القضاء على هذه القبيلة ؟ ولكن أحذره القوم جميعاً فلم يستطع أن ينال منهم أحداً ؟ لننظر فيما قاله الواقدى « خرج رسول الله صلى الله عليه

(١) الروض الأنف ٢ : ١٧١ .
(٢) بقية تاريخ ابن خلدون ٢ : ٣١ .
(٣) الطبرى — تاريخ الرسل والملوك ١ : ١٥٠٠ ومابعدها .

وسلم يريد بنى لحيان فلقيهم وهزمهم وقتلهم وبددهم من حولهم ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فوارس توغلوا حتى بلغوا التنعيم كبت الله به أهل مكة ». (١)

فأيهما نصدق . . الطبرى راوياً عن ابن هشام أم الواقدى وهو يروى عن ابن هشام أيضاً ؟(٢) لنقف موقفاً وسطاً ونقول إن لم يكن الرسول قد استطاع أن يظفر بلحيان فقد ظفر ببعضها على الأقل ، إذ لا يعقل أن يخرج بجيش ضخم ثم لا تستطيع عيونه أن تقع على عشيرة هذلية واحدة والقبيلة — كما رأينا — فى كل مكان بالحجاز .

ثم لماذا لا نقف عند رواية ابن حبيب المتوفى سنة ٢٤٢ وهى صريحة فى الدلالة على أن النبى أصاب فريقاً من لحيان على (الكدر) يقول ابن حبيب : خرج صلى الله عليه وسلم — إلى لحيان — يوم الثلاثاء غرة جمادى الأولى ثائراً بحبيب بن عمرو وأصحابه فاعتصموا برءوس الجبال ، وهجم على طائفة منهم على ماء يقال له الكدر ، فهزمهم الله عز وجل ، وغنم النبى صلى الله عليه وسلم أموالهم . ومضى منها حتى نزل عسفان وبعث منها خيلاً إلى المدرة وهى منها على ستة أميال إلى مكة ، فأخطأته عير قريش فرجع ولم يلق كيداً .(٣)

(د) يوم الفتح :

ولم تهدأ لحيان بعد هذا الأمر ، فشاركت بنى المصطلق عداءها للرسول . ويخرج عليه السلام فى العام السادس ويصيب أصحابه جماعة من بنى جندع ومعهم ناس من هذيل . وكان فى بنى جندع رجل من خزاعة صديق لهم ، فتوهم أمية ابن الأسكر الشاعر الجندعى أن هذا الرجل وشى بهم للرسول لميل خزاعة إليه عليه السلام ، ولأن كان فى قومه جماعة من هذيل ، فقال يهجو ، حامداً لهذيل يوم الرجيع ، ومشيراً إليها بقوله :

---

(١) المغازى ٣٧٤ .
(٢) راجع السيرة ص ٧١٨ .
(٣) المحبر ١١٤ .

شمتّ بقوم هم صديقك أهلكوا | أصابهمو يوم من الدهر أعسر
فهلا أباكم فى هذيل وعمكم | ثأرتم وهم أعدى قلوباً وأوتر
كأنك لم تنبأ بيوم ذؤالة | ويوم الرجيع إذ تنحّر حبتر
ويوم الأراكِ يوم أردف سبيكم | صميم سراة الديل عَبْدٌ ويعمر

فأجابه الرجل الخزاعى بشعر يعرض فيه لبنى لحيان :

لعمرك ما أدرى وإنى لقائل | إلى أى من يظننى أتعذر
أعنف إن كانت زُبَيْنة أهلكت | ونال بنى لحيان شرٌّ ونفّروا(١)

وزبينة هم بنو جندع .

ثم كان صلح الحديبية فى العام نفسه فغزوة خيبر ، فلا نسمع عن هذيل شيئاً ، ولا ندرى إلى أى حد تطورت علاقتها بالرسول ، حتى يكون الفتح فنجد أنفسنا مضطرين إلى أن نسأل : وهذيل ماذا فعلت ، أو ماذا كان دورها فى هذا الصراع الأخير ؟ أتراها هادنت النبي ، أم أنها أخلت السبيل أمامه واعتصمت بجبالها فلم تشارك فى قتال ؟

لسنا ندرى من هذا شيئاً ، وإن كان لا يبعد أن تختفى بعض عشائرها وهى تعلم أن فيها لنبي الله ثأراً . وقد يبدو هذا معقولاً بالنسبة لهذه العشائر التى كانت تشرف على الطريق الذى قطعه الرسول بجيشه ، أما هذه البطون التى كانت حول مكة فليس بدّ من أن تميل بهواها إلى قريش فتقف معها .

وتروى الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يقسم جيشه عسكر فعلاً فى أرض هذيل وأفطر — وكان ثمة شهر صيام — حين بلغ ما بين عسفان وأمج(٢) ، وفى مر الظهران — وكانت تسكنه هذيل — نزل عليه السلام وقسم جيشه ، وأرسل من يتجسس على قريش(٣) .

ولما أمر قواده الأربعة بالمسير لم يجدوا مقاومة إلا خالداً ، وكان عليه غزو

---

(١) راجع الأغانى ١٨ : ١٦٢ .
(٢) راجع مثلا تاريخ ابن الأثير ٢ : ١١٦ .
(٣) السيرة ٨١٠ .

مكة من جهة الشرق . وفى طبقات ابن سعد أنه قُووم فى الخندمة — وهو جبل أبى قبيس — فقتل أربعة وعشرين رجلاً من قريش وأربعة نفر من هذيل(١).

ومن هذا نرى أن هذيلاً هنا لا تجنح إلى سلام . وفى أخبار أبى عثمان الهذلى — ويقال له الرَعـَّاش — أنه قال لامرأته وهو يحد حربة له يوم الفتح : أعددتها لمحمد وأصحابه ! فقالت : والله إن أره يقوم لمحمد وأصحابه شىء ! فقال إنى لأرجو أن أخدمك بعضهم(٢) .

والقصة أوضح من ذلك فى الكتاب الذى طبعه فلهاوزن « وأقبل — أبو الرعـَّاش الصاهلى — يوم الفتح فتح مكة يريد نصر قريش و بنى بكر ويطلب الغنائم وقد قال لامرأته : آتيك بخادم وأحليك من غنائم أصحاب محمد ، وهم على السويداء والخندمة والحِبْس ، فلم يفجأه إلا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يطردون المشركين ، فأقبل فارًّا على أهله فلامته امرأته وعيّرته وقالت : شاه الوجه ، أخذلت قومك (٣) ؟

ولا يطول الأمر بهذه الفئة الثائرة ويدخل الرسول مكة ، حتى إذا بات فيها ليلة راح القوم يتناقلون حادثةَ قَتْلٍ مريعة مات فيها ابن الأثوع الهذلى . وفى ذلك يروى ابن إسحاق عن أبى سندر الأسلمى عن رجل من قومه قال « كان معنا رجل يقال له أحمر بأسا . وكان رجلاً شجاعاً ، وكان إذا نام غط غطيطاً منكراً لا يخفى مكانه ، فكان إذا بات فى حيه بات معتنزاً(٤) ، فإذا بيت الحى(٥) صرخوا : يا أحمر ! فيثور مثل الأسد لا يقوم لسبيله شىء . فأقبل غزى من هذَيل يريدون حاضره(٦) ، حتى إذا دنوا من الحاضر قال ابن الأثوع الهذلى : لا تعجلوا علىّ حتى أنظر ، فإن كان فى الحاضر أحمر فلا سبيل إليهم فإن له غطيطاً لا يخفى . قال : فاستمع فلما سمع غطيطه مشى إليه حتى وضع السيف

---

(١) الطبقات الكبير ٢ : ٩٨ .
(٢) المبرد – الكامل ٣٦٥ .
(٣) البقية ٣١ .
(٤) معتنزا : فى ناحية من الحى .
(٥) بيت الحى : جاءهم الغزاة فى وقت البيات .
(٦) الحاضر : الذين ينزلون على الماء .

فى صدره ثم تحامل عليه حتى قتله . ثم أغاروا على الحى فصرخوا : يا أحمر ! ولا أحمر لهم .

فلما كان عام الفتح ، وكان الغد من يوم الفتح أتى ابن الأثوع الهذلى حتى دخل مكة ينظر ويسأل عن أمر الناس وهو على شركه ، فرأته خزاعة فعرفوه ، فأحاطوا به وهو إلى جنب جدار من جدر مكة يقولون : أأنت قاتل أحمر ؟ قال : نعم . . أنا قاتل أحمر فَـمَـه ؟

قال – إذ أقبل خراش بن أمية مشتملا على السيف فقال : هكذا عن الرجل ووالله ما نظن إلا أنه يريد أن يفرج الناس عنه . فلما انفرجنا عنه حمل عليه فطعنه بالسيف فى بطنه فوالله لكأنى أنظر إليه وحشوته تسيل من بطنه وأن عينيه لترنقان فى رأسه وهو يقول : أقد فعلتموها يا معشر خزاعة ؟ حتى انجعف فوقع (١) .

وخرج عمرو بن العاص وضرب بين منازل لحيان حتى انتهى إلى (رهاط) لهدم سواع وقد مرت بنا القصة فى موضع سابق فانظرها ثمّ(٢) .

وإسلام السادن ليس من شك أنه مقدمة لإسلام بنى لحيان كلهم . بل ربما لم يتبق على شركه إلا هؤلاء الموغلون فى البادية ، فهم لهم عذرهم . وبدأ قواد النبي يقطعون أنحاء الجزيرة طولاً وعرضاً هادمين الكفر ، باسطين سلطان الله ، فكانت الجزيرة فى سبيل أمّةٍ عربية موحدة يجمعها القرآن ويسيرها رسول من عند الله .

ويمضى شهر بعد الفتح ، ويخرج الرسول فى شوال إلى الطائف ، فنسمع أن رجلاً من بنى ليث بن بكر يقتل رجلاً من هذيل ، والرسول حينذاك فى بحرة الرغاء ، فيستاء النبي ويقتص من الرجل ويقتله(٣) .

وكأن الهذليين قد عرفوا حينئذ عدل النبي وبأسه ، ورأوا أن الحق لم يعد شيئا غير كتاب الله ، فقروا ولانوا ، ونسى الثائرون المتمردون منهم حياتهم الشاذة وأقلعوا عن غيهم ، حتى إن الرواة ليقولون مثلاً إن أبا خراش أسلم فحسن

(١) السيرة ٨٢٢ وما بعدها .
(٢) ورقة رقم ٥٢ .
(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١٦٧١ .

إسلامه وهو الذى كان الحجاز يضج بغزواته ويتناقل الناس حديث مغامراته ، ويروون أن أبا كبير أصبح صحابياً بعد حياة صاخبة !

ولكن ليست تخلو هذه الوداعة من بعض الشذوذ ، فإن سلطان الإسلام لم يملك كل القلوب ، وكان بعدُ شيئاً جديداً غضاً من السهل أن يكون فيه عوج وانحناء فلا نعجب والأمر كذلك أن يأتى نفر من هذيل إلى الرسول ويسألوه أن يُحِلّ لهم الزِنا !

واستلزمت هذه الجرأة حزماً من النبي ، فأبى فى عنف ، وأنكر على هذيل سؤالها ، وانبرى شاعره يهجوها ، وقال فيما قال :

سألت هذيلٌ رسولَ الله فاحشةً ضَلَّت هُذيل بما سألت ولم تُصِبِ
سألوا رسولَهُمُ ما ليس معطيَهم حتى المماتِ وكانوا سُبَّةَ العربِ
ولن ترى لِهُذيل داعياً أبداً يدعو لمكرمةٍ عَن منزل الحَرَبِ (١)
لقد أرادوا ضلالَ الفُحْش ويحهمُ وأن يحلوا حَراماً كان فى الكتبِ

كذلك كانت نتيجة سؤال هذيل ، فأصبح العرب يرون فيه منكراً ، وعيروها به حتى إنه يروى أن أسدياً وهذلياً تفاخرا ورضيا برجل يحكم بينهما . فقال : إنى ما أقضى بينكما إلا أن تجعلا لى عقداً وثيقاً ألا تضربا ولا تشتما فإنى لست فى بلاد قومى ففعلا ، فقال : يا أخا بنى أسد كيف تفاخر العرب وأنت تعلم أنه ليس حى أحب إلىّ ولا أبغض إلى الضيف ولا أقل تحت الرايات منكم . وأما أنت يا أخا هذيل فكيف تكلم الناس وفيكم خلال ثلاث : كان منكم دليل الحبشة على الكعبة ، ومنكم خولة ذات النَّحْيَيْن ، وسألتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحل لكم الزنا(٢) .

وفى العام العاشر يحج النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، ويخطب فى الناس خطبته الجامعة ، ويعرض لهذيل بقوله : وإن كل دم فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب — وكان

(١) الكامل ٢٨٨ .
(٢) الكامل ٢٨٨ .

مسترضعاً فى بنى ليث فقتلته بنو هذيل — فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية (١) .

ذلك أن ابناً صغيراً لربيعة كان مسترضعاً فى بنى ليث بن بكر « وكان بين هذيل وبين ليث بن بكر حرب ، فخرج ابن ربيعة بن الحارث وهو طفل يحبو أمام البيوت فرمته هذيل بحجر فأصابه الحجر فرضخ رأسه ، فجاء الإسلام قبل أن يثأر ربيعة بن الحارث بدم ابنه ، فأبطل النبى صلى الله عليه وسلم الطلب بذلك (٢) .

على أن ابن الأعرابى يروى لذلك قصة أخرى فهو يقول : بل خرجت بنو عمرو بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل مغيرين يريدون بنى عبد بن عدى ابن الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة . وقد كانوا عهدوهم فى منزل، فظعنت بنو عبد عدى ، من ذلك المنزل ، فنزله بنو سعد بن ليث بن بكر ، فبيتهم القوم وهم يظنون أنهم بنو عبد عدى ، فأصابوا فيهم وقتلوا منهم ناساً ، وقتلوا غلاماً مسترضعاً وهو ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وهو الذى وضع رسول الله عليه الصلاة والسلام دمه يوم الفتح . والسكرى فى نفس الموضع يقول إن دمه وضع فى حجة الوداع ، فقال فى ذلك حذيفة بن أنس :

غَلَتْ حربُ بكرٍ واستطار أديمها ولو أنها إذ شبَّتِ الحربُ بَرَّت (٣)

(١) تاريخ الطبرى ١ : ١٧٥٣ .
(٢) المرجع السابق ٣ : ٢٣٤١ .
(٣) ديوان الهذليين ٣ : ٢٦ .

— ٥ —

هذيل في العصر الإسلامي

ومهما نجتهد بعد ذلك في تَقَصّي أحوال هذيل بعد أن يَتَوفّى اللهُ رسوله وتقع الرِّدَّة في خلافة أبي بكر فلن نعثر على شيء ، ولن نجد ما عساه يلقي الضوء على الطريق الذي سارت فيه . أتراها ارْتَدَّت مع المرتدين ، أم وقفت تذود عن الدين الجديد ؟ لسنا نعلم من هذا قليلاً أو كثيراً . وكان في اصطناع الخليفة السرعة والعنف والحزم ما عجل باستقامة الأمور والعودة إلى كتاب الله .

كتب التاريخ لا تتحدث عن هذيل المرتدة ، ولا تتكلم عن هذيل التي تمسكت بحبل الله ، لماذا ؟ ألا يكون لتفرّق منازلها دخلٌ في هذا الأمر ؟ يجوز ذلك ، وعلى هذا نجد أن عشائر ترتد مع القبيلة التي ترتد وعشائر تقف مترقبة منتظرة ، وعشائر تسلك هذه السبيل التي سلكتها قريش وثقيف .

وسواء أصح لنا هذا الاستنباط أم لم يصح فإن مسألة المجاورة والقرب لا يمكن إهمال أثرها . فهي الشيء الأساسي الذي يعيننا على تفهم موقف القبيلة ، ويفسر لنا دورها في حركة الردة ، حتى وإن سكتت عنه المصادر والكتب .

(١) الدولة الإسلامية :

والتاريخ أيضاً يسكت عن هذيل في عهد الفتوح ، ولا يسمي أشخاصاً منها يشاركون في الغزو ، فأين كانت ؟ وماذا حدث لها بعد الردة ؟ أتراها لاذت ببادیتها وقراها أو شاركت — عملياً — في بناء الدولة الإسلامية ؟ إن الرواة متفقون على أنها تفرقت على الممالك التي قهرها المسلمون فلم يعد لها حيّ يطرق في الحجاز ، ويقال إن قبيلة منها سكنت في نواحي باجة ، يعسكرون مع جند السلطان ويؤدون المغرم ، كما كانت منهم طائفة بطوخ الجبل وإخميم في مصر(١)، وثمة بطون منها نزلت في جنوبي البصرة بالبادية ويؤكد ابن بطوطة أنه كان فيها

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٢ : ٣١٩ .

إلى زمانه ثلاث محلات : إحداها لهذيل ، وأخرى لبنى حرام وثالثة للعجم(١) .

واضح إذن أنها شاركت فى الغزو ، وأخذت تهاجر تاركة مهدها الأول . وفى أخبار بعض شعرائها — كأبى ذؤيب — أنهم كانو يغزون . أما أنها تلوذ بالبادية فهذا ما لا يمكن أن يقبله العقل ، ولا يرضى عنه وضعها فى الحجاز . حقاً ظلت بعض العشائر فيه لم تبرحه حتى أيامنا هذه(٢) . إلا أن أغلبها رحل وتفرق واندمج فى شعوب الدولة الكبرى .

والسؤال الآن : كيف كانت هذيل تخرج للغزو ؟

عندى أنها كانت تخرج أفراداً أو عشائر مشتتة فى جيوش المسلمين ، فقربها من كنانة مثلاً كان يتيح الفرصة لعشائرها القريبة منها أن تخرج مع القبيلة ، وقل مثل ذلك عن هذه الجماعات التى كانت تسكن قرب هوازن وثقيف وسُليم وغيرها . وكذا ذابت هذيل فى جيوش المسلمين فسهل افتراقها من غير أن يفطن لها احد .

وكانت أيام أبى بكر على أى حال قصيرة(٣) ، ولم يكن فيها شيء يثير انتباهنا لما نحن بسبيله ، فلم يكد عمر ينهض بعده بأمور المسلمين سنة ثلاث عشرة حتى مضى فى سياسة الفتح التى رسمها خليفة النبي ، ولم تبق قبيلة من العرب دون أن تخرج للجهاد وكان عمر يشجعها على ذلك ، ويدفعها إلى ملك فارس والروم فلا يلبث أن يتداعى للانهيار .

ويبدو أن هذه الحروبَ قد أفنَت الكثير من أبناء هذيل ، ففى أخبار أبى خراش أن ابنه خراشاً غزا مع المسلمين فأوغل فى أرض العدو ، فقدم أبو خراش المدينةَ وشكا لعمر شوقه إلى ابنه وحاجته إليه وتعلقه به ، بعد أن قتل إخوته ، وانقرض أهله ولم يَعُد له من معين . وأنشأ يقول شعراً ، فما سمعه عمر حتى رضى أن يرد الابن إلى أبيه ، وألا يغزو مَنْ كان له أب عجوز إلاّ بعد أن يأذن له(٤) .

---

(١) تحفة النظار فى غرائب الأمصار ١ : ١٣٩ ، ١٤٠ (ط . بولاق سنة ١٩٣٩)

(٢) عبد الوهاب عزام فى مهد العرب ١٣٥ (سلسلة اقرأ) .

(٣) عن المسعودى أنها سنتان وثلاثة أشهر وعشرة أيام (مروج الذهب ٢ : ٤١٢)

(٤) الأغانى ٢١ : ٤٧ .

وانقراض أهل أبي خراش ظاهرة فذة تلفت النظر ، وهي آية لما ذهبنا إليه حين زعمنا أن كثيراً من أبناء هذيل أفنته الحرب وقضى عليه الغزو . والبريق الشاعر يرى نفسه وحيداً فلا يطيق وحدته ، ويتحدث السكرى عنه فيقول إن عمر أرسل قومه إلى مصر وفى ذلك يقول الشاعر :

فإن أمسِ شيخاً بالرجيع وولدةً وتصبحُ قومى دون دارِهمُ مصرُ
أسائلُ عنهم كلما جاء راكبٌ مقيماً بأملاحٍ كما رُبط اليَعْرُ
فما كنت أخشى أن أقيم خلافَهُم بستة أبياتٍ كما نبت العتر(١)

والواقع أن عهد عمر شهد الحركة الكبرى لارتحال معظم عشائر هذيل إلى خارج الحجاز وبدانا نسمع أن فلاناً الشاعر خرج للغزو ايام عمر ، وفلاناً الآخر مات فى مصر أيام عمر ، فأبو العيال مثلاً وابن عمه بدر بن عامر — وهما شاعران من بنى خفاجة بن سعد — خرجا إلى مصر فى خلافة ابن الخطاب وبقيا فيها حتى خلافة معاوية . وتروى الأخبار أن كان لأبي العيال ابن أخ يقيم عنده فأصابه سهم قتله ، فخاصم أبو العيال بدر بن عامر وخشى أن يكون ضلعاً مع خصمائه ، واجتمعا لذلك فى مجلس وتَنَباتَّا فكانت لهما نقائض كثيرة يطول ذكرها هنا(٢) ، وقد تناولها فى فصل مستقل من الباب الثانى .

وفى الروايات كذلك أن عمر بعث عمار بن ياسر على صلاة الكوفة وعبد الله بن مسعود على قضائها وبيت مالها(٣)، ولاشك أنه كان مع ابن مسعود نفرٌ من هذيل .

أما فى الحجاز فنجد بقية الهذليين يصلون حياتهم بما كانوا قد اعتادوا عليه من غير أن يعودوا إلى شِرْكهم ، وربما كان هؤلاء يقلبون صفحات ماضيهم فيعودون يذكرون ما كان منذ قديم وما انتهى إليه أمرهم ، فيتحسر أبو خراش مثلاً على قدمه التى لدغتها أفعى ، ويذكر كيف كانت تحمله وهو يعدو فى الجاهلية فيسبق الظليم(٤) .

(١) ديوان الهذليين ٣ : ٥٨و٥٩ . وولدة : أى ومعى ولدة ولكنه نصبها على الحال ، اليعر : الجدى الذى يشد عند زبية الأسد ، العتر : نبات ينبت مفرقا هنا وهناك ، وقد قال الشاعر إنه فى بقائه مع ستة أبيات من أهله يشبه العتر !
(٢) راجع الأغانى ٢٠ : ١٦٧ ، ١٦٨ .
(٣) البلاذرى فى فتوح البلدان ٢٦٩ .
(٤) ديوان الهذليين ٢ : ١٧١ .

وهذه جماعة من القبيلة تفد على عمر فيتحدث رجل فيها إلى الخليفة فيقول : إن حيًّا من هذيل بادوا وبقى منهم رجل اسمه رياح فجاز مواريثهم ، ثم سار حتى جاور بها بنى مؤمَّل حيًّا آخر من هذيل فى عدد وثروة ، فجعلوا يظلمونه ويبغون عليه فى ماله(١) .

وفى رواية أن هذليًّا طرق — وهو بالبطحاء — أهل بيت من اليمن ، فانتبه له رجل منهم فطعنه بسيفه فقتله ، فجاءت هذيل ورفعت اليمانى إلى عمر وهو بالموسم وقالوا : قتل صاحبنا . فقال الرجل : إنهم قد خلعوه . فقال عمر : يقسم خمسون من هذيل ما خلعوا فأقسم منهم تسعة وأربعون ، وقدم أحدهم من الشام فسألوه أن يقسم فافتدى يمينه منهم بألف درهم(٢) .

وثمة قصائد لا يمكن أن نحدد لها التاريخ الذى قيلت فيه ، وفيها ذلك التحفى بالقبيلة ووصف مرابعها ورثاء أبنائها ، ولا يبعد أن يكون بعضها قد قيل فى تلك الفترة .

ثم انتهت ولاية عمر سنة ثلاث وعشرين للهجرة فيأتى عثمان وينفق فى الخلافة اثنتى عشرة سنة(٣) ، يثير خلالها معظم العرب . ومن المحقق أن هذيلاً لم تكن راضية عنه وكانت تعيب عليه أموراً وأموراً ، وكان فى قلوبها من غضب لابن مسعود ما تحدثنا عنه الأخبار بكثرة وإفاضة . والواقع أن هذا الصحابى كان فى نفوس الهذليين شيئاً كبيراً بل كان أثيراً لدى كل عربى ، وكان أهل الكوفة مولعين به مخلصين له ، ويجدون دائماً فى علمه وأدبه وصدقه وعدله ما يملؤهم طمأنينة وأمناً ، وكان ينزل الكوفة فى جمع من هذيل فى موضع يقال له الرمادة . وكانت داره قبلة الأضياف يقصدونها فيجدون فيها سماحة وكرماً(٤) .

وكان عثمان قد أقره على عمله فى أول الأمر ؛ فلما ولى الكوفة الوليد بن عقبة سار على سياسة لم يرض عنها ابن مسعود ، ثم لم يلبث أن وقف معارضاً

---

(١) البقية ٧١ وروى أنه أنشد يقول :

يارب أشقانى بنو مؤمل فارم على قفائهم بمنكل
بصخرة أو عرض جيش جحفل إلا رياحا إنه لم يفعل

(٢) الألوسى فى بلوغ الأرب ٣ : ٢٨ .

(٣) مروج الذهب ٤٣٣ .

(٤) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٨٤٢ .

للوالى والخليفة جميعاً مع أنه قد أقطع أرضاً بالنهرين أيام عثمان(١) . فكأن قدوم الوليد وسياسته الشاذة هما نقطة التحول فى نظرة هذيل وابن مسعود إلى الخليفة . ويروى أن سبب الخصام كان مالاً استقرضه الوليد ، ولما حاول ابن مسعود استرداده أبى وشكا إلى عثمان فأرسل إليه يقول : إنما أنت خازن لنا فلا تعرض للوليد فيما أخذ من المال . فطرح ابن مسعود مفاتيح بيت المال وأقام بالكوفة غاضبا(٢) .

وبدأ عثمان يسىء لابن مسعود ، وأخذ هذا يعيب عليه لينه ويطعن فيه ، فكتب الخليفة يستدعيه ، فلما قدم المدينة طرده من مسجدها طرداً عنيفاً أثار هذيلاً وغيرها ممن كان موجوداً(٣) .

ويلخص البلاذرى كل هذا فيقول « كانت من عثمان قَبْلُ هِناتٌ إلى عبد الله بن مسعود وأبى ذرّ وعمار بن ياسر فكان فى قلوب هذيل وبنى زهرة وبنى غفار وأحلافها من غضب لأبى ذر مافيها(٤) » .

أما المسعودى فيقول «وفى سنة خمس وثلاثين كثر الطعن على عثمان رضى الله عنه ، وظهر عليه النكير لأشياء ذكروها من فعله . منها ما كان بينه وبين عبد الله ابن مسعود وانحراف هذيل عن عثمان من أجله(٥) » . وفى نفس هذه السنة كانت الفتنة ، واتخذت الخلافة لوناً من هذه العصبية التى كانت قائمة فى الجاهلية بين بنى هاشم وبنى أمية ، وسار رجال من الكوفة والبصرة ومصر يريدون الإيقاع بعثمان فحصروه فى داره ومنعوا عنه الماء ، واجتمع على داره حشد ضخم فيه « بنو زهرة لأجل عبد الله بن مسعود لأنه كان من أحلافها ، وهذيل لأنه كان منها(٦) ... » .

وكذا رسمت سياسة عثمان طريق هذيل ، فكان انضمامها إلى على بن أبى

(١) فتوح البلدان ٢٧٣ .
(٢) البلاذرى فى أنساب الأشراف ٢٩ .
(٣) البلاذرى — أنساب الأشراف ٣٦ .
(٤) نفس المرجع ٢٦ .
(٥) مروج الذهب ١ : ٤٣٧ .
(٦) المرجع السابق ١ : ٤٤١ .

طالب . ومن أجل ذلك — على أكبر الظن — غاضبها بنو أمية . حتى إذا أرسلت نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية تشكو علياً إليه ذكرت أن هذيلاً كانت من الثائرين(١) .

ثم كانت خلافة على بن أبى طالب . وكان بويع له فى اليوم الذى قتل فيه عثمان ، وكانت أيامه خمس سنين إلا قليلاً(٢) ، وهى مدة لم تظهر فيها هذيل ظهوراً واضحاً حتى ليبدو أنها آثرت السكينة وأبت على نفسها أن تشاطر الناس ما يضطربون فيه ويأخذون به أنفسهم .

ويشتد الصراع بين علىّ ومعاوية فتكون وقعة الجمل ثم صفين ، حتى تقبل سنة أربعين فيقتل علىّ ، وكان عمرو بن عميس بن مسعود الهذلى والياً له على (القطقطانة) فيقتله فيها الضحاك بن قيس الفهرى عامل معاوية(٣) .

(ب) الأمويون :

بويع الحسن بعد علىّ ، ولكن معاوية يستأثر بكل شىء عام واحد وأربعين ويظل خليفة على المسلمين عشرين عاماً تقريباً(٤) يضطرب خلالها الهذليون فيما يضطرب فيه الناس فى ذلك العهد ، ونروح نسمع بسنان بن سلمة بن المحيق الهذلى على البصرة فنتذكر ابن مسعود يوم كان على الكوفة .

والبلاذرى يروى أنه ولى من قِبَلِ زياد بن أبيه ، وكان عالماً فاضلاً ، وأول من أحلف الجند بالطلاق ، وأتى الثغر ففتح مكران عنوة وأقام بها ، وضبط البلاد ، فقال فيه الشاعر :

رأيتُ هذيلاً أحدثتْ فى يمينها   طلاقَ نساءٍ مايسوق لها مهراً
لهان علىّ حلفة ابنِ محبّق   إذا رفعت أعناقها حلّقا صُفرا(٥)

وما فتىء الهذليون يشاركون فى الفتح ، ويصيبهم من شر الحرب مايصيب

(١) الأغانى ١٥ : ٦٨ .
(٢) مروج الذهب ٢ : ٢
(٣) جمهرة الانساب ١٨٦ .
(٤) مروج الذهب ٢ : ٥٢ .
(٥) فتوح البلدان ٤٣٣ .

المجاهدين . وهذا أبو العيال يحصر فى بلاد الروم فيطول حصره ، فيرسل إلى معاوية كتاباً يقرؤه على الناس وفيه يقول :

من أبى العيال أبى هذيل فاعرفوا قولى ولا تتجمجموا ماأرسل

ويعلن أنه ساخط لأنه كان مضطهداً .. اضطهده ابن سعد بن أبى سرح ، وأنه طال به وبصحبه — ولعلهم كانوا من هذيل فهو أبوهم — الترحال وبعدت الشقة .

فاستقبلوا طرفَ الصعيد إقامةً طوراً وطوراً رحلةٌ فَتَنَـقَّـل(١)

ثم هو بعد ذلك أو قبل ذلك يرثى ابن عم له قتل فى بلاد الروم أيضاً وذلك فى قصيدته التى مطلعها :

فتى ما غادر الأجنـا د لا نِـكْسٌ ولا جَنَـب(٢)

ومات معاوية سنة إحدى وستين فخلفه ابنه يزيد فكانت أيامه ثلاث سنين وثمانية أشهر(٣) ، وعقب موته تروح هذيل تباشر حياتها فى شىء من العنف والاضطرابات كانا طابع العصر كله ، فلقد اعتصم عبد الله بن الزبير بمكة ودعا لنفسه بالخلافة مستقلاً عن الأمويين والهاشميين جميعاً .

وكانت ثورة ابن الزبير فى الوقت الذى تشاغل فيه بنو أمية بالحرب بين أنفسهم فيمن يلى الخلافة ، حتى انتهت إلى عبد الملك من بعد أبيه مراون فتفرغ إلى الزبيريين وكان سلطانهم قد قوى فى نواحى الحجاز وامتد إلى العراق حيث كان فيها مصعب أخو عبد الله(٤).

ويبدو أن هذيلاً لم تكن تضمر شرًّا لابن الزبير لاسيما وأن أخاه مصعباً كان قد أقر سنان بن سلمة على البصرة . ويذكر البلاذرى عن المدائنى أنه « خرج مصعب من البصرة إلى الكوفة للقاء عبد الملك ، وخلف على البصرة سنان بن سلمة بن المحبق الهذلى ، وكان لأبيه صحبة ، وولد سنان أيام حنين فحنكه

---

(١) ديوان الهذليين ٢ : ٢٥٢ وما بعدها .

(٢) ديوان الهذليين ٢ : ٢٤١ لانكس : غير ضعيف ، ولا جنب : وغير قصير .

(٣) مروج الذهب ٢ :٨٥١ .

(٤) أحمد الشايب – تاريخ الشعر السياسى ١٧٥ .

النبي صلى الله عليه وسلم فلم يزل على البصرة حتى قدم مصعب وخلف عبّاد بن الحصين معه على شرطته(١) .

وفى الحجاز يقدم على ابن الزبير وفد من هذيل لأخذ عطائه وإعلان ولائه، ولكن ابن الزبير ينظر فيرى أبا صخر الهذلى ، وكان عارفاً بهواه لبنى أمية فيمنعه عطاءه فيشتد عليه هذا بالقول فلا يجد بُدّاً من حبسه(٢) .

ومع كل ذلك فليس من السهل أن نحدد موقف هذيل آنذاك ؛ إذ لم يكن ثَمَّةَ شيء يرسم لها الطريق الذى ينبغى أن تسير فيه ، فبينما نجد هذليي الحجاز يأخذون أنفسهم بطاعة ابن الزبير نجد أمثال أبى صخر ينصرفون إلى بنى أمية ويتفرغون لهم ، والشعراء فيهم يقصرون مدحهم عليهم ، مما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن هؤلاء الذين نزلوا الشام من هذيل اضطروا إلى أن يدينوا بالولاء لبنى أمية .

أبو صخر إذن يمثل من سكن الشام من هذيل ، وكان يتعصب لهم تعصباً شديداً ، وكان له فى عبد الملك وفى أخيه عبد العزيز مدائح كثيرة ، ويقال أيضاً إنه انقطع إلى أبى خالد بن عبد العزيز بن عبد الله بن أَسَيْد يمدحه ، ورثاه وهو حى(٣) .

وكان ثمة شاعر آخر ينحو نحوه وينهج سبيله وهو أمية بن أبى عائذ ؛ فقد أخلص هذا بدوره للأمويين وأصبح شاعرهم ، فكان له قصائد فى ابنى مروان. وزار مصر يمدح عبد العزيز فطال بقاؤه عنده ونال الصلات والعطايا ، حتى إذا تشوق إلى أهله فى البادية رجع إليهم(٤) .

ولكن ماذا حدث لأبى صخر وقد أهملناه طويلاً ؟ إن هذيلاً لم ترض له هذا المصير وساءها أن يسجن أحد أبنائها فأجمعت أمرها على استخلاصه ، وذهب وفد منها ووفد من قريش كان له فيهم خئولة واستوهبوه فأطلقه ابن الزبير

(١) أنساب الأشراف — مطبعة أورشليم ٥ : ٢٨٥ .
(٢) الأغانى ٢١ : ٩٤ .
(٣) نفس المرجع ٢١ : ٩٤ .
(٤) المرجع السابق ٢٠ : ١١٥ و١١٦ .

بعد أن تركه عاماً وهو حبيس(١) .

غير أن الأمر لا يطول بابن الزبير وأخيه مصعب ، إذ توجه الخليفة بنفسه إلى العراق فقضى على مصعب سنة إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين على رواية أخرى (٢) ، ثم « وجه الحجاج إلى مكة فقاتل ابن الزبير وقتله أيضاً سنة ثلاثة وسبعين(٣) » .

وفى سنة ثمانين انتشر الطاعون بالعراق والشام ومصر والجزيرة والحجاز(٤) فعانت هذيل الشيء الكثير ، ومات من أبنائها فى الشام ومصر عدد موفور ، وأخذ شعراؤها يرثونهم كما فعل عبد الله بن أبى ثعلب الهذلى فى قصيدته :

أرقتَ ومالكَ ألا تناما　　وبتَّ تكابد ليلاً تماما (٥)

وإذا كان عصر عبد الملك الذى استمر بعد الطاعون ست سنوات أخرى أدق مدة مَرَّ بها الأمويون فى تثبيت ملكهم بين صراع حزبى عنيف ، فقد استطاعت هذيل فيه أن تسير مع الحياة ، فلم نسمع أن الأمويين اشتطوا فى معاملة هؤلاء الذين أخلصوا يوماً لابن الزبير كسنان مثلاً ، ولم نعلم إلا أن هناك شعراء هذليين مدحوا بنى أمية طمعاً فى عطائهم .

ومن الناحية الفنية لا نلمس روحاً أموية بارزة فى شعر هذيل ، فكأن هذا الشعر لم يمثل العصر إلا بالقدر الذى يدفع احتجاجاً لخصم ، أو يدحض زعما لمنافس ، أو يقيم دليلاً لرأى ، كما فعل أبو صخر حين دفع « ما احتجت به الزبيرية من الاعتزاز بالحجاز وحماية الحرم(٦) » .

ولا يعنينا بعد ذلك أن نعدد خلفاء عبد الملك ، فلم يكن هناك شيء لهذيل يستحق أن يذكر فى عهد هذا الخليفة أو ذاك ، إنما كانت تنصرف إلى حياتها الخاصة لا يعنيها أمير ، ولا يصرفها عن شئونها حدث خطير . وهذا أبو بكر

---

(١) نفس المرجع ٢١ : ٩٤و٩٥ .
(٢) أنساب الأشراف ٥ : ٢٨٥ .
(٣) تاريخ الشعر السياسى ١٧٥ .
(٤) مروج الذهب ٢ : ١٥٨ .
(٥) البقية ٦٥ .
(٦) تاريخ الشعر السياسى ٢٠٩ .

الهذلى الخطيب القاص يخلص للبصرة وطنه الجديد ، ويتصل به اتصالاً قوياً ، حتى إذا عنّ له أن يقول لأهل الكوفة شيئاً قال لهم : لنا الساج والعاج والديباج والنهر العجاج[1] .

وفى ناحية أخرى نرى عمر بن عبد العزيز يقول عن مسلم بن جندب الهذلى : من سره أن يسمع القرآن غضًّا فليسمع قراءة ابن جندب[2] ، وكان مسلم قاصّ مسجد النبي بالمدينة وإمام أهلها وقارئهم . هذا وكان من أعوان عمر عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وكان له شأن مع الخوارج وقصد إليهم بالجزيرة[3] .

وتمتد السنون بغير هذا وهذا ، ونسمع من حين لآخر بانتهاء حياة هذلى. ففى الأعوام الأخيرة لسلطان الأمويين يموت عبيد الله بن عبد الله بن عتبة فقيه المدينة المشهور سنة ثمان وتسعين أو تسع وتسعين أو اثنتين ومائة[4] كما يموت أبو المليح عامر بن أسامة الهذلى ، وكان خطيباً صاحب أخبار وأحاديث ، توفى سنة اثنتى عشرة ومائة[5] .

فإذا سألنا عن الفكرة العامة التى كانت لهذيل فى عقول الناس أيام الأمويين لا نحسبها ضئيلة تافهة قليلة الخطر ، فقد كان لها تراث شعرى يتحدث به الناس ، وكان لها أبناء مبرزون يملئون الحياة كلها . فلا نعجب إذن حين نرى من يفخر بالانتساب إليها كما فعل أبو دهبل حين افتخر بأن أمه من هذيل :

أنا ابن الفروع الكرام التى هذيلٌ لأبياتها سابلة
همُ ولدونى وأشبهتهم كما تشبه الليلة القابلة[6]

إلى هنا ينتهى عصر بنى أمية . وكنا نود أن نمضى مع هذيل فى تاريخ بنى العباس لولا أنى أزعم أن ليس فيه ما يغنى . وما أشق ما عانيت فى جمع ما جمعت لأرسم صورة هذيل فى الجاهلية ثم فى العصر الإسلامى . ولو قد تيسر هذا لما كان إلا تطويلاً ليس مما نقصده او نرمى إليه !

(١) الجاحظ فى البيان والتبيين ١ : ٣٤٠ .
(٢) نفس المصدر ١ : ٣٤٦ .
(٣) مروج الذهب ٢ : ١٧١ .
(٤) راجع الأغانى ٨ : ٩٥ ومروج الذهب ٢ : ١٥٥ .
(٥) البيان والتبيين ٢ : ١٧٦ .
(٦) الأغانى ٦ : ١٥٠ .

الفصل الثاني

الحياة الاقتصادية والاجتماعية لهذيل

— ١ —

النظم الاقتصادية وتوزيع الثروة

(أ) مقدمة :

مما لا شك فيه أنا نفيد حين نتلمس — على ضوء ما جمعناه لهذيل — حقيقة تلك الحالة التى كانت عليها هذه القبيلة . غير أنا نبادر من الآن بالإشارة إلى أن المعلومات التى وصلتنا لم تكن من الوضوح والكثرة بحيث تنتهى بنا إلى تصوير صادق للحياة ، فضلاً عن أننا نريد لها حدوداً ترسم لها شخصيتها المستقلة .

ومع ذلك فالأمر لم ينته إلى شيء من غموض أو تخبط ، فهذيل كانت — على أى حال — إحدى قبائل العرب ، ولم يكن يميزها عنها إلا أمور طبعت المجتمع الهذلى بطابع فريد طريف ، هذا ما سنأخذه بالتفصيل بعد قليل . ومن المفيد لنا بعد ذلك أن نتناول فى هذه المقدمة حياة العرب ونظامهم الاجتماعى بإشارات سريعة حتى نستطيع فهم ما نريد الوصول إليه .

والنظام الاجتماعى للعرب قوامه القبيلة ، هذا ما يتفق عليه الجميع ، كما يتفقون على أن أساس هذا النظام قرابة أو دم ، لأن الأسرة هى الخلية الأولى ، وهى ما يسميها رجال الاجتماع بالزمرة ، ويقولون عنها إنها « الطائفة الاجتماعية التى لا تحتوى والتى لم تحتو قط على طائفة أقل تركيباً منها ، ولكنها تنحل مباشرة إلى أفراد يوجدون جنباً إلى جنب »(١) . وفى حياتها العامة تنضم على طاعة أب

---

(١) أميل دوركايم فى قواعد المنهج فى علم الاجتماع ١٤٠ .

واحد هو صاحب الكلمة . ولكن قد يكون من الأسرة أيضاً ناس لا تربطهم قرابة أو دم وهؤلاء هم الرقيق ، والأحلاف والجيران . . وتسرى عليهم أحكام رب الأسرة .

ومن الطبيعي — لحاجات اقتصادية أو مادية — أن تتجاور أسرة وأسرة بهما قرابة ، وتجتمع واحدة بأخرى فتتسع الدائرة ، ويكبر الأفق ، ويكون لهم مع ذلك مقومات ذاتية تدفعهم فى اتجاه واحد ، ويخضعون لرئيس واحد ويكونون ما يسمى العشيرة Clan وأصبحت هذه الجسر الذى عبرته العرب لتكوين القبيلة كأساس لحياتهم الاجتماعية .

وإذا حاولنا أن ننظر إلى ما وراء ذلك كله نجد أن هناك ما هو أقوى من القرابة والدم . هناك — فى نظرى — اتفاق على المصلحة فى العيش ، فقد كان عليهم أن يتضامنوا لحراسة مراعيهم ، ويتعاونوا على حماية ما يملكون من إبل وماشية .

ونظرة فى نظام القبيلة تكشف عن شيئين تقوم حياة العرب بهما وعليهما ، الخضوع المطلق لشيخ القبيلة أو رئيسها ، والتحرر المطلق فى صلاتها (الخارجية). وهاتان الظاهرتان تفسران كل ما كان يحدث فى المجتمع العربى . والحق أن هذا كان يتفق ورأيهم فى حياة ليس لدوامها سوى الاعتماد على الجماعة ، فكان كل منهم يؤيد الآخر وينصره ظالماً كان او مظلوماً . ونصرة ابن القبيلة أمر طبيعي واجب طالما كان يضمن البقاء لها ، فلم يكن ثمة عدالة كما نفهمها نحن اليوم ، ولم يكن من سبيل إلى التمسك بقيم عامة بعيدة الآفاق لها أساس خلقى متين ، بل كانت هذه العدالة تحقيق الحاجة وقضاء المصلحة ، وكان هذا يجعل القبيلة لا تؤمن إلا بنفسها ، وتحرص على بقائها بأى سبيل .

وكذا نرى القبيلة تضمن بقاء الفرد وتحميه ، وكان على الفرد من اجل ذلك أن يفى بجملة تعهدات تعد بمثابة (قانون) داخلى ملزم . وإذا كانت (قواعد) هذا القانون أو نصوصه تتشعب فكلها تدور حول شيء واحد أو كلها ترد إلى شيء واحد هو احترام رأى الجماعة . فلم يكن من سبيل إلى غير ذلك ، اللهم إلا إذا أراد فرد أن يمزق وحدة القبيلة ، ويسيء إليها بأى سبيل ، فلا نعجب

بعد ذلك حين يقول أبو سفيان عن قريش وكان سيداً فيها « أنا رجل منها ما فعلت فعلت[1] ». ولا نعجب أيضاً حين تجمع القبيلة كلها على حماية ابنها فتدفع له الدية إذا قتل فرداً من قبيلة أخرى ، اما إذا قتل واحداً من قبيلته هو عدّ مجرماً وطورد أو خلع ، فيصبح وحيداً ضعيفاً لا يأمن على حياته حتى ينضم إلى قبيلة أخرى تحميه .

وإذن كان الفرد جزءاً من كل يكمله ويكمل هو به ، وله أن يأخذ منه في الحد المرسوم ، وفي نظير ذلك يعطيه ما هو في حاجة إليه . فكانت المسئولية مزدوجة ، وازدواجها كان أساس التضامن القبلي ، فترتب على ذلك أن أحداً لم يعش لنفسه ، وإنما عاش لعصبيته ، وحافظ عليها ، وكانت أعظم ما يفخر بها .

على أن انعدام التنظيم الاجتماعي وعدم قيام حكومة منظمة أوقع أفراد القبيلة كلهم تحت تهديد الغزو أو الاستيلاء على مراعيهم والسطو على ما يملكون من إبل . ومن هنا كان من الضروري أن يكونوا جميعاً على استعداد تام للحرب يجيدون الكر ، ويحسنون الرماية .

(ب) طبقتان :

ولسنا نرى أن البحث عن هذه النظم يكلفنا مشقة أو يضطرنا إلى إطالة ، فقد قرّ الرأي على الأسلوب الذي كانت الجماعات القبلية تأخذ به في اقتصادها ، وفرغ الناس من التدليل على أن ثمة تبايناً بين سكان البادية وسكان المدن .

فالأولون رعاة يتبعون الكلأ ، ويظعنون وراءه ، فلم يبنوا بيوتاً ، ولم ينشئوا حضارة وظلت حياتهم بسيطة ساذجة ، يكتفون بما تنتجه أبلهم ومواشيهم من لبن ولحم وصوف أو وبر . وفي الأسواق تتاح لهم الفرصة ليختلطوا بسكان المدن ويحصلوا على التمر والخبز والأقمشة(٢) .

وأما سكان المدن فالحجازيون منهم هم من يعنوننا . وهؤلاء لم يبلغوا ما بلغه سكان اليمن من حضارة ، وإنما كانوا وسطاً بين هؤلاء وبين أهل

---

(١) الواقدي : كتاب المغازي ٢٠٠ .

(٢) تاريخ العرب والإسلام ٥ (طبعة دار الكتب العربية ببغداد) .

البادية . ومع أن بلادهم كانت قليلة الخيرات فقد كان ثمة مراكز تجارية ودينية يصيبون منها نوعاً من الرخاء ، وكان ثمة مناطق زراعية غنية بالطائف ويثرب . ويقال إن خيبر كانت عامرة بأنواع الحدائق والمزارع والنخيل ، فكان كثير من العرب يمارسون فيها أنواع الفلاحة(١) .

هذا وكانت المنطقة بين مكة والمدينة وطولها ثلاثمائة ميل تقريباً تقطعها قوافل التجارة . وكان اليهود يفدون على مكة فى تجارة ، وأهل الحرم يقصدون يثرب وخيبر يجلبون منهما ما هم فى حاجة إليه ، ويذكر الواقدى أن نساء مكة كن يتحلين بحلى تستجلب من خيبر بوجهٍ خاص(٢) .

وهكذا كانت الأعمال التجارية فى مكة مرتبطة ارتباطاً شديداً بأهل يثرب وخيبر ، فاستطاع سكانها أن يكونوا ثروات ضخمة إلى حد أنهم عاشوا عيشة مترفة ، يلبسون الحرير ويستعملون فى بيوتهم الخزف الصينى ، ويتطيبون ، ويسخرون الفقراء فى أعمالهم ، ويستخدمونهم لقضاء مصالحهم(٣) ، وفى فصل الحرارة يهرعون إلى الطائف فيقضون فيها أيامَ الصيف .

وإذا كانت هذه أنواع الحياة فى إقليم الحجاز ، فما لا شك فيه أن حياة الآخذين بها تختلف وتتباين . وإذا بنا نجد طبقة من العرب تعنى بالزراعة وطبقة أخرى تنصرف إلى التجارة ، وطبقة ثالثة تأخذ بالرعى والصيد . وكل من هذه تكاد تكون وحدة اقتصادية تستقل بحياتها فى بيئة معينة .

على أن هذه الوحدات الاقتصادية لم تكن كل شيء فى توزيع الثروة ، فقد كانت هناك طبقة من السادة أو الأشراف . وهم يسكنون المدن ، ولا يقومون بعمل وإنما يؤديه لهم الأرقاء والعبيد والمأجورون من الطبقات الفقيرة سكان البادية فى الغالب ، فيزرعون ، أو يرعون لهم الإبل ، أو يصحبون بعضهم فى التجارة كأدلاء أو حراس . ولم يكن الأغنياء يعتقدون أن للفقراء حقًّا

---

(١) إسرائل ولفنسون – تاريخ اليهود فى بلاد العرب مطبعة الاعتماد ١٦٩ .
(٢) المغازى ٢٧٧ .
(٣) تاريخ العرب والإسلام ٦ .

فيما يملكون . وكانوا أحياناً يقرضونهم بالربا الفاحش . وإذا لم يرضخوا فلا عليهم بأس ، فهم لم يفقدوا شيئاً إذا لم يعطوهم أى شيء .

من هذا نرى أن المجتمع العربى الأكبر كان طبقتين : السادة الذين يملكون والفقراء الذين كان منهم العبيد . وبذلك تكتمل صورة الموت السريع الذى كان يقضى على المجتمع العربى قبيل التبشير بالدين الجديد .

وفى وسعنا أن نلمس أيضا هاتين الطبقتين فى البدو ، فنجد منهم طبقة أصحاب الإبل ، وهم يشبهون السادة سكان المدن مع الفارق فى (نوع) الحياة والأخذ بها . كما نجد منهم هذه الطبقة الفقيرة التى لا تملك شيئا . وكان الفرق الاقتصادى بينهما من السعة بحيث كان البدوى الفقير لا يجد مناصا من السطو على الأغنياء ، والترصد للقوافل فى عرض الطريق .

— ٢ —

نشاط هذيل الاقتصادى وطبقاتها الاجتماعية

(ا) نشاط هذيل الاقتصادى :

وما تحدثت هذا الحديث إلا لأصل إلى هذه الناحية ، وأنا أميل إذا ذكرتها إلى أن أذكر البيئة الطبيعية لأنهما معا أساس الحياة الاجتماعية . والواقع أن هذه البيئة لا تستكمل عناصرها إلا إذا بحثنا عن نشاطها الاقتصادى ونظرنا فيه وناقشناه . وإذ ذاك يتاح لنا فهم الأشخاص ، وما المجتمع إذا لم يكن (أشياء) و (أشخاصا(١)) . أما الأشياء فتلعب دوراً هاماً فى نفسية أفراد المجتمع فتكيفهم وتحدد خطاهم ، وتقهرهم على نوع خاص من الحياة . أليس أثرها يشمل جميع أجزاء الكائن الحى ؟

وهذيل كقبيلة لم تنزل مدناً أو قرى بالمعنى الذى نفهمه ، كانت أميل إلى البداوة . وأعنى بذلك أن سوادها لم يكن يعرف حياة الاستقرار ، ولم يكن له ثروة قائمة على الزراعة ومن المعقول بعد ذلك أن تتوجه عناصره إما إلى التجارة وأما إلى الرعى وإلا فالصيد والغزو . ولا يعنى ذلك مطلقاً

(١) قواعد المنهج فى علم الاجتماع ١٨١ .

انتفاء وجود عشائر هُذَلية كانت تأخذ بالزراعة لا سيما إذا كانت تنزل مواطن غنى تغزر بها المياه . وليس من المستبعد بأى حال أن يقوم فى بعض قراها نوع ساذج من الزراعة ، ففى رُهاط مثلاً تهيأ الأرض لنوع من الخصب وتنحدر إليها عيون من شمنصير تربو على السبعين(١) . وكان وادى عليب من الأودية التى تكثر فيها المياه تنحدر عليه من أعجاز السراة(٢) فتقوم زراعة بسيطة عمادها الحبوب .

والمنطقة التى بين مكة والطائف من المناطق التى يختلط فيها الرعى بالزراعة وهى من أخصب أجزاء الحجاز(٣) . وكانت حياة الطائف ترتبط أشد الارتباط بها ، وكان من الهذليين من يسكن حولها ، وفى غزوان بالذات كانت ثمة أشجار فاكهة تنتفع بثمارها هذيل ، وتأخذ بحياة زراعية إن لم يكن أحد قد أشار إليها فطبيعة الإقليم توحى بها أو تقررها .

أما التجارة فلا تحدثنا الأخبار عنها ، وتسكت كما سكتت عن الكثير مما نحن فى حاجة إليه . ولكن من السهل أن نقول إن تجارة الحجاز لم تكن فى يد هذيل وإنما كانت — كما رأينا — فى يد أهل يثرب وخيبر ومكة . ويحدثنا القرآن الكريم أنه كان لقريش رحلتان كبيرتان إحداها إلى اليمن زمن الشتاء والأخرى إلى الشام فى فصل الصيف « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف(٤) » هذا عدا قوافلها التى كانت تقطع الحجاز طول العام ، والرسول فى حداثته كان يشتغل بتجارة للسيدة خديجة ومن المؤكد أن أعماله التجارية كانت ترتبط بتجارة اليهود فى كل من يثرب وخيبر ، وابن هشام يروى لنا خبر خروج النبى فى التجارة إلى الشام(٥) .

والواقع أنّ هذيلا لم تستطع أن تقف بتجارة أمام هاتين القوتين الهائلتين : قوة اليهود وقوة قريش ، ومن هنا نستبعد أن يكون لها حظ الاشتغال بالتجارة

---

(١) معجم ما استعجم ٢ : ٨١١ .
(٢) المصدر السابق ٢ : ٩٦٥ .
(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٣٦٨ .
(٤) سورة قريش .
(٥) راجع السيرة ١ : ١٦٩ .

اللهم إلا إذا كانت تقنع بتبادل محدود تقوم به فى الأسواق التى تقع على الطرق التجارية أو فى الأسواق الكبرى كعكاظ ومجنة وذى المجاز ، والأخيرة كانت لها على نحو ما رأينا .

فإذا كنا نقرر أن بعض عناصر من هذيل كانت حياتها الاقتصادية تتصل بحركة التجارة ، وتشترك فيها حسب طاقتها المادية ، وتأخذ فى ذلك سبيلاً مشروعة ، فإنا نجد عناصر أخرى منها تتنكب هذه السبيل وتجعل صلتها بهذه الحركة صلة عداء ، لأنها لم تكن تجد ماتبادل به سوى الغدر .. ثم تعود ظافرة !

كانت هذيل إذن متأخرة دائماً عن القافلة. وكان هؤلاء الذين ينشطون للتجارة يكونون طبقة خاملة فى جملتها تعيش مع غيرها فى شعاب مكة وأطرافها البعيدة ، وتسكن بيوتاً حقيرة ، وتعانى جوعاً ملحاً[1] . وكذا يمكن أن نقول إن اختلال التوازن الاقتصادى القائم على التجارة أضر بهذه الطبقة من هذيل ، وهيأ للكثيرين منها حياة شاذة .

بقى الرعى بعد هذا كله ، وكان قائماً فى البوادى ، ويأخذ به كثير من القبائل ومنها هذيل . والواقع أن طبيعة الإقليم كانت تستلزم هذا النوع من الحياة لا سيما فى تلك الأماكن التى يتعذر فيها الأخذ بأى نشاط اقتصادى سواه . وتنحصر ثروة هؤلاء البدو فى امتلاك القطعان[2]، ومن الطبيعى لذلك أن تكون الإبل مقياس غناهم فتحدد مركز الفرد فى مجتمعه ، وتكيف النظم والمظاهر الاجتماعية التى تحيط به . وتفسر لنا حالاته المادية التى تتضمن مستوى معيشته Standard of life

وكذا نستطيع أن نتعمق قول الله تعالى « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون » فهى عماد حياتهم وأساس معاشهم ، إذ حرموا كل شىء سواها ، فكانت استقامة اقتصادهم مرتبطة بها موقوفة عليها . وهى من جانبها كانت تلائمها البادية . ولا تكاد تظفر بكل ما تريد إلا فى بطاحها ، تمضى فيها وهى أصبر ما تكون على الجوع والعطش والحر .

---

(١) بندلى جوزى — من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام ٢٠ وما بعدها .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٣٧٤ تحت كلمة Arabia

وما نرى هذيلاً إلا مهتمة بها قلقة عليها ، بذلك يحكم العقل ، ويؤيده كل ما يروى عنها . ولو عنّ لنا أن نتحدث عما كانت تجده فيها من غناء لوجدناها تشبه فى ذلك سائر الأعراب ، فهى تأكل لحومها ، وتشرب ألبانها وتكتسى من أوبارها ، وتقوّم بها الأشياء ، وترتحل معها وراء الكلأ .

ومع هذا فهى لا تقارن بغيرها فى هذا المضمار ، فقد ضنت عليها الظروف بما سمحت به لغيرها ، فوصفت من قديم بالفقر ، وقيل عنها إنها لم تكن من أصحاب الدواب وكانت رجالة[1] ، ولا ينبغى أن نقبل هذا الكلام دون تحفظ ، إذ المسألة على ما يبدو اعتبارية ، وكثرة الرجالة فيها لا يصح أن نربطه فقط بهذه الظاهرة . وأظن أن للبيئة الجبلية دخلاً كبيراً فى ذلك .

هذيل كانت — على أى حال — تمتلك القطعان ، وذلك ما يردده الأصمعى[2] ولكنها كانت على ما يظهر فى يد طبقة صغيرة حُرمها الباقون إلا قليلاً . ووجد بعد ذلك من يقول عنها إنها لم تكن تملك النعم .

والإبل كانت تستلزم نوعاً خاصاً من الحياة لا سبيل إلى سواه ، وحتمت على هذيل أن تأخذ بالرعى فى أنحاء البادية . وكانت من أجل ذلك تنزل هذه الوديان التى تمتلىء بماء السيول حيث ينمو العشب ، فتجد فيه مرعى لشاتها وإبلها . ومن المحقق أن هذه الإبل جرّت عليها من العناء ما لا ينكره أحد ، وقلتها فى أيدى أبنائها واجتماعها لدى قلة فيها كان يجر عليها كثيراً من ضروب الإرهاق والشقاء وإذا أردنا أن نتبين صدق ذلك وجدناه فى شعرها بحظ موفور .

وما نظن أنا نسينا ما كان من أمر ساعدة بن عمرو فى يوم العوصاء أو الرحى وكانت ناقة عمرو بن قيس المخزومى سبباً مباشراً فى تطاير الهجاء بينهما حتى نال بنى قريم عامة .

كانت دائماً همّ صاحبها الشاغل ، يفكر فيها فى الوقت الذى يريد أن ينجو فيه . بل ربما فكر فى إنقاذها قبل التفكير فى إنقاذ نفسه . وروت الأخبار أن الهذلى كان يوالى أعداءه عليها حتى تخلص له ، فقد قيل إن رجلاً من بنى سهم

(١) السكرى فى ديوان الهذليين ٢ : ٧٦ .

(٢) قال إنهم كانوا أصحاب جمال (ديوان الهذليين ١ : ١٧) .

ابن معاوية كانت له إبل أوارك ، وكان يسكن بها وسط خزاعة ، فلما تحارب بنو سهم وخزاعة قيل له: ارجع إلى قومك! قال فكيف أصنع بإبلي؟ قالوا: أهلكها (أى بعها) قال : لا والله لا أفعل ذلك ، ولكني أواليهم عليها ! وقد فعل[1] .

ولكن أبا جندب بن مرة لا يفعل ذلك ، ويتحايل فى إنقاذها حتى ينجح . فالجمحى يروى أنه حين جاور هو وأخوه جنّاد بنى نفاثة بن عدى ابن الديل كانت له إبل كثيرة ، ثم إنه أحس أن القوم يريدون الغدر به لما كان من وطأة لحيان عليهم ، فواعد أخاه على الهرب وقال له : اسرح مع نعم القوم ثم توقف حتى تمر عليك كلها وأنت فى آخرها سارح إبلك ، واتركها متفرقة فى المرعى ، فإذا غابوا عنك فاجمعها واطردها نحو أرضنا .

وتناول أبو جندب دلوه ، وورد مع الرجال ، فاتخذ القوم الحياض . وأخذ هو واحدا ملأه وقعد عنده . فمرت به إبل ثم إبل ، حتى ورد آخر النعم ولم ير أخاه . فقال : والله لقد حبس أهلى حابس . ثم طرح دلوه على الحوض وانفلت حتى أدرك أخاه وهربا بالإبل[2] .

وكان لأبى جندب أخ يقال له الأسود ، راح ضحية ناقة لرئاب القردى ، وذلك حين كان على ماء من داءة فى صدر نخلة ، وهو يومذاك شاب صغير « فوردت عليه إبل لرئاب بن ناضرة بن مؤمل القردى ، ورئاب يومئذ شيخ كبير ، فرمى الأسود بسهم فى ضرع ناقة من إبل رئاب فاستفزّ الشيخ الغضب فضربه بالسيف فقتله »[3] .

وأما أبو خراش فهو لا يثور عندما يعلم أن أخاه عروة يغزوه ليلاً ويسطو على شائه ولكنه يندفع غضبان حين يعلم أنه أخذ إحدى نوقه . ويفصل أبو الفرج القصة فيقول « فبينا أبو خراش ذات يوم فى بيته إذ جاءه عبد له فقال له : إن أخاك جاءنى وأخذ شاة من غنمك فذبحها ولطمنى لما منعته منها ! فقال له : دعه ! فلما كان بعد أيام عاد فقال له : قد أخذ أخرى فذبحها ! فقال : دعه ! فلما

(١) شرح أشعار الهذليين صفحة ١٢٠ .

(٢) راجع القصة كاملة فى الأغانى ٢١ : ٤٥و٤٦ .

(٣) شرح ديوان الهذليين ٧٩ .

أمسى قال له : إن أخاك اجتمع مع شرب من قومه ، فلما انتشى جاء إلينا وأخذ ناقة من إبلك لينحرها لهم فعالجته فوثب أبو خراش إليه فوجده قد أخذ الناقة لينحرها فطردها أبو خراش . فوثب أخوه عروة إليه فلطم وجهه وأخذ الناقة فعقرها »[1] .

ليس لنا بُـدٌّ إذن من أن نقر باعتزاز هذيل بإبلها ، وما نرى أنا بحاجة بعد ذلك لنعيد القول فى قيمتها ، فذلك شىء فهمناه ، ولمسناه ، وأحسسنا به . وبحسبنا أن تسمى عندهم مالاً ، حتى لا نـكاد نظفر إلا بهذه التسمية فى كل حديث عنها .

وتتخذ الناقة فى شعرهم شكلين مختلفين : احدهما أن تـكون سبباً لبعض ما يقوله الشعراء كما حدث فى يوم العوصاء ، وكما يروى عن الأعلم أنه كان قد أعطى بعيراً فنحره ، وكان أعجف فعابت عليه جارة له ذلك اللحم فقال :

زَعَمَتْ خناز بأنّ بُرمَتَنا تغلى بلحمٍ غير ذى شَحْمِ[2]

أما الثانى فهو ظهورها فى الشعر فى معرض الفخر ، والاعتداد بالنفس ، والتمدح بنحرها للضيفان ومايجرى هذا المجرى . من ذلك مايذكره البريق عن قومه وأنهم كانوا أهل غنى يملـكون المال :

بِشِقِّ العِهادِ الحُوِّ لم تُرْعَ قبلنا
لنا الصارخُ الحُثْحوث والنَّعَم الكُدْر[3]

والمعنى بإضافة ما يورده قبلُ أنه كان يرى أهله بين (مرٍّ) و (ساية) وبأمكنة أخرى لم يرعها أحدٌ قبلهم ، فكان لهم فيها الجمال السريعة والنوق المغبرة .

وقيس بن العيزارة يطلعنا على صورة حية لاعتزاز هذيل وغيرها بالإبل ، وذلك حين أراد أن يفتدى نفسه من فهم :

---

(١) الأغانى ٢١ : ٦٠ (ط . بولاق) .

(٢) شرح أشعار الهذليين ٦٥ .

(٣) ديوان الهذليين ٣ : ٦٠ العهاد : يقالُ عهد المكان أى أصابته العهادة وهى أول المطر والعهاد واحدتها عهدة ، الحو : جمع مفرده حواء وهى مابها سواد إلى خضرة ، الصارخ الجمل ، الحثحوث : المتحرك السريع ، الكدر : غبر الألوان .

فقلت لهم : شاء رغيب وجامل وكلكم من ذلك المال شابع
وقالوا : لنا البلهاء أولَ سؤلةٍ وأعراسها والله عنى يدافع(1)

فقد كانت أولَ ما سألت عنه فهم البلهاءُ ناقتُه وألاَّفها ، وكان عرض عليها شاء كثيراً وجمالاً تغنيهم .

وأبو دؤيب يتناول النوق فى شعره كثيراً ، حتى لكأنما يريد أن يقفنا على هذه الطبقة من هذيل التى تملكها على مدى واسع ، فلم تكن تجد بأساً من التصدق على الفقراء ، ونحرها للضعاف فى أوقات الشدة ، ففى موضع يقول :

فإنكِ لو ساءلتِ عنى فَتُخْبَرِى إذا البُزْلُ راحت لا تَدُرُّ عِشارُها
لأنبئتِ أنا نجتدِى الفضلَ إنما يُكلِّفُه مَنَّ النفوسِ خيارها
لنا صِرَمٌ يُنْحَرن فى كلِّ شَتْوَةٍ إذا ما سماءُ الناسِ قَلَّ قِطارُها(2)

وفى موضع آخر يقول :

ومُفْرِهةٍ عنسٍ قَدَرْتُ لِرِجْلِها فَخَرَّت كما تتَابع الريح بالقَفْل
لِحَىٍّ جياعٍ أو لضيفٍ محوَّلٍ أبادر ذِكراً أن يُلَجَّ به قبلى(3)

ومثل هذا نراه مفرقا فى أشعار الهذليين ، وليس ينبغى أن نقف عنده أكثر من ذلك ، فقد طال بنا السرى ، وبعدت الشقة بيننا وبين ما نريد .

ولكن أليس من حقنا أن نسأل : وماذا كان الدور الذى لعبته الخيل فى حياة هذيل ؟ إننا لن نفهم بعمق ماعرضنا له وكيف بلغ حبها للناقة ، وإيثارها لها ، واعتبارها فى المكان الأول فى معاشها . . لن نفهم شيئاً من هذا إذا لم نقف عند رواية الأصمعى حين قرر أن الهذليين لم يكونوا أصحاب خيل فاعتادوا أن يغيروا رجالة(4) ! نعم ، ولن نفهم شخصية هذه القبيلة ، وانصرافها إلى

(1) المصدر السابق ٣ : ٧٧ شاء رغيب : كثير ، جامل : جمع جمال ، البلهاء : ناقته ، أعراسها : أصحابها وألافها ، العيزارة : أم الشاعر نسب لها ويروى عيزارة .

(2) ديوان الهذليين ١ : ٢٦و٢٧ . عشارها : حديثة النتاج منها ، نجتدى : نطلب ، صرم : قطع من الإبل ، قطارها : أمطارها .

(3) نفس المصدر ١ : ٣٨و٣٩ مفرهة : ناقة تأتى بأولاد فواره ، عنس : شديدة ، قدرت لرجلها : ضربت رجلها وعرقبتها ، بالقفل : بالنبات اليابس .

(4) المصدر السابق ١ : ١٧ .

ملكاتها هي وقواها ، وخوضها الحربَ على الأقدام إذا لم نتكلم عن هذا الحيوان قياماً بما كان له فى نفوسهم .

وابدا فأقرر أن الأصمعى اصاب حين قال قولته ، وبقدر ما أخطأ السكرى فى زعمه عن النوق كان هذا مصيباً ، فالحقائق كلها تقرر أن هذيلاً لم تكن تهتم بالخيل اهتمامها بالإبل ، وفى نظرى أن هذا راجع إلى شيئين ، إلى أن منطقة هذيل لم تكن صالحة فى جملتها لتربيتها لأنها جرداء صلبة مجدبة ، والخيل لا تكون إلا حيث الخصب وسهولة الأرض كما فى نجد والجوف[1] . هذا إلى أن الخيل لم يكن يقتنيها سوى الأغنياء ، فكان الجواد الواحد يعدل خمساً وعشرين ناقة ويحتاج دائماً إلى الماء الكثير[2] ، وذلك ما يحول دون اقتناء الهذلى له . فلا نعجب حين يحاول شعراء هذيل وصف الخيل فيخطئون كما فعل أبو ذؤيب[3] .

إلا أن هذا لا يعنى مطلقاً جهلهم بها أو عدم اقتنائهم لها ، لا سيما الأغنياء منهم ، وكان ثمة من وصفها وصفاً دقيقاً كساعدة[4] . فلو أردنا بعد ذلك أن نلتمس لها أثراً فى حياتهم ، وجدنا هذا الأثر سلبيا ، فعدم وجودها فى معاشهم على نطاق واسع شجع أبناءها على أن يكونوا رجّالة ، ويكثر من بينهم الفرار العداءون ، تشد أزرهم طبيعة صلبة وعرة ، تمنح سوقهم عضلاتٍ فولاذية .

وكذا يتضح لنا كلُّ شيء ، وإذا بالقبيلة تأخذ نفسها بالرعى أخذاً مهما يكن فهو أعمق مما كان فى الزراعة والتجارة . ونحن لا نستطيع ـ مع ذلك ـ أن نحدد أى بطونها كان يعمل فى هذا ، وأى عشائرها كان يعمل فى ذاك ، لأنا لا نجد إلى ذلك سبيلا ، ولكنا نشير إلى أن البطن الواحدة قد توزع قواها بين الرعى والتجارة أو بين أحدها والزراعة ، وليس من البعيد أن تجمع بين الثلاثة إلى جانب أمور أخرى ستكون موضع الحديث إن شاء الله .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣٧١ .

(٢) نفس المرجع والموضع .

(٣) راجع على سبيل المثال ديوان الهذليين ١ : ١٦و١٧ .

(٤) نفس المصدر ١ : ١٨٥و١٨٦ .

ومن الحق أن للحياة عند هذيل وجوها شتى وفنونا متباينة ، ولسنا نغلو إذا زعمنا أنها كانت تلائم بين ما تريد وبين ما هو كائن ، فإن كان رعى رعت ، وإن كان تجارة تاجرت ، وإن كان غير هذا وذاك فهى مكيفة ظروفها لما هو موجود . فإذا رحنا نلتمس فى شعرها غير كل ما تحدثنا عنه وجدنا أشياء أخرى كانت من الوضوح بحيث يمكن أن نقول إن نشاط هذيل الاقتصادى كان يتصل بها أو يرتكز عليها ويدور حولها .

وإذا كانت الأخبار تروى لنا أن الصيد كان بعض متاع العربى ورياضة حبيبة يخرج لها بالكلاب والصقور[1] ، فقد كان لدى عشائر كثيرة من هذيل أساساً لاقتصادهم . وشعرهم حافل بأحاديث الصيد ووصف حيوانه ومن يقومون باقتناصه . ويعرض فى بساطة رائعة صوراً إنسانية مؤثرة لصَيّاديهم فإذا هم أناس قست عليهم الحياة وأذاقتهم ضروبا مختلفة من الآلام ، ولكنهم مع ذلك ذوو بأس شديد ، وأجسامهم المهزولة ، وسواعدهم المعروقة ، وصفحاتهم المغضنة تخفى وراءها أيْداً لا حد له ، وَجلَداً استمدوه من قسوة الجبل وصلابة الصخر .

ويقوم إزاء الصيد قصص ذو نغم حزين ، يصوّر حال هذه الدنيا التى لا يبقى على حدثانها أحد ، فلو قرأنا لأبى خراش مثلاً بعض هذا القصص نرى كيف كان يتخذ الصيد مواد للوحاته المؤلمة . وفى شعر أبى ذؤيب وساعدة أمثال ذلك القصص وهو ما سنتناوله بالتفصيل فيما بعد .

على أن هذه الصورة الطريفة الواضحة التى مثلها الشعر ، والتى كانت باباً من أبواب الرزق أمام هذيل ، لم تكن إلا بعض جانب مما كانت تأخذ به القبيلة نفسها ، وأما البعض الآخر فهو اشتيار العسل ، وهو فى اعتبارنا لون آخر من ألوان الصيد ، وفيه من ألوان المخاطرة والمشقة والعناء ما فى الصيد نفسه ، بل كان يضطر الهذلى فى أغلب الأوقات إلى أن يعرض نفسه للموت السريع الرهيب . فإذا التمسنا الدليل على ذلك كان من اليسير أن نحصل عليه فى الشعر ، وسنرى من أمره ما لا يدع إلى نفوسنا شكاً .

---

(١) دائرة المعارف ٣٧٤ .

واشتيار العسل كان سائداً فى منطقة السراة بين مكة والطائف بالذات ، وفى تعليل ذلك كثرة مافى هذه المنطقة من جبال عالية تجذب إليها النحل لما فيها من موارد ماء تنبت على حوافها ألوان مختلفة من الزهر .

وطبيعى أن ترتبط حياة بعض هذيل بهذه الناحية ، ويتعرضون من أجلها لأنواع شتى من المشقة . ولقد ظهرت هذه النتيجة فى غزوات تأبط شرًّا المستديمة لأحد جبال بنى لحيان ، وكان يأتيه كل عام يشتار منه العسل خفية . وليس من بأس إذا عرضنا لإحدى هذه الغزوات فإنها تقفنا على الأسلوب الذى كانوا يلجئون إليه فى الحصول عليه ، والمتاعب التى يلاقونها فى سبيله .

قال ابن حبيب : « أتى — تأبط شرًّا — جبلاً فى بلاد بنى لحيان من هذيل يشتار منه عسلاً ، وكان يأتيه كل عام . وكان ذلك الجبل منفرداً . وإنه أتاه وقد وضعوا عليه الرصد وكان معه نفر من أصحابه فدلّوا حبلاً لهم فتوصل به تأبط شرًّا ، حتى صار إلى الغار الذى فيه العسل . ودلوا إليه الأسقية وذلك بأعين الهذليين ، حتى إذا قرّ قراره خرجوا على القوم فانكشفوا وتركوه فى الغار .

« فوقفوا على الغار ، فنادوه ، فأطلع رأسه ، فقالوا : اصعد ! قال : على ماذا اصعد ؟ قالوا — تصعد فنرى فيك رأينا ! قال : إن كنتم إذا صعدت أمنت من أن تقتلونى وقبلتم اليسير من الفداء منى صعدت نأكلون العسل الذى اشترته ؟ قالوا : نعم ! قال : لا والله لا جمعتم على قتلى وأكل عسلى . وجعل يصب العسل وهم يتعجبون ويضحكون حتى إذا فرغ واطرد العسل فأبعد ، أخذ زقًّا فشده على صدره ثم انحدر فى العسل . فلم يزل يزلق به حتى وقع بالأرض وبينه وبينهم ثلاثة أميال ثم انطلق فرجع إلى أهله(١) .

ومن ناحية أخرى نجد بعض شعر هذيل حافلاً بهذا الاشتيار ، منصرفا له ، حريصا على تسجيل ما يدور حوله من مخاطر ومتاعب . وهذا مثلاً أبو ذؤيب يصف مغامرة لرجل يشتار ، فإذا به يرسم بلمسات سريعة دقيقة صورة هذا الرجل فنراه أخا للصائد فقيراً معدما ، نحيل البدن هزيلاً ، ولكنه قوى شديد

(١) المحبر ١٩٧ .

المراس، يصعد ويرقى فى الجبل حتى يقف دوين الشمس . ويصل إلى ما يريد ويقفل راجعا، وكل ما له فى الحياة بعض العسل وبضعة سهام وحمل فيه لحم مقدد يقتات منه حين لا قوت(١) .

وساعدة بن جؤية يصف هذا الرجل بأنه ذو رجله، دقيق قصير، يحمل سقاء وأعواداً يخرج بها العسل من وقبته، ويعضى هذا الجرىء صعداً نحو القمة حتى يقف على شمراخ أملس تخاف العقاب الوقوف عليه ثم . . .

وكأنه حين استقل بريَنْدِها من د ن وقبتها لقاً يتذبذب(٢)

وهنا يجوز لنا أن نتساءل . لماذا كان الهذليون يقبلون على هذا النوع من الحياة وفيه ما فيه من الخطورة؟ الإجابة لا تحتاج إلى تفكير طويل أو بحث عميق، فهذا النوع فضلاً عن أنه يلائم نفوس ناس طَبَعَهم الإقليم على حب المغامرة، فإنه كان يهيء لهم لوناً من الاستقرار لم يكونوا يجدونه فى الرعى مثلا . قل إنه كان بابا إذا مروا منه لم يعترضهم أحد، ثم قل إنه كان بعض ما هيأتهم الحياة له، ومن هنا انصرفوا إليه . . هكذا يقول شعرهم، وهذا ما يقرره وجود النحل فى هذه المنطقة .

ولم يعدم الهذليون — بعد كل هذا — وسيلة أخيرة يجدون وراءها ظفراً ورزقا . ولعلها أشد الوسائل خطراً عليهم وعلى غيرهم، ولكنها كانت تتلاءم وهذه النزعات التى أثرت عنهم وعن غيرهم من العرب . وماذا تكون هذه الوسيلة غير الغزو؟ أجل فقد اتخذه الكثيرون من هذيل (مهنة) حين حيل بينهم وبين ما يريدون .

وما ينبغى أن ننسى أنّ الغزو كان شيئاً فى دم العربى البدوى يمتزج به ويسرى فيه . وكان دائما يقرر الصلات القبلية، بله الأسرية فى أحيان كثيرة . وكانت بواعثه — على نحو ما رأينا — تردّ إلى عاملين أحدهما اقتصادى مادى، والآخر أدبى معنوى .

ولكننا يجب أن نحتاط هنا ونسرع فنفرق بين نوعين من الغزو كانا عند

(١) ديوان الهذليين ١ : ٨٧و٨٩ .
(٢) نفس المصدر ١ : ١٨٢ .

هذيل . . غزو مشروع ترضاه العشائر ، وتجمع عليه ، وتتحد له . وغزو آخر لا يتم برضاها إذ يكون عبارة عن حركات فردية يقوم بها لأنفسهم أفراد طبقة شذَّت عن المجتمع ، وأبتْ أن ترضخ للعسر الذى يفتك بها ، والضيق الذى يقضى عليها .

أما هذا الغزو المشروع فقد تحدثنا عنه على أساس أنه كان اتجاها خارجيًّا للقبيلة فى العصر الجاهلى ، أو قل كان دستورا لعلاقتها الخارجية قبل أن يجىء الإسلام . ورأينا فى ظلاله أياما بعضها كبير وبعضها صغير ، وكانت هذيل عرضة لأن تنتصر أو تنهزم ، فالشيئان سواء .

وأما الصراع الفردى فكان نتيجة لتمرّد طائفة من الصعاليك على هذه الأوضاع التى تجعلهم دائما يعانون ضيقا اقتصاديا مخوفا . ولم يكن فى نفوس هؤلاء المتمردين ميل إلى أن يعملوا للأغنياء ، أو ربما لم تساعدهم الظروف كثيراً على الوصول إلى خدمتهم فكان عليهم — إبقاء لحياتهم — أن يحققوا ما ينشدون برماحهم وقسيهم .

أجل ، كان عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم بأسلوبهم الذى يختارونه ، فكان يجمعهم إحساس واحد هو أنهم مظلومون فى الحياة ، وكانت لهم رسالة واحدة هى أن عليهم رفع هذا الظلم عنهم بسواعدهم ، فكان لهم بذلك وجدان مشترك ، مما يحفزنى إلى أن أجعلهم فى طبقة اقتصادية واحدة . ألم يخضعوا جميعا لنظم خاصة مريرة فى الحياة فلم يرضوا عنها ؟ ثم ألا ترى أن ثمة ظروفا طبيعية واقتصادية أخذت تعمل على تكافئهم وانسجامهم بحيث كانت لهم تصورات جماعية واحدة ، أو وجدان طبقى واحد ، وماذا نريد من طبقةٍ ما غير هذا ؟

على أننا يجب أن نقرر أن هذه الطبقة المتمردة لم تستقل بنفسها عن الطبقة الفقيرة كلها ، ولم تخلعها القبيلة بدورها ، وإنما اكتفت بخلع بعضها ممن كانت وطأتهم شديدة كصخر الغَىّ وأبى جندب . وكأنّا نحس هنا منهم نوعا من الرضا حفزنى إلى أن أجعل غزوات هؤلاء بابا من أبواب الرزق عند بعض هذيل . وأكاد أجزم أن مبعث رضاء هذيل عن هذا النوع من الغزو أنه لم يكن موجها إليها إلا فى القليل . .

وهكذا نجد أنفسنا أمام طبقتين اقتصاديتين فقيرتين تشتركان معا فى الإحساس بالضَّنْك . أما واحدة فقد وجدت الحل إما فى خدمة السادة وإما فى أنها تقبل كل ما تأتى به الأيام ! وأما الأخرى فأبت هذا الحل وواجهت القبائل بِعُدْوَانِها وغزوها فكان ثَمَّ صراع مستديم طبع الكثير من شعر هذيل بطابع فريد لطيف شائق .

وإذا كنا قد استطردنا فى هذا البحث ذلك الاستطراد فليس لشىء إلا لنقول إن تاريخ المجتمع الهذلى — ككل مجتمع آخر — إن هو إلا تاريخ للصراع الاقتصادى بين العشائر . وينتهى هذا الصراع إلى تكوين طبقات اقتصادية تحدد فى الغالب قيمة أصحابها فى المجتمع وتكيّف لهم نظم الحياة . ففى مقابل هؤلاء المتمردين وغيرهم من الفقراء نجد الطبقة الغنية وهى تجمع أمثال (النويعم) ذلك الهذلى الذى قيل إنه سمى كذلك لنعمته[1] ، والذى أرى أنه ما سمى كذلك إلا لفرط ما كان يملك من النعم .

وعلى أى حال فسنجد أن هناك فرقا بين هؤلاء فى (نوع الحياة) مما يجعلنا نميز فى سهولة طبقة عن طبقة وهذا ما سنعرض له .

(ب) الطبقات الاجتماعية :

وفى حديثى عنها إتمام للفكرة التى أريد أن أفرغ منها هنا . وليس هذا الحديث بنافلة بعد ما بيّناه من فساد فى توزيع النظام الاقتصادى ، واضطراب بين ألوان مختلفة من الحياة . ولو قد أضفنا إلى ذلك ضعف الأثر الدينى فى النفوس — على نحو بيناه — تكتمل لنا الصورة السقيمة لما كان يربط بين أفراد هذيل من صلات وأسباب .

أجل نعترف بفساد ذلك المجتمع . . نعترف باختلال نظمه الاقتصادية ، ذلك الاختلال الذى قسم المجتمع إلى طبقتين متمايزتين لا توسط بينهما . طبقتين اقتصاديتين قوّمتا أصحابهما ، وحدّدتا مركزهم الاجتماعى . فالطبقة الغنية هى طبقة السادة ، والطبقة الفقيرة هى طبقة العبيد ، وليس لنا أن نتقصى هنا ما عرضنا له من قبل سببا لذلك فلن نضيف إليه جديداً .

---

(١) البقية ٤٩ .

على أننا يجب أن نشير إلى أن الطبقة الفقيرة برغم انطوائها على إحساس واحد ، وأخذها نوعا معينا من الحياة ، وسقوط منزلتها الاجتماعية لم تصبر كلها على ما كان من ضيم وذل ، ولم تأنس جميعها لما قيدها به السادة ، ولم تشأ أن تكتم فى نفسها سخطها وبرمها بهم . ولم تقعد بها نفوسها الطامحة القوية عن بلوغ قصدها . نعم ، لم تصبر كلها على كل هذا ، ورأت فيما قُدِّرَ لها أمراً لا يليق بها فى مجتمع يدين بالقوة ويمجد الشجعان ، فتمردت !

والحق أن المتأمل فى حياة هذه الطبقة يروعه الفرق الهائل بينها وبين الطبقة الأولى وليس ثمة تسلسل اجتماعى بينهما . ويلاحظ أنها برغم كثرة عددها كانت تسير وراء القافلة دائما . وتقرر الحقائق — آنذاك — أنها تكون مهينة ذليلة ، لا تملك حتى نفسها ، ولا تحظى إلا بازدراء الطائفة المترفة صاحبة الثراء العريض . وإذ ذهبنا نلتمس ما كانوا يسمون به ، رأينا فى اسمهم هذه الذلة التى ينضمون عليها أو تنضم هى عليهم . فهم صعاليك[١] والصاد والعين واللام ـ كما يقررون ـ أصل يدل على صغر[٢] .

وتمرد طائفة من الفقراء الصعاليك معناه وجود طبقتين ؛ فقد رأينا أن المتمردين كانوا يشعرون بأنهم مظلومون فى حياتهم . إلا أن ذلك لم يقف بهم عند العجز والخمول والقناعة وإنما انطلقوا يتخطون السدود ، ويحطمون هذه القيود التى كبلتهم بها الأوضاع ، ورسموا لأنفسهم الخطة ، فإذا كان ثمة من رضى — على فقره — بالذلة والحيف فهم ليسوا كذلك وعليهم أن يزيلوا « هذا الحيف المقدر بأسنة رماحهم ، معتقدين أن من الحلال دهم القوافل وسلب ما بأيديها تعويضا لهم عما لم تقدر أن تجود عليهم به أراضيهم القاحلة[٣] » وهكذا وضعوا خطتهم ، ورسموا طريقهم فى الحياة ، وآمنوا أن لبقائهم سبيلا غير سبيل

---

(١) فى اللسان : الصعلوك الفقير الذى لا مال له ، زاد الأزهرى : ولا اعتماد ، وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك (مادة صعلك) وفى تاج العروس نفس المادة : صعلكه صعلكة أفقره .. والصعلوك كعصفور الفقير كما فى الصحاح ، وزاد ابن سيدة الذى لا مال له . وفى جمهرة ابن دريد : أن الصعلكة الفقر (ما جاء على وزن فعلول ٣ : ٣٨٢)

(٢) ابن فارس — مقاييس اللغة (القسم الثانى لوحة رقم ٣٩٢) .

(٣) جوستاف لوبون — حضارة العرب ٨٢ .

الأذلاء هو « قطع السابلة وسلب ما بأيدى الناس[1] » . والقوا فى روعهم أن هذا نوع من الغزو او الفتح . وبذلك أضافوا للصعلكة معنى آخر لم يكن يقصده الأغنياء حين نعتوا بها المعدمين .

وكذا لا نخطئ حين نقول إن اصحاب هذا النوع من الغزو يجمعهم وجدان طبقي واحد عمل على تكافئهم ، فإذا هم طبقة ظاهرة مستقلة لها شخصيتها الخاصة وأسلوبها المعين فى الحياة . وهنا نسرع فنسجل ان كثيراً من شعراء هذيل كانوا من المترددين يعيشون مع الصعاليك الآخرين فى توافق اجتماعى حينا ويخلفونهم حينا آخر فى غزواتهم ، وبعض هؤلاء طلبتهم القبائل الأخرى فانطلقوا يختبئون فى الصحراء ، يعيشون بها مشردين متوجسين ، مطلوبين للثأر والقصاص ممن آذوهم وأغاروا عليهم ونهبوهم ،ومن هؤلاء مثلا ً ابو جندب .

ومهما يكن فأمامنا الآن طبقات ثلاث اجتماعية عرفها المجتمع الهذلى ، تمثل فيه هذا الشذوذ الذى كان يتلاءم مع بيئته الفقيرة الشاذة . أمامنا طبقة السادة ، وأمامنا الصعاليك الذين يعيشون فى توافق قبلى ، ثم أمامنا الصعاليك الذين فقدوا هذا التوافق .

طبقات ثلاث نتوقع ألا نجد بينها تشابهاً فى نوع الحياة ، ونتوقع الا تكون لها كلها من القيمة الاجتماعية ما لا نرى فيه اختلافاً . ليس هذا مستساغاً ، كما أنه لا يتفق والظروف التى تحيط بكل . ولو ذهبنا إلى أعمق مما يذهب إليه الدارسون ، ودرسنا كل واحدة على أساس بيولوجى لرأينا من الفروق فى تكوينهم العضلى وتكوينهم الخلقى الشيء الكثير ، فضلا ً عما نرى من اختلاف فى ذات الحياة ، وأسلوب الأخذ بها والاضطراب فيها .

ومع ذلك فلا نكاد نعثر فى دواوين هذيل على شعراء ارتضوا أن يكونوا فقراء فقط . أليس هذا عجيبا ؟ إنه ليشق علينا أن نصطنع بعضاً منهم ، ونؤول عنهم أقوالهم ، ونسمو بهم قائلين : ها هم أولاء صعاليك لم يثوروا ، وها كم شعرهم دليلا ً على ذلك ! يشق علينا هذا ، لأنه ليس فى مقدورنا ، ولأنه ليس

---

(١) نفس المرجع والموضع .

من الأسلوب العلمي في شيء . وليس يضيرنا — على أي حال — ألا نعثر لهؤلاء على شعر ، فإذا سكتنا عنهم فليس معنى ذلك انهم لم يكونوا موجودين ، وإنما سكوتنا عنهم دليل على ان أحداً لم يلتفت إليهم . وهذا يؤيد ما قلناه من قبل من ان الصعاليك كانوا أذلاء محتقرين ، لا يلتفت إليهم أحد ، ولا ينظر لهم إنسان .

أما لماذا حفظت الدواوين لنا شعر الصعاليك المتمردين فلأنهم شغلوا الناس بمغامراتهم ، ولأنهم اضطروهم إلى أن يحسوا بهم ، ويؤمنوا بوجودهم ، ويحسبوا لهم الف حساب ، وهذا ما كانوا هم يريدونه ويتطلعون إليه . كانوا أقوياء ففرضوا على المجتمع وجودهم .

ومن أشعار أولاء وهؤلاء سنرسم صوراً سريعة لما كانوا يأخذون به انفسهم ، بعضها لهذا المجتمع المستقر الغنى ، وما فيه من دعة ولين وأمن موفور ، وبعضها الآخر لهذا المجتمع الثائر القلق وما فيه من خشونة وخطر واضطراب كثير .

— ٣ —

مجتمع مستقر

(أ) بين الوادعين والذؤبان :

وإنما نريد تحت هذا العنوان أن نصور حياة هؤلاء وهؤلاء ، ونفرق بين أسلوبين فى المعاش يختلف كل منهما عن الآخر اختلافاً كبيراً ، وكلاهما يفسر جانباً للمجتمع الهذلى . وبغير هذا لا يمكن أن نزعم اننا درسنا هذا المجتمع وتعمقناه ورسمنا له الخطوط الواضحة البارزة .

وفى الحق أن سوء الحال الاقتصادية ، وغلبة الفقر على أبناء هذيل ، أوجد لنا هؤلاء الذؤبان كما يسميهم صاحب القاموس[1] ، فاستطعنا بمقارنتهم بالوادعين ذوى الثراء الموفور أن نتعرف الفرق الهائل والاختلاف الكبير بين حياة كل . وبينما نجد هؤلاء الذؤبان ضالين مشردين ، يتربصون للناس ، والناس يتربصون لهم ، يطالعنا الوادعون بحياة مترفة فيها من الفساد الخلقى ما لا يستطيع شعرهم أن ينكره .

ومما لا شك فيه أن الصلات الأسرية بين هؤلاء الوادعين لم تكن تخرج عما ألفناه فى حياة العرب . كذلك كانت الصلات القبلية قد أسسوها على العداء والحرب المستمرة او المحالفة والنصرة ، وبيئتهم الطبيعية تؤرث فى نفوسهم البغضاء فيتنازعون . . ينازعون أنفسهم ، وينازعون غيرهم ، وقد رأينا صوراً مختلفة لذلك النزاع .

فإذا نظرنا إليهم نظرة عامة وقرنّاهم بالذؤبان نشاهد أول ظاهرة ، لا يمكن أن نمر بها دون أن نقف عندها ألا وهى المسكن . فإن كانت البيداء مأوى الثائرين لا يجدون فيها أمناً ، نرى الآخرين يسكنون القرى ، وسفوح الجبال ، والحرار وهى أخصب البقاع وأصلحها للزرع .

وإذا كان الذؤبان يجعلون الناقة — فى الغالب — محط نظرهم ، ومنتهى آمالهم وغاية تفكيرهم ، ومدعاة لغزوهم ، فيقول مالك بن الحارث :

---

(١) مادة (ذئب) يقول فيها : ذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم .

فَلُوموا ما بدا لكُمُ فإنى ... سأعتبكم إذا انفسح المراح

ويقول أبو جندب :

إلى مَلَحِ الفَيْفَا فقنّة عاذب ... أجمِّع منهم جامِلاً وأغانما

فإن الآخرين يمتلكونها ، ويحرصون عليها ، ويتحاربون من أجلها ، ويحاولون أن يوفروا بها حياة رغدة لأنهم كانوا يعلمون أن العزيز من لا يكون الماء القراح غبوقه .

ومن تَقْلِلْ حَلوُبته ويَنْكُلْ ... عن الأعداء يَغْبُقه القَراح

وهم ينحرونها للضيفان ، ويخرجون بها على الناس فى السنين العجاف على نحو ما رأينا من قبل .

وإذا كان الذؤبان ينصرفون إلى غزوهم ليوفروا لهم حاجتهم ، نجد الآخرين منصرفين إلى لهوهم فيشربون الخمر ، ويعشقون النساء ، ويبحث هؤلاء عن متاعهن .

وإذا كان الذؤبان يحدثوننا فى شعرهم عن مغامراتهم ، يتحدث الآخرون عن المطر لما له من فضل كبير عليهم ، وعن النحل أيضاً .

شىء واحد يتفقون فيه هو الرثاء ، ذلك لأن الموت واحد عند الجميع ، ولأنهم مشتركون فيه ، قد يموت من هنا أو هنا صديق أو أخ أو عزيز . . . وما أكثر من كان يختطف الموت منهم !

تلك أمور من المفيد أن نعرض لها ونتكلم فيها ، لا نستثنى منها شيئا . بل لعل من الأفضل أن تمتد لمساتنا إلى غيرها مما يدخل فى صميم المجتمع . ومهما تكن الفروق قوية بعيدة ، فلن نملك إلا أن نقول فى آخر الأمر : هذا هو المجتمع الهذلى وتلك صورته .

(ب) سكن :

لو شئنا أن نعرف الأسلوب الذى كانت تنهجه هذه الطائفة المستقرة فى حياتها لوجدنا أنفسنا مضطرين إلى أن نبحث عن سكنها أوّلَ مانبحث . فليس تحديدنا لمنازلها بالشىء الذى يكفى حتى لا نطرق هذا الجانب ، إنما نحن لا ندرى كيف

كانت العشائر تقر فى مأواها . . أفى شق فى الجبل ، أفى خباء من شجر ، أم فى بيت تزينه الفرش ؟

لا ينبغى أن نهمل هذه الناحية مدعين أن هذيلاً كانت كسائر العرب تسكن سكنهم وليس ثمة تمايز ولا افتراق . وهل من الأمانة للعلم أن نسكت عن إظهارها مكتفين بما قيل ، ومن يدرى فلعل واحداً يزعم أن ما قرر عن بيوت العرب ليس كله صحيحاً ، وفيه من الإطلاق والتعميم ما أضاع كثيراً من دقائقه ! أليس من الصواب والحال هذه أن نقول قولتنا ، فإن كانَ تشابهٌ فبه ، وإن خالفتهم فى شيء فليكن جديداً نعرفه .

هذا — فى نظرى — واجب ، وتناوله ليس بالأمر التافه ، فنحن نعلم كم ضيقت الطبيعة على هُذَيل ، فشتتهم ، فعرفوا لين الحضر ووحشة البادية وخشونة الجبل . ولنقرأ على أى حال هذه الأبيات وهى لساعدة بن جؤية :

إن يكُ بيتى قشعة قد تَخَذّمتْ وغُصْنا كأنَّ الشَّوْكَ فيه المواشِمُ
فذلك ما كنا بسهل ، ومرةً إذا ما رفَعنا شَشّةً وصرائم
فقد أشهد البيتَ المحجَّب زانه فِراشٌ وجُدْرٌ موجح ولطائم(1)

فهو يعطينا صوراً متتابعة لسكنه ، فإذا كان فى السهل فبيته قشعة وفروع شجر شوكه كالإبر . ولكن قومه قد يرفعون الخيام وتكون لهم مساكن من الشث . ثم هو بعد ذلك يعرف هذه البيوت القريرة المحجبة ذات الجدر الغليظة ، والتى يزينها الفراش الناعم وتعبق فيها العطور . وفى ذلك منتهى الترف .

أما هذه البيوت المفروشة فلا شك أنها تكون فى القرى ، أو حيث يطيب المقام طول العام وذلك فى الحرار ، وهذه فيها من الخصب والحياة ما يجعل الناس ينشدونها مقرًّا . وانظر إلى مالك بن خالد الخناعى حين يفتخر على مالك ابن عوف النصرى ماذا يقول :

(1) ديوان الهذليين ٢ : ٢٢١ قشعة : قطعة يطع ، تخذمت : تقطعت ، المواشم : الإبر ، شثة : الشث نبات طيب الرائحة والشثة دار صغيرة من الشث ، صرائم : جماعة البيوت وقطع الإبل ، موجح : الكثيف الغليظ ، لطائم : عير تحمل الطيب ، يقول إن كانت تلك بيوته فقد عرف البيت المحجب زانه الفراش .

ألم تَرَ أنّا أهلُ سوداءَ جَوْنَةٍ وأهلُ حِجاب ذى قفاف مُوَقَّر[1]

ألا يكفى قومه فخراً أنهم أهل الحرة السوداء ؟ وماذا بعد ذلك ؟ أليس فى هذا آية ناهضة على غناهم ؟ بل إنهم يسكنون الحرار العالية التى ترتفع حتى لكأنها جبل أما الدار فيها فدار قرار لا يمكن أن ينال منها أحد :

وما نحنُ إلاّ أهلُ دارٍ مقيمة
بنَعْمان مَنْ عادت مِن الناس ضرّتِ[2]

ونعمان كما رأينا من أكثر بقاع الحجاز ماء ، وتكثر فيه العيون ، ولا يعرف إلا حياة خصبة طيبة . وما نرجو أن تفوتنا إشارته الأخيرة واعتزازه بمنعة الدار .

وإذا كانت الدور فى هذه الحرار أو فوق واحد من الجبال كغزوان مثلا فهى مصاطب بعضها فوق بعض . وأبو ذؤيب يقول مثلاً عن صاحبته أن العسل الممزوج بالماء ليس . .

بأطيب من فيها إذا جئت طارقا وأشهى إذا نامت كلاب الأسافل[3]

والأسافل — على ما يقول السكرى — هم من يكونون فى أسفل الأحوية أى البيوت ، وفيها يكون الرعاء والكلاب ، وتظل لهم جلبة تستمر جزءاً من الليل فيكونون آخر من يهدأ . وما نظن أنا نسينا ليلة (الهزر) وكيف أن أبا ماعز كان فى اسفل هذه الدار التى بيتها بنو سليم .

وليس من المهم أن تكون هذه البيوت من اللبن أو من الحجارة ، فقد تكون خيمة وقد تكون شثة ، إنما المهم أنها فى جانب الخصب والنماء . وانظر إلى ما يقوله أبو ذؤيب أيضاً عن صاحبته وكانت تسكن فى أحد شعاب هذيل :

أقامت به وابتنت خَيْمة على قَصَبٍ وفرات النهر[4]

وهذا ما يوحى بالاطمئنان والدعة ، وماذا كان يريد العربى غير هذا ؟

---

(١) ديوان الهذليين ٣ : ٨ .
(٢) نفس المصدر ٣ : ٢٩ .
(٣) المصدر السابق ١ : ١٤٤ .
(٤) ديوان الهذليين ٣ : ٧٩ مع ملاحظة أن كل ماء كثر فقد استنهر .

ماذا كان يطمع فى أكثر من الزرع والماء ؟ بل انظر إلى قيس بن غيارة حين وقع فى يد (فهم) فأنشأ يتذكر داره ودور قومه فى (ذات الغمر) وراح يقول :

سَقَى الله ذات الغمر وبلا وديمة　　وجادت عليها البارقاتُ اللوامع
بها هى مقناةٌ أنيقٌ نباتُها　　مربٌّ فترعاها المخاضُ النوازع

ونستطيع أن ندرك مدى ما كان فيه قوم قيس من نعمة حين يقول عن المكان الذى ينزلونه :

كأن يلنجوجاً ومسكاً وعنبراً　　بأشرافه طلّت عليه المرابع[1]

فالفرق عظيم جداً بين هذا الرجل المترف وبين ذلك الذى لا يعرف له مأوى إلا كهفاً فى الجبل أو غوراً فى الأرض. والفرق عظيم أيضاً بين هذا الذى ألف اليلنجوج والعنبر وعرف الفرش واللطائم، وبين الآخر الذى وقف على المراقب وأنس إلى حيوان القفر. وشتان ما بين مزاج ومزاج، وخلق وخلق . . وما أبعد ما بين النفسيتين، ثم ما أصدق أبا ذؤيب حين ذكر بيته ودعته ولينه وطمأنينته فقال :

لعمرى، لأنْتَ البيت أكْرِمُ أهلَه
وأجلس فى افيائه بالأصائل[2]

(ح) لين مفسد :

من عجب ألا يدلنا التاريخ من أمر هذيل على شيء كثير. ولسنا نعرف لذلك سبباً خاصاً، وما ندرى لماذا شغلوا عنها بخزيمة ومدركة، وكان لها هى ما رأيناه وأحطنا به. إلا أن كل هذا لا يدل بأى حال على نوع الحياة التى كانت تضطرب فيه. فإذا استكشفنا شيئاً بعد ذلك فمن شعرها، وما يدور حوله من ملابسات، ويتصل به من ظروف.

---

(١) المصدر السابق ٣ : ٧٩، ٨٠. ذات الغمر : موضع، مقناة : مملوكة، مرب موضع الإبل الذى ارتبطت به أى أقامت، يلنجوجا : عوداً، المرابع : السحب تمطر ربيعا أو الإبل التى تنتج أول نتاجها.

(٢) المصدر السابق ١ : ١٤١.

وهذا الشعر — مع ضخامته ووفرته — ينقصه شيء . . . ينقصه ما أهمله الرواة أحياناً فى ذكر أسباب القصائد يروونها لهذا الشاعر أو ذاك . نعم يدلنا الشعر على نواح مختلفة فى حياة القبيلة ، ولكن كانت تكون هذه المعرفة أقوى وأصدق وأعمق لو عنى رواته قليلا بذكر ما لم يذكروه كمقدمات لقصائد خلت من كل تمهيد .

وما قدمت هذه المقدمة إلا لأقول أن ما يروى دليلاً على فساد هذه الطائفة المترفة كان كافياً مع كل نقص آخر . ولسنا ندرى لماذا اهتم جامعو أشعارها بهذه الناحية بالذات ، وأعنى بها ما يكون بين المرأة والرجل . أما لنا حق فى أن نعتبرها ظاهرة متفشية بحيث استرعت انتباه أول من حملوا لنا هذا الشعر ؟ الرواة ينسون الكثير الكثير ، ويهملون الكثير الكثير ، ولكنهم يعنون بهذا الفساد الخلقى عناية كبرى . ولنضف إلى هذا الانهيار انحطاط طبقة ضخمة شلها الفقر وأقعدها العجز ، وازدراء هؤلاء المترفين المفسدين لهم ، فسنستطيع أن نفهم بإخلاص حالة هذيل العامة . وليس لنا من ذلك كله إلا عجب عاجب ، وإيمان بأن الإسلام كان لا بد أن يحث الخطا حتى يرفق بالمساكين ويدل الآخرين على ما فيه الصلاح لهم .

ولنقرأ بعد هذا ما يقوله أبو قلابة — وكان كما يقول الرواة سيداً فى قومه — فهو يعطينا صورة دقيقة لما نحن بصدده ، يقول :

يسامون الصبوح[1] بذى مُراخ وأخرى القوم تحت حزيقٍ غابِ[2]

وإن تم هذا البيت عما نقصد فقد نجح الشاعر حين وصف قومه — وهم هؤلاء الذين يجدون فى يسر أسباب العيش — وقد انفسح رجاؤهم ، وكثر عيشهم ، وفاض نعيمهم ، فمضى فريق منهم يأخذ بما منّ الله عليه من خير ، بينما انصرف فريق آخر يذود عنه ويمنع له شرًّا مستطيراً أو ليضيف إليه مجداً جديداً . وتصوير الشاعر قومه هذا التصوير يعطينا بحق الفكرة التى يجب أن

(١) فى الأصل (الصباح) وياقوت أورد البيت كما رويناه . أما (الصباح) فلم ترد بمعنى الصبوح وهو اللبن الذى يحلب بالغداة أو هو الخمر حين تشرب فى هذا الوقت .

(٢) ديوان الهذليين ٣ : ٣٥ .

تكون لنا دائماً ، فلو لم يكن ثمة عيش موفور لما قال إن البعض كانوا يسقون الصبوح ، ولقال إنهم كانوا يرعون شاءهم ، أو يسيمون إبلهم ، أو يلاحظون تجارتهم ، أو أى شيء آخر من هذا القبيل . أما هؤلاء الذين يقول عنهم إنهم تحت الضراب والطعان وكأنهم فى حريق غاب فامتداد لما عرضنا له من أيام القبيلة وما تثور من أجله .

والشاعر يصف مَن يسامون الصبوح ، يصفهم فنرى إلى أى حدٍّ شغلوا بمتاعهم وانصرفوا إلى لذتهم ، ولم يعبئوا بغير ذلك ، يقول عقب البيت السابق :

فمنا عُصْبة لاهم حماة ولا هم فائتونا فى الذِّهابِ

فهؤلاء لا يحمون إخوانهم ، ولا يقدمون لهم عوناً ، وإنما يتركونهم يقاتلون عنهم ، فهم ليسوا قادرين على الذهاب .

والقوم إذا فرغوا للهوهم أصابهم من الفساد والسوء مالا ينكرها أحد . ولا شك أنهم آنذاك يلونون حياتهم بألوان مختلفة من المتاع ، فيشربون الخمر ، ويفضحون النساء ويلعبون الميسر ، ويجالسون الظرفاء ، ويتصرفون فى الهزل والعبث ، ويقرضون الشعر يفخرون فيه بعزتهم وينكرون على غيرهم ضعفهم . وما نشك أن غير هذا كان يحدث بين أفراد هذه الطبقة المستكينة .

ولكن ليس لهذا الظن زعمت فسادهم ، فقد لانجد فى شعرهم مايدل على أنهم كانوا يقبلون على الخمر إقبالا شديداً ، إنما صور هذا الفساد كل من الرجل والمرأة فى علاقاتهما الشخصية ، وفيما يمس الشرف والعفة . وما يروى عن قرد ابن معاوية نجعله أول مظهر لهذا الفساد ، فقد قيل إنه كان يأتى النساء كثيراً ، ولا شك أن كان له معهن أمور وأمور ، سكت عنها الرواة يمنعهم الحياء . ولكن أهله ضربوا به المثل فقالوا : أزنى من قرد[1] . قالوا ذلك كما قيل : أزنى من سجاح ، وكان قد عرف عنها الغى واشتهرت به .

وسجاح تذكرنى بظلمة الهذلية ، وكانت فاجرة ، لما أسنت وفنيت اشترت تيساً ، وكانت تقول : أرتاح لنبيبه ! فقيل : أقود من ظلمة[2] .

---

(١) الميدانى فى مجمع الأمثال ١ : ٢٨٧ .

(٢) القاموس مادة (ظلم) ٤ : ١٤٦ .

وكان خالد بن زهير بن الحارث قد عشق امرأة وابنتها ، وخاللهما معاً ، وكان يتردد عليهما مليًّا ، فبلغ ذلك معقل بن خويلد ، فراجعه ، فلما أبى قال قصيدته التى مطلعها :

أتانى ولم أشعر به أن خالداً يعطّف أبكاراً على أمهاتها

فساءت خالداً ، ورد عليه يناقضه بقصيدته التى أولها :

إذا مارأيت نسوة عند سوءة فإن نساء معقل أخواتها

وعلم أبو ذؤيب بما تراجعا فيه وخشى أن يتفاقم الأمر بينهما ، فدخل طرفاً ثالثاً وحاول أن يصلح بينهما بقصيدته التى مطلعها :

لاتذكرنّ اختنا إن اختنا يعزّ عليها هونُها وشكاتها[1]

وسنعرض لهذه المناقضة فى موضعها بَعْدُ ، إلا أن ماوراءها ليس بالأمر الذى يمر بسهولة . حقاً مازال الناس فى هذا العصر يفعلون مابدا لهم ، ويجمعون من النساء مايشتهون ، ومن الإطالة المملة أن نتعرض لإثبات ذلك بالأدلة فقد فرغ الناس من البرهان عليه منذ بعيد . والذى يقرأ ماخلفه الجاهليون يلمسه بسهولة ، ولكن دون أن يعثر على من يفعل فعلة خالد ويجمع بين الأم وابنتها ، فلا جرم كثر السوء حين وفقوا إلى خفض العيش ولين الجانب .

ولماذا نبعد هذا البعد وهم يروون أن كان لمعقل بن خويلد — وهو سيد قومه كما نعرف — امرأتان شغفهما حبًّا رجل وسيم يقال له عش بن جابر ، وكانتا تترددان عليه فى حيه من أشجع ، أشجع قيس . وكان لمعقل غير هاتين امرأة ثالثة فى داره ، فلما رجع يوماً ولم يجدهما سألها عنهما فقالت : خرجتا تؤمان عش بن جابر تنظران إليه .

وتأخذ معقلا عزةٌ جاهلية ، وأنفة السيد الكريم ، فيخرج فى آثارها ، فيدرك إحداها ويتمكن من قتلها ، ويضرب الثانية بسيفه فيمزق يدها ثم يكف عنها . ولا يتردد بعد ذلك فى أن يقص هذه الحادثة فينشد :

---

(١) ديوان أبى ذؤيب تحقيق يوسف هل ٣٣ ، ٣٤ وشرح أشعار الهذليين ١١٨ .

ألم تخشَىْ خليـلَك او تجلّى اباكِ ـ هضيبَ ـ عن بعض الخطاب[1]

والعرب كان من عادتهم أن يدعوا الزوج أباً ، وأما هذه التى يخاطبها فهى هضيبة زوجه . ولـكن ليس من المهم أن ندل على مافى القصة من فجور . فمثل هذا أوضح من أن نشير إليه إنما يعنينا أن نقول إن ذلك كان أمراً شائعاً . ولنقرأ القصة التالية فلعلها أبلغ فى الدلالة على الفساد .

كان عامر بن العجلان يتردد على جارة لأبى المثلم . وكانت امرأة الأخير هى التى تجمعهما فيمكث عندها ما يشاء الله أن يمكث ثم يرحل . وأقبل عامر ذات يوم لامرأة أبى المثلم فجمعته بصاحبته ، فأقبلت حيّة ونهشته حتى كاد يموت . فأسرعت المرأتان وجعلتا له من الشجر غير بعيد عن الدار خيمة تكنه من الشمس ، وانشأتا تأتيانه وتختلفان إليه بالطعام والشراب حتى شفى[1] .

فلننظر إلى هذه القصة وغيرها كيف دلت على هذا السوء أحسن دلالة وكيف مثلت حال هؤلاء الذين قضى الله لهم عيشاً رغداً ، فاستمتعوا به ، وظفروا منه بأكثر مما كان يتاح للذؤبان الصعاليك . بل لقد وقفتنا على هذا الجانب الدقيق ، فإذا هم مقبلون على المرأة إقبالاً لاتحرج فيه ، وإذا المرأة تقبل عليهم فلا يمنعها حياء ، ولا تحفظها فضيلة ، وإذا الجميع يترددون فى حمأة الرذيلة ولا يستطيعون أن يحيدوا عنها . بل يبلغ بهم الشر مبلغاً لايصبرون معه على ماجاء به الدين الجديد فيأتون الرسول ويسألونه أن يحل لهم الزنا فيغضب محمد صلوات الله عليه ، وينبرى شاعره حسان بن ثابت يهجوهم فيقول :

سألت هذيل رسول الله فاحشةً ضلت هذيلٌ بما سالت ولم تصب[3]

حتى هذه الصلة العفة السمحة ، لم تكن لها مكان واضح فى ذلك المجتمع . وهذا أبو ذؤيب يتعرف على أم عمرو ، فإذا قرأت عنها فى شعره رأيتها امرأة لعوباً ، واسعة الحيلة ، شديدة الدهاء ، لها قدرة كبيرة على اصطياد قلوب الرجال

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١١٠ .
(٢) شرح أشعار الهذليين ٤٩ .
(٣) المبرد — الكامل طبعة ليبزج ٢٨٨ .

التى تخفق دائماً بالحب . وكأنما فرغ شاعرنا لها واشعره بها ، وكأنما هى فرغت للعشق فقط فتدل عليه ، ويعانى هو من عبثها ودهائها مايجر عليه الألم والشقاء .

وليس من بأس أن تتتبع هذه الصلة ، فهى مهما تكن فإنها تدل على هذا الفراغ الذى عرفه هؤلاء الوادعون ، وتدل على انشغالهم بهذا النوع من الصلات . كانت هذه المرأة صديقة عبد عمرو بن مالك ، وكان أبو ذؤيب رسوله إليها يتردد عليها ، فألفته وراق فى عينها . ومال هو لها . وكان عبد قد امتدت به السنون وكبر ، فاستطاع الشاعر أن يحظى بها ، واستطاعت هى أن تسلب لبه ، وتطالعه بألوان من الإغراء ، وفنون من الفتنة حتى تدلَّهَ فى العشق .

وقد أقام صاحبنا على حبها زمناً وجعل من ابن أخته خالد بن زهير — وهو من جمع بين الأم وابنتها — رسولاً إليها ، فوقع فيما وقع فيه خاله من قبل ، وخان أمانته وعشقها فاستسلم أبو ذؤيب للأسى ، وأعلن قطيعتها ، فأرادت أن تعيده إليها فأبى والغيرة تأكل صدره[1] .

وكذا كانت حياة هذا المجتمع . . . سفهاً وطيشاً ، وخفة ونزقاً ، وسعياً وراء اللذة . وهل كان يتاح هذا كله لو لم يكن هناك ذلك اللين ؟

(١) راجع مؤقتا ديوان الهذليين ١ : ١٥٤–١٦٠ .

— ٤ —

مجتمع ثائر
أو
الصعاليك الذؤبان

(ا) بين البيئة الطبيعية والفقر :

لن يكون حديثى هنا إعادة لما قلت حين تحدثت عن منازل هذيل ، إذ الواقع أنى أريد أن أربط بين البيئة — كظاهرة جغرافية — وبين ما يكون فيها من أسباب ، وأثر ذلك فى نفوس هؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يوفروا لأنفسهم رزقهم .

ولاشك أنا لا نزال نذكر ما قلناه من أن منطقة الحجاز كانت إقليماً شاذاً ، وهذا ما عمل على إيجاد هذا التفاوت الشديد بين طبقة السادة وطبقة الصعاليك .

والحق أن التفاوت فى طبيعة الأرض دفع عشائر هذيل إلى أن تتوزع بين شتى البقاع ، هذه تسكن الحرار والقرى ، وتلك تسكن الجبل والبادية . وهذه تستقر فى غور ، وأخرى أرض الله كلها مأواها . ومن هنا نرى أن حظ هذه العشائر من التشتت والتنقل كان موفوراً . وكثير من أبنائها لم يتح له هذا فعاش يصدمه الجدب دائماً ، فلم يغنه كثيراً أو قليلاً ، وربما لجأ فريق منه إلى هؤلاء الذين عرفوا الدعة فعملوا معهم ، واشتغلوا لهم ، وسهروا على راحتهم .

أجل ، حياة فى قفر لا يمكن أن تكون .. هذا ما يقرره الدارسون ! بل هذا ما تشهد به أقاليم العالم التى لا تزال إلى الآن خالية . والبيئة المقفرة ليس للغِنَى سبيل إليها ، وكيف يأتيها ؟ أمن الأرض الصلبة الجامدة ، أم من السماء التى لا تنزل ماء ؟ بل ربما تجنبها من يرتحلون فى تجارة ، وكيف لهم بالسير فى أرض يترصد لهم الموت فى كل ركن منها ؟

لنقل إذن إن بيئة مقفرة مثل هذه لا تؤدى الحياة فيها إلا إلى الفقر . وكذا حق لنا أن نصف المجتمع الهذلى بأنه المجتمع الفقير . ولم يكن ذلك على غير

أساس ، بل كان لأن البيئة ضنت عليهم بالثراء ، بل ضنت عليهم بأسباب العيش .

ولا يمكن ان نفهم الفقر من غير أن يكون بجانب الجوع ، فكل منهما مرتبط بالآخر ارتباطاً قوياً ، ودخولهما اى مجتمع معناه الهبوط به دون أن يستطيع أصحابه دفعه أو التخلص منه . وهذا فعلاً ما حدث لكثير من عشائر هذيل . وانظر إلى هذه الصورة المؤلمة يرسمها حبيب الأعلم بلمسات سريعة ولكنها دقيقة معبرة ، يقول :

وذكرتُ أهلى بالعرا ءِ وحاجة الشُّعْثِ التوالِبْ
المُصرمين من التِّلا دِ اللاحين إلى الأقارب
وبجانِبَي نَعْمانَ ، قُلْ تُ ألنْ يبلّغَنى مآرب[1]

كان مطروداً آنذاك ، ولعله كان فى نعمان هذا الوادى الخصيب ، فذكر أولاده وهم بالعراء ، لا يملكون شيئاً ، ولا يعطف عليهم أحد ، ولكنهم مع ذلك ينظرون إلى من عسى أن يأتيهم من أقاربهم بشىء يقتاتون به .

وقال أبو خراش فى موضع :

فإنَّ غداً إنْ لا نجدْ بعضَ زادِنا نُفِىءْ لكِ زاداً أو نُعَدِّكِ بالأَزْمْ[2]

وفى موضع آخر :

وإنى لأُثْوِى الجوعَ حتى يَمَلَّنى فيذهبَ لم يَدْنَسْ ثيابى ولا جِرْمى[3]

هكذا قست عليهم البيئة فكانوا فقراء ، ولم يكونوا يجدون ما يأكلونه إلا بمشقة بالغة ، وكانوا فى الوقت نفسه يرون ناساً منعمين ، يذوقون من الحياة فنوناً ماتعة ويعرفون من العيش ألواناً لذيذة . ولا شك أنهم رُوِّعوا بالفرق الهائل بين الحياتين وربما حسدوهم أو سألوهم أن ينزلوا لهم عن بعض ما يملكون أو وجدوا منهم ما يفسد بعضهم على بعض . فليس ينبغى أن نعجب حين يحدثنا أبو خراش عن زوجه وإعجابها ببعض الأغنياء ، وانصرافها عنه لفاقته وعوزه ، يقول :

---

(١) ديوان الهذليين ٢ : ٨١و٨٢ .
(٢) المصدر السابق ٢ : ١٢٥ .
(٣) ديوان الهذليين ٢ : ١٢٧ .

رأت رجلاً قد لوّحته مخامصٌ وطافت برنّان المعدّين ذى شحم
غذىٍّ لقاحٍ لا يزال كأنه حميتٌ بدبغ عظمه غير ذى حجم
تقول : فلولا أنتَ أُنكحتُ سيداً أزفّ إليه أو حملت على قرم[١]

نعم ، ليس ينبغى أن نعجب من ذلك ، أو نعجب حين نجد الكثيرين من أمثال هؤلاء يئدون البنات . وكانت هذيل إحدى خمس قبائل كان فيها الوأد ، قال أبو العباس المبرد إنه « كان فى تميم وقيس وأسد وهذيل وبكر بن وائل[٢] » كانت هذه القبائل تخاف الجوع ، وتخشى انقطاع الرزق بهم ، فجاء رد الله تعالى لطيفاً حكيماً « نحن نرزقهم وإياكم » .

فأنت ترى أن الفقر والجوع كتبا الشقاء على الكثيرين ، وكأنهما لم يستوفيا بهم آلامهما وعذابهما فتسلط أرباب النعم عليهم يكيدون لهم . ومهما يكن كل ما يروى عنهم فى ذلك ، فليس أدل على ما كانوا يعانونه منهم من هذه التسمية اللاذعة . . . فهم صعاليك !

المجتمع إذن يحاربهم ، والطبيعة تحاربهم ، فهل يستسلمون ، ويلقون السلاح ، ويلوذون بالموت ؟ اسمع قول أبى خراش :

أردُّ شجاع البطن قد تعلمينه وأوثر غيرى من عيالك بالطُّعْم
مخافة أن أحيا برغمٍ وذلةٍ ولَلموت خير من حياة على رَغْم[٣]

هو فقير ، ولكنه لا يريد أن يكون ذليلا . وهو يؤثر الموت على حياة تأتيه بالهوان فماذا يفعل ؟ إنه يأبى أن يلحق بالقطيع . . لا يريد أن يقبل الحياة وهو عبد لغنى كما يفعل غيره من الفقراء ، هؤلاء لم تنطو نفوسهم على طموح . ورضوا بأيسر سبيل أما هو فعزيز أبىّ ، وله فى المجتمع سواه ممن يرون رأيه ويحسون إحساسه ، فلا عليهم إذا شذوا ، ولا عليهم إذا لم يقبلوا أن يكون غيرهم منعماً وهم له عبيد .

---

(١) المصدر السابق ٢ : ١٢٨ و١٢٩ . لوحته مخامص : غيرته مجاعات ، برنان المعدين : برجل يرن جنباه ، حميت : شديد ، بدبغ : برداء مدبوغ لم يستعمل ، قرم : فحل .

(٢) الكامل ٢٢٧ .

(٣) ديوان الهذليين ٢ : ١٢٨ ، شجاع : جوع وكانت العرب تزعم أن الرجل إذا طال به جوعه تحركت فى بطنه حية اسمها الشجاع ، وقال الأصمعى : شجاع البطن شدة الجوع .

معنى هذا أن بعض الفقراء الصعاليك آثر الحياة عبداً للغنى ، وبعضهم آثرها حرباً على الغنى . الأولون لم يكن فى نفوسهم طموح فرضوا بأقل شىء ، والآخرون كانت نفوسهم منطوية على أنفة وإباء . فكرهوا الأوضاع ، وحطموا القيود التى تحول دون ما يريدون . ولم نكن لذلك مسرفين حين أهملنا هذه الفئة الذليلة واعتبرنا لها حياة مستقرة فى ظلال المترفين . أما الآخرون فقد اضطرونا إلى أن نفرض لهم وجوداً مستقلاً وحياة مستقلة .

وإن الأسلوب الذى كانوا يسلكونه لم يكن فى الواقع إلا صورة من الحياة الاجتماعية . التى عرفتها هذيل بل وكذلك غير هذيل . وكان أسلوباً شاقاً عنيفاً يتلخص فى الغزو لأن أصحابه كانوا يؤمنون بالقوة . فأصبح الآمنون يخشونهم ويقدرونهم . دون أن يهادنهم هؤلاء ، ودون أن يتركوا أى شىء تقع عليه أيديهم . فلم يخطئ إذن صاحب القاموس حين سماهم بالذؤبان .

وبعد ، فقد يكون من المفيد أن نلخص نظرتهم فى الحياة بأبيات لمالك ابن الحارث فسنراه يقول إنه يغزو ، وسيظل يغزو ما دامت إبله تموت ، وهو يخشى عاقبة ذلك لأنه يعلم أن الرجل إذا قلّ ماله وجبن عما فى يد خصومه ذلّ . فليهزأ به الهازئون ، فلن يتركهم حتى يتسع مراحه وتكثر إبله . وكم رأى أقواماً يزينهم المال ويخفى عيوبهم ، فيثنى عليهم وقد قبحت وجوههم . بل يعظمهم المستضعفون ويسجدون لهم وإن لم ينالوا منهم شربة لبن واحدة :

فَلَستُ بِمُقْصِرٍ ما سَافَ مالِى ولو عُرِضَت بلبَّتِىَ الرِّماح
ومن تقلل حلوبته وينكل عن الأعداء يغبقه القراح
فلوموا ما بدا لكم فإنى سأعتبكم إذا انفسح المراح
رأيت معاشراً يثنى عليهم إذا شبعوا وأوجهُهم قباح
يظل المصرمون لهم سجوداً ولو لم يُسْقَ عندهم ضَياح(١)

---

(١) ديوان الهذليين ٣ : ٨١و٨٢ ساف مالى : تموت إبلى ، بلبتى : يريد بصدره لأن اللبة هى موضع القلادة من الصدر ، سأعتبكم : سأتركم ، المراح : حيث تروح الإبل ، المصرمون : الفقراء ، ضياح : لبن مخلوط بالماء .

الفكرة فى منتهى البساطة ، فالفقر ذلة ، والقوة هى الطريق إلى الغنى ، ولا يعز إلا الغنى وإن منع يده عن المعوزين .

(ب) غزو وقرصنة :

فى تلك البيئة — التى ينعم فيها بعض الناس ، ويشقى الأكثرون ، ويحس الذؤبان أنهم مبعدون عن كل نشاط اجتماعى — نقرأ صفحات رائعة من البطولة ، لا تروى فى ظلال القبيلة ، ولا تتصل بها اتصالاً توافقياً ، فقد انتهينا مما يرتبط بها حين رسمنا سياستها الخارجية . إنما هى بعيدة عن هذه الدائرة ، بل قد تتعارض مع ما تريده وتنتهى بنوع من التشرد فيه عناء وقسوة .

وماذا نتوقع من ناس وقفوا فى وجه المجتمع فلم يرض عنهم ؟ إنا لو شئنا أن نعرف ما كانوا يأخذون به أنفسهم لوجدنا بينه وبين الحياة القريرة فرقاً كبيراً ، وهل نتوقع لهم أمناً وسلاماً ؟ لا . . . فكم يكون إذن مقدار الجهد الذى يعيشون فيه ، بل كم يكون مقدار الخطر الذى يترصدهم للموت فى كل خطوة يخطونها ؟

وإن أردنا أن نفهم ما وراء هذا ينبغى أن نضع لنا قاعدة ، هى أنهم وإن شذوا عن قبيلتهم فقد كانوا حلقة قوية من حلقات ذؤبان القبائل الأخرى . وكأنهم كانوا يرون فى ذلك عصبية تغنيهم عن العصبية التى فقدوها . وما يروى عن توزيع اختصاصهم فى الأرض ، واستقرار كل فريق منهم بقسم خاص من أقسام شبه الجزيرة ، ثم ما يروى عن اتجاههم المعيشى . . كل ذلك يلقى فى روعنا أن عصبيتهم كانت أوسع أفقاً وأشد تراميا وأعمق فى الدلالة على الارتباط العنصرى الإنسانى .

ولا تعنينا هذه الناحية ، فلن نبنى عليها بناء ما ، وغاية ما نقصد أن ذؤبان هذيل تناثروا ها هنا وهنالك . . . فى منطقة السراة بين مكة والطائف ، وعلى الطريق التجارى بين مكة والمدينة ، وفى أول الطريق الصاعدة إلى اليمن جنوبى مكة . وشاركوا غيرهم من الشذاذ سبيلاً فى الحياة ، يحفهم الموت ، وتشقه سيوفهم ورماحهم ، وقوامه سطو ونهب وسبى . ومن هنا نفهم ما قلناه قبل عن الغزوات الفردية ، وكيف أنها باب اقتصادى هام فى مجتمع القبيلة .

ولكن أما آن لنا أن نعرف شيئاً عن هذه الغزوات ؟ إن القاعدة التى رسمت عليها خطتهم كانت فى منتهى البساطة ، وتقررها الأوضاع . ذلك أن الذئاب كانت تنشد القوت أين كان ، فإذا حددنا مراكزه وأماكنه ، لا نجدها تخرج عن ثلاث :

١ — مناطق الخصب والماء .
٢ — المناطق التجارية والطرق المؤدية لها .
٣ — مناطق الأسواق العامة والقنص .

ولنبحث فى كل ، فقد نتبين أشياء تزيدنا اتصالاً بذؤبان هذيل .

(١) أما المناطق الأولى فقد جعل الله سبيلها ميسرة ، وهيأها تحت أعين الهذليين ، فكانت فى كل مكان يتجهون إليه . . فى كثير من مناطق السراة ، وفى نواحى المدينة بالذات حيث كانت العيون وكان النخل والزيتون والعسل ، وفيما بين الطائف ومكة ولا سيما حول الطائف ، وفى الوديان التى تهبط إليها أمواه الجبل .. أجل فى كل هذه ، وقد تكلمنا عنها طويلاً قبل .

اتجهت غزوات الهذليين إلى تلك المناطق بحكم قربها منهم ، وشددوا وطأتهم على المنطقة التى بين الطائف والحرم ، وظفروا منها كثيراً ، وعانت هى منهم كثيراً أيضاً . وهذا أبو خراش يصرح أن هذه البقاع هى هدفه فيقول :

لستُ لمُرة إن لم أوفِ مَرْقبةً يبدو لى الحَرْفُ منها والمقاضِب(١)

ويقول عمرو ذو الكلب :

فأبرح غازياً أهْدى رعيلاً أؤم سوادَ طَودٍ ذى نجال
بفتيانٍ عمَارِطَ من هُذيلٍ همُ ينفون آناسَ الحِلال(٢)

ويهدد بقوله :

فلستُ لحَاصِنٍ إن لم تَرَوْنى ببطن صريحةٍ ذات النجال

(١) ديوان الهذليين ٢ : ١٥٩ . الحرف : مسيل الماء والمقاضب : مواضع القضب وهو كل شجرة طالت وبسطت أغصانها (القاموس) .

(٢) المصدر السابق ٣ : ١١٤و١١٥ النجال– النز : يجرى على وجه الأرض، والحلال : جمع حلة وهو الموضع يحله الناس . عمارط : ليس لهم شىء واحده عمروط وعن ابن حبيب أن العمروط هو الصعلوك ، آناس : ناس .

وأمى قينة إن لم تروني بعورش تحت عرعرها الطوال[1]

بل كان الهذليون يعلمون أن مكة مهما تكن ثروتها الزراعية فإنها وافرة الغنى بأهلها الأشراف، فوجهوا غزواتهم نحوها لا يعنيهم من يكون خصمهم. وفى الأغانى أن صخر الغى وأخويه صخيراً والأعلم خرجوا يغزون حتى بلغوا السطاع[2]. وقد عرفنا أن السطاع جبل قريب من مكة، أو بينه وبينها — على ما يقول ياقوت — مرحلة ونصف من جهة اليمن[3]. بل يخبرنا أبو الفرج أن صخراً كان يغير على خزاعة حتى قتلته[4] وكانت خزاعة كما رأينا تنزل مكة. ومن القصص التى تروى عن ابى خراش قوله حين أتى مكة وقعد بزوجة أبيه فى الأخشب : احذرى أن يعرفك أحد فإن بهذا البلد قوماً قد وترتهم من بنى كعب بن خزاعة[5]. وفى السيرة الحلبية أن هذيلاً باعت صحابيين من أسرى الرجيع بأسيرين لها عند قريش[6]. مما يدل على أنها تعرضت لغزوات الصعاليك.

ومعنى هذا كله أن هدفهم كان يتغير، فلم يقصروه على مواضع الخصب والنماء وإنما جعلوه لكل حلة ينزلها ناس، ويقيمون بها إقامة مستديمة. وقد لوحظ أن القبائل التى كانت حول هذيل قد تعرضت منها كثيراً لغزوات فردية. وفهم كانت إحدى هذه القبائل، وكان عمرو ذو الكلب ممن يغزوها غزواً متصلاً، وقد تمكنت من قتله[7]. كما تعرضت لغزوات أبى خراش. وفى إحدى هذه الغزوات قتلت أخاه العداء أبا الأسود[8] وقيل إنها أسرت أخا ثانياً له يدعى عروة فى إحدى الغارات[9].

---

(١) المصدر السابق ٣ : ١١٩ – لحاصن : لعفيفة، صريحة : موضع، قينة : أمة، عرعرها : شجرها، عورش : موضع.
(٢) الأغانى ٢٠ : ٢٠
(٣) معجم البلدان ٥ : ٨١.
(٤) الأغانى ٢٠ : ٢١ – ديوان الهذليين ٢ : ٢٣٥.
(٥) ديوان الهذليين ٢ : ١٤٢.
(٦) الجزء الثانى صفحة ٣.
(٧) الأغانى ٢٠ : ٢٢.
(٨) المرجع السابق ٢١ : ٤٥.
(٩) نفس المرجع ٢١ : ٤٢

ولم تكن ثمالة بأحسن حظاً من فهم ، وتعرضت لمباغتات الهذليين كثيراً .
ويروى أن عمرو بن مرة وابن أبي خراش انطلقا يغزوانها فأسرتهما[1] .
وخرج زهير بن مرة معتمراً فترصدت له وقتلته ، فانطلق أبو خراش يغزوها ويغير عليها حتى قتل منهم بأخيه أهل دارين ، وراح يعيرهم بقوله :

إني امرؤ أسأل كيما أعلما من شرِّ رهط يشهدون الموسما
وجدتهمْ ثمالةَ بن أسلما[2]

ثم مضى هو وأخوه عروة يستنفران بني زليفة بن صبح من هذيل ، وغزوا ثمالة مطالبين بثأر القتيلين فهزموهم وأخذ أبو خراش في رثائه لعمرو يتوعد ويقول :

فمن كان يرجو الصلحَ مِنّي فإنه كأحمر عاد أو كليب بن وائل[3]

وكانت كنانة في نزاع دائم مع هذيل ، تغزوها عشائرها تارة ، وتهاجمها ذؤبانها تارة أخرى . وكان الأعلم يغير على بني الديل منهم ، ويغزوهم ، وكادوا يظفرون به مع أخيه صخر على ماء لهم لولا أنه عدا فأعجزهم ، وأنشد بائيته الطويلة التي يقول فيها :

أغْرِي أخي صخراً ليعـ جزهم وَمدُّوا بالحلائب[4]

كذا كان يفعل أبو خراش . وفي الأغاني قصة طريفة حين رصدوه فأعجزهم شدا ، ونجا منهم حتى كان في طريقه يسبق الظبي[5] . وكان الأبح أخوه يغزوهم فقتلوه[6] . وعسانا لم نزل نذكر أن أبا جندب وزوجه وأخاه جناداً جاوروهم حيناً فهموا أن يغدروا بهم ، لما كان بينهم وبين بني لحيان من إحن ، فهربوا وفي ذلك يقول أبو جندب :

---

(١) الأغاني ٢١ : ٤٣ .
(٢) نفس المرجع والموضع .
(٣) المرجع السابق ٢١ : ٤٣و٤٤ .
(٤) الأغاني ٢٠ : ٢٠و٢١ والبيت يروى في ديوان الهذليين ٢ : ٧٨ هكذا :
أغرى أبا وهب ليعـ جزهم ومدوا بالحلائب .
(٥) الأغاني ٢١ : ٣٨ .
(٦) المرجع السابق ٢١ : ٤٤ .

ألَـمَّـا يَسْلَمِ الجيرانُ منهم وقد سال الفِـجاجُ من الغميم
غداةَ كأن جَنَّـادَ بنَ لُبْـنَـى به نَضْـخُ العبير مِن الكُـلُوم
دَعَوْا حولى نُفاثَة ثم قالوا لعَـلَّك لسْتَ بالثأرِ المنيم[1]

بل ربما وجدنا من الذؤبان الصعاليك من يغزو قومه أنفسهم ، وذلك ما يؤيد قولنا إنهم لم يكونوا يؤمنون بالعصبية القبلية . وفى هذه الحالة تكون صلة هؤلاء بقبيلتهم أحيانا صلة عداء ، فلا تجدُ بدًّا من خلعهم ، وتعلن ذلك على النحو المعروف فى أساليب الخلع . وهنا نجد أنفسنا أمام قوم أشد خطراً من سابقيهم ، وأمعن فى الشر من هؤلاء الذين كانت تنام عنهم ، فلا تخلعهم .

ومن الخلعاء — على ما يرويه أبو الفرج — صخر الغى ، بدأ فقتل جاراً لبنى خناعة ، ثم كثر شره ، وانتهى أمره بالقتل ، قتله بنو المصطلق من خزاعة[2] . ومنهم أبو جندب ، وكان ذا شر وبأس ، انحرف عن قومه وأنشأ يغزوهم مع خلعاء بكر وخزاعة ، وفى الديوان أن بنى لحيان قتلوا له جاراً وامرأة ، فخرج حتى قدم مكة واستلم الركن وجعل يصيح :

إنى امرؤٌ أبكى عَلىَ جَارِيَّه أبكى على الكَعبىِّ والكَعبيَّه
ولو هلكتُ بكَيَا عليَّه كانا مكانَ الثَّوْبِ من حِقْوَيَّه

فلما فرغ من طوافه ، خرج فيمن جمع من الخلعاء ، واستجاشهم على بنى لحيان ، فقتل منهم قتلى ، وسبى من نسائهم وذراريهم سبايا[3] . وقبل ذلك واعد كل خليع وفاتك فى الحرم على غزو قوم رئاب بن ناضرة بن المؤمل من بنى لحيان أيضاً ، وكان رئاب قتل أخاه على ماء داءة[4] .

على أن هذا الهجوم الداخلى لم يكن مستديماً ولا متصلاً ، ولم يكن فى سبيل ثروة أو مال ، إذ كان هؤلاء الخلعاء يرون فى غير قومهم ما يغريهم بهم ، ويدفعهم إليهم ، ويمنع أذاهم عن القبيلة . فلا ينبغى إذن أن نفهم من مثل هذه

(١) الأغانى ٢١ : ٤٥و٤٦ الغميم : بلدة . أو النبات إذا طال ، الكلوم : الجراح .
(٢) المرجع نفسه ٢٠ : ٢٠و٢١ .
(٣) ديوان الهذليين ٢ : ٨٥ إلى ٨٧ .
(٤) الأغانى ٢١ : ٤٢و٤٣ .

الروايات ما فهمناه ونحن نتكلم عن غارات الذئاب على مناطق الخصب والقرار .

(ب) وإذا تركنا للصعاليك الثائرين هذه المناطق ، وأردنا أن نتفقدهم في غيرها ، نجدهم على طول الطرق التجارية التي كانت تقطع أرض الحجاز ، وتكوّن شبكة متصلة الحلقات . والناظر في تاريخ حركة التجارة في الجزيرة جميعاً يدهشه هذا النهوض الذي كانت عليه ، ويبهره عدد القوافل التي كانت تقطع الآفاق كل يوم . وليس يعنيني أن أرسم هذه السبل وأحددها ، فذلك لا يغنيني في بحثي هذا ، إنما أقول إن ذلك المثلث الذي قاعدته مكة والطائف ورأسه المدينة كان يشهد غارات كثير من ذؤبان هذيل . وكان هؤلاء يركزون هجومهم بوجه خاص في الجنوب ، فثمة قريش وما كانت تقوم به ، وثمة هؤلاء الذين يتصلون بها ، وإلى جانب ذلك كان هناك الشذوذ الجغرافي يعمل على مساعدة المغيرين ، ويعينهم على الانفلات والاختباء .

وسواء اقتنعنا بهذا الاستنباط أو لم نقتنع ، فقد كانت هذيل بشذاذها إحدى القبائل التي خافها العرب ، وكان تركزها فيما بين مكة والطائف وحول مكة بالذات ما جعل غيرها يحسب لها ألف حساب . ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا اختارت هذه المنطقة مركزاً لتجمعاتها . وتحدثنا الأخبار أن قريشاً كانت تحرص على حفظ ودها وتعمل على أن يكون بينهما سلامٌ مستديم[1] .

ويتوزع الصعاليك على الطرق مستخفين في الجبال . ويتلبثون بها طويلاً ، حتى إذا اقتربت القافلة باغتوها ، ثم أسرعوا في شعاب الجبل لا يقدر على إمساكهم أحد ، وقد يتربصون فوق المراقب ، ينفقون فيها كل يومهم وهم راقدون على الأرض كالخيال حتى لا يراهم أحد ، يقول أبو كبير :

وَعَلَوْتُ مرتبئاً على مرهوبةٍ ... حَصَّاء ليس رقيبُها في مَثْمِلِ
عيطاءَ مُعْنِقَةٍ يكون أنيسُها ... وُرْقَ الحمام جَميعُها لم يؤكلِ[2]

---

(1) طه حسين في الوعد الحق ٨٤ .

(2) ديوان الهذليين ٢ : ٩٦ مرتبئا : في حالة كوني ربيئة للقوم أي عينا لهم وطليعة ، مرهوبة : مرقبة يرهب أن يرقى فيها ، حصاء : لانبات فيها ، مثمل : حفظ ، عيطاء : طويلة العنق ، معنقة : طويلة .

ويقول ذو الكلب :

ومرقبةٍ يحار الطرف فيها إلى شمَّاءَ مُشْرِفةِ القَذالِ
أقمتُ بِرَيْدها يوماً طويلاً ولم أُشْرِف بها مثلَ الخيال
ومقعدِ كُربة قد كنتُ فيها مكانَ الإصبَعَيْن من القِبال[1]

وتقور الحقائق هذه الخطة ، وكانت لازمة قبل الشروع فى أى هجوم ، وقد رأينا أبا خراش يقول :

لست لمرة إن لم أوف مرقبة يبدو لى الحرف منها والمقاضيب

حتى إذا مات أحد هؤلاء الغزاة ، يكون مما يرثى به صعوده فى المرقبة ، وبقاؤه عليها ليمنع الشر عن إخوانه .

قال أبو المثلم فى صخر الغي :

ربَّاء مَرْقبةٍ منَّاعُ مَغْلَبةٍ ركّاب سَلْهَبَةٍ قطَّاع أقرانِ[2]

ولا يحدثنا الشعر طويلا بهذه الغارات التى كانت تتعرض لها القوافل التجارية، وليس معنى ذلك انتفاء وقوعها ، بل لأنها كانت شيئاً عادياً متكرراً ، يقع فى اليوم الواحد مرات ومرات . ثم لأنه لم يكن فيه من الخطورة مثل ما كان يتعرض له الصعلوك وهو يغير على حى كامل . والشعر نفسه يعرض لهذه الغزوات دون أن يفسرها أو يأبه لها ، فهى أمر من صميم عمل الصعلوك .

(ح) ونشاط الحركة التجارية يستتبع دائماً وجود الأسواق ، وكانت هذه تقام حيث يوجد الماء . فكأنها محاط تنزل فيها القوافل . وتخلص إلى نوع من التبادل مع العشائر القريبة منها . على أن هذا يتسع فى الأسواق الكبيرة كعكاظ ومجنة وذى المجاز فيشتد الزحام ، وتعظم الحركة ، وتروج المبادلة .

وكنا رأينا هذيلاً على الطرق الموصلة إلى المدن ، وبقى أن نقول إنها كانت كذلك تزدحم على الطرق الموصلة إلى الأسواق . والغاية فى ذلك واحدة ، فهل

(١) المصدر السابق ٣ : ١١٩ . القذال : الرأس، ريدها : حيدها أو حرفها ، كالخيال : منبطحا انبطاح الخيال فلا يراه أحد ، القبال : أى توسطها كما يتوسط قبال النعل الإصبعين .

(٢) المصدر السابق ٢ : ٢٣٩ رباء : يربأ أصحابه فى رأس الجبل ، سلهبة : فرس طويلة ، قطاع أقران : القرن هو الحبل والمعنى أنه يقطع صلته بغير أصحابه .

نزعم أن ذؤبانها كانوا يتربصون للناس فى السوق ؟ لم أجد فى شعرهم ، أو فيما يروى عن القبيلة ، أن هذلياً استطاع أن يظفر بشىء فى إحدى الأسواق . وكان ذلك يجب أن يكون ، وما ينبغى أن نسقط من حسابنا ما يكون فى السوق عادة من حركة ونشاط وازدحام . وهذا الازدحام بالذات كان يفسد خطط الصعاليك، ويعوقهم عن القيام بما اعتادوه من تربص ومفاجأة ثم هروب سريع . فكان يكفى الذؤبان أن يقفوا للتجار أرصاداً على الطرق المؤدية إلى السوق .

لنهمل إذن شأن الأسواق ، فلن نظفر لذؤبان هذيل فيها بشعر . ولنبعد عنها ، ولنخرج إلى البادية ، فسنجد من حيوان الصحراء مايغرى هؤلاء الطامحين بالقنص . وهو هو مارأيناه سبباً من أسباب حياة غيرهم . إلا أننا سنجد هؤلاء أكثر منهم ألفة بذلك الحيوان ، وأعظم منهم درايةً وخبرة ومعرفة بطباعه . ومن هنا كثر فى شعرهم وَصْفُه والتحدُّث عنه ، ومقارنته بهم فى العدو ، ولا سيما الظبى وحمار الوحش . كما كانوا يذكرونه فى الرثاء متفقين فى ذلك مع سائر شعراء القبيلة .

وما نريد أن نطيل فى شىء سنعرض له فى موضع آخر إن شاء الله . فإن كان لنا ما نقوله هنا بعد ذلك ، فهو أن حركات الصيد هذه قد تنقلب فى بعض الأحيان غزواً ، إذا هيئت الفرصة للذؤبان . وفى الأغانى أن أبا خراش وأخاه عروة خرجا فى نفر من بنى قرد يطلبون الصيد ، فبيناهم بالمجمعة من نخلة إذ رأوا قوماً يضربون فى الوادى فطمعوا فيهم ، وعدوا خلفهم يطلبونهم حتى أسروهم ، وهموا بقتلهم فمنعهم أبو خراش(١) .

وبعد ، فهذا ماعنَّ لى فى هذا الباب . فإن كنت قد أطلت به فى موضع فليس لشىء سوى أنى أحسست أنه فى حاجة إلى البسط والتفصيل . وإن كنت قد استطردت فى موضع آخر ، فلأنى نشدت الإبانة والوضوح . وغاية ماأريد فى كل ذلك هو أن أعطى للقارئ بعض مايعين على فهم شعر الهذليين فهماً عميقاً .

---

(١) راجع القصة فى الأغانى ٢١ : ٤١ .

الباب الثانى

فى

شعر الهذليين وخصائصه

الفصل الأول

مصادر شعر هذيل

— ١ —

دواوين الشعر

لدينا من شعر هُذَيل ديوان كبير ، كان ثمرة لمحاولة لغويي العرب جمع الشعر القديم . ويبدو أن هذا الديوان كان واحداً من جملة دواوين لقبائل العرب ، عني بها الرواة ، وحفظها المؤلفون ، واهتم بها الشراح منذ القرن الثاني للهجرة . ففي هذا الصدد يروى أن أبا عمرو الشيباني (المتوفى حوالى ٢٠٥ — ٢١٠ هـ) جمع من دواوين القبائل أكثر من ثمانين ، كما يروى أنه رجع إلى جميع ما كتبه المؤلفون قبله[١] .

وكان لانصراف أدباء العرب عن هذا النوع من الدراسة واحتفالهم بلون آخر من ألوان الدرس الأدبي ماأدى إلى إهمال هذه الدواوين حتى لقد قيل إن البغدادي (القرن الحادي عشر) لم يعتمد في تأليف خزانته إلا على اجزاء من هذه الكتب ، أما أكثرها فقد ضاع !

ويذكر جولد تسهير أن عناية العرب بجمع المختار فقط من أشعار كل قبيلة والمختار من دواوين الفحول ، أدى إلى إهمال شأن دواوين القبائل ، ثم إلى نسيانها نسياناً تاماً ، حتى لقد يبدو أنها اختفت اختفاء نهائياً . ولم ينجُ من هذا المصير سوى مجموعة الهذليين (لما أحاطها به رواة الشعر من عناية ، وربما كان ذلك لأن روعتها الشعرية سمت بها إلى مرتبة أعلى من المستوى العام لدواوين القبائل)[٢] .

---

(١) جولدتسهير (دواوين القبائل) ترجمة حسين نصار ، العدد ٦٣٣ من مجلة الثقافة .
(٢) الثقافة صفحة ٢١ .

وصاحب هذه المجموعة السكرى ، لم يكتبها من عنده وإنما أخذها عن غيره ممن سبقوه ونقحها وأكملها . وكان هـذا دأبه ، يشتغل بإعادة دواوين الشعراء القدماء ، وكانت المجموعة ضمن ما اعتنى به من دواوين القبائل ، إلا أن هذه ضاعت كما رأينا ، ولم يبق منها غير جزء لا بأس به من (ديوان الهذليين) .

ولقد انتهى ما جمعه السكرى خاصاً بهذيل إلى أبى بكر الحلوانى القارئ المتوفى سنة ٣٣٣ هـ ، ورواه عنه أبو الحسن على بن عيسى الرمانى المتوفى سنة أربع وثمانين وثلثمائة للهجرة . وأما السكرى فيروى عن الأصمعى ، أو بعض تلاميذه ، والمعروف حتى الآن من ديوان الهذليين أربعة مخطوطات وخمسة مطبوعات .

(ا) مخطوطا ليـدن وباريس :

أما أكبرها فهو مخطوط ليدن ، ويجمع عدداً كبيراً من شعراء هذيل ، ويعرض لكثير من الأيام والحوادث التى ترتبط ارتباطاً شديداً بالذكريات التاريخية للقبيلة . ويعتبر بحق أهم مرجع للدواوين التى طبعت فيما بعد .

وقد حاول المستشرق الإنجليزى جون جودفرى كوزجارتن Godfrey Kosegarten الاهتمام به وإخراجه للناس مطبوعاً لما يشتمل عليه من روائع للقبيلة ، غير أنه لم يوفق إلا إلى إخراج بعض منه يحمل نفس عنوان المخطوط ، وهو :

كتاب شرح أشعار الهذليين
صنعة أبى سعيد الحسن بن الحسين السكرى
رواية أبى الحسن على بن عيسى بن على النحوى
عن أبى بكر أحمد بن محمد الحلوانى عنه

وذكر فى الكتاب الذى أخرجه أن عنوان المخطـوط فيه تصحيف وتحريف ، ذلك أنه كتب عليه ما يلى

كتاب شرح أشعار الهذليين مما
صنعة أبى سعيد الحسن بن الحسين السكرى
رواية أبى الحسن ....

ففي العبارة (مما) وقد حذفها ، وفيها (صنعه) بفتح النون وقد جعلها (صنعة) ، ويبدو أنه آثر ذلك بعد أن اطلع على مخطوط في مكتبة باريس الملكية .

وذكر كذلك أن الذى كتب مخطوط ليدن محمد بن على العتابي المتوفى سنة ٤٨٤ كتبه عام ٥٢٩ أو ٥٣٩ هجرية من نسخة لأحد علماء اللغة . وفيه أيضاً أن العتابي قابل نسخة ذلك العالم بنسخ للجواليقي والحميدى وغيرهما ، فتكون نسخته بذلك أصح مخطوط لشعر هذيل ، تضمن كثيراً من الشروح والتعليقات .

وعلى الرغم من أن عدد أوراقه أربع ومائتان ، فهو ليس إلا الجزء الثاني من أشعار هذيل . وأما الجزء الأول فلم يعثر عليه . ولا يظن أن أحداً يملكه . ويقول الأستاذ دوزى صاحب المخطوط إنه رأى على غلافه ورقة صغيرة ملصقة على عبارة ، فلما رفعها قرأ هذه الكلمات :

الجزء الثاني

نسخه العتابي

ويقول جودفرى بعد ذلك إنه حين أزمع إخراج الكتاب أرسل إليه الأستاذ Slane من مكتبة باريس الملكية مخطوطاً ثانياً لهذيل ، فرآه عبارة عن تكملة لنسخة ليدن ، ويبدأ بشعر العجلان بن خليدة ، ويكاد خطه يشبه الخط المكتوب به نسخة ليدن ، وأوله :

.... من أشعار هذيل

صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكرى

رواية أبي الحسن على بن عيسى بن على النحوى

عن أبي بكر أحمد بن أبي سهل الحلوانى عن السكرى

أما مكان النقط فكلمة أو أكثر من كلمة ساقطة ، ويحتمل أن تكون رقم الجزء [١] . . محاها البائع حتى يتوهم شاريها أنه لا يبتاع البعض ، ولنفس السبب

(١) رجح صاحب المقدمة أنه الجزء الرابع ولم يوضح كيف .

أخفى بائع مخطوط ليدن عبارة (الجزء الثانى) . وفى هذه النسخة لا نرى كلمة (تما) وفيها (صنعة أبى سعيد . .) وفيها أيضاً (قوبل — أى المخطوط — وصحح وذلك فى ربيع الأول من سنة ثمان وسبعين وثلثمائة) .

ويشمل مخطوط ليدن خمساً وأربعين قصيدة طويلة كل منها أكثر من عشرين بيتاً ، وتسعاً وأربعين قصيدة لا تقل الواحدة منها عن عشرة أبيات ولا تزيد على العشرين ثم تسعاً وسبعين ومائة مقطعة تقل أبيات الواحدة عن عشرة أبيات .

وفى مواضع كثيرة فيه نقرأ للسكرى مقدمات لكثير من القصائد التى يرويها . وفى هذه المقدمات لمحات تاريخية يعرض فيها لبعض أيام هذيل ، وفيها أيضاً ملاحظات لغوية وحواش نحوية كتبها السكرى نفسه ، ثم فى هوامشها بعد ذلك بعض تفسيرات وشروح تضاف لبعض اللغويين[1] .

وكان جودفرى قد أزمع إخراج مخطوط ليدن كله ، على أن يجعله أقساماً ثلاثة ولكن الظروف لم تتهيأ إلا لإخراج القسم الأول فقط ، فتصدى المستشرق الألمانى فلهاوزن لهذا العمل الضخم ، وضم ما تركه جودفرى لجزءيه فى كتاب يعرف الآن بالبقية . وسنتكلم عنه فيما بعد .

(ب) مخطوط الشنقيطى :

وهناك بعد ذلك نسخة خطية هامة اعتمدت عليها دار الكتب فى إخراج ديوانها عن هذيل . وهذه النسخة من كتب العالم المغربى محمد محمود الشنقيطى ، وهى محفوظة بالدار تحت رقم ٦ أدب ش . والطريف أنها قسم صغير ضمن مجموعة ضخمة تشتمل على جملة دواوين منها ديوان حسان بن ثابت وديوان لبيد وديوان الشماخ وديوان الأعشى وغيرها ، وتضم واحداً وثلاثين شاعراً من شعراء هذيل ، فنشعر لأول وهلة أنا لسنا أمام أكبر عدد عرف من شعراء هذه القبيلة . ويبدو أنه كان مقيداً بالنسخة التى نقل عنها ، وهى موجودة فى المدينة المنورة .

---

(١) راجع مقدمة (شرح أشعار الهذليين) بالإنجليزية طبعة لندن سنة ١٨٥٤ .

وديوان الهذليين الذى تشتمل عليه مجموعة الشنقيطى ليس من خطه وإن كان مكتوباً كله بالخط المغربى ، بعكس بعض المجموعة ، فهو مخطوط خطاً فارسياً حسناً . ويلاحظ أن كل ما فيه من شعر ضبط ضبطاً لا بأس به يتخلله بعض الاضطراب أحياناً . وفى حواشيه تعليقات وشروح كتبت بخطٍ مغربى فى منتهى الدقة ، ولاشك أنها بيد الشنقيطى نفسه، قيدهافى أثناء قراءته للديوان . ولم يكن يجد ضيرا من إثبات بعض ملاحظاته بين السطور . وقد يتغير لون المداد إلا أنه فى جملته أسود واضح .

ولاحظت أثناء قراءتى للشروح أن ثمة اضطراباً وتداخلاً بين السطور ، كما أنها لم تخل من تحريف أو خطأ ، وفيها زيادات وتكرار كان من الممكن الاستغناء عنهما . كما أن فيها نقصا يضطرب المعنى به وتختلط العبارة ، فلا ندرى وجه الصواب فيما يريد . أما هذه الشروح فهى مختصرة عما قاله السكرى ، ذلك أنه ينقل عنه صراحة معانى الأبيات دون غيره ممن تعرضوا للشرح والتعليق .

ولاحظت أيضاً أن القصائد هنا ليست لها هذه المقدمات التى رأيناها فى مخطوط ليدن ، اللهم إلا بعض قصائد لا يُعْتَدُّ بها . وحتى هذه المقدمات تبدو مقتضبة فيها شىء كبير من الغموض . وقد حرصت دار الكتب حين طبعت كتابها على إثبات ما يوضح الغامض ويكمل الناقص ، فجاء فى عملها بعض الكمال ، وإن لم تبلغ فى ذلك ما بلغته نسخة لندن المطبوعة .

ويقع الديوان كله فى أربع وستين ورقة مكتوب فى وجهيها . وأوله فى المجموعة الكبرى الورقة الرابعة والستون ، وآخره فى الورقة الثامنة والعشرين بعد المائة . ويبدأ بهذه العبارة :

* صلى الله على النبى الحبيب *

وهى قريبة جداً من رقم الصفحة . ويلى ذلك عبارة أخرى تترجم فى ايجاز حياة أبى ذؤيب . وبمداد أحمر كتب بعدها عنوان القسم وهو :

كتاب ديوان الهذليين

ثم بالمداد الأسود « وهو يشتمل على ثمانية أجزاء ، خمسة منها رواية أبى سعيد عن الأصمعى » وهى الثانى والثالث والرابع والخامس والسابع .

ولم نظفر من نسخة رواية أبي سعيد إلا بهذه الخمسة . . . » وفى ظهر الورقة نفسها نقرأ أول قصيدة لأبي ذؤيب وهي عينيته التي يقول في أولها :

أَمِنَ المنونِ وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب مَنْ يَجْزَعِ

وتأخذ أشعار أبي ذؤيب من الديوان جزءين ، فإذا قرأنا لساعدة بن جؤية نجد الشنقيطى بعد أن يورد خمسة أبيات من بائيته التي مطلعها :

هَجَرتْ غضوبُ وحُبَّ مَنْ يتحبَّبُ

وَعَدَت عَوادٍ دون وَلْيِكَ تَشْعَبُ

يكتب بالخط الدقيق تحت البيت الخامس مباشرة « كمل الجزء الثانى » وإلى جانب البيت السادس منها وفى الهامش نقرأ عبارة « الجزء الثالث من ديوان الهذليين وهو من رواية أبي سعيد عن الأصمعى . بقية قصيدة ساعدة بن جؤية ثم يورد سائر أبيات القصيدة وسائر شعره ، متتبعاً نفس النظام والترتيب ، حتى ينتهى من الديوان كله .

ولم ينس فى نهايته أن يضع فهرسة بأسماء الشعراء الذين روى لهم شعرهم وعددهم كما ذكرنا واحد وثلاثون . وتقع الفهرسة فى ظهر آخر ورقة بالديوان ويلى ذلك ديوان لبيد ثم غيره من الدواوين التى تشتمل عليه هذه المجموعة النادرة .

(ح) ديوان أبى ذؤيب :

أما المخطوط الأخير فهو « ديوان أبى ذؤيب » من كتب الشنقيطى أيضاً ، ومحفوظ بدار الكتب تحت رقم ١٩ أدب ش . ويلاحظ أن كل ما فيه من شعر بخط فارسى واضح ومداده أحمر ، وعقب كل بيت نرى ما قيل فيه من شروح وملاحظات تضاف إلى السكرى . وهى طويلة مسهبة يأتى فيها صاحبها بآراء كثيرة ويعلق عليها . وفى حواشيه استدراكات وملاحظات مكتوبة بخط مغربى وإن كان بعضها فارسى الخط ، ويظهر أنها للشنقيطى نفسه .

وقد نرى شيئاً من التصحيف فى رواية البيت أو يقع خطأ فى شرحه فيثبت صاحب النسخة الصواب فيه . وربما نرى بعض تقييدات كأن يكتب فى الحاشية « قف هنا . . . »[1] .

---

(١) ورقة رقم ١٣٠ .

ويلاحظ أن القصائد كلها تساق بغير تمهيد أو مقدمات اللهم إلا هذه العبارة التقليدية « قال أبو ذؤيب » أو « قال رحمه الله » .

والمخطوط كله يقع فى أربع وأربعين ورقة من الحجم الصغير ، وفى أوله كتب بالخط المغربى « ملكه محمد محمود بن التلاميذ التركزى ، ثم وقفه على عصبته وقفاً مؤبداً فمن بدله فإثمه عليه . وكتبه محمد محمود غرة ذى الحجة الحرام سنة ١٣٠٥ » ويلى ذلك بالمداد الأحمر هذه العبارة :

شعر

ديوان أبى ذؤيب

رواية أبى سعيد الحسن بن الحسين

السكرى وشرحه رحمه الله

وفى ظهر الورقة نفسها كتب بخط فارسى حسن وبالمداد الأسود :

بسم الله الرحمن الرحيم

رب أعن

قال أبو سعيد الحسن بن الحسين السكرى : أخبرنا أبو الفضل الرياشى العباسى ابن الفرج عن الأصمعى عن عمارة بن أبى طرفة ، وأخبرنى محمد بن حبيب عن ابن الأعرابى وأبى عمرو الشيبانى ومحمد بن الحسن عن عبد الله بن ابراهيم الجمحى قالوا : « هلك لأبى ذؤيب خمسة بنين فى عام واحد ... » ويوردون السبب الذى من أجله أنشد الشاعر عينيته فى الرثاء . وهنا نرى جملة آراء فى عدد أبناء الشاعر ، ونبذة لامحة عن حياته وأين مات ثم وصفاً له . ويلى ذلك كله مطلع العينية ثم سائر الشعر .

وقد قارنت بين شعر هذا الديوان وشعر أبى ذؤيب فى ديوان الشنقيطى الكبير فوجدت ثمة اختلافا ، فالشروح والتعليقات المكتوبة هنا ليست هى هذه التى نراها فى الديوان الكبير ، وترتيب القصائد بل ترتيب الأبيات وعددها مخالف لما هو موجود فى المجموعة الكبيرة . ويظهر لنا أن هذا الديوان المستقل قد نقل من أصل يخالف الأصل الذى نقل منه الديوان الكبير . وقد استعانت دار الكتب به حين طبعت مجموعة الشنقيطى عن هذيل ، وأثبتت

فى الهامش ما تنقله عنه ، مكملة بذلك هذا النقص الذى نشعر به فى أثناء قراءتنا تعليقات الشنقيطى الخاصة .

وينتهى ما فى الديوان برجز لأبى ذؤيب يرد به على حسان بن ثابت . ثم نقرأ فى آخر ورقة به هذه العبارة :

تَمَّ شعر أبى ذؤيب الهذلى بتوفيق ربنا العلى

* * *

وبعد ، فهذه ملاحظات على مخطوطات الشعر لهذيل ، وأنا حين أقف هنا إنما أريد أن أتناول ما طبع من هذا الشعر ، فأعرض له بشىء من الوصف والتعليق حتى نحيط بكل ما يمكن أن يعين على دراسة تراث القبيلة . ولقد طبع فى أوروبا ثلاث مجموعات لهذيل ، وفى مصر مجموعة واحدة . إلا أن المجموعة الأخيرة كانت ثمرة لدراسة عميقة فجاءت كاملة إلا من بعض هنات سنقف عندها إن شاء الله .

(ى) كتاب شرح أشعار الهذليين :

هو مجموعة أوروبا الأولى ، طبع فى لندن سنة ١٨٥٤ ميلادية ، ويشمل شروح السكرى ، وهو منقول عن مخطوط ليدن باسم :

« كتاب شرح أشعار الهذليين »

صنعة أبى سعيد الحسن بن الحسين السكرى

رواية أبى الحسن على بن عيسى بن على النحوى

عن أبى بكر أحمد بن محمد الحلوانى عنه

ويشتمل على ثمانية وعشرين شاعراً ، وإن كان جون جود فرى لويس كوزجارتن ناشره ذكر فى فهرسته تسعة وعشرين . وهو مقسم تقسيمات حسنة برغم عدم تخريج شعره . وكل قصيدة فيه تحمل رقماً خاصاً ، وفيه مقدمة قيمة بالإنجليزية تناولت بالحديث مخطوط ليدن فوصفته وعلقت عليه . والمقدمة بقلم جود فرى كوز جارتن نفسه ، تحدث فيها عن الشعر العربى عامة ، وعرض للمفضليات ،

ووقف عند ديوان الحماسة قبل أن يتكلم عن ديوان الهذليين . . . كل ذلك ليقفنا على أنواع الدراسة التى كان يأخذ بها أنفسهم أدباء العرب .

وتحدث كذلك عن السكرى ، ونقل مايذكره السيوطى عنه ، وقال : إنه ولد سنة ٢١٢ هجرية ومات سنة ٢٧٥ أو سنة ٢٧٠ على مايقوله الزبيدى . ثم تكلم عن هذيل وصعد بنسبها إلى مدركة وعدّد بطونها وحدّد مكانها .

وبعد ذلك ذكر ان الرمانى هو الذى روى الأشعار التى تتضمنها نسخة ليدن ، وهذا رواها عن الحلوانى عن السكرى . ثم اخذ يعلق على المخطوط نفسه وذكر مااوردناه قبل . وفى النهاية قال « والجزء الثانى من هذا المؤلف سيصدر فى العام القادم حاوياً ترجمات لقصائد موجودة فى مخطوط ليدن ، وستضاف إليه ملاحظات تاريخية للسكرى . وأما الجزء الثالث فستكون فيه البقية من المخطوط العربى مطبوعاً كالجزء الأول وفيه القصائد وشروحها .

ومعنى هذا أن الكتاب ليس إلا قسماً مما هو موجود فى مخطوط ليدن ، ولم تتح له الظروف ليخرج الجزءين الآخرين ، فقام بهذا العمل فلها وزن على نحو ماقلنا من قبل وأصدر سنة ١٨٨٤ « شرح أشعار الهذليين ما بقى منها فى النسخة اللغدونية غير مطبوع » .

ويلى المقدمة اسماء الشعراء الهذليين الذين ورد ذكرهم فى الديوان ، وهم ثمانية وعشرون بإسقاط (سريع بن عمران) لأنه لم يرو له أى شعر .

أما الشعر فتتخلله شروح السكرى ، وهى تفى بحاجة الباحث ، والقصائد كلها تقريبا ممهد لها بمقدمات مختلفة أو بما يعين على فهم الجو الذى قيلت فيه ، وقلما نجد قصائد تروى بغير تمهيد ، والكتاب من هذه الناحية جم الفائدة جليل الشأن . والمطلع فى شعر هذيل محتاج إليه دائماً ليكون فهمه للنص اعمق وأقوى وأصدق .

(هـ) البقية :

والمجموعة الثانية هى نفسها « شرح أشعار الهذليين . ما بقى منها فى النسخة اللغدونية غير مطبوع » التى طبعها فى برلين للمستشرق الألمانى فلها وزن جاعلاً

فى آخرها قراءات تبين اختلاف الروايات . وليست هذه المجموعة فى كتاب مستقل ، إنما هى ضمن كتاب يتحدث فيه فلهاوزن عن تاريخ اليهود فى بلاد العرب . وفى قسم خاص يفرد لهذيل بحثاً باللغة الألمانية يعلق فيه على شعرها ويشرحه ويترجمه ، ويسمى هذا القسم :

Letzter Jeil
Der
Lieder Der Hudhailiten

أى أن الجزء الأخير من شعر الهذليين ، يريد بذلك أنه القسم الذى لم يطبع من مخطوط ليدن ، ومن هنا نفهم لماذا سماه بالعربية « شرح أشعار الهذليين ما بقى فى النسخة اللغدونية غير مطبوع » ويعرف بالبقية . وأول ما فيه من شعر لعبد مناف بن ربع وهى قصيدته التى مطلعها :

ماذا يغير ابنتَىْ ربعٍ عويلهما لا ترقدان ولا بؤسى لمن رقدا

وتحمل رقم ١٣٩ . وما قبلها طبع فى لندن قبل ذلك بثلاثين عاماً .

وتضم هذه المجموعة كثيراً من أيام هذيل ووقائعها ، وهى بذلك تطلعنا على صفحة طريفة من صفحات هذيل . والقصائد فيها بعضها ممهد له بمثل هذه الأيام وبعضها خال من أى تقديم . .تشاهد ذلك فيما يروى لأبى صخر ومليح القردى على الرغم من أن ثمة قصائد تذكر الغرض فى إيجاز شديد . والمجموعة لا بأس بها فى جملتها ، إلا أن كل ما يوجه لها من عيب هو أنها خلو من الشروح بالعربية ، ويبدو أن فلهاوزن اكتفى بشروحه الألمانية[1] . وهى تشتمل على سبعة وعشرين شاعراً . ولكن هذا العدد يثب إلى الأربعين إذا أحصينا كلَّ هذلى فيها قال شعراً .

ولهذه المجموعة ميزة هامة ، هى أنها رَوَتْ لبعض شعراء لم يرد اسمهم فى الدواوين الأخرى ، مثال ذلك ما نقرؤه لأبى صخر شاعر بنى أمية ، ومليح الشاعر الغزلى الرقيق .

---

(١) لم يمنعه هذا من أن يقدم الشرح بالعربية سنة ١٨٨٥ وذلك فى المجلة الألمانية Z. D. M. G. التى تصدر فى ليبزج ، وفى المجلد نفسه نشر ج . بارث تصويبات لما نشره فلهاوزن من شعر .

(و) مجموعة أشعار هذيل :

وهذه هي ثالث مجموعة تطبع في أوروبا . وهي جزءان . كتب على الجزء الأول منها « مجموع دواوين من أشعار الهذليين » وهو يشتمل على ديوان أبي ذؤيب ، اعتنى بنشره واستخراجه لأول مرة المستشرق الألماني يوسف هل ، وذلك سنة ١٩٢٦ ميلادية في هانوفر .

وبمراجعة الديوان ظهر أنه لم ينقل عن الشنقيطي بدليل اختلاف ترتيب القصائد وعدد أبياتها ، وتقل قيمته حين نرى الشعر يساق بلا تمهيد ولا تقديم ، وبلا أية شروح ، أو تعليقات . وقد نجد قصيدتين أو ثلاثاً تساق بالسبب الذي من أجله قيلت إلا أن هذا لا يطرد . ولكن فيه مع ذلك مقدمة باللغة الألمانية وفهارس لقوافي الشعر وأسماء الرجال والنساء الواردة فيه ، وترجمة كاملة لما ورد فيه من شعر .

وأما الجزء الآخر فهو يشتمل على شعر أربعة شعراء لهذيل ، وكتب عليه باللغة العربية :

مجموعة أشعار الهذليين

الجزء الثاني

أشعار

ساعدة بن جؤية وأبي خراش والمتنخل

وأسامة بن الحارث

اعتنى بنشرها

يوسف هل الألماني

طبع بمطبعة ليبزج سنة ١٩٣٣

والمجموعة في جملتها منقولة عن نسخة الشنقيطي . وآية ذلك أنّا نجد فيها نفس الشروح والتعليقات المكتوبة على النسخة الشنقيطية ، . أما ترتيب أبيات القصائد وعددها فهو هو في الكتابين لا اختلاف .

وإذا كان الشعر وشروحه قد استغرقا اثنتى عشرة صفحة ومائة ، فإن مقدمات وملاحظات يوسف هل قد أخذت سبعاً وثلاثين ومائة صفحة . وتحتوى على صورة شمسية لإحدى أوراق الشنقيطى ، وهى من شعر المتنخل (ورقة رقم ٨٧) وفى نهاية هذه التقييدات فهرسة عامة لقوافى الأشعار وبحورها . وتشمل أسماء الرجال والنساء والعشائر والأحياء والمواضع وما ينسب إليها . فتشبه فى ذلك ديوان أبى ذؤيب .

وقيمة هذا الجزء من هذه المجموعة أنه يعطينا صورة منظمة لبعض ما هو موجود فى مخطوط الشنقيطى(١) .

(ز) ديوان الهذليين :

وهو الديوان الذى طبعته دار الكتب المصرية ناقلة فيه كل ما أورده الشنقيطى فى نسخته الخطية . وهو ينقسم ثلاثة أقسام ، أخرج كل قسم إخراجاً حسناً ، إلا أن قيمة كل قسم تتفاوت بمقدار ما فيه من تعليقات أثبتتها الدار فى الهوامش .

والواقع أن هذا الديوان صورة ممتازة لكل ما جاء فى مجموعة الشنقيطى ، وقد بذل المشرفون عليه جهداً ملحوظاً فى إصلاح ما وقع من أخطاء فى هذه الشروح التى ينقلها العالم المغربى عن أبى سعيد . وكانوا يرجعون إلى شروح الشعر فى مظانه منبهين على ذلك فى الحواشى ، فوقفوا بهذا طويلاً عندما أخرجته مطابع أوروبا وعند كتب اللغويين المختلفة ، وأخص بالذكر منها خزانة البغدادى والأغانى .

واتبعت الدار فى طبعتها سبيلاً اتبع قبل ذلك فى «كتاب شرح أشعار الهذليين»

---

(١) قدم هذا البحث للمناقشة سنة ١٩٥١ ولم يكن الأستاذ عبد الستار أحمد فراج قد تجرد لجمع أشعار الهذليين وتحقيقها . وفى الستينات قدم « كتاب شرح أشعار الهذليين » منتفعا بكل الجهود التى بذلت ومضيفا إضافات قيمة . وقد ذكر أنه فى سنة ١٩٢٣ ظهرت لامية أبى كبير الهذلى بشرح السكرى ونشرها فهيم باجر كترفلك ، ونبه أيضا على أنه ظهر فى سنة ١٩٢٧ فى المجلة الأسيوية بباريس ديوان أبى كبير بغير اللامية وكان ناشره كترفلك ، ذاكراً أنه بشرح السكرى ومعنيا بتخريج أبيات الشاعر كما فعل يوسف هل فى ديوان أبى ذؤيب .

فعقب كل بيت تثبت شروحه بخط أصغر من خط البيت نفسه . وكانت تنبه فى الهامش على كل مافى المخطوط من تصحيف أو قصور . وكان ينقصها أن تثبت هذه التمهيدات التى رأيناها فى نسخة لندن المطبوعة . ولو قد فعلت لجاء الديوان كاملا فى كل شىء . ولست أدرى لماذا تقيدت فى ذلك بما أثبته الشنقيطى مع أنها كانت حريصة على إضافة أشياء فى نص القصيدة . ويلاحظ أنها فعلت ذلك فى بعض القصائد إلا أن هذا لم يكن كثيراً ولا مطرداً .

وكان يحسن بها أيضاً أن تكمل نسخة الشنقيطى بعدد من الشعراء سكت عنهم هذا العالم المغربى ، مثال ذلك كل مافى البقية لأبى صخر ومليح ، وهما شاعران كبيران لهما ألف بيت ونيف مناصفة على وجه التقريب . وقل مثل هذا عن سلمى بن المقعد وعمرو بن هميل اللحيانى وعبد الله بن أبى ثعلب . وهى لو قد فعلت لجاء ديوانها حاويا لأكبر عدد من شعراء هذيل ولاستغنى به عن سائر ما طبع .

والملحوظة الأخيرة هى أن الأقسام الثلاثة تتفاوت قيمتها بمقدار ما نراه من تفاوت فى تقييداتها ، وبمقدار ما فى كل من تحقيق وعناية . أما القسم الأول فباستثناء عينية أبى ذؤيب فإن حظه من الاهتمام أكبر من حظ القسم الثانى ، ففى هذا القسم مثلا صفحات كثيرة مقصورة فقط على ماقيده الشنقيطى وهو بالغ الندرة . فإذا قرأنا القسم الثالث نجد أنه دون أخويه بحيث أنه أصبح أقل الثلاثة حجما . على أن الثلاثة تشترك فى شىء هام هو إصلاح الخطأ ، وإكمال الناقص (١) وضبط ما التبس من الألفاظ (٢) .

وإلى هنا نقف ، فقد قومنا تراث هذيل التليد ، وحددنا مصادره ، وعرضنا لكل مصدر بشىء من النقد . ونحن لانزعم أنا فعلنا بذلك كل شىء ،

---

(١) لايعنى ذلك إصلاح كل الخطأ كما لا يعنى أن عمل الدار كان أوفى من كل ما صدر ، فلامية بن أبى عائذ مثلا نونية تبلغ ٥١ بيتاً ولم تذكرها ، وله صادية أبياتها ٢٩ وقد ذكرت منها سبعة فقط ، وفى الجزء الثالث روت قصيدة للمعطل زاعمة أنها لم ترد فى البقية مع أنها وردت . وقد استدرك عبد الستار فراج عليها استدراكات مهمة يكفى أن نذكر منها أنها قدمت نحو ٢٣٠٠ بيت ومشطور فى حين قدم هو — فيما حققه — ٤٦٠٠ وذكرت هى ٣٣ شاعراً وقدم هو أكثر من ١٢٠ .

(٢) سنرمز لهذا الديوان فيما بعد بكلمة « الديوان » .

لا ولا تناولنا كل الكتب التى عرضت لهذا الشعر ، فثمة مصادر مازلنا فى حاجة إلى أن نتكلم عنها ، وهذا ماسنأخذ به انفسنا بعد قليل .

ولكن قبل ان نفعل نحب أن نقول إن هذه الدواوين لها من الخطورة مالا يمكن للمشتغلين بالأدب الاستغناء عنها ، لاسيما إذا عرضوا لحياة الجاهلية . فإذا عرفنا ذلك ، آلا يحق لنا أن نعجب حين نرى جامعاتنا لا تملك من هذا التراث سوى البقية وشروح لندن ونسخة هزيلة لديوان أبى ذؤيب ؟

— ٢ —

مصادر أخرى

لاشك أن الدواوين أوفر المصادر نفعاً ، وأجلها خطراً ، وأحقها بالرجوع إليها والاعتماد عليها ، فهى المتن قبل كل شىء . وهى النافذة الكبرى التى تنظر خلالها إلى القبيلة ، ولكن هناك أيضاً هذه الكتب التى فيها المختار من أشعار العرب . لدينا المفضليات مثلاً ، ولدينا الحماسة ، ولدينا الكتب الأخرى من كتب الأدب كالخزانة والأمالى ، ثم لدينا المعجمات وهى مصدر مهم لشعر القبيلة .

على أننا فى هذه المصادر لن نظفر بشىء كامل ، وإنما سنجد هنا شيئاً وهناك شيئاً آخر . فهذا الكتاب يسوق طرفة ، وذلك يستشهد بخبر . وثالث يعنى بمدلولات البيت اللفظية ، ورابع يجمع كل ذلك جميعاً . فهل نقول : إن هذا عيب مشترك ؟ قد يصح لنا ذلك إذا اخذنا أصحاب هذه المصادر بالمنهج التاريخى ، ولكننا نظلم هؤلاء لأن نوع الدرس الذى كانوا يأخذون أنفسهم به كان يتطلب منهم هذا الشطط إن كان يصح أن نسميه شططاً .

ومع ذلك فلا يمكننا أن نزعم أن هذه المصادر فيها مايصدو عن بلوغ الغاية منها . بل بالعكس ، كانت تعيننا إلى حد كبير على فهم كثير من الشعر ، وجد فى الدواوين نفسها .

(١) كتاب الأغانى :

وأول هذه المصادر وأكثرها نفعاً لنا هو كتاب أبى الفرج . ففى الأغانى ترجمات وافية لكثير من شعراء هذيل ، وأكثر من قصيدة لكل شاعر . وفيه

كذلك كثير من الأخبار والروايات التى تكشف لنا عن بعض جوانب الحياة القبلية . إلا ان الأسلوب الذى سار عليه أبو الفرج فى تأليفه يجعلنا نقف أمامه فى حذر ، ويجعلنا نتساءل : هل لهذه الأخبار التى يأتى بها حظ من التحقيق التاريخى ؟ .

لقد حاولت أن أرد بعض مايقصه لنا ، إلا أن شعر الشاعر — لا سيما إذا كان موجوداً فى الدواوين — كان يحول دونى وما أريد . فلم يسعنى إلا أن أرفض هذه القصص التى لا تتفق مع التاريخ المحقق وهذه التى توقع فى شىء من التناقض . وأما غيرها فقد كان يتيح لنا شيئاً كبيراً مما نريد ، وكان يقفنا على نواح طريفة من حياة القبيلة .

ونحن نعثر من حين لآخر فى أجزاء « الأغانى » على شىء لهذيل ، إلا أنه تناول فى الجزء السادس حياة أبى ذؤيب بالتفصيل . وأما الجزءان العشرون والحادى والعشرون فيحفلان بشعر كثير لهذيل ، وترجمات لبعض شعرائها ، وفيهما كثير من طرائف الصعاليك ومغامراتهم . فيكون الكتاب من هذه الناحية أهم مصدر لمن يريد أن يقف على حياة ذؤبان هذيل .

بقى أن أقول إن ابن النديم ذكر أن أبا الفرج سلك مسلك إسحاق بن إبراهيم الموصلى فى كتابه ، وكان لإسحاق كتاب يحمل نفس اسم كتاب أبى الفرج ولعله ضاع . وذكر أيضاً أن لإسحاق مؤلفاً عن هذيل اسمه (كتاب الهذليين)(١) وحاولت عبثاً أن أعثر عليه ، ولكنه ضاع فيما ضاع من كتب الأولين النادرة .

(ب) الشعر والشعراء :

وهذا الكتاب لابن قتيبة المتوفى سنة ست وسبعين ومائتين . وهو لون من ألوان البحث الأدبى يمتاز به القرن الثالث الهجرى . ونجد شبيهاً به كتاب الطبقات لابن سلام (توفى سنة ٢٣٢) فكلاهما عن الشعراء وأزمانهم ، وكلاهما فى أقسام الشعر وطبقاته ، وكلاهما يورد مايختاره المؤلف من شعر دون تحليل . إنما هى النظرة العامة والحكم الجامع ، لادقة فيه ولا تحديد ولا تفصيل . بل ربما كان فى ذلك الحكم شىء كبير من الشطط ، كأن يروى عن الأصمعى قوله

(١) الفهرست ص ١٤١ .

فى بيت أبى ذؤيب « والنفس راغبة إذا رغبتها » هو أبدع بيت قالته العرب !

ولقد قصد ابن قتيبة فى كتابه ان يجمع بين التاريخ والنقد . ألم يزعم فى مقدمة كتابه أنه إنما يريد تقسيم الشعر ، وتحديد طبقاته ، وبيان الوجوه التى يختار عليها الشعر ويستحسن لها (١) . ولكنه أخفق ، إذ لم يتناول النصوص إلا بالأسلوب الذى بيناه قبل ، فثمة عرض لمقطعات الشعر ، وثمة نظرة عابرة ثم هناك بعض أخبار عن الشعراء .. كل ذلك على غير منهج واضح !

ومن هنا لا ننتظر منه أن نجد حكماً ظاهراً على ما أورده لهذيل من أشعار . حقاً هو يصرح أنه قصد بمؤلفه أن يكتب عن المشهورين من الشعراء الذين يحتج بشعرهم فى القرآن وغريب اللغة والنحو . ولكن هذا لا يكفى بل كان حرصه على أن ينظر فى هذا الشعر نظرة أدباء عصره مالم يجعل للكتاب الأثر المنشود اللهم إلا بعض هذه المسائل العامة والنظرات التى أثبتها فى مقدمته .

عرض ابن قتيبة لبعض الهذليين أو المشهور منهم — على مايقول — وأورد أشعاراً لهم ، دون أن يتناولها بالدرس ، أو يميز بين أساليبها ، ويقفنا على مافيها من لمسات فنية صادقة فهو يقول :

أمية بن عائذ وهو من شعراء هذيل وهو القائل :

يمرّ كجندلة المنجنيق ... يُرمَى بها السورُ يوم القتال

وصخر الغى هو القائل :

إنى بدهماءَ قَلَّ ما أجِد ... عاودَنى من حبابها زُؤُدُ

وأبو العيال وهو القائل يرثى عَبْدَ بن زُهرة رجلا من قومه :

له فى كل ما رفَع الفتى من صالح سبب

رزيئةُ قومه لم يأخذوا ثمناً ولم يهبوا(٢)

---

(١) انظر مقدمة الكتاب صفحة ١ .

(٢) صفحة ١٥٨ ونذكر هنا أن هناك ترجمة له فى الإصابة وفى الأغانى ٢٠ : ١١٥ وفى الخزانة ١ : ٤١٧ لأمية بن أبى عائذ . كذلك هناك ذكر لصخر الغى فى الإصابة ٣ : ٢٥٩ وفى الأغانى ٢٠ : ١٩ وأما أبو العيال فذكره فى الإصابة ٧ : ١٤٣ مع الأغانى ٢٠ : ١٦٦ والحباب : الحب والمودة ، الزؤد : الذعر والفزع .

هو بذلك يحفظ لنا — على أى حال — نموذجاً مختاراً ، رضى عنه وأعجب به ، فنستطيع من هنا أن نحكم على ذوقه ، وكيف كان يفهم الشعر ، وكيف كان يقبله .

(ح) الحماسة :

وأريد بها « كتاب الحماسة » لأبى عبادة البحترى ، ذلك أن أبا تمام لم يذكر فى حماسته إلا ثلاث مقطعات إحداها لأبى كبير واثنتان لأبى صخر . أما حماسة البحترى فهى حافلة بأشعار الهذليين ، إذ روى فيها لأبى ذؤيب وساعدة بن جؤية وأخت ذى الكلاب وحصيب وعبدالله بن عتبة وأبى صخر . . روى لهؤلاء شيئاً موفوراً مرتباً ومنظماً فى أبواب .

والحماسة مجموعة شعرية مختارة ضمَّتْ كثيراً من أشعار المبرزين ، وهى صورة لما كان يقبل عليه الأدباء منذ عهد أبى تمام(١) المتوفى سنة ٢٣١ هـ ، فقد فتح هو لهم الباب بوضعه حماسته ومن ثم تعددت الحماسات . غير أنها ضاعت فى معظمها ولم يبق لنا منها مما يستحق الذكر سوى حماسة البحترى .

ولقد جعلها الشاعر أربعة وسبعين ومائة باب ، اشتملت على معظم المعانى التى دارت على ألسنة شعراء العرب جميعاً . ولكن الشاعر استخدم فى اختيارها ذوقه فجاءت حسنة الاختيار ، والعجيب أنه لم يجعل للغزل باباً مع أنه فتح فيها أبواباً كثيرة مثل باب ماقيل فى الفتك ، وباب ما قيل فى الفرار على الأرجل ، وباب ماقيل فى اليأس من البقاء وحذر الموت وترقبه .

(ى) الأمالى :

وهى التى أملاها أبو على إسماعيل بن القاسم القالى البغدادى المتوفى بقرطبة سنة ست وخمسين وثلاثمائة . وتعد الأمالى بحق مصدراً نافعاً لشعر هذيل من ناحية كونه أداة يستخدمها علماء اللغة فى تفسيرها وشرح غريبها والاستشهاد

---

(١) لا أشير إلا إلى ما يحمل اسم « الحماسة » وإلا فيجب أن نقول إن الأولين عرفوا مجموعات الشعر قبل أبى تمام بطويل . فحماد يجمع المعلقات، والمفضل الضبى – فى القرن الثانى الهجرى – يجمع مفضلياته ، وينحو نحوه الأصمعى فى أصمعياته ، وكلها من المختار القيم .

على مفرداتها . وهى من هنا تقترب من المعجمات لا سيما إذا تركنا ما فيها من نوادر وأخبار .

والأمالى ليست إلا واحدة من جملة مؤلفات اهتم أصحابها فيها بجمع فنون الأدب ما بين نثر وشعر وقرآن وحديث ورسائل وأمثال ، ونخص بالذكر هنا كتاب الكامل لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد(١) . والواقع أن الكامل يشبه إلى حد بعيد كتاب الأمالى فالأسلوب واحد والطريقة واحدة والاستطراد هو هو وإن كان الأخير أكثر عناية باللغة والشعر .

الأمالى إذن والكامل كتابان نعثر فيهما على الكثير من شعر هذيل . فإذا قصرت كلامى على الكتاب الأول فليس إلا لأنه يغنى عن الثانى وعن غيره مما يسلك نفس السبيل كالبيان والتبيين للجاحظ . وإذا ذكرنا الأمالى نذكر معه كتاب التنبيه للعالم اللغوى أبى عُبَيْد البكرى الذى توفى سنة سبع وثمانين وأربعمائة . والغاية منه إصلاح ما أتاه القالى من أوهام وأغلاط ، فمثلاً إذا نسب صاحب الأمالى خطأ بعض الأبيات لشاعر أو لم يذكر صاحبها صحح أبو عبيد الخطأ . وإذا لم يفهم القالى شيئاً مما كانت العرب تأخذ نفسها به فى حياتها وضحه وبين المقصود منه . هذا فضلاً عما يورده من وقائع تفسر المعنى الحقيقى وتوضح الشيء المطلوب .

ونستطيع أن نجمع أشعار هذيل التى وردت فى الأمالى فنجدها تستخدم فيما تستخدم فيه سائر الأشعار ، فهو يستدل بها مثلا على أسنان الإبل وترتيب أسمائها ويتكلم مستشهداً بها على تنوع أسماء الشخص ، وأسماء الشيء البالى ، ويعرض لها فى تفسير الغريب من اللغة إلى غير ذلك من الموضوعات التى يحفل بها الكتاب .

وقد يقصد أبو على لما يقوله الهذلى مباشرة : وقد يتكلم عنه استطراداً أو عرضاً وطريقة ذلك أنه فى أثناء احتجاجه على شيء تعرض له كلمة غريبة أو معنى

(١) من علماء اللغة فى القرن الثالث الهجرى ، وهو صورة واضحة لذهنية اللغويين النقاد الذين يهتمون بالنص الشعرى من حيث دلالاته اللغوية . ومع ذلك فقد اهتم بجوانب بلاغية مهمة منها حديثه عن التشبيه ، ويقال إنه أوحى إلى تلميذه ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ بوضع كتاب « البديع » .

غامض فيسرق بيتاً أو أبيات شاعر هذلى يوضح بها ما يقول فيبدى بذلك خافى المعنى ، وكثرة أشعار الهذليين الواردة فى الكتاب تظهر إلى أى حد اهتم الأدباء وعلماء اللغة بتراث هذيل الكبير .

(هـ) خزانة الأدب للبغدادى :

والخزانة أحد الكتب التى ألفت فى سبيل اللغة والنحو برغم أنها تحوى حشداً هائلاً لأنواع المعارف المختلفة . ولقد استطاع البغدادى أن يحصل على شواهد نادرة من أشعار القبائل ، وكان حظ هذيل من عنايته كبيراً ، ويبدو أنه كان يرجع إلى كتب ظلت موجودة حتى القرن الحادى عشر الهجرى — وهو عصره — ثم ضاعت بعد ذلك . والخزانة من هنا تعد مرجعاً لمن يبحث فى حياة القبائل وشعرها .

على أنه لم يعرض لهذيل إلا فى أجزائه الثلاثة الأولى ، وأما الجزء الرابع فقد خلا من كل شىء عن هذه القبيلة ، وفى الجزء الأول تكلم عن خمسة من شعراء هذيل هم : أبو ذؤيب، وساعدة بن جؤية، وأبو خراش، وأمية بن أبى عائذ وأبو صخر ، وفى الجزء الثانى تكلم عن المتنخل فقط وترجم له . وأما الجزء الثالث ففيه حديث عن عبد مناف بن ربع الجربى وأبى كبير الصحابى .

وطريقته فى عرض شعر هؤلاء أن يتفق له الاستشهاد ببيت شاعر منهم فيستطرد إلى أبيات أخرى ، ويترجم للشاعر ترجمة مختصرة ولكنها وافية . وفى ذلك يرجع إلى كتب مختلفة كالإصابة وغيره . فالكتاب من هذه الناحية يفيد فضلاً عن أنه يعطينا صورة دقيقة عن مدى عناية اللغويين والنحويين بالأبيات التى يستشهدون بها ، وكيف يقفون عندها طويلاً دون أن يصيبهم كلال .

(و) كتب اللغة والمعاجم :

ولا نريد أن نعيد القول فيما قلناه قبل من أن علماء اللغة هم الذين حفظوا لنا أشعار هذيل . فمن الطبيعى والأمر كذلك أن ننظر فى كتبهم لنرى إلى أى حد استشهدوا بشعر هذه القبيلة ، وفسروا به غريب اللغة وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى .

ومن المحقق أن السبب الجوهرى فى وصول مثل هذا الشعر إلينا هو شيوع الفساد واللحن فى اللغة ، الأمر الذى حدا بأبى الأسود الدؤلى [فيما يقال] إلى أن يضع شيئا من علم النحو[1] ويضع غيره صوراً مختلفة لحركات الكلمات الثلاث. وكان هذا تمهيداً قوياً لحركة تدوين العربية ووضع قواعدها المفصلة طوال القرن الثانى للهجرة . وفى القرن الثالث كان اهتمام الرواة بها أشد وأوضح .

ولقد كان يصاحب هذه الحركة الاشتغال بدراسة كتاب الله ، وتفسيره وتَفَهمه واستخلاص أحكامه وتبويبها . واستدعى ذلك دراسة أدبية وبحثاً لغوياً دقيقاً ، وعناية بجمع الشواهد من أشعار الجاهليين وكلام البدو ، لتأييد ما جاء فيه من أساليب وتراكيب وألفاظ ، فكنا نرى من العاكفين عليه علماء فى الأدب والتفسير والشريعة ، أخذوا جميعاً يتعاونون على جمع شتيت العربية .

ونستطيع أن نرسم خطة هؤلاء فى جمع اللغة .. خطة تدفعهم إليها رغبتهم فى تعرف الصحيح ، وتَقَصِّى الفصيح ، وتَفَهُّم ما كان ينطقه العرب قبل أن يزاولوا ألواناً من ثمار العلم ، ويأخذوا بفنون من مظاهر الحضارة . هذه الخطة تبدو أولا فى مشافهة الأعراب الذين كانوا يفدون إلى المدن ، أو يفد إليهم فى باديتهم ناس يريدون الاتصال بهم والتعرف على أحوالهم كما تبدو فى حركة رواية الشعر القديم التى اتسعت ونهضت ، وكان من آثارها كل هذا الشعر الذى يروى لهذيل ، والذى عنى به السكرى بصفة خاصة ، فأطلعنا على حياة كاملة لها .

وليس ثمة داع لإثبات أن هذيلا كانت واحدة ممن أُخذت عنها اللغة ، كما كانت مرجع الاستشهاد على صحة المفردات ، وعمدة العلماء فى تفسير ما التبس من محكم الآيات . ولقد روى فى الكلام عن الأحرف أن كتاب الله نزل على سبع لغات فكان بعضه بلغة قريش وبعضه بلغة أهل اليمن وبعضه بلغة هوازن وبعضه بلغة هذيل[2] ، وقال أبو عبيد هى لغات قريش وهذيل وثقيف وهوازن وكنانة وتميم واليمن ، وقال غيره خمس لغات فى أكناف هوازن ، سعد وثقيف

(١) ابن سلام – طبقات الشعراء – ٩ .
(٢) لسان العرب مادة «حرف» .

وكنانة وهذيل وقريش ولغتان على جميع ألسنة العرب[1] . والكلام طويل فى رد تلك الآراء القائلة بأن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات ، وإن كان أحدٌ لا ينكر وجود هذيل كقبيلة نقلت عنها العربية .

ويروى السيوطى أن الفارابى قال : والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل فى الغريب وفى الإعراب والتصريف . ثم هذيل وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم[2] .

فهذيل تمتاز بصحة منطقها ، وفصاحة لغتها . ومن أجل ذلك قال عثمان ابن عفان وهو يكتب المصاحف : اجعلوا المملى من هذيل والكاتب من ثقيف[3] . ولم يكن يخشى ما أثر عن هذه القبيلة من قراءات صحيحة للقرآن بلغتها ، أو ما قيل لابن مسعود — كما سنرى — اقرئ الناس بلغة قريش . وقد وقفنا الأستاذ عبد الوهاب حمودة على بعض قراءات صحيحة بلغة هذيل تلقاها العلماء بالقبول[4] .

ومن الطبيعى والأمر كذلك أن نرى فى كتب اللغة المختلفة ، وفى المعاجم الكثيرة ، ما يستشهد به من لغة هذيل . والحق أن هذا كثير بدرجة تراها أية عين عابرة . ونظرة فى أى كتاب للنحو كالمغنى تكفى تماماً . ثم إن حديثنا عن الخزانة والأمالى وما قلناه فيهما دليل آخر ، فضلاً عن أن بعض ما فى المعاجم يغنى عن كل ما نحاول أن نقول .

وفى جمهرة ابن دريد إشارات هائلة عن هذيل وشعرها . بل لقد كانت تشير هنا وهنالك إلى أن هذيلاً كانت وحدها تختص بهذه الكلمة أو تلك ، وأن هذه اللغة لغتها الخاصة لا يتكلم بها سواها ، فقرأ بذلك كثيراً عن أبى ذؤيب

---

(١) راجع النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ١ : ٢٤

(٢) السيوطى فى المزهر ١ : ١٠٤ .

(٣) ابن فارس فى الصاحبى صفحة ٢٨ .

(٤) القراءات واللهجات ٢٧ ، ٢٨ .

وأبي خراش وأبي المثلم والمتنخل والبريق وحذيفة بن أنس وصخر الغي وابي كبير وغيرهم . بل قد تورد لنا بعض هؤلاء الذين عرفوا فقط من كتب اللغة أمثال رياح الهذلي .

وفي أجزاء الجمهرة الثلاثة واحد وعشرون موضعاً ذكرت فيه لغة هذيل الخاصة كأن يقول صاحبها في الجزء الأول إن « المعصوب » في لغة هذيل هو الجائع ، وأن « الفعفعاني » هو القصاب ، وكان يقول في الجزء الثاني إن (الخيطة) في لغة هذيل الوتد ، وإن (أشاح) حذر ، وإن (الحزومة) هي البقرة ، وكأن يقول في الجزء الثالث إن (الهكع) هو السعال وإن (الهكر) هو العجب . وهو في كل ذلك أو في معظمه يستشهد بأبيات من الشعر .

أما المعاجم الأخرى كاللسان والتاج فالأمر فيها أكبر من ذلك ، وهذيل تكاد تثب في كل صفحة من صفحاتها ، وفي اللسان بالذات عرفنا شعراء مجهولين أمثال أبي جهيمة وأبي درة (وهو غير أبي ذرة) وهناك زياد بن عُلبة وأبو سهو وسويد وعويف وغيرهم ، وللجميع أبيات كثيرة جداً . وقد حاولت أن أحصي كم مرة روى لأبي ذؤيب فجاوز العد المائتين في خمسة أجزاء فقط ، فما بالك لو بحثنا في الباقي من العشرين . وقد يتكرر البيت ولكن هذا ليس مطرداً ولا دائماً .

وفي فصل قادم سنتحدث بشيء من التفصيل عن لغة هذيل بين اللغويين والنحويين ، ونحدد لها في ذلك خصائص تميزها وصفات تفرقها عن اللغات الأخرى .

— ٣ —

بين مادة الشعر ورواته

أما مادة الشعر ، فأول ما يلاحظ فيها كثرتها . بل لعل كمها أكبر ما عرف لأية قبيلة من العرب ، وقد رأينا جولد تسيهر يعلل ذلك بسمو المجموعة إلى مرتبة أعلى من المستوى العام لدواوين القبائل . ولا أريد أن أناقش هذا الرأى ، فنحن لا نملك الآن هذه الدواوين ، وما يروى عن عيون الشعر لقبائل مختلفة لا يصح أن يحكم به على ما ضاع .

وأما من حمل لنا تلك المادة الضخمة فعلى رأسهم السكرى والأصمعى . الأول صنف المادة ورتبها وشرحها ، والثانى هو الذى جمعها وحفظها ورواها وشرح بعضها أيضاً ، أو هو الأب الأول لها ، ألا ترى السكرى وهو ينقل عنه دائما ؟ هذان الاثنان هما قطبا الرحى كما يقولون وهما أحق الناس علينا بالاهتمام . بل لعلنا إذا نظرنا فى حياتهما أن نطمئن إلى صحة المادة التى نعتمد عليها فى بحثنا هذا .

الأصمعى

يقول أبو العباس ثعلب : الأصمعى هو عبد الملك بن قريب بن عبد الملك ابن على بن أصمع بن مظهّر بن عمرو بن عبد الله الباهلى . ويختصر صاحب معجم المطبوعات هذا الاسم بقوله : هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك الباهلى . وفى المظان المختلفة ينتهى نسبه إلى مضر .

وقال المبرد : كان الأصمعى أنشد للشعر والمعانى ، وكان أبو عبيدة كذلك ويفضل على الأصمعى بعلم النسب . إلا أن هذا كان أعلم منه بالنحو . ويلخص صاحب معجم الأدباء ما روى عن الأصمعى بقوله : كان صاحب النحو واللغة والغريب والأخبار والملح ، ويروى عنه أن الأخفش قال : ما رأينا أحداً أعلم بالشعر من الأصمعى وخلف ، فقيل له : أيهما كان أعلم ؟ فأجاب : الأصمعى

لأنه كان نحويا [1] .

والمشهور أنه من أهل البصرة ، وفَدَ على بغداد أيام الرشيد فملأ الأسماع والقلوب ، ورمقه الناس لعلمه بالأنساب والأيام والأخبار والرواية . وذكر أبو العيناء أنه توفى بالبصرة سنة ثلاث عشرة ومائتين ، وقيل بل سنة سبع عشرة ومائتين[2] ويروى السيوطى أنه مات سنة ٢١٥ أو ٢١٦[3] .

أما أشهر كتبه — فيما ليس من شعر هذيل وشرحه — فيعرض لها ابن النديم ويعدّد منها كثيراً ككتاب خلق الإنسان، وكتاب الأجناس ، وكتاب الأنواء ، وكتاب الهمز ، وكتاب المقصور والممدود ، وكتاب معانى الشعر ، وكتاب القصائد الست ، وكتاب الأراجيز ، وتعرف للأصمعى هذه القصائد التى رواها وتحمل اسم الأصمعيات وهى موجودة فى (مجموع أشعار العرب) وطبعت مستقلة فى كتاب .

السكرى

أما السكرى فيبدو أنه كان لتلاميذ الأصمعى وأشهرهم ابن أخته أبو نصر احمد بن حاتم الباهلى ، وكذلك الرياشى والزيادى[4] . وروى أن للأصمعى كتاباً فى غريب الحديث وجد بخط السكرى فى مائتى ورقة [5] . وذكر ابن النديم أنه أبو سعيد الحسن بن الحسين بن عبد الله بن عبد الرحمن بن العلاء السكرى ، وكان حسن المعرفة باللغة والأنساب والأيام ، مرغوباً فى خطه لصحته[6] .

---

(١) معجم الأدباء ١ : ٩٧ .

(٢) فهرست ابن النديم ٥٥ معجم الأدباء ١ : ٩٧ .

(٣) السيوطى فى بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ٣١٤ (ط . الخانجى ١٣٢٦)

(٤) مات الباهلى سنة ٢٣١ والرياشى سنة ٢٥٧ والزيادى ٢٤٩ ولهم تراجم فى معجم الأدباء وإنباه الرواة وتاريخ بغداد .

(٥) فهرست ابن النديم ٥٥ معجم الأدباء ٧ : ٩٦ .

(٦) نفس المرجع ٧٨ .

وروى صاحب معجم الأدباء أنه أخذ عن أبي حاتم السجستاني — وهو من أكبر تلاميذ الأصمعي — فكان ثقة ديناً حاذقاً يقرئ القرآن . جاء البصرة فصار أول الرواة فيها وكان إذا جمع جمعاً فهو الغاية في الاستيعاب والكثرة (١) ، وتوفي سنة خمس وسبعين ومائتين في خلافة المعتمد ، وقيل توفي سنة تسعين ومائتين في خلافة المكتفي . والأول أصح رواه الأنباري(٢) . وفي المقدمة الإنجليزية لكتاب شرح أشعار الهذليين أنه مات سنة إحدى وسبعين ومائتين أو خمس وسبعين ومائتين .

ويعدد له ابن النديم كتبا منها كتاب الأبيات السائرة وكتاب المناهل والقرى رآه بخطه . وعمل أشعار جماعة من الفحول كامرئ القيس ، والنابغتين ، وقيس ابن الخطيم . كما عمل أشعار اللصوص والأعشى والأخطل وزهير ، وأبي نواس حيث تكلم على معانيه وأغراضه في نحو ألف ورقة بخط قريبه الحلواني . وغير ذلك ، إلا أن أشهر ما حفظ له أشعار هذيل وإن يكن الأصمعي سبقه إلى بعض الشرح . والذي وجد من شرح السكري هو — كما ذكرنا — عن طريق الرماني المتوفى سنة ٣٨٤ وكان الرماني رواه عن أبي بكر أحمد بن محمد ابن عاصم الحلواني المتوفى سنة ٣٣٣ هجرية (٣) .

* * *

أما وقد اطمأننا إلى رواة الشعر ، فلننظر إلى ناحية أخرى ربما أثارت شيئاً من الشك عند غيرنا . وقديماً لحظ ذلك أبو سعيد نفسه فقال عن بائية صخر الغي التي تقول في أولها :

لَعَمْرُ أبي عمروٍ لقد ساقهُ المَنَا   إلى جَدَثٍ يوزَى له بالأهاضب

أنها رويت لأبي ذؤيب ، ورويت لأخي صخر الغي يرثي بها أخاه صخراً

---

(١) جزء ٤ صفحة ٩٤ .

(٢) بغية الوعاة ٢١٨ ، ٢١٩ .

(٣) المعروف أن السكري روى أشعار هذيل وشروحها عن الرياشي والزيادي وأحمد ابن حاتم الباهلي وغيرهم ممن قرءوا على الأصمعي ومن في طبقته وعلمه كأبي عبيدة معمر بن المثنى .

وإن كان من يرويها لأخى صخر الغَـى أكثر[1] . وفيما ينقله الشنقيطى لا شك فى أنها لصخر الغى . قالها يرثى بها أخاه أبا عمرو بن عبد الله وقد نهشته حية[2]. وفعل ذلك أبو الفرج[3] .

ورويت قصيدة لأبى جندب فى الأغانى مطلعها :

أقول لأم زنبـاعٍ أقيمى صدورَ العِـيس شطر بنى تميم[4]

ونسبها أبو سعيد له ، ثم ذكر أن الأصمعى قال إنها تروى لأبى ذؤيب[5].

وهناك قصيدة أولها :

تَرَوَّحْتُ حُبْشِيا فأصبح ولدتى
كما زُحْزِحَتْ عند المبارِك هِيمُـها

رويت لحبيب الأعلم ومعقل بن خويلد[6] .

والقصيدة التى مطلعها :

لعَمْرِى لقد نادَى المنـادِى فَرَاعَنى
غَـدَاةَ البُـوَيْن من بعيدٍ فأسْمَـعا

نسبت للمعطل يرثى بها أخاه عمرو بن خـويلد[7] ، كما رويت لمعقل بن خويلد يرثى بها أخاه المعطل أو أخاه عمراً[8] .

---

(١) شرح أشعار الهذليين ٦ المنا : القدر ، يؤزى : ينصب له ، الأهاضب : الجبل القصير .

(٢) الديوان ٢ : ٥١ .

(٣) الاغانى ٢٠ : ٢١ .

(٤) الأغانى ٢١ صفحة ٤٦ .

(٥) شرح أشعار الهذليين ٧٩ .

(٦) المصدر السابق ١٠٣،٦٦ تروحت : أتيته رواحا ، زحزحت : نحيت ، هيمها : الإبل الهيم التى بها داء الهيام الذى يجعلها لا تروى من الماء حتى تموت . يقول إنه قصد الحبشى فمنع عنه القرى فأصبح أولاده كالإبل التى بها الهيام تنحى عن مبارك الصحاح لئلا تعديها .

(٧) الديوان ٣ : ٤٠ .

(٨) شرح أشعار الهذليين ١٢١ .

وثمة أرجوزة أولها :

يا ليتَ شِعرِي عنكِ والأمرُ عَمَمْ   هل جاء كعباً عنكِ من بين النَّسَمْ

فيما نقله الشنقيطى هى لرجل مجهول من هذيل كما فعل أبو عبد الله[1] ، ورواها الأصمعى وأبو عمرو لأبى خراش ثم هى رويت لعمرو ذى الكلب[2].

والسينية التى مطلعها :

يا مَىُّ إن تَفْقِدى قوماً ولدْتِهِمُ   أو تُخْلَسيهمْ فإن الدهرَ خلَّاسُ

فيما نقله الشنقيطى هى لمالك بن خالد الخناعى ، وكان الحلوانى يعزوها له أيضاً[3] ، ولكنها تنحل لأبى ذؤيب أيضا[4] .

وقصيدته التى أولها :

لظمياءَ دار كالكتاب بغرزة   قفارٌ وبالمَنْحَاة منها مساكنُ

يعزوها الأصمعى لمالك وفعل ذلك الجمحى . وقال أبو نصر الباهلى إنها للمعطل ، وقد روى مطلعها على النحو التالى أيضاً :

لظمياء دار قد تعفت رسومُها   قفار وبالمنحاة منها مساكن[5]

وقصيدة البريق التى يقول فيها :

وحىٍّ حُلولٍ لهم سامِرٌ   شَهِدتُ وشعبُهمُ مُفْرَمُ[6]

وردت فى البقية منسوبة مرة له باختلافٍ[7] . وفى موضع آخر وردت منسوبة لعامر بن سدوس الخناعى[8] .

---

(١) الديوان ٣ : ٩٦ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ٢٣٩ .

(٣) الديوان ٣ : ١ تخلسيهم : تسلبيهم .

(٤) شرح أشعار الهذليين ١٤٨ .

(٥) الديوان ٣ : ٤٣ غرزة والمنحاة : موضعان فى منازل هذيل ، وروى الجمحى « لميثاء ... » .

(٦) الديوان ٣ : ٥٥ مغرم : مملوء (هذلية) .

(٧) البقية ٢٢ وروايتها « وحى حلول أولى بهجة .·. شهدت .... »

(٨) البقية ٤٣ .

وأما قصيدته التي يقول في مطلعها :

ألم تَسْلُ عن ليلى وقد نَفِدَ العُمْرُ
وقد أقفرت منها الموازج فالَخضْر[1]

فقد نسبت أيضا لابن سدوس[2] .

ثم البائية التي أولها :

لما رأيتُ بني نُفَاثة اقبلوا ... يُشْلون كلَّ مقلِّصٍ خِنّاب

تروى مرة لأبي خراش ومرة لتأبط شراً[3] .

وما أظن أن ثمة شيئا يخرج عن ذلك ، ونحن مهما نسرف في الحكم فلن يبلغ شكنا مبلغا كبيراً . فما يختلف فيه قليل بالنسبة إلى المجموعة كلها بل كان الاختلاف يقع في أغلب الأحيان بين الأخوة ؛ ولا نجد دخيلا على القبيلة سوى تأبط شراً ، وهذا كان شديد الاختلاط بهذيل يغزوهم ، وكان وهو صغير في كف أبي كبير وله قصة طويلة معه[4] .

ونستطيع أن ننظر إلى هذه الظاهرة على أساس شدة تقارب أسلوب شعراء هذيل ، بحيث اختلط أمرهم على الرواة .

هذا شيء ، وشيء آخر نلحظه في رواية النصوص نفسها ، فهنا لا نلمس ثمة اضطرابا . وقد يكون هناك شيء ، إلا أنه من الضئولة بحيث يمكن التغاضي عنه مثال ذلك قصيدة لعمر بن الداخل أولها :

تَذَكَّر امّ عبد الله لمّا ... نأته والنَّوَى منها لَجُوج

ونجد ثمة احتلافا في ترتيب أبياتها إذا قارنا ديوان دار الكتب بكتاب شرح أشعار الهذليين[5] ، وهذه ينسبها أبو سعيد لعمرو على ما يقوله الجمحي

(١) الديوان ٣ : ٥٨ والبقية ٢١ الموازج والخضر : موضعان .

(٢) الآمدى في المؤتلف والمختلف ٩٥ .

(٣) الديوان ٢ : ١٦٨ يشلون : يدعون ، كل مقلص : كل فرس طويل القوائم منضم البطن ، خناب : طويل .

(٤) راجع الديوان ٢ : ٨٨ وخزانة الأدب ٣ : ٤٦٧ .

(٥) راجع الديوان ٣ : ٩٨ كتاب شرح أشعار الهذليين ٢٦٣ يقول إذا نوت لجت في المضى ، نأته : بعدت عنه ، لجوج : تفعل مرة بعد مرة .

وابو عمرو وأبو عبد الله . ولكن الأصمعي ينسبها لرجل يقال له الداخل واسمه زهير بن حرام أحد بني سهم بن معاوية .

وقصيدة لمالك الخناعي في ديوان دار الكتب ، يقول في أولها :

لإلدِكَ أصحابي فلا تَزْدَهِيهِمْ   بِسايةَ إذ مدَّت عليك الحلائب[1]

وبعد خمسة أبيات يقول :

غَيَالٌ وأنشام وما كان مُقْفَلي   ولكنْ حَمَى ذاكَ الطريقَ المراقب

وفي شرح اشعار الهذليين يروى هذا البيت بعد المطلع مباشرة باختلاف يسير :

غياراً وإشماسا وما كان مقفلي   ولكن حَمَى ذِلٌّ الطريق المَرَاهب

ويروى (المراقب) أيضا[2] .

ولا نستطيع أن نمضي في مثل هذه الخلافات الهينة ، فهي كما ذكرنا لايعوَّل عليها كثيرا . ولئن كانت تدل على شيء فعلى أن الرواة قد يختلط عليهم الأمر أحيانًا فيخطئون ، وإن يكن خطؤهم لا يخرجهم إلى شعر غير هذيل .

(١) الديوان ٣ : ٩ . لإلدك : لصغارك ، تزدهيهم : تستخفهم ، ساية : اسم واد فيه ذكر يوم ، الحلائب : الجماعات .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١٦١ غيال : شجر ، أنشام : جمع نشم وهو ضرب آخر من الشجر ، المراقب : جمع مفرده مرقبة والمرقبة هي موضع المخافة ، غياراً : يأتي الغور ، إشماسا : يستقبل الشمس في الجبل ، مقفلي : طريقي ، ذل : سهل ، يقول منعني الرقباء من أن آخذ الطريق الآخر .

الفصل الثانى

معانى شعر هذيل

فى الأغانى أن حسان بن ثابت سُئل : مَـن أشعر الناس ؟ فقال : أحيًّا أم رجلاً ؟ فقيل له . حياً ! فأجاب : أشعر الناس حياً هذيل ، ذكر ذلك أيضاً ابن رشيق(١) .

وهذا الحكم له وجاهته لأنه صادرعن شاعر والشعراء أفهم الناس بالقريض. والحق أن هذه القبيلة قد أعرقت فى ذلك الفن وكثر فيها الشعراء ، حتى لقد كان الرجل ربما أنجب أولاده كلهم يقولون الشعر ، فأبو الفرج يروى أن بنى مرة كانوا عشرة وكانوا جميعاً شعراء دهاة(٢) . وقد رأينا صخر الغى وإخوته شعراء ، والمعطل وإخوته شعراء .

وإذا نظرنا إلى الشعر الهذلى نظرة عامة قلنا عنه فى بساطة : إنه بدوى اللفظ والأسلوب ، حافل بالصور ، بالقصص الحزين . ولكن الأمر ليس بهذه السهولة ، ولسنا من ناحيتنا فى سبيل تقرير شىء دون أن نمهد له و نقدم أمامه الشواهد والأدلة ، وأخشى ما أخشاه أن نبنى حكماً على غير أساس ، بل على غير أساس ثابت متين .

والسبيل التى تعيننا على فهم أشعار الهذليين هو أن نقسمه . فكيف يكون هذا التقسيم ؟ كثير جداً من القصائد بل جُلّها لا نعرف لها تاريخا ، ولا يمكن أن نحدد الزمان الذى قيلت فيه . وتعيين الوقت لها أمر مستحيل لاسيما إن ثَمّة قصائد سيقت بغير إشارة عن الغاية منها . بل قد تدهش حين نقول إن معظم الشعراء الذين عرفوا فى هذيل كانوا مخضرمين ، ولكن أثر الإسلام فى شعرهم

(١) راجع الأغانى ٦ : ٥٦ العمدة ١ : ٥٥ .

(٢) الأغانى ٢١ : ٤٢ .

لم يكن واضحاً ملموساً . فترتيب القصائد ترتيباً تاريخياً ، ثم دراستها بعد ذلك لنحدد الخطوات التى سارتها فى سبيل التطور أمر متعذر .

فهل نقسم هذا الشعر باعتبار ما يشتمل عليه من فنون ؟ أندرسه مدحا وهجاء ورثاء ونسيباً وحماسة ؟ قد يجدى هذا التقسيم . ولكنه عقيم الفائدة لأنه لايحقق الغاية المنشودة من دراستنا هذه ، خاصة أن أمامنا نوعين من الشعراء ، شعراء قالوا شعرهم فى ظلال القبيلة ، وشعراء قالوا شعرهم وهم خارجون عليها . ودراستنا هذه الفنون دون أى اعتبار إلغاء لهذه الشخصية المزدوجة ، وذلك أمر لانرضاه . ومن ناحية أخرى يصعب كثيراً أن نجد فى القصيدة الواحدة فناًواحداً ، وإنما الشاعر يصدر عن إحساس معقد !

إذن كيف يكون التقسيم الذى نهدف إليه ونرضاه ؟ لقد قلت إنى حريص على بقاء النوعين السابقين من الشعراء ، فهو أجدى فى فهم شعرهم وسبر غوره . فهل نكتفى بتحديد ما اختص به كل فريق ؟ بمعنى هل يكفى أن أبين هذه الفنون التى قيلت فى ظلال القبيلة ثم هذه التى تغنى بها الذؤبان ؟ يصح ذلك ، ولكن وجه الخطورة فيه أن هناك فنونا اشترك فيها الفريقان ، ولم يكن فيها أى تفاوت أو اختلاف ، وسكوتنا عنها جَوْر على المنهج الصحيح : إذن ليس من بد من أن نقف عندها جاعلين لها قسما آخر .

وكذا يتضح كل ما اريد ، فثمة ثلاثة أقسام نفهم فيها شعر هذيل : قسم يتناول هذه المعانى التى انفرد بها الشعراء الذين عاشوا فى ظلال القبيلة ، وقسم ثان يعرض لهذه المعانى التى لم يدرحولها سوى الذؤبان ، وقسم ثالث يجمع هذه المعانى التى اشترك فيها الفريقان .

— ١ —

الشعر فى ظل القبيلة

(ا) فخر :

ولنترك الآن هؤلاء الشعراء الذين تحلّلوا من التزاماتهم القبلية ، ولنقف عند هؤلاء الذين أخلصوا لها وأعانوها ، وفخروا بالانتساب إليها ، فعاشوا يربطهم بالمجتمع هذا العقد الذى ورثوا تقاليده ، وألفوا السير على نظمه. والشعر فى هذه الحالة يكون معبراً عن راى الجماعة ، وينطق بلسان كل فرد ويخلص لها .

وهنا يجب ان نسأل . اليس فى شعر الذؤبان رواسب من حياة القبيلة ؟ أعنى هل من الممكن أن نجد فى شعر هؤلاء مايمكن أن يكون اعتزازاً بالقبيلة؟ إذا أنكرنا ذلك نخطئ ، لأن الذؤبان لم يكونوا كذلك طوال حياتهم ، بل قد تأتى فترات يخرجون فيها على المجتمع ، وفترات أخرى يعيشون فيها فى توافق معه . وأبو خراش صورة واضحة لهم ، فهو صعلوك ثائر ، وهو يتحدث عن فقره ويزهو بغزواته ويتحدث عن مغامراته ، ولكننا أحيانا نراه يملك القطعان ويعيش مع غيره وهو آمن ، وقصته مع أخيه — وقد مرت بنا — آية على ذلك .

وهذا صخر الغى نفسه — وكان خليعا — نراه يهجو شاعرا من قومه ويهدده بعشيرته وكيف أنها تأبى له الضيم فيقول :

أبت لىَ عمرٌو ان اضام ومازنٌ ... وقرد ولحيان وفهم فَسالِمِ(١)

وهو هنا لايكتفى برهطه الأدنين وإنما يباهى بعمومته أيضا . وربما ندهش إذ ذكرنا أن الشاعر المهجو كان واحداً ممن عاش دائم الإخلاص لقبيلته وهو أبو المثلم .

وفى حياة ابى كبير شيء كثير من التصعلك ، وكثيراً ما كان يخرج للغزو

(١) الديوان ٢ : ٢٢٥ .

والنهب ،وقصةخروجه مع تأبط شراً معروفة ، إلا أنه مع ذلك كان يعيش أحياناً مخلصاً لمجتمعه فكان يقول عن قومه فيما يقول :

ولقد نقيم إذا الخصومُ تناقدوا
أحلامَهم صَعَرَ الخَصيمِ المُجْنِفِ(١)

فمثل هذا يجب أن يوضع هنا لأنه قيل من أجل القبيلة ، او فى سبيلها ، أو تحفياً بها . نعم قاله الذؤبان ، ولكن فى تلك الأوقات التى سالموا فيها المجتمع فليس ثمة فرق بينه و بين هذا الشعر الذى رويناه ونحن نتكلم عن ايام هذيل ، وصراعها مع خصومها ، وتصدى الشعراء أمثال مالك الخناعى وحذيفة بن أنس والمعطل — لهم .

وهنا نجد ساعدة بن جؤية يعتز بقومه فيقول :

وإنى لابنُ أقوامٍ زِنَادى زواخرُ والغصونُ لها أصول(٢)

فهو عريق النسب ، ومن شجرة ثابتة الأصل طويلة الفروع حتى لترتفع فى السماء . ولكنه لا يقف عند الأصل العريق فحسب ، فالماضى وحده لا يكفى ، ولا بد من الحاضر أيضاً . وقومه على أى حال محاربون ، ولئن كانت الدائرة تدور عليهم فى شيء أحياناً فإن هذا لا يغير من الحقيقة التى يعرفها الجميع :

فإن تك قَسْرٌ اعقبت مِن جنيدبٍ فقد علموا فى الغَزْوِ كيف نحارف
ألم نَشْرِهم شفعاً ويُتْرك منهمُ بجنب العروض رِمَّةٌ ومزاحف

حقاً استطاعت قسر بجيلة أن تقتل جنيدبا ، ولكنها تعلم تماماً كيف يصنعون بها إذا غزوها ، وما حدث من قبل حين باعوهم آيةُ ما يقول .

واما مليح بن الحكم القردى فيعطينا فى أبياته التالية سجلا رائعاً لحياة قومه ، يقول :

وقائدٍ بَهْزٍ قد قتلنا وربما قتلنا الكمىّ حاذِراً غير مطرق

---

(١) الديوان ٢ : ١٠٧ تناقدوا : تناقشوا ، صعر الخصيم : ميل الخصم ، المجنف : الذى يأمر بأمر فيه جنف أى عوج .

(٢) الديوان ١ : ٢١٣ زنادى زواخر : شجرتى تطول فى السماء .

منعنا من الأعداء كلَّ وليجةٍ ... وجارٍ وُحزناهمْ إلى غير مَلْصَق
بنعمانَ أسياف أقن عليهمُ ... نوائحَ شؤبوب من الموت مصعق
ونحن بطحنا يومَ أنف فلم تعد ... سليمَ بن منصور بجأواءَ فيلق
غداةَ اسرنا فى الحبـال ملوكَهم ... عناة بنى الصباح وابن المحلق
قتلنا ابنَ حبواء الذى كان خيرهم ... وزِدْنا عليه خالداً وابن معتق
وعمراً نجلنا حَلْقَه بِعُرشه ... متى ما تخالطْها الأسِنَّة تشهق
ونحن صبحنا جمعَ كعبٍ ولفَّهم ... بعسفانَ منّا سلّةٌ لم تبرّق
غدونا إليهم نحمل الموت نحوهم ... كزحف القطار فى القتير المبنّق (١)

فهم شجعان ، لا يعرفون الموادعة ، ويحمون الجار ، ويأسرون رءوس القوم ، ويحملون الموت فى كل مكان ينزلونه . وما فعلوه بقائد بهز وابن حبواء وغيرهما خير دليل على ما يقول . ومن هنا كان ابو شهاب المازنى صادقاً حين أنشد :

رجال حروب يسْعرون وحلقةٌ ... من الدار لا تمضى عليها الحضائر(٢)

ومثل ذلك قاله المعطل :

أُناسٌ تُربينا الحروبُ كأننا ... جِذَالُ حِكاكٍ لوّحتها الدّواخن(٣)

فإذا هدّد القومَ أحد يجدون من يقول :

فلا تَتَهدّدنا بِقَحْمِكَ إننا ... متى تأتِنا ننزلْك عنه ويُعقَرِ (٤)

أجل .. لا تهددنا — هكذا يقول مالك بن خالد لمالك النصرى — لا تهددنا بهذا الجواد الذى تتيه به زهواً ، فإنك إن أتيتنا به أنزلناك عنه وعقرناه ، ذلك أنّا ذوو بأس عظيم .

---

(١) البقية ١٠٦ ١٠٧ .
(٢) البقية ١٠ .
(٣) الديوان ٣ : ٤٧ الدواجن و الدواخن واحد وهى الإبل .
(٤) الديوان ٣ : ٧ .

وينظر معقل بن خويلد إلى قومه نظرة المعجب فيقول :

وقد علمت افناء خندفَ اننا إذا بلغ المكروه كنا معاقلا(١)

بينما يقول عمرو بن هميل اللحياني يخاطب رجلا من خزاعة :

فإنَّ بيوتَنا شُمٌّ طِوال وبيتُك لا يُظل ولا يُبيتُ
وإنَّا نحنُ اقدمُ منكَ عِزًّا إذا بنيت بمخْلَفَةَ البيوت
خزَيْمةُ عمنا وأبى هذيلُ وكلهمُ إلى عزٍّ وكَيت(٢)

ويلح على هذا المعنى أبو شهاب فيقول :

فإنكِ عمر الله إن تسأليهمُ بأحسابنا إذ ما تَجِلُّ الكبائر
ينبّوك أنا نفرج الهمَّ كله بحق وأنا فى الحروب مساعر
وأنا غداة العرج باءت سيوفُنا بِمَجْدِ الحياةِ والمحارُ المقابر(٣)

وهكذا يعكف الشاعر على قبيلته ، ويعتز بها ، ويتلاشى فيها . ولو استطاع لأعطى لها نفسه ، وكم يسعده أن يجدها ثابتة الخطا ، فيقول لها :

فدى لبنى لحيان أمى ، فإنهم أطاعوا رئيسا منهم غير عوّق(٤)

أو يقول :

فدى لبنى لحيان أمى وخالتى بِمَاماصَعُوا بالجزع رجْل بنى كعب
تنادوا فقالوا يال لِحيان ما صعوا عن المجد حتى تثخنوا القوم بالضرب
فضاربهم قومٌ كرامٌ أعزَّة

بكل خُفاف النصل ذى رُبَدٍ عُضبِ(٥)

أجل هو يفديهم بأمه وخالته ، فقد استطاعوا أن يقفوا أمام عدوهم

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١٠١ .
(٢) البقية ٤٢ .
(٣) البقية ١٠ .
(٤) الديوان ٣ : ٨ غير عوق : لايعوق القوم عن تحقيق حاجبهم .
(٥) الديوان ٣ : ١٥و١٦. ما صعوا : شقراو بالسيوف والماصعة هى المماشقة بالسيف أى المجالدة به ، الخفاف : الخفيف ، ربدا: آثار سود ، عضب : قاطع .

ويقاتلوه ، ويذودوا عن المجد ، ولا عجب فهم قوم كرام اعزة لهم عدة وسلاح . فإذا قال حذيفة بعد ذلك :

وما نحن إلا أهلُ دارٍ مقيمة
بنَعْمانَ من عادتْ مِن الناس ضَرَّتِ(١)

صدقناه ، ورأينا إلى أىّ حدٍّ هو مُعْتَدٌّ بقومه ، يتحدى بهم خصومه ، ويؤثرهم على غيرهم ، ويتحدث عن عزتهم ، ويشيد بفضلهم وكرمهم .

وأخيرا نقول إنا لسنا مضطرين أن نلتمس هذا الفخر فى العصر الإسلامى ، فلقد ضعف عند هذيل ، ذلك أن الأيام كانت قد ماتت ، ولم تعد العشائر تجد فيها ما كانت تجده فى العصر الجاهلى . ومعروف أن الفخر فى العادة أكثر اتصالاً بالوقائع ويقوم أشد ما يقوم على إثارة العصبية ، وهى شىء أنكره الدين الجديد .

وكأنما شاء الزمان ألا تتعصب هذيل حين ثارت العصبيات ثانية فى العصر الأموى . وفى الوقت الذى ضج فيه الفحول بنقائضهم ، كنا لا نسمع لها هذا الشعر الحماسى ، وكأنما نسيت كل ما اضطربت فيه وساعدها على النسيان تفرقها دون أن تحيا مثلما عاشت تميم فى البصرة والأزد فى الكوفة ، وأبى شعراؤها إلا أن يعيشوا فى سلامٍ بعيدين عن كل نزاع . بل ربما وجدنا كبار شعرائها ينضمون إلى الحكام ، ينشدون لهم الشعر ، ويذودون عنهم فيلقون فى ذلك ظفراً . من هؤلاء أمية بن أبى عائذ وأبو صخر اللذان انقطعا لبنى امية وجادلا عنهم خصومهم .

فالمجموعة الإسلامية فى التحقى بالقبيلة لا وجود لها فى ديوان هذيل ، ومن الصعب أن نجد شاعرا يتمسك بهذا الجانب . ونأتى شططاً حين نريد أن نرى من الذؤبان أحداً غيرَّه الدين الجديد ، فقال شعراً يتعصب فيه لقبيلته .

---

(١) الديوان ٣ : ٢٩ .

(ب) غزل :

ومعنى آخر اختص به هذا الفريق من شعراء هذيل ؛ ذلك هو الغزل . وأكاد أزعم أنه ظل له حتى بعد الإسلام ، وكانت الطبقة التى ظهرت فى العصر الأموى امتداداً لهذه الطبقة الجاهلية ، ولم يتحول إليها واحد من الذؤبان . وهذا يؤيد — ولو إلى حد ما — أن الإسلام لم يستطع أن ينزع منهم طفرة واحدة ما طبعوا عليه ، وظلت الحياة هى هى ، الأعراب يضربون فى الصحراء، وسكان القرى يضطربون فى ترفهم ، ولم يتغير شىء على الإطلاق سوى عقيدتهم. ومن هنا نظلم المخضرمين من هذيل إذا زعمنا ان حياتهم تغيرت او أصابها تحول يمس الجوهر ويتصل بأصل معاشهم .

وكنا فى فصل مضى رأينا ان مجتمع هذيل عرف نوعاً من اللين أفسده ، فكان ذلك اللين شراً أطاح بالخلق . وروينا فى ذلك ما يقال عن قرد بن معاوية وظلمة، وعرضنا، للحب فقلنا إنه كان يتخذ أسلوبا يخرجه عن نقائه ليصبح مجرد متعة يختلسها الرجل ، وترضى عنها المرأة . وقصة أبى ذؤيب وام عمرو أوضح دليل على ذلك .

ولكنا إذا نظرنا نظرة أوسع نرى الرجال يطلبون المرأة دائما . تارة حين ترعى وتارة فى الأسواق ، وطورا وهى ظاعنة ، وطورا آخر وهى فى الحرب. وكان هذا كله يدعوهم إلى التحدث عنها ، وكانت نفوسهم الصافية ومشاعرهم المرهفة وقلوبهم التى تخفق للجمال . . كان كل اولئك يخلق فيهم هذه العاطفة التى لا تقر إلا بجانب المراة ، وكذا شببوا بها وتحدثوا عنها .

المجتمع المستقر إذن — متحضراً كان أو متبديا — تَغَـزَّلَ ، وصال مع المراة وجال ، وأخرج لنا هذه الصور الرائعة من قصائد النسيب . وفى صدر الإسلام لم يخلص لنا من شعر الغزل ما يصح أن نقف عنده ، حتى إذا قامت دولة بنى أمية وجدنا بعض شعراء من هذيل ينهضون للغزل ، ويقولونه عن عاطفة صادقة لا عن تقليد وصناعة ، مثل هؤلاء مليح القردى ، فقد كان كل شعره — وهو كثير — غزلا باستثناء قصيدة واحدة وأرجوزة . واما عبد الله ابن مسلم بن جندب فقد بكى حب المرأة وشكا طويلا ، فكان شاعرا غزلان

رقيقا . أحبه أهله ، وتغنى صحبه بشعره . واشتهر منهم كذلك أبو صخر ، وله قصائد عدة فى الغزل فقط . واختار له أبو تمام فى حماسته مقطوعتين غزليتين وهو قليلاً ما اختار لهذيل[1] .

وهنا نحب أن نجعل شعر النسيب قسمين : نسيبا يقال فى أول القصائد وهو قد يكون فى بعضه تجارب صادقة ، ونسيبا تُفْرَدُ له القصائد الخاصة ، وكله يكون صادراً عن قلب أحب ونفس عشقت . الأول وهو الغزل التقليدى أو التشبيب ، والثانى هو الغزل الواقعى .

١ — أما الأول فيبدأ بوصف الأطلال ، ذلك أن الشاعر يريد أن يصف حبًّا ذوى أو عهدا مضى . وليس من المحقق أن يصدق الشاعر دائما . والمبكى فى هذه الحالة إما مسكن مهجور أو واد مقفر أو بلد بعينه . اسمع المتنخل يقول :

هل تعرف المنزلَ بالأهْيَلِ كالوَشْمِ فى المعصم لم يَجْمُلِ
وَحْشاً تُعفّيه سَوافِى الصَّبا والصيْف إلا دِمَنَ المنزلِ

فالمنزل هنا بالأهيل — وهو مكان — والحبيبة التى كانت فيه ظعنت مع اهلها ، فلم يبق لهم إلا الدمن ، ذلك أن الريح عفت على أصلها . وهنا يذكر الشاعر ما كان ، ويرى ان الحياة التى كانت تملأ هذا الأفق مضت فيما تسفى الريح ، فيعتصره الحزن ويقول :

فانْهَلَّ بالدمع شُئونى كأ نّ الدمع يَسْتَبدر من منْخُل

وكأنما يريد ان يرينا انه دائم الأسى ، فيقول لنفسه أو لقلبه :

ذلك ما دِينك إذ جُنِّبت أحمالُها كالبُكُر المُبْتِل

وكنا نستطيع إلى هنا ـ بعد ان وصف غيرها ـ أن نزعم ان هذا الحديث عام عن أية امرأة ، ولكنه يلح فى قصته ويذكر أن المراة من كنانة ، وأنها كالرشا الأكحل ، او الأيْم ذى الطرة أو كنا شئ البردى :

عِيرٌ عليهنّ كنانيةٌ جاريةٌ كالرشأ الأكحل

(١) انظر ديوان الحماسة — مطبعة صبيح ٢ : ٦١ ، ٦٢ .

كالأَيْم ذى الطُّرة او ناشئ البَرْدِيّ تحت الخَفَأ المُغْيِل
تنكَلُ عن متَّسق ظَلْمُه في تغرهِ الإثمِد لم يُفْلَل
غُرٌ الثنايا كالأقاحِى إذا نَوَّرَ صبحَ المطر المنجلى(١)

وقد يقال إن هذه الأوصاف عامة تنطبق على أية امرأة ، فإذا صح هذا نقول : إن هذه الأبيات لاتخلو من شئ يجذب الشاعر إلى ماض حبيب إليه عزيز عليه . ولكنا لانرى حظا كبيرا من الحقيقة إذا قرأنا مايقوله — فى العصر الأموى — أمية بن أبى عائذ :

لمن الديار بِعَلْيَ فالأخراص فالسودتين فمجمع الأنواص
فضهاءِ اظلَم فالنطوف فثادق متن الصفا المتزحلِف الدَّلاَّص
ألِفَتْ تحُلُّ به وتؤلف خيمة إلْفَ الحمامة مَدخَلَ القِرماص
ليلىَ وما ليلىَ ولم أر مثلها بين السما والأرض ذات عِقاص(٢)

ونستمر مع الشاعر فلا نحس عاطفة ، ولا نرى لذلك ذكرى خاصة ، إنما هى تموجات سطحية لا تمس قلباً حزينا ولا تتحدث عن حادثة بذاتها . وآية ذلك أنه يذكر عَلْيَ والأخراص والسودتين وغير ذلك من المواضع .. كل ذلك ليتكلم عن ليلى ، فلا ندرى أنزلت هى كل هذه الأماكن أم هو عرف فى كل موضع امرأة وضع لها هذا الاسم ؟ ولكنى أوقن ان الحب لم يشغل عند هذا الشاعر جزءاً واضحا من قصيدته تلك .

أما ابو قلابة فهو لايعرف المنازل إلا بالقتول فيستهل قصيدته بقوله :

إمِنَ القتول منازلٌ ومُعرَّسٌ كالوَشْم فى ضاحى الذراع يُكرَّس
ياحِبُّ ، ماحبُّ القَتول وحبُّها فلَسٌ فلا يُنْصِبْكَ حبٌّ مفلس (٣)

---

(١) الديوان ٢ : ١ وما بعدها والبرشأ : الظبى الصغير ، والأيم : الحية التى لها خطان أسودان فى جنبها ، الخطأ : البردى الأصفر ، المغيل : الذى فى الغيل وهو الماء الذى فى الغيل أو الشجر ، تنكل : تضحك ، ظلمه : ماء أسنانه ، ثغره : أصوله ، الإثمد : سواد ، يفلل : يكسر ، المنجلى : المنكشف .
(٢) الديوان ٢ : ١٩١ .
(٣) الديوان ٣ : ٣٢ .

فهو هنا لا يصطنع دمناً ، ولا يتحدث عن أية امرأة ، وإنما هو يتكلم عن القتول .. المرأة التى هام بها ، والتى أحبها هذا الحب اليائس الذى لا نيل معه ، والتى يريد أن يريح منها نفسه لأنها تضن عليه بما يشفى الغليل . فإذا أردنا أن نلتمس الغاية من البيتين قلنا إن الشاعر يبكى حرمانه .

ونتركه مع القتول ونقرأ قصيدة أخرى له فنجده يقول :

يادارُ اعرفها وَحْشًا منازلُها بين القوائم من رهْطٍ فألبَان

فَدِمْنَةٍ بِرُحَيَّاتِ الأحثّ إلى
ضَوْجَىْ دُفاقٍ كسَحْقِ الملبس الفانى

ما إنْ رأيت وصَرْفُ الدهر ذو عجب
كاليوم هزةَ اجمالٍ واظعان (١)

وإذا مضينا معه نجده لايعنى بالمرأة ولا يذكر لها اسماً ، وإنما هو مهتم بالأظعان فقط ، وليس بجانب ذلك إلا أسماء لمنازل او مواضع لاتوحى للشاعر إلا بذكريات قديمة مبهمة . أما ماهى هذه الذكريات ، ولمن ومن هم هؤلاء الذين قروا وراءها ، فلا ندرى عنهم شيئًا . بل نستطيع أن نقول إنه فى هذه الأبيات لا يبكى إلا مواضع تركها مقهوراً ، ولو قرأنا الظرف الذى قيلت فيه قصيدته وأنه أخرج وقومه من مساكن شبوا فيها علمنا أنه لا يعنى امرأة بعينها ولا يبكى حبًّا أحبه .

وإذا كان أمية فى العصر الإسلامى يستهل مقلدًا كما رأينا فالبريق بجانبه لايفعل ذلك . فهو أصدق ، وهو ممسك بخيط يشده إلى ماض احب فيه وعرف ليلاه ، ولا تزال — حتى بعد أن كبر وهرم — فى قلبه وفى نفسه جميعا . وهو لذلك يتساءل :

الم تَسْلُ عن ليلى وقد نفِدَ العُمْرُ
وقد أقفرت منها الموازج فالحَضْرُ

وقد هاجنى منها بوعساءِ قَرمدٍ واجزاع ذى اللهباءِ منزلةٌ قفر

(١) الديوان ٣ : ٣٦، ٣٧ القوائم : جبال منتصبة ، رهط وأليان ورحيات الأحث وضوجى دفاق : مواضع وبلدان ، سحق : خلق ، هزة أظعان : سير أظعان .

يظل بهــا الداعى الهديلُ كأنه على الساق نشوانٌ تميل به الخمر
فإنْ تك فى رسم الديار فإنها ديارُ بنى زَيْد وهل عنهمُ صبر(١)

وهكــذا يعين ديار صاحبته ، ولا يهمل قومه ، وليس من سبيل إلى نسيانهم وهو يجد فى ذكرهم أمنا ومتاعا ، وفى بكائه عليهم روحا وطمأنينة .

وهــكذا نجد الشاعر وهو يستهل شعره يحرص على أن يبكى إما عن تقليد وإما لحب حقيقى ذوى . وفى كل ذلك نراه ينظر إلى صورة ما .. صورة تربطه بالماضى ، وتشده إليه فما يستطيع منه خلاصا . والمرأة بوجه عام غير واضحة المعالم ، ولا تحمل من المعانى أكثر مما صُوِّرت به من خطوط ، فلا نعثر — إلا قليلا — على قلبها وروحها وعاطفتها ، ولا نحس إلا بلاعجة تثير فينا شيئا ضئيلاً من الأسى ، ولا نقرأ إلا عن بــكاء الشاعر وأسفه لظعن صاحبته واختفائها وراء المجهول .

٢ — ذلك عن النسيب التقليدى ، وهو كما رأينا مختلط ببكاء الأطلال ، وأما عن النسيب الواقعى — إذا صحت هذه التسمية — فالأمر فيه يختلف . سنجده أكثروضوحـًا وأشد لمعانـًا ، والمرأة فيه تقبل على الرجل والرجل يقبل عليها ، والاثنان يعطيانا هذه المعانى المستمدة من غريزتهما وقلبهما ، فلن نجد الحبيبة رشأ أكحل فقط ولا نعجة مغزلة ولا أيما ملونا ، ولــكنا سنراها إنسانا يتحرك وقلبا يخفق وصوتا يتكلم ، والرجل معها مفتون بها ، حريص عليها . ومعنى ذلك كله أن الصورة هنا سوية نلمسها فيما ينعتها به .

واسمع الآن إلى ساعدة بن جؤْية ، فنراه يتحدث عن حبه ، ويقسم أنه صادق بل إن حبه لها لا يعادله حب المعدم للمال :

يا نُعْمَ . . إنى وأيديهمْ وما نحروا
بالخَيْـف حيث يَسُحّ الدافِق المُهَـجا
إنى لأهواكِ حقاً غير ما كــذِبٍ
ولو نأيتِ ســوانا فى النَّوَى حِججا

(١) الديوان ٣ : ٥٨ .

حبَّ الضريكِ تلادَ المال زَرْمَه
فقرٌ ولم يتخذْ فى الناسِ مُلْتَحَجَا(١)

ثم اقرأ غزلية سهم بن أسامة التى يشبب فيها بامرأة من قومه تدعى ليلى الزلفية ، ومطلعها :

الا أرقتنا بالسُّرَى أمُّ نَوْفَلِ
فأهلاً بذاك الطارقِ المتغلغلِ (٢)

ستحس فيها روحا رقيقاً وحياة دافقة . ولن ترى فيها أثر الصنعة أو التقليد وقد يخلط فيها بين أم نوفل وأمية إلا أنه صادق العاطفة على أية حال ، ومن يدرى فلعلهما رمزان لليلى . وهأنذا أنقل بعض الأبيات بعد المطلع لتكون عنواناً للقصيدة كلها . قال :

كما ارقَتْ بالطَّف من رمل عالج أُميةُ بعد النوم من أهل مجدلِ
وكلتاهما تسرى ومن دون أهلها ملاً إن تكلفْه المراسيل تُكْلَلِ
رأيت وأصحابى بودَّ ان نارَها بقرنٍ فطابت نارها نار مصطلى
إذا ما تَوانى مَوقدُ النار او خبت من الليل شَبَّت بالذكىِّ المكلَّلِ

وتشبه هذه الغزليةَ غزَلية أخرى لأبى الحنان ، بل لعل قصيدة أبى الحنان أرق وأعذب ونلمس فيها أثر البادية الهادئ الوادع ، قال :

ألا يامن لقلبٍ مُستهامٍ إلى جُمْلٍ على ضعف الرِّمام
ونَفْسٍ من هوى جُمْل لجوج وعينٍ لا تجف من السِّجام

إنه حزين موزع النفس دامع العينين ، ولكن هل يمنعه هذا من وصف صاحبته ؟ وأى بدوى له طاقة على ألا يفعل . إذن اقرأ ما يقوله فى ذلك :

تكلِّفنى مناعمةً ثقالا قَطوفَ الخَطْو خَرْعَبَةَ القَوام
كظيمَ الحِجْل واضحةَ المُحيا عديلةَ حُسْنِ خَلْقٍ فى تمام
تروق على النساء بحُسْن دلٍّ ومَنْصِبُها كريم فى الكِرام

---

(١) الديوان ٢ : ٢٠٨ هو يقسم بأيديهم وما نحروا بالخيف ، الدافق : الناحر ، الضريك : الفقير ، زرمه : قطع عنه الخير ، ملتحجا : ملجأ .
(٢) شرح أشعار الهذليين ٢٠٤ .

هكذا يختم وصفه ، ولكن بعد أن صورها كما أراد . . صورها بأسلوب جاهلى ، يعنى بالتفصيلات والدقائق ، كل ذلك لينتهى إلى أن صاحبته كانت جميلة ، فلعلنا نعذره إذا ضعف . . ثم اقرا :

اقول وقد بَدَا للنَّفْسِ منهم ... فِراقُ البَيْنِ ليس بذى التئام
على جُمْلٍ وجاراتٍ لِجُمْل ... نعيمُ الله يغدو بالسلام
وأكثرَ عاذلى فى جُمْلَ لومى ... وما أنا بالصَّبُور على المَلاَم
وكيف يروم صَرْمَ وصالِ جُمْلٍ ... حزينُ القلب ليس له بِذام
يراهُ حبُّ جملٍ منذُ حينٍ ... فأمسى كالطَّليحِ من الهيام(١)

روح وادعة وقلب ملتاع ، وصدر يشع كل الخير لجمل وجارات جمل . . يسع كل شيء إلا اللوم وهل هو من يستطيع عليه صبراً ؟ ليدعه الناس وشأنه ، فقد براه الحب ، وأمضّه الفراق .

هكذا كان يشبب الهذليون ، والمرأة عندهم فاتنة دائماً ، وإلا لما تبلت فؤادهم . اسمع أبا ذؤيب وهو يتكلم الآن عن سرب من الحسان فيقول :

فيهنّ أم الصبيين التى تبلت ... قلبى فليس لها ما عشت إنجاحُ
كأنها كاعبٌ حسناء زخرفها ... حلى وأترفها طُعمٌ وإصلاح(٢)

وهنا نلمس واقعية ، واهتماماً بهيئة المرأة ، فإذا قال عمرو بن الداخل :

وما إنْ احورُ العينين رَخْصُ الـ ... ـعظامِ ترودُه أمٌّ هَدوج
بأحسنَ مقلةً منها وجيداً ... غداةَ الحِجْر مَضحكُها بليج(٣)

أيقنا أن الغزليين يخلطون بين أوصاف المرأة وبين عاطفتهم ، فهم لا يفهمون الغزل إلا فى لذة حسية لدى المرأة . . فى ثغرها الجميل ، وفى جسدها المتسق ، وفى رنوتها المستطيلة ، فيردون عاطفتهم بذلك إلى كل ما تقدمه الأنثى لهم من متاع . وكيفما قلبنا حديثهم عن النساء وجدنا هذه الظاهرة أقوى من أن تختفى ،

---

(١) البقية ٦٩ .
(٢) الديوان ١ : ٤٧ . المقصود بالإصلاح السقى وحسن الغذاء .
(٣) الديوان ٣ : ٩٨ ترودُه : تتردد عليه ، هدوج متحركة أو فى صوتها هدجة أى حنين وتهدج ، بليج : واضح ومتفتح .

فهم عرب وكالعرب ينزعون نزعات حسية ، يشاركون فى هذا غيرهم من الشعوب التى احتكوا بها .

بل اقرأ ما يقوله المتنخل لصاحبته وكانت قد هجرته :

فإما تُعرضين أُمَيْمَ عنى ويَنزعْك الوشاةُ أولو النِّباط
فحُور قد لهوت بهنَّ وحْدى نواعمَ فى المُروط وفى الرِّياط
لهوتُ بهن إذْ مَلَقِى مليح وإذْ أنا فى المَخيلة والشِّطاط
أبيتُ على مَعَارِىَ فاخراتٍ بهنَّ مُلَوَّبٌ كدم العِباط
يقال لهنَّ من كَرَم وحُسْنٍ ظِباءُ تَبَالَةَ الأُدْمُ العواطى
يُمَشِّى بيننا حانوتُ خَمْر منَ الخُرْسِ الصراصرةِ القِطاط(١)

فليس يعنيه أن تنأى عنه صاحبته ولديه الحور يلهو بهن ، ويبيت وإياهن على فرش فاخرة مطيبة ، وتدور الخمر عليهم فينسون الحياة . وأما صاحباته فهن من حسنهن ظباء تبالة . وكذا نرى الصورة مادية بحتة ووراءها لذة حسية . ونستطيع أن نقول إن مثل هذه الخطوط العريضة المتشابهة تؤلف صوراً لنساء لا يتمثل الشعراء فيهن هذه العذرية التى اعتدنا أن نراها عند أمثال النهدى والمرقش الأكبر واتسعت دائرتها عند الشعراء الذين شهدوا عصر بنى أمية . وكأنما تتحول هذه المادية إلى عمر بن أبى ربيعة وجماعته فيشتطون بها ويعكفون عليها . وعلى أية حال فإننا نرى الغزل العفيف أو الشكوى التى يقرنها الشعراء عادة بالنسيب فنراها عند عبد الله بن مسلم إذ يقول :

تَعَالَوْا أعينونى على الليل إنه
عَلَى كلِّ عين لا تنام طويل

(١) الديوان ٢ : ١٩ وما بعدها . النباط : الذين يستنبطون الأخبار ويستخرجونها ، المروط : الثياب غير المخيطة ، الرياط : مفردها ريطة وهى الملاءة أو الثوب يشبه الملحفة ، ملق : لين كلامى ، المخيلة : الخيلاء ، الشطاط : حسن القوام ، معارى : فرش ، ملوب : ملطخ بالملاب والملاب نوع من الطيب ، العباط : ما ذبح من غير مرض فدمه صاف ، القطاط : الجعاد والواحد قطط .

ولا تخذلونى فى البكاء فإننى
لكم عند طول الجهد غير خذول
تعالوا إلى نفس تساقط من هوى
مبتلة ريّا العظام كسول
أتتركُ نفس فى هذيل مريضة
محاذرة قتلاً بغير قتيل
فويحى وعولى فرّجوا بعض كربتى
وإلا فإنى ميّت بغليلى
فإنْ كان هذا الشوق لا بد لازما
وليس لكم فيه الغداة حويل
فقولا لها قولاً رفيقا لعلها
سترحمنى من زفرة وعويل
بريقتها او ريح ثوب أشمُّه
فيعرفُ روحى ريح روح خليلى(١)

ويروى أن عيسى بن طلحة بن عمر التيمى سمع هذا الشعر ، فأتاه بحشمه وخدمه ورقيقه ودقّ بابه وهو يقول : أتيتك أعينك على الليل !

كما نراه عند مليح ذلك الشاعر الغزلى الرقيق ، ومن جميل ما روى له قوله :

جزعت بقول : ليت ليلى وأهلها
وجاملهم أجلوا بأهلى وجاملى
وقلت سوى ليلى الوداع فإننى
أرى ذاك منها اليوم إحدى النوافل
فضنّت علينا بالوداع فلم تجب
حزينا ولم تردد كلاما لسائل

ويستمر هكذا فى قصيدته ، متحدثا عن حسنها ثم فراقها له ، وحزنه وبكائه عليها ، حتى يقول :

---

(١) البقية ٧٣ .

نعيش بِوَعْدٍ منك لا تنجزينه
وَنأمل ذاك الوعدَ من غير باذل(١)

وأما أبو صخر فله قصائد كاملة قصرها على الغزل فقط . وفى جميعها يحدثنا عن حزنه للبين وبكائه على الفراق . ولكنه لا ينسى مطلقا أن يصف لنا صاحبته ليلى أو أم حكيم . يصف هذا الوصف الذى لا نرى فى أسلوبه إلا الروح الجاهلى ، فيه هذه العناية بأجزاء الجسم من عين وشعر وخد وجيد وخصر الخ . علما بأنه عند الدارسين واحد من العذريين . ومن أروع ما يروى له :

أما والذى أبكَى وأضحكَ والذى
أمات وأحْيا والذى أمرُه الأمرُ
لقد تركَتْنى أحسُدُ الوحشَ أن أرَى
اليفَيْن منها لا يَروعُهما الذّعر
فياحُبَّها زِدْنى جوى كلَّ ليلة
ويا سلوَة الأيام موعدُك الحشر
عجبتُ لِسَعْى الدَّهْرِ بينى وبينَها
فلما انقضى ما بيننا سَكَن الدَّهر
وما هو إلا أن أراها فُجَاءةً
فَأُبْهَت لا عُرفٌ لدىَّ ولا نكر(٢)

وكأنما يعطينا أبو صخر صورة مثلى لما انتهى إليه غزل هذيل فى العصر الأموى . أيكون قد تأثر بالشعراء الغزليين الذين ملئوا الأسماعَ والأفئدة فى هذه الفترة ؟ ليس هذا ببعيد ، وإن كان الأبعد أن تنكره على شعراء هذيل ومنهم من اضطرب فى الإقليم الذى اضطرب فيه العذريون بالحجاز أيام الجاهلية .

ولئن بقى شيء بعد ذلك يمكن أن نقوله فلا نملك إلا أن نذكر أن الغزل الهذلى فى طوريه الجاهلى والإسلامى يمثل لنا المرأة وجوها الذى كانت تعيش فيه ، كما يمثل أحوال العاطفة وتجاربها . ويلاحظ أن اختلاجات القلب الخافق ،

---

(١) البقية ١١٤ .
(٢) حماسة أبي تمام ٢ : ٦١ ، ٦٢ .

وآمال النفس الحزينة ، ومخاوف الروح المعذبة ، لم تظهر إلا متاخرة ، وكان فيها شيء من المثالية ، وشيء آخر من العفة المحرومة .

ولقد كنا نود أن نصف بعض صلات لفريق من الشعراء ، لولا أنا خشينا أن يمتد بنا حديث لا يخرج عن ان يكون تخصيصاً لا داعي له .

(ح) هجاء وبعض المدح :

الظاهرة الطبيعية أنا لا نرى فى شعر الهذليين مدحا كثيراً لا سيما قبل الإسلام ، وأما بعد ذلك فنجد أمية بن أبي عائذ وابا صخر ينقطعان إلى بنى أمية ويمدحانهم . وهذا معناه أن الشاعر تخلص من تبعيته لقبيلته وترك الكلام باسمها وعنها منتقلاً إلى بيئة جديدة تغيرت فيها الأوضاع ، وقد روى أن ابا ذؤيب مدح عبد الله بن الزبير بقصيدته التى مطلعها :

٢ أمِنْ أمِّ سفيان طيفٌ سَرَى إلىّ فهيّج قَلْباً قريحا (١)

فأيدّ بهذا الفكرة التى نحاول أن نبسطها ، وبرهن على أنه لم يعد يعنيه ان يظفر بشيء — إذ ذاك — سوى العطاء .

ونستطيع أن نضيف أن الشاعر الهذلى فى العصر الجاهلى لم يكن شاعر بلاط . لم يكن كالنابغة ولا كالأعشى ولا كحسان ولا كأىّ شاعر اعتاد أن يطرق أبواب المناذرة والغساسنة ، وإنما كان شاعراً معتزاً بذاته عندما تكون « أنا » فقط أو عندما تكون « أنا وقبيلتى » .

وقد يبدو من الضرورى أن نقرر أنّ الإحساس بالأنا عنده كان أكثر شيوعاً ، فتوارى شاعر القبيلة الهذلىّ إلى حدٍّ ما وإن يكن ثمة من يظل يتكلم بلسانها ! حقًّا كان هناك ما يوجب المدح من هذلىّ إلى هذلى ، إلا أن هذا كان فى نطاق محدود . وأرجو أن لا يحاول أحد أن يلتمس لهم مدحاً لناس غيرهم أشد منهم ثراء كقريش مثلاً ، فهذا لم يحدث لإباء كان فيهم ولعزوفهم عن التنقّل بشعرهم بين المثرين أو غيرهم .

---

(١) ديوان أبي ذؤيب تحقيق يوسف هل ٢٨ .

ولننظر الآن فى واحدة من القصائد التى قيلت فى المدح ايام الجاهلية ، ولتكن هذه المقطعة التى قالها مالك بن خالد الخناعى يمدح بها زهير بن الأغرّ سيد بنى لحيان :

فتى ما ابنُ الأغرِّ إذا شتونا وحُبَّ الزاد فى شهرَى قُماح
اقبُّ الكشح خفّاق حشاه يضىء الليلَ كالقمرِ اللِّياح
وصَبّاح ومنّاح ومُعْطٍ إذا عاد المَسَارح كالسِّباح
وجَزالٌ لِمَوْلاهُ إذا ما أتاه عائلاً قَرِعَ المُراح (١)

ثم ليس شىء بعد ذلك ، مع ان زهيراً كان سيداً فى قومه أو كان من حقه على الشاعر أن يطيل فى مدحه كما يفعل الشعراء عادة فى هذا المجال . ولكن الشاعر اكتفى فوصفه بالكرم والنجدة ، والتفت إلى خِلْقَته فى بيتٍ فقال عنه إنه قليل اللحم صبوح الوجه يضىء كالقمر .

ثم لننظر إلى قصيدة إسلامية ، وهى التى قالها بدر بن عامر يدفع بها تهمة عن أبى العيال ، ولكنّ هذا لم يقبلها منه — وهو ابن عمه — وتطور الأمر بينهما إلى هجاء ، قال بدر :

إنى وجدتُ أبا العيال وعزَّه كالحصْن لُزَّ بجندلٍ موصون
أعيا المجانيقَ الدَّواهى دونه وتركنه وأبَرَّ بالتحصينِ
أسَدٌ تفر الأُسْدُ من عُرَوائه بعوارِض الرّجّاز أو بِعيونِ
ويجر هُدّابَ الفليل كأنه هُدّاب خَمْلة قُرْطُفٍ مهونِ
ولصوته زَجَل إذا آنستَه
جرْىَ الرّحى بجَرِينها المطحونِ (٢)

(١) الديوان ٣ : ٥ . شهرى قماح : أشد شهرين برداً فى الشتاء حيث تتقامح الإبل أى لاتشرب ، أقب : ضامر ، اللياح : الأبيض المتلألئ ، المسارح : حيث تسرح الإبل ، السباح : قمص جلدية تجعل للصبيان ، جزال : يقطع من ماله ، قرع المراح : لايكون في مراحه إبل .

(٢) الديوان ٢ : ٢٥٧ ، ٢٥٨ . أبر بالتحصين : غلب به ، عروائه : حسه ، عوارض : نواحى ، الدجاز وعيون : موضعان ، قرطف : قطيفة لها خمل ، مهون : منفوش ، بجرينها : بطحنها (هذلية) .

والمعانى هنا هى هى ؛ فأبو العيال إذا عدت به فكأنك دخلت حصناً لا تطيقه المجانيق من صلابته . ثم هو أسد يقتل الرجال ويجرهم كما تجر الرحى طحينها .

ولن نبحث بعد ذلك عن مدح ، حتى فى عصر بنى أمية ؛ فقد اتخذ طريقه المرسومة فى الشعر العام ، وأصبح لا يختلف عن اىّ مديح لأىّ شاعر . فمعانيه كلها تدور حول الصفات التى يجب أن يمدح بها الممدوح ، من كرم وشجاعة إلى مكانة سامية ونسب رفيع ، ونستطيع بسهولة أن نميز فيها جانب الزيف ، ذلك أنها تصلح دائماً لأن تقال فى كل شخص .

فلندع المدح إذن ولنقل شيئاً فى الهجاء ، ذلك الفن الذى كان يتطور غالباً فيصبح مناقضة ، بل ربما كانت المناقضة تتسع حتى يتدخل من يفصل فيها . وهنا أحب أن أذكر أن كان للذؤبان بعض نقائض أرجّح أن أغلبها قيل فى ظروف وجدوا فيها مع قبيلتهم كنقائض صخر الغى وأبى المثلّم . ولم أعثر قط على نقائض بين صعلوكين .

والهجاء سواء كان مناقضة أو غير مناقضة يقف دائماً عند صفات خاصة مذمومة كالبخل مثلاً والجبن ، من غير ان نرى نبواً أو إقذاعاً . اللهم إلا فى حالات قليلة كهذه التى هجا فيها الأعلم جارته خناز(١) ، وتلك التى هجا فيها أبو أراكه أخت تأبط شراً بعد أن أنكحت أحد بنى نفاثة(٢) ، وهذه التى هجا فيها ساعدة بن جؤية امرأة من بنى الديل ، ولا بأس إذا وقفنا عندها ، فقد قال بعد أن وصفها بأنها صلبة كالوتر وأنها حين تجلس تقعى كما يقعى الذئب وأنها شروب للدم حلابة للبن :

نُفاثية أيّان ما شاء أهلُها   رأوا فُوقَهافى الخُصّ لم يتغيّبِ
إذا جلست فى الدار حكّت عجانَها   بِعُرقوبها من ناخسٍ متقوّبِ
إذا أُمهرت صُلْباً قليلاً عُراقُه   تقول : ألا أرضيتَنى فتَقَرَّب(٣)

---

(١) راجع القصة فى شرح أشعار الهذليين ٦٥ .
(٢) انظر البقية ١٩ .
(٣) الديوان ١ : ٢٢١ .

وهذه كما نرى صورة مخزية تذكرنا — إلى حد ما — بسفاهة الفحول حين نهشوا الأعراض وكشفوا عن العورات. ولكنك إذا قرأت هجاء ساعدة بن العجلان لحصيب الضَّمْرى تجده يقف عند صفات الجبن والفزع والفرار من الموت:

وما لك إذْ عَرَفتَ بنى خُثَيْم وإياهمْ على عَمْدٍ تكيد
تركتَهُم، وظلْت بِجَرِّ بَعْرٍ وأنت كذاك ذو خَبَبٍ معيد
أقت به نهارَ الصيفِ حتّى رايتَ ظلالَ آخرهِ تؤود
غَداةَ شواحطٍ فنجوتَ شَدّاً وثَوْبُك فى عَمَاقية هَريد
ولولا ذاك لاقيتَ المنايا صُراحيَةً وما عنها مَحِيد(١)

فابن العجلان هنا وقور، هادئ، لا يعنيه من حصيب إلا فراره. وهذا حسبه لأنه ينفى عنه حمداً كبيراً من المحامد التى يعتز بها العربى. فأين هذا من هجاء ابن جؤية؟ وشتان ما بين سباب وسباب؟

واقرأ كذلك هجاء سَلْمَى بن المقعد لبنى عاترة، فهو يقول فيه:

لولا اتقاءُ اللهِ حين ادَّخَلْتُمُ
لكم ضَرَطٌ بين الكُحَيْل وجهْوَرِ
لأرسلْت فيكم كلَّ سِيدٍ سَمَيْدَعٍ
أخى ثقة فى كلِّ يوم مذكَّرِ
ليلهيكمُ عنا التجمُّر إننى أراكم قُوَيما أولعوا بالتَّجَمُّرِ(٢)

وما أظن أنك واجد فيه شيئاً، فهم قوم ضعاف مولعون بالتجمر دون أن يقدموا على أمر أو يبتوا فى أمر. الا ترى الشاعر هنا بارداً؟ كأنما لا يعنيه منهم شىء، أو كأنما يحسب لهم حساباً؟

---

(١) الديوان ٣ : ١٠٨، ١٠٩ بنى خيثم : من هذيل، تكيد : تطلب وتريد، بجر يعر : بجبل، معيد : معاود جرب الأمور، تؤود : يقال آد النهار إذا رجع، ظلال آخره : آخر النهار، ويمتد الظل فيجىء الفىء، شواحط : واد، عماقية : شجرة، هريد ذو شقوق.

(٢) البقية — ٣٢ أدخلتم : من الدخول، الكحيل وجهور : موضعان، سميدع : شجاع ويقال للذئب سميدع.

ثم اقرأ بعد ذلك ما يقوله أبو المورِّق حين غدرت بكر — وكانت فى سَرِف — برجل من قومه وقتلوه فى المُغَمَّس :

تركتُ العادَ مَقْلياً ذَميماً إلى سَرِفٍ وأجددتُ الذهابا
وكنتُ إذا سلكتُ نجادَ أرضٍ رأيتُ على مراقبها الذِّئابا
إذا نزلتْ بنو ليثٍ عُكاظاً رأيتَ على رءوسهمُ الغرابا
غَدَرْتمْ غَدْرةً فَضَحتْ أباكُمْ ونبِّئتِ المغمَّس والظِّرابا
ولو جاورتموه فى هُذَيل لردَّكُمُ وأمكُمُ العَنابا(١)

فكل ما دار حوله هو الغَدْر . وكان ذلك حسبه ، لأنه أبشع ما يرمى به عربى لاسيما إذا كان المجنى عليه جاراً له . وكذا فضحتهم هذه الحادثة ، وكشفت للناس عن حقيقتهم ، حتى إنهم إذا شهدوا عكاظاً دلّ عليهم الغراب وهو يحوم فوق رءوسهم . ولم ينس فى آخر الأمر أن يعرض لقومه وكيف أنهم حريصون على حماية الجار وإرضائه .

وإذا تركنا هذا الهجاء الذى يصدر عن جانب واحد ، وانتقلنا إلى ما يقال فيه فى معرض المناقضة نلمس أيضاً هذا الاعتدال ، ونجد من الشعراء رعاية للحرمات . وأول ما يلقانا فى ذلك نقيضةُ أبى ذؤيب وخالد بن زهير ، وكان سبب تلاحيهما عدوان خالد على صاحبة أبى ذؤيب . فقال هذا :

خليلِى الذى دَلَّى لِغَىٍّ خليلتى فكُلاً أراه قد أصاب عُرورَها

فهو يرميهما بالغى والشطط ، ولكنه يمضى بعد ذلك هادئاً حتى يقول :

لوى رأسه عنى ومالَ بِوُدِّه أغانيجُ خَوْدٍ كان قدماً يزورها

وهنا تتهيأ له الفرصة ليرميه ثانية بالسفه والطيش ، وليكشف عما فى عمله من خيانة يحرص هو على ألا يرمى بها :

فإنَّ حراماً أن أخونَ أمانةً وآمنَ نفْساً ليس عندى ضميرها

---

(١) البقية — ٢٩ العاد : بلد ، بنو ليث : من كنانة ، كأن على رءوسهم الغرابا : من سكونهم وذلك لذلهم وخجلهم من غدرهم ، الظرابا : أصغر الجبال ، العناب : يقال هو اسم الأم .

فنفسَكَ فاحفظْها ولا تُفْشِ للعِدَى
من السِرّ ما يُطْوَى عليه ضميرها(١)

متى ما تَشَأْ أحْمِلْك والرأسُ مائلٌ
على صَعْبةٍ حرفٍ وشيكٍ طمورُها(٢)

وكذا يبلغ اقصى حدته فى آخر بيت ، فيقول أن فى وسعه أن يكلفه شططاً ويحمله على أمر صعب شاق ولو قومنا كل ما قاله وجدناه أقرب إلى ان يكون عتابا لولا بعض العنف . ولكن خالداً لا يرضى بهذا الوضع فيرد عليه ما قال ، ويقلب معانيه مصرحاً أنها هى صفاته ، يقول :

فلا تَجْزَعَ عن من سُنَّةٍ أنت سِرْتَها
وأولُ راضى سُنَّةٍ من يسيرُها

فإن التى فينا زَعَمْتَ ومثلها لَفيك ولكنى أراك تجورها

فيذكره أنه خان قبله . ألم تكن صاحبته خليلة لرجل غيره يدعى عويم ابن مالك فاستغواها وأخذها لنفسه ؟ فلماذا إذن يرميه بالخيانة وهو الذى استن سنتها ؟ أليس هذا بعجيب ؟

فإن كنتَ تشكو من قريبٍ مخانَةً
فتلك الجوازِى عَقبُها ونُصُورُها

ومع كل ذلك لا يسبه ، ولم يضف له إلا ما حاول هو أن يرميه به ، ولكنه يحذره من التمادى فيما يزعم .

فلا تَكُ كالثورْ الذى دُفنَتْ له
حديدةُ حَتْفٍ ثم ظل يثيرُها

ولا تَسْبِقَنّ الناسَ منى بِحزْرَةٍ
من السُم مذرورٍ عليها ذَرُورها

---

(١) هذا البيت فيه إبطاء مع البيت السابق له .

(٢) الديوان ١ : ١٥٤ وما بعدها .

وإياك لا تأخذْكَ منى سَحابة ينفّرُ شاءَ المُقلعين خريرُها(١)

وكذا يختم أبياته بمثل المثل الذى ختم به أبو ذؤيب أبياته ، ويحذره أنه إن أمعن فى ضلاله فلن يسكت عنه وسيهجوه ، فنجد بذلك وعيداً ونذيراً .

وكان خالد هذا قد جمع بين امرأة وابنتها فى الجاهلية ، فساء هذا العمل معقل بن خويلد وقال يرده عن غيه :

أتانى ولم أشعر به أن خالداً يعطّف أبكاراً على أمهاتها
يعطف طولاها سَناماً وحارِكاً ومثلُكِ أغْنَتْ طِلْبَهاعن بناتها
فلم ارَ بِسْطاً مِثْلها وخَلِيَّةً بَهاءً إذا دفّعتَ فى ثَفِنَاتِها

فأجابه خالد :

إذا ما رأيتَ نِسْوَةً عند سَوْءةٍ فإن نساءَ مَعْقلٍ أخواتُها
فكن مَعْقِلاً فى قومك ابن خويلدٍ ومسِّك بأسبابٍ أضاع رُعاتُها
ولا تبدُرَنَّ القوم منى بحَزْرَةٍ طويلةِ حدِّ الشوك مُر جَناتُها
ولا تبعثِ الأفعى تداوِر رأسها ودَعْها إذا ما غَيَّبَتها سَفاتها
وأقصرْ ولا تأخذْك منى عَماية ينفِّر شاء المُقلعين خَواتُها(٢)

ففى البيت الأول يرميه بالسوء لأنه رماه قبل به ، فيقلب عليه بذلك نفس المعنى ، وفى الأبيات الأخرى يتوعده ويحذره كما فعل مع أبى ذؤيب ، ويختم أبياته بما يشبه هذا الذى ختم به شعره مع الشاعر الأول . ولكننا نلمح فى كل ذلك عقلاً متزنا ، كأنه يريد أن يبقى على ما بين الشاعرين من قرابة . وهنا نجد أبا ذؤيب يتدخل ليصلح بينهما ، ويحذر معقلاً فيقول :

---

(١) الديوان ١ : ١٥٧ وما بعدها .

(٢) الديوان ١ : ١٦١ ، ١٦٢ فى البيت الأول يقول إن الناقة لاتعطف على ولدها وإنما تعطف على ولد غيرها ، حاركا : أعلى الكاهل ، طلبها : الذى تطلبه ، بسطا : ناقة معها ولدها ، خلية : التى تعطف على ولد غيرها ، ثفناتها : مباركها ، أضاع رعاتها : ذهب أصحابها ، بحزرة : بحامضة أو بشجرة شديدة الحموضة ، خواتها : حفيفها ، المقلعين : الذين أقلعت عنهم السماء فلم يمطروا .

فلا تُتْبع الأفعى يديك تنوشُها ودعها إذا ما غَيَّبَتْها سَفَاتُها
وأطفئْ ولا توقدْ ولا تَكُ مِحْضَأً لنارِ العُداة أن تَطيرَ شكاتُها(١)

ونجد البيت الأول شبيهاً بالبيت الذى تحدث فيه خالد عن الأفعى ، بل لقد استخدم شطراً كاملاً منه ، يلح بذلك على نفس المعنى الذى قيل . بيد أنه يضيف جديداً هو نار العداوة ، ويحذره منها أن تطير شكاتها .

وأما قيس بن العيزارة فيهجو تأبط شراً وقومه فهماً ، وذلك حين أسروه وأخذوا سلاحه وتناجوا فيما بينهم فاتفقوا على قتله . ولما افتدته هذيل ونجا قال عينيته التى فيها :

ويأمر بى شَعْلٌ لِأُقْتَلَ مُقْتَلاً فقلتُ لِشَعل بِئْسما أنت شافع
سرا ثابتٌ بَزِّى ذَميماً ولم أكنْ سَلَلْتُ عليه شلَّ منى الأصابع
فوَيْلُ أمِّ بزٍّ جَرَّ شَعْلٌ على الحصَى فَوُقِّرَ بزٌّ ما هنالك ضائع
فإنك إذ تحدوك أمُّ عويمرٍ لذو حاجة حافٍ مع القوم ظالع(٢)

وشعل وثابت اسمان لتأبط شراً . . يشتمه حين سلبه بزه وجعل يجره على الأرض حتى أتلفه ، ثم يرميه بالضعف والجبن إذ تحدوه الضبع أم عويمر وتسوقه تطمع أن تأكله . فلما بلغ تأبط شراً ذلك أجابه :

وإنك لا بزًّا منعتَ ولا يداً وإن السيوفَ بالأكُف شوارعَ
غداةَ تقول قدملَكْتم فأسجِحوا وإنى لما اسْلكتمونى لتَابعَ
فواللهِ لولا ابنا كِلابٍ وعامرٌ بَعَوْا أمر غيّاتٍ هُمُ والأقارعُ
لجامعتُ امرأً ليس فيه هَوَادة ولا غُضَّةٌ وليس فيها تنازُع(٣)

وتأبط شراً فى هذه الأبيات يهتم بما قاله قيس عن سلاحه ، فيقلب عليه المعنى وينكر عليه فضله . ثم يرميه بالخور ، ولولا ابنا الكلاب وعامر لكان قتله

---

(١) الديوان ١ : ١٦٣ المحضاء : العود الذى تقدح به النار .

(٢) الديوان ٣ : ٧٧و٧٨ سرا : سلب ، بزى : سلاحى ، شافع : قائل مرة أخرى .

(٣) شرح أشعار الهذليين ٢٥٢ . شوارع : يضرب بها ، أسجحوا : هونوا وسهلوا ، أسلكتمونى : حملتمونى عليه ، بعوا : جنوا ، غيات : من الغى ، لجامعت أمراً : لقتلتك ، غضة : منقصة واستحياء منه .

واستراح منه . وهنا يأبى قيس السكوت فيجيب عليه بشيء من العنف ويفحش فيما يقول لا يعنيه إلا أن ينال منه ، يقول قيس :

أثابتُ ... الذيب ! فيم هَجَوْتَنى وقد علم الأقوامُ إنى لشافع
لعمر ابيك جابرٍ شاربِ الصَّبــا واملكذئباً وَسْطِ فرْق بواضع(١)

ولسنا ندرى ماذا تم من هـــذه المناقضة ، لأن الديوان يسكت بعد ذلك ، فلا يروى للشاعرين شيئاً . وفى البقية نقيضة بين تأبط شراً وأحد شعراء هذيل من بنى قريم ، وهى لا تخرج فيما تضمنته من المعانى عن هذه التى عرضنا لها(٢).

وأما النزاع الذى وقع بين أبى المثلم وصخر الغى فسببه قتل الأخير جاراً لبنى خناعة . وكان بلغ صخر الغى أن أبا المثلم يحرض عليه فقال :

سمعت وقد هبطنا من نُمارٍ دعاء أبى المثلَّم يستغيث
يحرض قومــه كى يقتلونى على المُزَنى إذ كَثُرَ الوُعوث

فأجابه أبو المثلّم بقوله :

فإن تكُ قد سمعت دعاءَ داعٍ فغيرى ذلك الداعى الكَرِيث
لعلّى إن دعوتُك من قريبٍ إلى خيرٍ لتأتِيَهُ تريث

فهو يقف عنـد المعنى الذى دار حوله صخر فرده له ، كما فعل تماماً حين سمعه يقول :

ليتَ مبلّغاً يأتى بقوْل لِقاء أبى المثَلّم لايَريث
فيخبرَه بأنَ العَقْلَ عندى جُرازٌ لاأفلّ ولا أنيث

فنقضه عليه بقوله :

ومن يك عقله ما قال صخرٌ يُصِبْه من عشيرته خبيث(٣)

---

(١) شرح أشعار الهذليين ٢٥٣ . مكان النقط فى البيت الأول إقذاع ، شافع : مشهور ، شارب الصبا : يستنشق الريح بمعنى أنه لفقره لايملك شيئا ، فرق : قطعة الغنم ، بواضع : مفردها باضعة وهى التى انقطعت من الغنم .

(٢) البقية ٤٨ .

(٣) الديوان ٢ : ٢٢٣ وما بعدها الوعوث : الشر أو فساد الأمر واختلاطه ، الكريث : المكترث ، تريث : من راث يريث ، جراز : قاطع ، أفل : مفلول ، أنيث : يقال أنث الحديد كان غير شديد فهو أنيث .

كان أبو المثلم يطلب دية القتيل ، فأخبره صخر أن الدية التى عنده لهم سيف جراز أى قاطع . . يهدده بذلك حتى لكأنما يقول : ليس لكم عندى إلا السيف !

فقال له أبو المثلم : إن هذا الذى يعطى عقله بالسيف مخطئ فقد يمسك به خبيث من قومه ويضربه به .

وفى نقيضة لهما قال صخر يسبُّ أبا المثلم :

إذا هو أمسى بالحلاءة شاتياً ... تقشّر أعلى أنفه أمُّ مِرزَم

هو يعيره بنزوله هذا الموضع البارد ، ورضائه عنه ، وسكوته على أم مرزم وهى تقشر أنفه برداً . وهنا يضع أبو المثلم مثلبة يقابل بها مارماه به صخر فيقول :

اعيَّرتنى قُرَّ الحلاءة شاتيا ... وأنت بأرضٍ قُرُّها غير مُنْجِم

وبذلك ردَّ إليه ماقال ، ورماه بنفس ما ادّعاه ، وكان صخر قد قال له :

وخفِّضْ عليك القولَ واعلم بأننى ... من الأنَس الطاحى الجميعِ العرمرم

فوضع أبو المثلم أمام هذه المفخرة مفخرة له ورد عليه بقوله :

فإن تنْفِنِى نحو الحلاءة تنْفنى ... إلى أنَس طاحى الحُلول عرَمْرَم(١)

وفى لامية لصخر يذكر رهط أبى المثلم بسوء ، ويفضحهم بقتلى أهل ذى خنب ، ويحملهم مغبة عملهم :

أبا المثلّمِ..قَتْلى اهلِ ذى خَنَبٍ ... أبا المثلم والسّىْءَ الذى احتملوا

فيتناول أبو المثلم هذه الحادثة ويفسرها تفسيراً يدفع به التهمة عن قومه ، ويوجه المعنى توجيها جديداً يرضيه ، قال :

ياصخر وَيْحَكَ لِمْ عيرتَنى نفراً ... كانوا غداةَ صباحٍ صادق قُتِلوا

ياصخرُ ثم سعَى إخوانُهم بهمُ ... سعيا نجيحا فما طُلُّوا ولا خَمَلوا(٢)

---

(١) الديوان ٢ : ٢٢٥ وما بعدها . الحلاء : موضع ، أم مرزم : الشمال ، منجم : مقلع ، طاحى الحلول : متسع الحلول ، عرمرم : شديد أو كثير .

(٢) الديوان ٢ : ٢٢٩ وما بعدها . يطلب منه أن «يذكر» أهل ذى خنب ، السىء : السوء ، صباح صادق : صباح يصدق القتال ، طلوا : هدرت دماؤهم ، خملوا : صغر شأنهم .

فلم يعيره هؤلاء النفر وكانوا خرجوا للقتال ؟ أليست الحرب هى الحرب ؟ وماذا وراءها إلا القتل ؟ إنهم مع ذلك حاربوا من قتلوهم فلم تهدر دماؤهم ولا صغر شأنهم أمام أعدائهم وهكذا يدفع عنه مارماه به صخر ، ويروى للحادثة وجهًا آخر غير مايراه خصمه .

وقبل أن نترك هذين الشاعرين احب أن أعرض — مسرعًا — لقصة جارة أبى المثلم وتستر امرأته عليها حين تلتقى بصاحب لها حتى لدغته الحية . لقد قال ذلك الصاحب ويدعى عامر بن العجلان قصيدة فى هذه الحادثة ومطلعها :

أَسَرَّ أباكم بأنَّ السَّليمَ إذا عُضَّ فى الفَرش لم يَرْمَضِ

وفيها تعرض لأبى المثلم وكان ساءه أن ينجو ورماه بالخور والخسة والضعف ، فرد ابو المثلم ينقض عليه هجاءه بقصيدته التى أولها :

عذيرَ أميمة بالمرفضِ كذى همَّةِ النفس لاتنقضى(۱)

وفيها يزهو بنفسه ، ويهجوه ، ويقول له إنه لو شاء لجعله إزاراً على امراة حائض فهو يُعرُّه ويلبسه ثوبا مشينا . ثم يهزأ به آخر الأمر ويهون من شأنه .



فإذا تركنا هذه المرحلة وانتقلنا إلى صدر الإسلام لانجد من النقائض إلا ماوقع بين بدر بن عامر وابى العيال أيام عمر بن الخطاب ، ونجدها فاترة هينة لم تبلغ مابلغته نقائض هذيل فى الجاهلية كما لم تبلغ — بأى وجه — مابلغته نقائض الفحول فيما بعد . إلا أن المعانى التى دارت بها كانت هى المعانى التى رأيناها .. سباب سطحى لايتناول جذم العشيرة ، ولا يهدم هذه الصروح التى تقيمها عصبية القبيلة .

فلقد كان بدر وأبو العيال ابنى اخوين ، وكان لأبى العيال أخ مات ابنه غدرًا فاتهم فى قتله بدر بن عامر ، فدافع عن نفسه وامتدح أبا العيال حتى يقف

---

(۱) شرح أشعار الهذليين — ٤٩ وما بعدها والسليم : اللديغ ، الفرش : الأرض تستوى وتلين ، يرمض : تصيبه الرمضاء والحر أو يحترق بالرمضاء ، عذير : يقول له عذيرك أى هلم معذرتك منها أو اعذرنى منها ، المرفض : حيث ارفض الوادى أى اتسع .

معه — وتحدثنا نحن عن هذا المدح — ولكن الأمر تطور بينهما إلى سباب بدأه أبو العيال بقصيدته التى مطلعها :

إن البلاء لذى المَقَاوِس مُخْرِج ما كان من غَيْب ورَجْم ظُنونِ

وفيها يرميه بالنفاق لأنه مدحه بغير ما يؤمن به :

لو كان عندك ما تقول جعلتَنى كنزا لِرَيْب الدّهْر عنْد ضَنين

يقول له لو كنت تؤمن بالذى قلته مما تثنى به على لجعلتنى كنزا تخفيه كما يخفى الشحيح الضنين كنزه . ثم استمر يرميه بالخسة لأنه يعين من يبغيه بشر ويسكت عن خصومه . فغضب بدر بن عامر وأنكر عليه جحوده وقال له فيما قال :

ومنحتَنى جَدّاء حين منحتَنى شخصاً بِمِالئه الحِلاب لَبون

فلقد منحه هو خيرا كنى عنه بناقة حلوب فكان جزاؤه شرًّا كنى عنه بناقة لا لبن فيها ، ومع ذلك فهو لا يريد أن ينال منه ، وناشده بقوله :

وتأمل السِّبْت الذى أحذوكُمُ فانظر بمثل إمامِه فاحذُونى

والسبت هنا هو النعل — وليس هذا ما يريده — إنما ذلك مثل يقصد به أنه يحذوهم بالثناء فلا أقل من أن يفعل هو فعله . ولكن أبا العيال يرد عليه نفس المعنى بقوله :

قرِّبْ حذاءك قاحِلاً أو لَيِّنًا فتمَنَّ فى التحضير والتلسين

وارجعْ منيحتَك التى أتبعْتَها هُوعاً وحدّ مذلّق مسنون(١)

فهو يقول قرب حذاءك أحذك مثله على مناله ، وخذ ما منحته لى ، فأنت لم تهبه طيب النفس وأتبعته لسانا يشبه حد المذلق المسنون . وكذا تستمر الملاحاة فتكون عبارة عن جدال ونقاش لاحدة فيه . ولست أجد عناء

---

(١) الديوان ٢ : ٢٥٩ وما بعدها والمقاوس : جمع مفرده مقوس وهو الحبل الذى يمد على صدور الخيل ثم يرسل فذلك البلاء يخرج أخبارها بمعنى أنه عند الرهان يعرف الجواد من غيره ، ضنين : شحيح ، جداء : لا لبن لها ، شحصا : لا لبن فيها ، الحلاب : ما يحلب فيه ، السبت : النعل ، إمامه : مثاله ، التحضير والتلسين : دبغ الجلود ، هوعا : قيئا ، حد مذلق مسنون : لسانك الذى يشبه حد المذلق المسنون .

فى أن ألح عليها وأطيل فيها ، فمن شاء رجع إليها فى آخر الجزء الثانى من الديوان .

وإلى هنا نقف ، فقد تشعب بنا القول ، ولم يعد ثمة شيء نتحدث عنه فى العصر الأموى ، وانصرفت هذيل عن هذا الفن كأنما أبت إلا أن تتبع معركة الفحول دون أن تتدخل فيها كما تدخلت العشائر الأخرى — ولا سيما التميمية منها — فلم ينلها إلا السباب وسقط فيها كثير من الشعراء .

وإذا كان لنا شيء بعد ذلك نقوله ، فعن الطرق التى اتبعها شعراء هذيل فى نقض المعانى ، وهى لاتختلف مطلقا عما أثر عن الشعراء الآخرين . ويلخص الأستاذ أحمد الشايب هذه الطرق راجعاً بها إلى أصل واحد هو عناية الشاعر الثانى بإفساد ما يقرره الأول . أما هذه الطرق فأظهرها القلب والمقابلة والتوجيه والتكذيب والوعيد أو الشماتة(۱) ولا شك أنا أرجعنا كل مارويناه إلى واحد من هذه الطرق ، وانتهينا إلى ان الشاعر الثانى كان يكذب دائما ما يدعى خصمه ويدفع عنه مايرميه به .

وبعد ، فقد يسأل سائل : ألم يهج الذؤبان قبيلتهم ؟ لقد كنا ننتظر منهم ذلك لاسيما بعد أن ثاروا عليها ، ولكنهم لم يفعلوا باستثناء أبى جندب ؛ فقد انفرد هو بهجاء بنى لحيان حين قتلو جارا له (۲) .

— ۲ —

شعر الصعاليك الذؤبان

وهو يختلف عن الشعر الذى قرأناه لمن عاش مع قبيلته ، فهؤلاء قد تحللوا من نظمها وألقوا عن كواهلهم تقاليدها وانفردوا بأنفسهم . فكان شعرهم صورةً قويةً للشخصية الفردية التى لايهتم صاحبها إلا بنفسه . ولا يعنينا هؤلاء الذؤبان الآن ، فقد تكلمنا عنهم وبيَّنا كيف أن ثمة عوامل اضطرتهم إلى أن يقفوا فى وجه المجتمع يأخذون منه بأسلوبهم العنيف مايريدون . وكانت حياتهم من أجل

(۱) راجع تاريخ النقائض فى الشعر العربى — ۲٤ وما بعدها .

(۲) راجع الديوان ۳ : ۸٥ وما بعدها .

ذلك فيها شيء كثير من الخطورة والطرافة والثورة والتحرر ، وقد صور شعرهم كل ذلك فجاء حيًّا صادقاً ممتعاً .

وكانت المعانى التى دار حولها ذات لون جديد متفق وأسلوب حياتهم ، ويتصل بها اتصالاً شديداً . ولو لم يكن كذلك لما وصفناه بالصدق والحيوية ولوضعناه مع الشعر الذى قيل فى ظلال القبيلة وفى توافق معها .

ونستطيع أن نضع هنا ما اختلفوا فيه عن الشعراء الآخرين قبل أن نتناول كل جانب على حدة فننظر فيه ونتكلم عنه ، مبينين مافيه من أوضاع جديدة . وشعرهم واضح فى ذلك ، فهو يتحدث عن مغامراتهم ويصف غزواتهم ويتكلم عما فيها من خطورة وعنف ، وهو يتحدث عن فرارهم من أعدائهم ، ويشيد كثيراً بسرعة عدوهم . وهو يعرض لسلاحهم ويصفه . وهو يتكلم عن تربصهم فوق المراقب ، ويحفل بأحاديث تشردهم وفقرهم وإبائهم وعدم رضائهم عن الموسرين الوادعين . نعم هو يتحدث عن كل ذلك فيعطينا لوناً حبيباً من القصص .

(ا) كيف صور الذؤبان أنفسهم :

يدل شعر أبى كبير عامر بن الحُليس[1] على أنه عرف الصعلكة فى شبابه وابتلى بها فعاش مع الذؤبان واضطرب فيما اضطربوا فيه ، حتى إذا تقدمت به الأيامُ أنشأ يقول لابنته :

أزهيرَ إن يُصبِحْ أبوك مُقَصِّراً
طفلاً ينوء إذا مَشَى لِلْكَلْكَلِ
يهدِى العمودُ له الطريقَ إذا هُمُ
ظَعَنُوا ويعمِد للطريق الأسهلِ
فلقد جمعتُ من الصِّحابِ سَرِيةً
خُدْباً لِداتٍ غيرَ وخش سُخَّلِ

(١) فى الحماسة عويمر بن حليس (بضم الحاء) رويت له أربع قصائد فقط أولها كلها شيء واحد ، ولا يعرف من الشعراء أحد فعل ذلك .

سُجَراءَ نفسى غيرَ جمع أشابةٍ

حُشُداً ولا هُلْكِ المفارِشِ عُزَّلِ

لا يُجْفِلون عن المُضَاف ولو رَأوْا

أولَى الوعاوعِ كالغَطَاطِ المُقْبِلِ

يتعطّفون على البطىءِ تَعطُّفَ الـ

عُوذِ المطَافِلِ فى مُنَاخِ المَعْقِلِ (١)

فأصحابه الذؤبان خُدْب يركبون رءوسهم فلا يردهم شىء ، ويقبلون على الخطر بنفس لا يأخذها ضعف أو خور . وهم لايعرفون لين الحياة ، ولايقرون مسالمين فى فرشهم ، وإنما هم ينفقون أيامهم فى العراء ، فضلاً عن أنهم حشد لا يدعون عند أنفسهم شيئاً من الجهد أو المال . وإذا رأوا أعداءهم مقبلين عليهم كالغَطاط قابلوهم دون ان يجفلوا منهم . كل هذا إلى جانب قلوب حانية ونفوس رقيقة ، فلا يكادون يرون فيهم أحداً مجروحاً أو مقتولاً حتى يتعطفوا عليه كما تتعطف العوذ على أولادها الصغار .

الصورة — كما نرى — واضحة ، يمكن أن نلخصها فى أنهم شجعان كرام . ولكن أبا خراش يصف صاحباً له فإذا هو :

سَمْعٌ من القوم عُرْيانٌ أشاجعهُ

خَفٌّ النواشر منه والظنَّابيبُ (٢)

ولا تعنيه نفسه هنا بقدر ما تعنيه هيئته ، فهو ليس وخماً ثقيلاً كثير اللحم

(١) الديوان ٢ : ٩٠ و٩١ . خدبا : هوجا متهورين ، لدات : متقاربى السن ، وخش : الرذل من كل شىء ويقال وخش المتاع ، سخل : ضعاف ، سجراء : خاصة والواحد سجير ، هلك المفارش : ليسوا من أمهات السوء ، يجفلون : ينكشفون ، المضاف : الملجأ ، أولى الوعاوع : أول من يغيث من المقاتلة ، الغطاط : طير من نوع القطا طوال الأرجل والأعناق ، العوذ : جمع عائذ وهى التى معها ولد صغير ، المطافل : اللائى معهن أولاد ، المعقل : الحرز .

(٢) الديوان ٢ : ١٦١ عريان أشاجعه : ليس بكثير اللحم ، والنواشر : عصب ظهر الكف .

وإنما أصابعه دقيقه وساقاه سريعتان . وهو خفيف ويستطيع أن يعمل في نشاط .

وصخر الغي يتحدث أيضا عن الصاحب الذى كان معه فيقول :

معى صاحبٌ داجنٌ فى الغزاةِ ... ولم يك فى القوم وَغْلاً ضعيفا
ويعدو كَعَدْوِ كُدُرٍ تَرَى ... بِفَائِله ونَسَاه نُسوفا(١)

ونفهم أن صاحبه يألف الغزو ويقبل عليه دائماً ، ذلك لأنه ليس ضعيفاً أو نذلاً : ثم هو يضيف شيئاً آخر لا بد أن يتوافر فى الذؤبان هو قدرته على العدو ، وسنعلم عن ذلك شيئاً فيما بعد . وأما أبو جندب بن مرة القودى فإنه يعكف على نفسه فيقول :

أما تَرَوْنى رَجُلاً جونيّا ... حَفَلَّجَ الرِّجْلَين أفلَجيّا(٢)

هو رجل أسود . . ألم تلوحه الشمس ؟ ولكن الأهم أنه متباعد الساقين ، فهو عداء .

وينظر أبو خراش إلى نفسه أيضاً ، ثم يعيب على امرأته عزوفها عنه إلى رجل موسر ، قال :

فلا وأبيكِ الخيرُ لا تجدينَه
جَميلَ الغِنى ولا صَبوراً على العُدْمِ
ولا بَطَلاً إذا الكماة تزيّنوا
لَدَى غَمَراتِ الموتِ بالنَّحَالك الفَدْمِ
أبَعدَ بلائى ضاقَتِ البيتَ مِن عمىً
تُحِبُّ فِراقى أو يَحِلُّ لها شَتْمى
وإنى لأثوِى الجوعَ حتى يملَّنى
فيذهبَ لم يدنسْ ثيابى ولا جِرْمى

---

(١) الديوان ٢ : ٧٦ وغلا : نذلا ، كدر : حمار الوحش ، فائله ونساه : عرقان عنده ، نسوفا : آثارعض .

(٢) الديوان ٣ : ٨٧ حفلج : أفحج أى تدانت صدور قدميه وتباعدت عقباه ، أفلجيا : متباعد الساقين جعله كالنسبة له .

وأغْتَبِق المـاءَ القَرَاح فأ كتـفِي

إذا الزادُ أمسى للمزلَّجِ ذا طعم

أرُدُّ شُجَاع البطنِ قد تَعلَمينَه

وأوثِرُ غيرى من عِيالِك بالطُّعم

مخافَةَ أن أحيـا بِرَغْمٍ وذِلَّةٍ

ولَلْمَوْت خيرٌ من حياةٍ على رَغْم(١)

الصورة هنا أوضح حيث أبو خراش يبسط رأيه فى هذه الحياة ، فالخير ليس فى رجل جميل الغنى لا يصبر على الفقر أو القتال ، إنما الخير فى رجل يجتهد فى أن يعيش ، ويناضل ويكافح . حقًّا هو فقير ولكنه لا يشكو وحسبه أنه يألف الجوع ويقدر عليه ويحبسه عنده حتى يملّه فيذهب دون أن يلحقه عار السؤال ! وليكن قوته جرعة ماء فإذا حصل على طعام فأولاده أولى به . كل ذلك لأنه يريد أن يعيش كريماً . نعم هو فقير ، ولكنه أبىّ ، والموت خير له إذا فكّر فى حياة ذليلة مهينة .

وهكذا نلمس هذا التعالى والاعتزاز بالنفس . وماذا يملك الذؤبان غير ذلك ؟ إن شيئا واحداً دفعهم إلى هذه الحياة الشاقة — هو الإباء — فهل ينزلون عنه ليشبعوا ؟ أيعيشون أذّلاء مظلومين ؟ محال ! اسمع إلى صخر الغىّ ماذا يقول :

فَلَسْتُ عبداً لِموُعِدّى ولا أقبَل ضَيْماً يأتى به أحَد(٢)

لقد بلغه أن ناسا يحرّضون على قتله ، فهل يستجديهم ليعيش ؟ إنه لا يقبل أن يكون عبداً لأحد ولا يرضى أن يظلمه أىُّ إنسان ، وفى وسعه أن يظفر بأعدائه فى كل وقت .

ويلخص عمرو ذو الكلب مهمته ، ويصف أصحابه الذين يغزو بهم فيقول :

فأبرح غازيا أهدِى رعيلاً أؤم سوادَ طودٍ ذى نِجال

(١) الديوان ٢ : ١٢٦ وما بعدها .

(٢) الديوان ٢ : ٦١ .

بفتيان عمارطَ من هذيل   همُ ينفون أناسَ الحِلال(١)

فهو ثائر أبدا — ولا يزال يجمع ذؤبان هذيل ويخرج بهم للغزو فيكون أول الرعيل ويؤم بصحبه أماكن الخصب حيث ينزل الناس فيهربون خوفاً منه. ولا عجب فأصحابه عمارط لا يتركون شيئا إلا أخذوه. أليسوا معدمين لايملكون شيئاً؟

وليس هذا فقط هو ما يهتم به الذؤبان فى شعرهم حين يصفون أنفسهم وإنما هناك أيضاً سلاحهم فهم وهو صنوان، ولا يمكن لأحدهم أن يخرج أعزل. وهذا أبو خراش يرينا أن على الصعلوك أن يجيد الرماية، وذلك حين يتكلم عن نفسه فيقول:

وإنى لأهدى القومَ فى ليلةِ الدُّجَى
وأرمى إذا ما قيل: هل من فتًى يَرْمِى(٢)

وإذا رثى بعضَ إخوته أنكر أن يكونوا عزّلاً من السلاح، فقال:

حِسَان الوجوه طيب حُجزاتُهم
كريمٌ نثاهم غيرُ لُفٍّ معازِلِ(٣)

فهم أعفاء وليس فى لسانهم لَفف، ولا يقضون أوقاتهم بغير سلاح.
ثم هذا صخر الغى يقول إنه يستطيع أن يمنع عنه خصومه بسلاحه فقط:

إنى سَيَنْهى عنى وَعيدَهمُ   بيضٌ رِهابٌ ومُجناٌ أُجُدُ
وصارمٌ أُخلصتْ خَشيبتُه   أبيضُ مهوٌ فى مَتْنِهِ رُبَد

---

(١) الديوان ٣ : ١١٤. ذى نجال: الواحد نجل وهو النز يجرى على وجه الأرض يريد أنه لايبرح غازيا ويكون أول الرعيل يعنى الجماعة، عمارط: مفرده عمروط أى صعلوك ولص ليس له شىء، وفى التاج — فصل العين من باب الطاء — المارد الصعلوك الذى لايدع شيئا إلا أخذه فهو أخص من اللص.

(٢) الديوان ٢ : ١٣١.

(٣) الديوان ٢ : ١٢٣ طيب حجزاتهم: أعفاء والحجزة هى معقد السروال والإزار، كريم نثاهم: من نثا عليه قولا أى أشاعه وأظهره، يصفهم بأن كرمهم متحدث عنهم، لف: مفرده ألف وهو الثقيل.

فَلَيْتُ عنه سيوف أريحَ حتى... باء بكفيّ ولم أَكَدْ أجد
فهو حسام تُتِرُّ ضربتُه سا قَ المُذَكِّى فعظمُها قِصَد
وتَمْحَةٌ من قسىّ زارةَ صَفْرا ءُ هتوفٌ عِدادُها غَرِد
كأن إرنانها إذا رُدِمَتْ هزمُ بُغَاةٍ في إثْرِ ما فَقَدوا
ذلك بَزِّى فلن أفرِّطَه أخاف أن ينجزوا الذى وَعدوا(١)

أجل ذلك بزه ، فلن يدعه وإلا عَدَوْا عليه . وهل فى وسعهم أن يقفوا أمامه وبيده سهام مرهفة رقيقة ، وترس محدودب شديد ؟ ثم أين هم من سيفه الصارم الذى لا يجد له مثيلاً ؟ وقوسه الصفراء المتوف التى صنعتها زارة . هل ينكرونها ؟

وحبيب الأعلم يزهو كذلك بسلاحه أو ينذر خصومه فيقول :

متى ما تَلْقَنى ومعى سلاحِى تُلاقِ الموتَ ليس له عديل(٢)

وأما أبو كبير فيصور لنا نفسه ويصف سلاحه فيقول :

ولقد صَبَرْت على السموم يكُنُّنِى
قَرِدٌ على اللِّيتَيْن غيرُ مرجَّلِ
صديانَ أخذَى الطَّرْفِ فى ملمومةٍ
لونُ السَّحاب بها كلَوْن الأعْبَل
مستشعِراً تحت الرداء وشاحةً
عَضْباً غموضَ الحدِّ غير مُفَلَّلِ
ومعابِلاً صُلْعَ الظُّبات كأنها
جَمْرٌ بِمَسْهَكَةٍ تشَبُّ لمُصْطَلِى
نُجُفاً بَذَلْت لها خوافىَ ناهضٍ
حَشْرِ القوادِمِ كاللِّفاع الأطْحَلِ

(١) الديوان ٢ : ٥٩ وما بعدها وأريح : قرية بالشام ويقال لها أريحاء.
(٢) الديوان : ٢ : ٨٥.

فإذا تُسَل تخلخلتْ أرياشها
خَشْفَ الجنوبِ بيابسٍ من إسْحلِ (١)

فهو حين يصير على السموم في تلك المضبة الملمومة يكون متشحاً سيفه القاطع الذي إذا مس الضريبة غمض مكانه . ومعه كذلك سهام عراض النصال تبرق كأنها جمر فإذا سلت ومسها أحد سمع لها خشفة كأنما ريح مرت فوق اسحل .

وأما عمرو ذو الكلب فيتحدث عن شخص أراد قتله فقال :

تمناني وأبيضَ مَشْرَفيا أشاحَ الصدر أُخْلِص بالصِّقال
وشُجراً كالرِّماح مسيرات كُسين دواخلَ الريش النسال
وأسمرَ مُجْنأً من جِلْدِ ثَوْرٍ أصَمّ مُفَلَّلاً ظُبَةَ النِّبال
فإيفاقي بِسَهْمِي ثم أرْمِي وإلا فالإباءةَ فاشتمالي (٢)

فسيفه المصقول منه بمكان الوشاح . ومعه نصال عراض الأوساط كسين بالريش وهو يتحصن بترس أسمر محدودب يكسر النصال ، فمن السهل إذن أن يرمى فإذا لم يكن رمى فإنما ذلك بقدر ما يهوى بيده إلى السيف ليمسك به !

وأما أبو جندب فهو مفتون بسيفه إلى حد بعيد فيقول :

تَسلُوا هذيلاً وسلوا عُليّا أما أسُلُّ الصارم البُصْريا (٣)

ولكنه يجيد أيضاً الرمى بالنبل فيقول :

إذا مَعْشَر يوماً بَغَوْني بَغَيْتُهم
بمُسْقِطةِ الأحبال فَقْماءَ قِنْطِرِ

---

(١) الديوان ٢ : ٩٨ ، ٩٩ قرد : شعره الذى تلبد ، أخذى : فى طرفه استخذاء من عطش ، الأعبل : المكان الذى فيه حجارة بيض كثيرة ، وشاحة : سيفا ، معابل : سهاما عراض النصال ، نجفا : عراض النصال والظبات ، اللفاع : اللحاف ، إسحل : شجر .
(٢) شرح أشعار الهذليين — ٢٣٥ مجنأ : أحدب ، مفللا : كاسرا ، ظبة : حد .
(٣) الديوان ٣ : عليا : من كنانة .

إذا أدركَتْ أولاهُمُ أخرياتُهمْ
حَنَوتُ لهم بالسَّنْدرى الموتَّر(١)

إذا أراد له قوم شرًّا جاءهم بداهية تسقط النساء ، فإذا اجتمعوا وأدركت أولاهم أخراهم فصاروا فى مكان واحد انحرف لهم ورماهم بالنبل السندرى .

وبعد فتلك هى صورة الذؤبان كما رسموها هم فى شعرهم ، وذلك هو حديثهم عن سلاحهم . وفى كل ذلك أعطونا فكرة كاملة عن حياة الصعاليك الذين تنكبوا الطريق ووقفهم الجوع ضد الموسرين . فإذا أردنا أن نلخص كل ما مر بنا قلنا : إنهم محاربون يجيدون حمل السلاح واستعماله ، فى قلوبهم بأس وفى أنفسهم شهامة .

تحدوا المجتمع وعاشوا بقوتهم لأنهم كانوا يؤمنون بها فقط . يكرهون الإملاق والملق فكانوا يورون على الجوع وتأبى نفوسهم العالية الهوان لهم .

(ب) عدوهم وفرارهم :

وبحديث العدو والفر تكتمل صورة صعاليك هذيل الذؤبان . والواقع أن اصطراع كل من البيئة الجغرافية والفقر أوجد لنا هؤلاء الذين استخدموا أرجلهم فيما كان الأولى بهم أن يستخدموا فيه الناقة أو الفرس . وهذا من غير شك يتصل بحياتهم الاجتماعية اتصالاً مباشراً ، وليس يغيب عنا بالطبع أن الرجل وما يأتيه من عمل إنما يخضع لمؤثرات تشترك فى تكوينه العضوى والنفسى جميعاً .

ولولا نظرنا إلى عدّائى هذيل على أنهم كائنات لا تستقل بأى حال عما يحيط بحياتهم لاستطعنا أن نلمس العلل الخفية التى من أجلها اشتهرت هذيل بالعدو وكثر فيها الفرارون كثرة ملحوظة حتى لقد قيل : ليس فى هذيل إلا شاعر أو رام أو شديد العدو(٢) . وقيل : إذا فاتك الهذلى أن يكون شاعراً أو ساعياً أو رامياً فلا خير فيه(٣) .

---

(١) الديوان ٣ : ٩٣٠ حنوت : انحرفت ورميت ، السندرى : ضرب من النبل .
(٢) الجاحظ فى البيان والتبيين ١ : ١٨٥ .
(٣) الأغانى ٢٠ : ٣٩ .

ووجود هذه الظاهرة الطريفة ترجع فى نظرى إلى ستة أمور هى :

١ — أن المنطقة التى سكنتها هذه القبيلة كانت وعرة المسالك كثيرة الجبال تضطر الضارب فيها إلى أن يوزع سيره بين الارتقاء والهبوط — وفى ذلك من المران لعضلات ساقيه ما يقويهما — وقد قرر أن الجبال تمنح سكانها سيقاناً حديدية تعين على تسلق المرتفعات(١) .

٢ — أن الذؤبان كانوا يجدون فى الاختباء بشعاب الجبل نجاة لهم والمطية تمنعهم من التسلل فيما به من ثنايا ضيقة ، فضلاً عن أنها قد تحدث من الجلبة ماينم عنهم ويهدى إلى مخبئهم .

٣ — أن الغزاة المتلصصين لم يكن يتاح لهم الهرب لو استخدموا فى غاراتهم النوق فقد تعوقهم عن إتمام الغزوة التى لا تحتاج إلى شىء كما تحتاج إلى السرعة والمباغتة .

٤ — أنهم كانوا فقراء ، فلم تكن لديهم خيل يكرون بها ، وإقليمهم بخاصة لا يعرف تربيتها على نحو ما قدمنا نظراً لجدبه .

٥ — أن مطاردة الأعداء لهم مران شديد على تقوية سيقانهم وزيادة سرعتها .

٦ — أن منطقتهم عرفت أصنافاً من الحيوان اشتهرت بسرعة العدو ، فكان اختلاطهم بها ومطاردتهم لها يعملان على تنمية طاقة العدو فيهم .

فإذا صح هذا كله أو بعضه على الأقل ، نرى كيف أصاب المبرد حين قال : وهذيل فيها سعى شديد ، وفى جماعة من القبائل التى كانت تحل بأكناف الحجاز(٢) ، فقد كان هؤلاء أيضاً معرضين لما تتعرض له هذيل . وقد روى أن الأصمعى قال : إنه اشتهر فى هذيل أربعون عداء(٣) فما بالك بمن لم يشتهر ؟ وفى قراءتنا لأخبار الصعاليك الغزاة نرى كيف كان كل واحد منهم سريع العدو ، خفيف الحركة جم النشاط .

---

(١) Semple : Influences of Geog. Environment; I. وشهر اليمانيون بدقة سيقانهم وقوتها لأن بلادهم جبلية .

(٢) الكامل — ٣٣٨ .

(٣) فحولة الشعراء (مخطوط بدار الكتب) ورقة ١٥ .

انظر مثلاً إلى أبي الفرج ، فهو يقول عن الأعلم إنه كان يعدو على رجليه عدواً لا يلحق ، ويروى أنه ورد ماء لبنى الديل وكانوا يطلبونه ، بينما ظل أخوه صخر ينتظره على مبعدة فلما طورد انفلت شداً ، وكان قد ترك سلاحه فى منتصف الطريق فأبى أن يتركه وعرج عليه وحمله دون أن يدركه أحد(١) .

بل يروى ما هو أطرف من ذلك ؛ يروى أن أبا خراش دخل مكة وللوليد بن المغيرة المخزومى فرسان يريد أن يرسلهما فى سباق ، فقال له : ما تجعل لى إن سبقتهما ؟ فأجاب : إن فعلت فهما لك . ثم أُرْسلا وَعدا أبو خراش بينهما فسبقهما ، فأخذهما(٢) فلا نعجب إذن حين يحكى عنه أنه كان ممن يعدو فيسبق الخيل ، وكان له أخوة عشرة اشتهروا جميعاً — كما رأينا — بالعدو السريع .

والحق أن الباحث لا بد أن يؤمن بطرافة هذه الأخبار بغض النظر عن صحتها جميعاً . ولا نظن أن أحداً يعمد إلى الزعم بأن فيها من المبالغة ما يقبله العقل ، فقد ظهر أن عوامل مادية ومعنوية كانت تربى فيهم هذه الخاصة وتعمل على نمائها ورعايتها . ولسنا على أى حال نصطنع أمراً لم يكن ، ولا نرضى أن نعترف بشىء لا يسنده دليل ، فإن عزّ لنا أن نبحث عنه ظفرنا به فى الشعر . فى شعر هؤلاء الذؤبان الذين كانوا يرون أن من مقومات شخصيتهم سرعة الفر وإجادة العدو . ولنقرأ أبيات أبى خراش التالية ، فهى تفسر لنا كثيراً مما نريد أن نقول :

لمـا رأيت بنى نفاثةَ أقبلوا   يُشْلون كلَّ مقلِّص خنّاب
فَنشِبت ريحَ الموت من تلْقائهم   وكرهت كلَّ مهند قَضّاب
ورفعتُ ساقاً لا يُخاف عِثارُها   وطرحتُ عنى بالعَراء ثيابى
أقبلت لا يَشْتَد شَدِّى واحدٌ   عِلجٌ أقبُّ مسيّر الأقراب

كان يغزوهم أو حاول ذلك ، ولكنه رآهم يدعون خيولهم فاشتم ريح الموت منهم ، ولما يشأ أن يهاجمهم وكره منهم سيوفهم القاطعة ، ولم يجد سوى

---

(١) راجع القصة كاملة فى الأغانى ٢٠ : ٢٠ .

(٢) الاغانى ٢١ : ٣٩ .

(٣) الديوان ٢ : ١٦٨و١٦٩ ، يشلون : يدعون ، مقلص : فرس طويل القوائم ، خناب : طويل ، نشبت : شممت ، علج : حمار وحشى قوى : أقب : ضامر ، الأقراب جمع قرب كقفل وهو الخاصرة ومسير الأقراب فيه خطوط .

ساقيه تبلغانه ما يريد ولا تخطئان سبيل الفرار ، وألقى ثيابه وراءه واندفع مسرعاً فلم يكن يشبهه فى العدو ذلك الحمار الوحشى السريع .

ويصرح فى موضع آخر بأنه لولا سرعة عدوه ، ومبادرته بالهرب من أعدائه لآمت امرأته ويتم ابنه خراش ، اسمه وهو يقول .

ولولا دِراكُ الشَّدِّ قاظتْ خليلتى تَخَيَّرُ من خُطَّابها وهى أَيِّم
فتقعدُ أو تَرْضى مكانى خليفةً وكاد خِراشٌ يوم ذلك يَيْتَم(١)

ويؤكد لامرأته فى موضع ثالث أن فراره نوع من الدهاء إذا لم يكن بدٌّ منه . إنه يحارب ما قدر على الحرب ، فإن لم يستطع أنجته قدماه ، يقول :

فإن تزعمى أنى جَبُنْت فإننى أَفِرُّ وأرمى مرةً كلَّ ذلكِ
أُقاتل حتى لا أرى لى مقاتلاً وأنجو إذا ماخفتُ بعضَ المهالكِ(٢)

ومالك بن الحارث كان يخرج للغزو كثيراً ، وكان يجمع غزاة هذيل يعينونه على ما يريد . وفى شعره إشارات قوية تحدد لنا خطوطاً بارزة فى حياة الصعاليك . وفى إحدى المرات نراه يعجب بنفسه كيف أسرع يفر حين هاجمه أعداؤه فما كان ثمة ما يسبقه إلا الطير .

فلا ينجو نجائى ثَمَّ حَىٌّ من الحيَوَاتِ ليس له جَنَاحُ(٣)

والأعلم معجب بذلك إعجاب مالك ، معجب بسرعة فرّه ونجاته ، يقول :

فلا وأبيكِ لا ينجو نجائى غداةَ لقيتهم بعضُ الرجال(٤)

وهو هو الذى يعلن فى صراحة — كأبى خراش — أن أعداءه حين تكاثروا عليه فرَّ منهم مسرعاً ، يقول :

بذلت لهم بذى شوطانَ شَدِّى ولم أبذل غداتئذٍ قتالى(٥)

---

(١) الديوان ٢ : ١٤٨ قاظت : أتت عليها قيظة أى صيفة .
(٢) الديوان ٢ : ١٦٩ .
(٣) الديوان ٣ : ٨٥ .
(٤) الديوان ٢ : ٨٣ .
(٥) الديوان ٢ : ٨٥ .

ولكن المسألة ليست فرًّا فقط ، إنما هنالك الكر أيضاً . اقرأ للأعلم وصفه لانقضاض جماعة من الذؤبان على رجل عرض لهم فى الصحراء :

ولو رفَّعتَ ثوبك فى خُروقٍ ترُوعك فى مَتهاَ لكبها الشُّدوف
تخاف لزامَ عاديةٍ ثعُولٍ كما يَنفجرُّ الحَوضُ اللقيفُ(١)

إنه يخشى هذه العادية الكبيرة وهى تندفع نحوه اندفاع الماء من حوض قديم رمم بالطين ثم تهدم وانفجر .

واقرأ لذى الكلب — أو لأبى خراش فى رواية أخرى — ماذا يقول وهو يقبل على عدوه :

أقبلت لا يشتد شدى ذو قدم وفى الشمال سمحة من النشم(٢)

فليس أحد يمشى على قدمين يجرى جريه !

وليس من بأس إذا تحدثوا عن عدوهم فوصفوه بسرعة الشد . فهم حين ينجون معه يثبتون لأنفسهم — بطريق غير مباشر — هذه الخاصة التى يزهون بها ، قال الأعلم :

لما رأيت القومَ بالـ ـعلياءِ ، دون قِدَى المناصبْ
وفريتُ من جَزَعٍ فلا أرمى ولا وَدَّعت صاحبْ
يغرون صاحبَهم بنا جَهْداً وأغرى غيرَ كاذبْ
أغرِى أبا وَهْبٍ ليعـ ـجزَهم ومدُّوا بالحلائبْ(٣)
مَدَّ المُجَلْجِلِ ذى العما ءِ إذا يُراحُ من الجَنَائبْ(٤)

---

(١) شرح أشعار الهذليين ٦٨ ، الخروق : جمع مفرده خرق (بفتح الخاء) فلاة تنخرق إلى فلاة ، الشدوف : الشخوص ، لزام : عذاب ، ثعول : لها زيادات بمنزلة الضرع الثعول أى الذى يكون فيه خلف يخرج منه اللبن ، اللقيف : الذى يصلح ثم لا يتحمل ما فيه من ماء فينفجر !

(٢) شرح أشعار الهذليين ٢٣٩ .

(٣) نفس المصدر ٥٤ قدى : قيد ، فريت : تحيرت ، الحلائب : الجماعات ، ذى العماء السحاب الرقيق .

(٤) نفس المصدر ٦٠ ، يراح : تصيبه الرياح .

يُغْرَى جَذِيمةُ والرِّدا ءُ كأنه بأقبَّ قارِبْ

حين رأى أعداءه وهم يغرون جذيمة العداء أسرع فلم يلحق به . ونلاحظ أنه يصف جذيمة وهو يجرى بحمار وحش يعدو . ويتحدث عن هذه الفرة في موضع آخر فيقول :

كرهتُ جَذيمةَ العبدى لما رأيتُ المرءَ يَجْهَدَ غيرَ آلى
وأحسِب عُرْفُطَ الزَّوْراءِ يُودِى
علىَّ بوَشْكِ رَجْعٍ واستلال
فلا وأبيكِ لا ينجو نجائى غداةَ لقيتهم بعضُ الرجال

فقليل من الرجال من يستطيع أن ينجو نجاءه ، فلقد كان جذيمة العداء خلفه ، ولكنه استطاع أن يسبقه ويعجزه .

ويقول أبو خراش بعد فراره من خزاعة :

فو الله ما رَبْداءُ أو عِلْجُ عانةٍ
أقَبُّ وما إنْ تَيْسُ رَبْلٍ مصمَّمُ

. . . .

بأجْوَدَ منى يوم كَفَّتُّ عادِياً
وأخطأنى خَلْفَ الثنيّةِ أسْهُمُ
أوائل بالشَدِّ الذَّليق وحثَّنى
لَدَى المَتْنِ مشبوحُ الذّرَاعين خَلْجَمُ
تَذَكَّرَ ذَحْلاً عندنا وهو فاتِكٌ
من القوم يَعْروه اجتراءٌ ومأثَمُ
فَكدت وقد خَلَّفْتُ أصحابَ فائدٍ
لدَى حَجَرِ الشّغْرَى من الشَّدِّ أكْلَمُ(١)

---

(١) الديوان ٢ : ١٤٧ وما بعدها وربداء : نعامة ، عانة : قطيع من حمر الوحش ، وربل : نبات ، كفت : أسرعت أوشمرت ثيابى ، مشبوح : عريض ، خلجم : طويل ، ذحلا : ثأراً ، حجر الشغرى : قرب مكة .

وفائد هذا رجل من خزاعة كان يطلب أبا خراش فلما رآه عدا بأصحابه خلفه، ولكنه تمكن من ان ينجو برغم أن مطارديه اقتربوا منه حتى صار أحدهم عند ظهره، كل ذلك والسهام تنهال حوله فتخطئه.

وهكذا يطول بنا الحديث عن فرار هذيل. ولذا فقد يكون من الخير لنا أن نكتفى بهذا الحد خاصة وقد وضحت الصورة التى أردت أن أرسمها لذؤبان القبيلة. وقد لا تعجب بعد ذلك حين ترى هذه الظاهرة عند فريق من الوادعين. إلا أن هذا لا ينقض ما زعمناه من أن سرعة الفَرّ ميزة يمتاز بها الذؤبان لأنها أقوى عندهم وأظهر وأكثر شيوعاً فى شعرهم.

وإتماماً للحديث هناك مسألتان يجب أن نقف عندها قليلاً. أما الأولى فعن عناية الذؤبان بثيابهم والتحدّث عنها وهم يجرون، وأما الثانية فعن مقارنة أنفسهم بأصناف الحيوان السريعة.

ومما قيل عن الثياب ما سجّله حبيب الأعلم من أن ملاءته لفرط سرعته لم تكن إلا على ظليم يعترض فراخ النعام، قال:

كأن ملاءتىّ على هِزَفٍّ يَعُنُّ مع العشية للرِّئال(١)

بل هو يشبه خفقان جناحى هذا الظليم وهو يعدو بملاءة جديدة ليست بالية، أنشد:

كأن جَنَاحه خَفَقان ريح يَمَانِيَة بِرَيْطٍ غير بالى(٢)

وينظر إلى جذيمة وهو يعدو خلفه فيقول إن رداءه كأنما كان بأقب يطلب الماء:

يُغرى جَذيمة والرداء وكأنه بِأقبَّ قارب

وأما صخر الغَىّ فلا يقف عندما وقف عنده الأعلم، وإنما هو يصوِّر نفس حركة الثياب وذلك فى قوله:

---

(١) الديوان ٢ : ٨٣ هذف : ذكر النعام، يعنى بضم العين (هذلية) وغير هذيل ينطقها بالكسر، الرئال : جمع واحده رأل وهو فرخ النعام.

(٢) الديوان ٢ : ٨٤.

ترى عَدْوَه صُبْحَ إقوائه ... إذا رَفَعَ المأبضان الحشيفا(١)

وأبو خراش أدق من الجميع ، فهو يصور حركة دريسه تصويراً جميلاً ، فيقول :

فَعَدَّيْت شيئاً والدَّرِيسُ كأنما
يزعزِعه وِرْدٌ من المُوم مِرْدِمِ(٢)

وكنا قرأنا له قبل أنه قال :

ورفعت ساقاً لايخاف عِثارها ... وطرحت عنى بالعراء ثيابى

فنرى أنه يضيق بثيابه لأنها تعوقه عن العَدْوِ فلا يجد بُداً من التخلص منها ، وفى موضع آخر يقول :

وعادِيةٍ تُلْقِى الثياب وَزَعْتُها
كَرِجْلِ الجرادِ يَنْتَحِى شرَف الحَزْمِ(٣)

وأما ما قالوه عن الحيوان فى مقارنة أنفسهم به فكثير جداً ، فتارة يكون المقارن به حمار الوحش ، وتارة يكون الظليم ، وتارة يكون العقاب . فصاحب صخر الغى مثلاً كدر تعضه فى بعض عروقه الحمر فينفلت مسرعاً ، أنشد قائلا على ما رأينا :

ويعدو كعدو كدر ترى ... بفائله ونساه نسوقا

وكنا من قبل قد رأينا أبا خراش يقول :

أقبلت لا يشتد شدى واحد ... علج أقبْ مسيَّر الأقراب

كما لانزال نذكر ماقاله حبيب الأعلم من أن رداءه لم يكن إلا فوق حمار وحشى يعدو مسرعاً إلى الماء مشبهاً به نفسه ، وما قاله عن المزف الذى يعن للرئال ، وهذا أبو خراش يترك هذا الحيوان ليقول :

---

(١) شرح أشعار الهذليين ٤٨ ، المأبضان : باطنى الركبة ، الحشيف : الثوب الخلق .

(٢) الديوان ٢ : ١٤٤ ، الدريس : الثوب الممزق ، الموم : الحمى ، مروم : ملازم .

(٣) الديوان ٢ : ١٣٥ وزعتها : كففتها ، ينتحى ، يقصدله ، شرف : عالى ، الحزم : الحزن أى المكان الغليظ .

كأنى إذ عَدَوا ضَمَّنْتُ بَزِّى من العِقْبان خائتةً طلوبا
جريمةَ ناهضٍ فى رأس نِيقٍ تَرَى لعظام ما جمعت صليبا
رأت قنصاً على فَوْتٍ فَضَمَّتْ إلى حَيْزومها ريشاً رطيبا(1)

يشبه نفسه بعقاب قائلاً : كأنى ألبست بسلاحى عقاباً من فرط سرعتى ، ويصف هذه العقاب بأنها منقضة تطلب الصيد . ولكنه لا يقنع بالعقاب نظيراً فيقول فى موضع آخر .

فواللهِ ما ربداءُ أو عِلْجُ عانةٍ أقبُّ وما إنْ تَيْسُ رَيْلٍ مُصمِّم
وبُثَّت حِبالٌ فى مَرادٍ يَرُودُه فأخطأه منها كِفاف مخزَّم
يَطيحُ إذا الشَّعراء صاتت بجَنْبِه كما صاح قِدْحُ المستفيضِ الموشَّم
كأن المُلاءَ المَحْضَ خلْفَ ذِراعِه صُراحِيُّه والآخنى المتحَّمُ
تراه وقد فات الرُّماةَ كأنه أمام الكِلاب مُصْغِى الخَدِّ أصْلَم
بأجْوَدَ منى يوم كفَّتُّ عادِياً وأخطأنى خلْفَ الثنيَّة أسهم(2)

يقسم أن لا شىء مما ذكر أسرع منه . فلا النعامة ولا الحمار الوحشى ولا الظبى الذى يركب رأسه أسرع منه . ويقف طويلاً عند هذا الظبى ويروح يتعقبه فى مراده ، ويذكر كيف أخطأه فيها كفاف الصياد فجرى والذباب يصوت عند أذنيه ، وقد فات الرماة فكأنه من شدة ماصر أذنيه ليستمع أصلم .

وقد صور القوم وهم يعدون خلف ابنه بطائر خفيف ، وذلك حين يقول :

(1) الديوان ٢ : ١٣٣ خائتة : منقضة ، جريمة ناهض : كاسبة فرخ ، نيق : شمراخ بالجبل ، صليبا : وسا ، قنصا : ما يصاد ، حيزومها : صدرها .

(2) الديوان ٢ : ١٤٥ وما بعدها ، ومراد يروده : مسرح يسرح فيه ، كفاف : واحده كف أى ما يصاد به يجعل كالطوق ، مخزم : منظم ، الشعراء : الذباب ، المحض : الأبيض ، الآخنى : ثوب الكتان المخطط ، مصغى الخد : مميله للاستماع ، أصلم : مستأصل الأذن .

كأنهم يشّبّثون بطائرٍ
خفيف المُشاشِ عَظْمه غيرُ ذى نحْضِ
يبادر قُرْبَ الليلِ فهو مُهابذٌ
يَحُثُّ الجناح بالتبسُّطِ والقَبْضِ (١)

فالقوم الذين يعدون خلف خراش كأنهم فى سرعتهم يتعلقون بطائر خفيف قليل اللحم يسرع حين يقبل الليل عليه، ويحث جناحيه ببسطهما وقبضهما.

وبعد، فقد وقفنا طويلاً هنا. فليس يسعدنا والأمر كذلك إلا أن ننتقل إلى شيء آخر، له اتصال بحياة الذؤبان، وتناوله شعرهم بتفصيل وإطالة.

(حـ) حديث المراقب:

كان الذؤبان لا يقرون أبداً، لأن الحياة عندهم عمل مستديم، وكانوا حذرين فى كل خطوة يخطونها، ولما كانت منطقتهم جبلية فقد وجدوا فى مرتفعاتها ما يعينهم على إتمام مغامراتهم، واتخذوا قممها العالية مراقب يرصدون منها أعداءهم، حتى يستطيعوا أن يوجهوا إليهم ضربتهم فى الفرصة الملائمة.

قال عمرو ذو الكلب يصف إحدى المراقب وصعوده إليها وجلوسه فيها:

وَمَرْقَبَةٍ يحارُ الطَّرْفُ فيها تُزِلُّ الطيرَ مُشْرِفَةِ القَذَالِ
ولم يشخصْ بها شَرَفى ولكن دنوت تحدُّرَ الماء الزُّلالِ
اقمت بِرَيْدها يوماً طويلاً ولم اشرف بها مِثْلَ الخيالِ
ومقعدِ كَرِبَةٍ قد كنت فيها مكانَ الإصبعَيْن من القِبَالِ(٢)

المرقبة تحار العين فيها من بعدها، فهى قمة عالية ولكنى — كما يقول — لم أرهبها ولم يشخص بها بصرى، وعرفت طريقى لها فكنت كالماء الذى يهتدى لمنحدره، وفيها اقمت مستتراً، ولم أشرف، بل ظللت على الأرض كأنى خيال، ولما توسطتها كنت كقبال النعل حين يتوسط الإصبعين.

---

(١) الديوان ٣ : ١٥٩. خفيف المشاش: ليس بكثير اللحم، نحض: لحم، مهابذ: جاد ناج.

(٢) شرح أشعار الهذليين ٢٣٧ وفى مصادر أخرى تروى الأبيات بتغيير طفيف.

وأما أبو كبير فالصورة التي يرسمها لمرقبته أشمل وأكثر وضوحاً ، فهو يقول :

وَعَلَوْتُ مُرْتَبِئاً على مَرْهوبة
حَصَّاء ليس رقيبُها في مَثْمِلِ

عيطاءَ(١) مُعْنِقَةٍ يكون أنيسها
وُرْقَ الحمامِ جميعُها لم يؤكلِ

وَضَعَ النعاماتِ الرِّجالُ بِرَيْدها
من بين شَعْشاع وبين مظلّلِ

أخرجتُ منها سِلْقَةً مهزولةً
عجفاءَ يبرُقُ نابها كالمِعْولِ

فهي مرقبة يرهب أن يرقى إليها ، ولا نبات بها ، وليس بمأمن الرقيب فيها . وهي مشرفة طويلة العنق لا يؤنسك فيها إلا الحمام الأخضر الذي لا يأكله أحد لأنه أبعد من أن يصل إليه إنسان . أما الرجل فقد وضعوا فيها النعامات يستظلون بها .

ومرقبة أبي خراش كمرقبة أبي كبير ، إلا أنه لم يكن فيها وحيداً ، وإنما كان معه صاحب أبي إلا أن يكون من الذؤبان :

لست لِمُرّةَ إن لم أوفِ مَرقبَةً
يبدو ليَ الحرفُ منها والمقاضيبُ

في ذات رَيْد كذَلقِ الفأس مشرفةٍ
طريقُها سَرَبٌ بالناس دُعْبوب

لم يبقَ من عرشها إلا دعامتُها
جِدْلان منهدمٌ منها ومنصوب

---

(١) الديوان ٢ : ٩٦ وما بعدها ومرتبئا : كنت ربيئة القوم ، حصاء : ليس فيها نبات ، عيطاء : طويلة العنق ، معنقة: طويلة ، النعامات : مفردها نعامة وهي كل بناء على الجبل كالظلة .

بصاحبٍ لاتُنالُ ، الدَّهرَ غِرَّتُه
إذَا افتَلى المدَفَ اليقنَّ المعَازيب

بعثتُه بِسوادِ الليل يرقُبنى
إذ آثرَ النومَ والدفءَ المناجيب(١)

وهذه المرقبة فى نتوء بجبل كأنه حدّ فأس ، ويشرف على طريق كأنه النفق يتسرب فيه الناس واحداً واحداً . وأقيم فيها عرش لم يبق منه إلا عودان أحدهما قائم والآخر ساقط على الأرض . وكان معه صاحب عزيز قوى النفس . لم يرض بحياة الدعة وأبى أن يكون عبداً أو خادماً للناس ، وآثر أن يكون ذئباً يرصد فريسته من فوق المراقب والدنيا ظلام والليل موغل ، فهو يرفض هذه الراحة التى يحبها الضعاف !

وبعد ، فإن حديث المراقب يذكرنا بأحاديث مغامراتهم ، وما كانوا يتعرضون له من أخطار وهم يغزون . وقد تكلمنا عن ذلك كثيراً فى أحد فصول الباب الأول ، وأخشى أن أعود إليه فيكون فى عودى هذا تكرار لاداعى له ولا جدوى وراءه . ولذا فأنا أكتفى بما قلت ، شاعراً أن صورة الصعاليك الذؤبان قد كملت خطوطها على النحو الذى رجوته ، غير أنى أقف قليلاً عندما يقول مالك بن الحارث فهو نوع من التذكير والتلخيص :

تقول العاذلاتُ أكلَّ يوم   لرَجلة مالكٍ عنُقٌ شِحاحُ
كذلك يُقتَلون معى ويوماً   أئوبُ بهم وَهُم شُعثٌ طِلاح
ويوماً نقتل الأبطال شَفْعا   فنتركهم تَنُوبُهمُ السِّراح

فمالك يصور حياة هؤلاء الغزاة تصويراً صادقاً ، فكل يوم يخرجون على أقدامهم ويسعون سعياً شديداً ، ولكنه لايعود بهم أبداً كما خرج ، فتارة يقتلون ، وتارة يرجع بعضهم وهم شعث متعبون ، وطوراً ينجحون فى قتل هؤلاء الذين يسيئون لهم فيدعونهم تتخطف جثثهم الذئاب .

---

(١) الديوان ٢ : ١٥٩ و١٦٠ أوف : أشرف ، المقاضيب : مواضع القت ، ريد : حرف ناتئ فى الجبل ، سرب : شائع ، دعبوب : موطوء ، عرشها : يوضع فوق الدعامة ثمام أو شىء يستظل تحته ، جذلان : عودان ، افتلى : عزل ، المدف : الوخم الثقيل ، المعازيب : الإماء ، المناجيب : الصغار .

وحين غزا بأصحابه بني جذيمة قال :

كرهتُ بني جَذيمةَ إذ ثَرَوْنا　　قَفَا السَّلَفينَ وانتسبوا فباحوا
فأما نصفُنا فنجا جَريضاً　　وأما نصفُنا الأوفى فطاحوا
وقد خرَجَت قلوبُهمُ فماتوا　　على إخوانهم وهُمُ صِحاح (١)

نعم كرههم لأنهم زادوا عليه عدداً ، وحين عرضوا لأنسابهم تكلموا كثيراً ، وأما نحن — على مايقول هو — فقد وقفنا أمامهم ، ولكننا حين عدنا كان معظمنا قد قُتل ومن رجع كان يغص بالريق وقد خرج قلبه حزنا .

وهذه هي النهاية دائماً ، وقلما كانت تتغير . ولو قرأنا في الأغاني أخبار زهير بن مرة ، وعروة وعمرو وأخويه نرى أن القتل كان آخر شيء في حياتهم . وروى أن من نجا من القتل فقد كانت حياته تمتد إلى الإسلام ، ولذا وجدنا طائفة من ذؤبان هذيل يسلمون فيحسن إسلامهم كأبي خراش وأبي كبير .

على أنا إذا تعمقنا شعرهم في تلك الآونة نجده قد خلا تماماً من موضوعاته التي حفل بها يوم لم يكن هناك قانون سوى القوة ، فكتاب الله غيرَّ أوضاع الحياة ، ولم يعد للذؤبان مجال للعمل . وكذا نحصر شعرهم في تلك الموضوعات العامة التي يعرض لها الشعر العربي في كل زمان .

ومع ذلك فلا نملك أن نميز الجاهلي من الإسلامي في شعرهم أحيانا ، فقد يحدث أن يتكلموا في أشياء لا تمس حياتهم فلا ندري أقيلت هذه في جاهليتهم أم بعد ما أسلموا ؟ إن ما يرويه الرواة لا يكفي مطلقاً لمعرفة الوقت الذي قيلت فيه ، ومن ثم يصعب أن نحدد لها تاريخاً معيناً ، يعيننا على مانهدف إليه في كثير من الأحيان .

---

(١) الديوان ٣ : ٨١ ، ثرونا : كثرونا أي صاروا أكثر منا ، قفا : أي بقفا ، السلفين : موضع ، انتسبوا : كشفوا عن أنسابهم ، جريضا : غاصا بريقه من الجهد ، الأوفى : الأكثر .

— ٣ —

المعانى المشتركة فى شعر الفريقين

وأريد بها تلك الموضوعات التى التقى عندها شعراء هذيل جميعاً ، دون أن نعنى بفريق بالذات أو شاعر بعينه . وأول مايلاحظ فيها أنها لم تكن كثيرة ، فهى لا تعدو أن تكون رثاءووصفاً للحيوان . وقد نرى بضعة أمور يشتركون فيها أحياناً كوصف البرق والمطر إلا أنها لم تكن مطردة عند الجميع ، فلقد تحدث صخر الغى عن الأنواء ووصف البرق ، وفعل ذلك أبو ذؤيب وساعدة ابن جؤية ومليح . ولكننا لا نرى غير هؤلاء يفعلون ذلك إلا عرضاً دون أن يتفرغوا له . ثم قد نرى الجميع يشتركون فى الحماسة ، إلا أن الاتجاه العام فيها يختلف ، فحماسة من عاش فى توافق مع قبيلته ذات لون جماعى وحماسة الذؤبان ذات لون فردى ، ومن ثم لم يكن ثمة وجه للجمع بينهما .

(أ) الرثاء :

شيئان متلازمان فى شعر هذيل يصادفهما القارئ فى كل وقت ، ويلتقى بهما فى كل قصيدة تقريبا ، ويحس خلالهما كيف أن حياتها المملوءة بالمشقةوالحرمان، ونظرتها المفعمة بالحدب على الوجود وما فيه تعدانها إلى التخصص فيهما وإجادتهما ، بل كذلك إلى النبوغ فيهما فى أكثر الأحيان .

أما أحد هذين الشيئين فهو الرثاء ، والآخر هو القصص الحزين الذى نراه دائما فى اثناء قراءتنا للرثاء فيكمله ويعطينا صورة وصفية فى إطار حى جميل .

والرثاء من حيث هو ظاهرة واضحة فى شعرهم يتصل بحياتهم اتصالاً قويًا . وكانت هذه الحياة فى الوانها المختلفة صراعا مستديما . . صراعا فى سبيل العيش . وصراعاً فى سبيل حاجات أدبية يعتز بها العربى ويخلص لها . فكان كل مايصادفهم فى أثناء صراعهم يتشابك ويتداخل ليجرى فى مجرى واحد تنصهر فيه مشاعرهم بلهيب الأسى والحزن .

لقد كانوا فى جملتهم يعيشون قرب مناطق الغنى — على نحو ماقدمنا — ولم يكن يتاح لهم أن يقروا فى بلد كالطائف مثلا ، فاستشعروا نوعا من الحرمان

ظهر فى شعرهم وهم يتحدثون عن ريب الدهر ، وصراعه لهذه الشخوص قبل أن تأخذ نصيبها من النعيم :

فالدهر لا يبقى على حَدَثانه
أنَسٌ لفيف ذو طوائف حَوْشَب
فى مجلس بيضِ الوجوه يَكُنُّهم
غابٌ كأشطانِ القَليب مُنَصَّب
متقارب أنسابهم وأعِزَّة
تُوقَى بمثلهمُ الظُّلام وتُرهَب
* * *
بَيْنا همُ يوماً كذلك راعَهُم
ضَبْرٌ لباسُهم الحديدُ مؤلَّب(١)

نعم كانوا محرومين ، فاضطربوا بين ماض مؤلم ومستقبل مظلم ، وثار فى فؤادهم محيط من الأشجان . وجدوا له متنفسا فى الشعر الحزين فاستعبروا على كل بأس يدب على الأرض أو يحلق فى السماء .

هذا شيء يستطيع — إلى حد ما — أن يفسر لنا نبوغهم فى الرثاء ، ولكنّ هناك شيئاً آخر أكثر دلالة على هذا النبوغ هو اصطراعهم المستديم وما ينجم عنه من وفيات . لقد كان المجتمع كله يحارب ويغزو فتعددت أيامهم ، وكان الفردُ يحارب ويغزو فَشَذّ الكثيرون . ووجدنا حياتهم كلها نضالاً ، يبذلون فى سبيله دماءهم وأرواحهم فكان عند هذه العشيرة فى كل يوم مفقود أو أكثر ، وعند تلك العشيرة قتيل أو أكثر ، ومن ثَمّ بكوا وأظهروا الجزع ورثوا من كان يودع أسباب الحياة .

وكذا كانت أيامهم معرضاً يستثير حزن القلب ويستنزف دمع العين ، فانطلقوا يقولون الرثاء عن كآبة صادقة ، وجزع عميق ، وشجن لا حد له .

(١) الديوان ١ : ١٨٣ وما بعدها .
أنس لفيف : جمع كثير ، حوشب : كبير أو منتفخ الجنبين ، يكنهم : يظلهم من الشمس ، غاب : أجم يعنى الرماح كأنها أجم من كثرتها ، منصب : مركوز ، القليب : بئر ، أشطان : حبال ، ضبر : جماعة ، مؤلب : مجمع من كل مكان .

من هنا نفهم إجادتهم هذا الفن وشيوعه عندهم ، حتى ليخيل إلىّ أنه كان في المرتبة الأولى عندهم لا يعدلون به فناً آخر. فإذا كان الأمر كذلك فهل تبعوا فيه أسلوباً معيناً ؟ أعني هل كان لهم اتجاه خاص في قصائد الرثاء ؟

اقرأ في الديوان لامية ساعدة بن جُؤَيّة في رثاء ابنه ، ومطلعها :

لعمرك ما إن ذو ضِهاءٍ بهيّنٍ علىّ وما أعطيتُه سَيْبَ نائل(١)

وذو ضهاء هذا موضع دفن فيه ولده ، فلم يهن عنده ، وما كان في وسعه هو أن يعطيه عطية من يهب وينيل . ونلاحظ أنه يبدأ بذكر فجيعته بلا أي تمهيد ، ولسنا نرى لذلك أي تعليل ، وما كنا لنزعم أنه فعل هذا لأنه منصرف فقط إلى أساه ، فلطالما وجدنا غيره أكثر أسى في رثاء قدموا له بتقديم .

ولو تتبعنا أبيات القصيدة بعد ذلك وجدناه يتكلم عن منزلة ابنه في نفسه وكيف لا تعد له أناعيم الأرض جميعا :

ولو سامَنِي المالِني مكانَ حياتِه أناعيمَ دَهْرٍ من عِبادٍ وجامل

* * *

لقلتُ لدهرِي إنه هو غُزْوتي وإني وإن أرغبتَني غيرُ فاعِلِ

فلو سامه الدهر وعرض عليه صنوفاً من النعيم نظير ابنه لأبى واختاره ، فهو وحده غزوته ، وهو فقط من يطلب ويريد.

ثم اقرأ فائيته في رثاء جندب ابن عمه ، ومطلعها :

ألا يا فتىً ما عبدُ شَمْسٍ بِمِثْلِه

يُبَلُّ على العادِى وتُؤْبَى المخَاسِف(٢)

فهو هنا يندبه . . يبدأ قصيدته بذلك ، ثم يفجؤنا بأنه هو الرجل الذى بمثله يغلب العدو ، ويقضى على الضيم . فلا يمنحنا أية فرصة نستعبر فيها عليه ، فنفهم بذلك أنه لا يريد إلا أن يتحدث عنه لا عن حزنه على وفاته . أو نفهم — بعبارة أخرى — أنه يريد تأبينه . استمع إليه يقول بعد ذلك :

(١) الديوان ٢ : ٢١٨ .
(٢) الديوان ١ : ٢٢٢ .

هو الطِّرفُ لم تُحشَشْ مَطِىٌّ بمثلِهِ
ولا آنَسٌ مستوبِدِ الدّارِ خائـف

أجل هو كريم — وهى صفة لكل مرثى تقريباً — ولكنه معدوم النظير، وما كانت مطى تساق بمثله أو تخاف دار وهو فيها، ويقوده ذلك إلى أن يتحدث عن شجاعته وبأسه فيفعل حتى يقف ليقول لمن قتلوه :

فإن ابنَ عَيْسٍ قد علِمْتُم مكانَه
أذاع به ضَرْبٌ وطعنٌ جوائف

فهو يزهو به، ويضعه فى مكان رفيع يعلن عنه ضرب السيوف وطعن النصال .

فواضح أنه فى هاتين القصيدتين قد اتجه اتجاهاً واحدا لم يغيره فى إحداها . ولكن اقرأ داليته التى يرثى فيها رجلا يقال له ابن أبى سفيان وأولها :

ألا بات مَنْ حَوْلى نياماً ورُقَّداً
وعاوَدَنى حزنى الذى يتَجَدَّد
وعاودَنى دِينى فَبِتُّ كأنما
خلال ضلوع الصدر شِرْعٌ مُمَدَّد(١)

وهنا نشعر أنه خالف الاتجاه الأول فترك المبيت قليلاً وانصرف إلى نفسه يحدثنا عنها ويكشف عن جزعها وهمومها . وهو يستمر ستة أبيات أخرى حتى يقول :

تذكرتُ مَيْتاً بالغَرابةِ ثاوياً
فما كاد ليلى بعد ما طال ينفَدُ

يلتفت بذلك إلى ابن ابى سفيان، ويصور حزنه عليه، وكيف أن ليله لا ينتهى . . . وليل الأحزان دائماً طويل ! وهو بهذا يفتح الباب للتأبين وذكر محاسن الميت، ويظل كذلك حتى يقول :

---

(١) الديوان ١ : ٢٣٦ دينى : ديدنى ودأبى أو حالى التى كانت تعتادنى ، الشرع : الوتر كأن لصدره أوتاراً لها رنة حزن .

أرى الدهرَ لا يبقى على حدَثانه

أبود بأطرافِ المنَاعةِ جَلْعَد

فنعلم انه ترك كل شيء ليقص علينا قصة عن ريب الدهر ، وفجيعة الزمن ، وقسوة القدر حين لا يدع أحداً يسعد فى هذه الحياة . وبطل القصة وعلٌ أبود اتخذته الأيام محكاً لبلائها ، وقد تبعه حتى قصده الصياد فرماه من قوسه :

فَجَال وَخال أنه لم يَقَعْ بِه

وقد خلَّه سَهْم صَوِيبٌ مُعَرَّد

لقد ظن الوعل أنه لم يُصَبْ إذا أسكره الألم ، ودخل فيه سهم نفذ منه . وهذه هى الحياة دائماً !

وعلى أى حال فقد رأينا ساعدة بن جؤية فى رثائه يأخذ طريقين مغايرين ولكنهما يلتقيان عند شيء واحد هو حزنه على الراحل .

فإذا تركناه إلى أبى ذؤيب رأيناه يرثى نُشَيْبَة بلامية يبدؤها هكذا :

يقولون لى : لو كان بالرَّملِ لم يمت

نُشَيْبة والطُّرّاق يكذب قيلُها(١)

ونرى أنه معنى بنشيبة منصرف عما عداه فيلتقى بذلك مع ساعدة حين سلك سبيله الأول . واقرأ البيت التالى :

ولو انى استودعتُه الشمسَ لارْتقَتْ

إليه المنايا عينُها وَرَسُولها

ستحس أنه ينحو نحو ساعدة حين بدأ يصف حزنه ببيته :

ولو سامنى المـانى مكان حياته أناعيمَ دهرٍ من عباد وجاملِ

نعم انصرف ساعدة إلى أساه حتى انتهى من قصيدته وقد دلى الراحل فى قبره .

(١) الديوان ١ : ٣٣

وفى رائيته التى يرثى بها بعض هذيل — وكانوا جيراناً لسُليم فغدرت بهم — يقول فى أولها :

ويلُ أم قَتْلَى فُوَيْق القاعِ من عُشَرٍ
من آل عُجْرة أمسىَ جَدُّهم هُصِرا(١)

فنجد أنه يذكر المرثين فى أول القصيدة فيكشف لنا أنه لا يهتم بسواهم ، فإذا ذكرهم بالخير بعد ذلك فإنما لأنها عادة الشعراء فى التأبين . وله دالية فى رثاء ناس من قبيلته يبدؤها هكذا :

أعاذلُ إنَّ الرُّزْءَ مثلُ ابنِ مالكٍ
زُهَيْرٍ وأمثالُ ابنِ نَضْلَةَ واقِد
ومثلُ السَّدوسيين سادَا وذبذَبا
رجالَ الحجازِ من مَسود وسائد

فيعلن فجيعته فى زهير وواقد والسدوسيين ، وهو فى ذلك لا يمهد ولا يقدم . ولم يكن به حاجة ليفعل فالمصيبة كبيرة والخطب جلل ، وليس شىء يعدل فقدهم . وفى القصيدة نراه معنياً بصفة خاصة بالسدوسيين فيصفهما بقوله :

أقَبَّا الكُشوحِ أبيضانِ كلاهُما كعالِية الخَطِّىِّ وارِى الأزاند(٢)

امتدحهما بضمور الخصرين كناية عن خفتهما ونشاطهما وجلدهما على الحياة ، وعبر عن إشراق وجههما بأن قال هما أبيضان ، ثم صرح بأنهما ممن يطلب عندهما الخير فيصاب ، فالرغيبة لديهما سهلة ، وهما للناس سند وقوة .

وهذا شىء مألوف فى الرثاء وعكوفه عليهما ليس بالجديد ، ولكنه يريد بعد ذلك أن يتكلم عن نفسه هو . عن حزنه على من مات ، وجزعه البالغ فهو مزلزل الفؤاد مطير اللب ، وبناته يشاركنه أساه فهن يضربن خدودهن بالنعال :

---

(١) الديوان ١ : ٤٤ .

(٢) الديوان ١ : ١٢٠ ، ١٢١ .

وقام بنـاتى بالنعال حواسراً   وألصقن ضربَ السّبت تحت القلائد

على أنا إذا تركنا هذه المرثية إلى رائيته التى يرثى فيها نشيبة نجده يبدؤها بهذا البيت التالى :

هل الدهر إلا ليلةٌ ونهارُها   وإلا طلوعُ الشمس ثم غِيارها(١)

وندرك أنه فى سبيل تقديم طويل . فما الدهر ؟ بل ماحياة الإنسان جميعاً ؟ أهى أكثر من ليلة يعقبها نهار ؟ وهل الدهر إلا شمس تشرق وأخرى تغيب ؟ وما فى وسع المرء أن يجد بعد ذلك ؟ هل يخلد ؟ أيعيش إلى الأبد ؟ إن كل شىء إلى زوال وفناء ، وكل شىء دائم التغير والتحول .

وكأنما حين يقف على ذلك تعصف به الذكرى فيتذكر حباً له عصفت به الأيام ويعرض لصاحبته التى تدعى أم عمرو ، ويتكلم عنها بأبيات اولها :

أبى القلبُ إلا أمّ عمرٍو وأصبحتْ   تحرّقُ نارى بالشكاة ونارُها

ثم يروح فى حديث طويل — طويل جدًّا — يتكلم فيه عنها وعن حبه لها ، ويصف حسنها وجمال ثغرها وكيف أنه ألذ مذاقاً من الراح المعتقة ، ولا بأس إذا حدثنا عن هذه الخمر وكيف جلبت حتى وصلته هو ويتكلم عنها ثانية فيقول : إنها إن كانت قد هجرتنى ..

فإنى جديرٌ أن أودِّع عهدها   بحمدٍ ولم يُرفع لدينا شَنارها
وإنى صبَرتُ النفس بعد ابن عنبسٍ   نُشَيبة والهَلْكى يَهيج ادِّكارُها

فيصل بهذا إلى غرضه بعد أن طال به السرى . يقف عند من يريد أن يرثيه ويبكيه فقد هاجته ذكراه ، وذكرى الهلكى دائمة الوثوب. وذلك لكى يطمئن إلى ما يريد ومن ثم يبدأ فيصف نشيبة فيقول :

وذلك مَشْبوح الذراعين خَلجَم
خَشُوف إذا ما الحرب طال مِرارها

ضروبٌ لهامات الرجال بسيفِهِ
إذا عُجِمتْ وسطَ الشئونِ شِفارها

(١) الديوان ١ : ٢١ .

بضربٍ يقضُ البيضَ شـدَّةُ وقْعِهِ
وطعنٍ كركْض الخيْل تُفلَى مِهارُها

أجل، فنشيبة طويل عريض، إذا ثارت الحرب مر فيها مروراً سريعاً وقصد إلى خصمه يعالجه بسيفه ليصرعه. والحق أن هذا الرجل ذو بأس شديد ففى الوقت الذى تضرب فيه السيوف وتعلوه وتهبط بين الرءوس نراه يسلط سيفه على هامات الرجال فيصرعهم. وما أشد ضربه فهو يمزق البيض !! وما أقسى طعنه فهو يدفع بالدم حتى لكأنه فى سرعة خروجه ركض أفراس فصلت عنها أولادها فأنشأت تذب عنها بأرجلها وتدفع من يبغى بها شراً.

وكذا يمضى وئيداً حتى ينتهى، فإذا كل معانيه لاتخرج عما هو مألوف. فإذا انتقلنا إلى عينيته التى يرثى بها أولاده والتى عدها الدارسون من عيون الرثاء نراه يستهلها بقوله:

أمِنَ المنون وريبهـا تتوجَّـع والدَّهر ليس بمُعْتِبٍ من يَجزع[1]

وكما نرى فهو لايذكر اولاده فيه، وإنما هو يمهد لذكرهم بأبيات أولها ذلك المطلع فلم يتوجع؟ وممّ يشكو؟ أمن الدهر؟ وهل الدهر يرفق بمن يجزع؟ إنه ليس بمراجع من جزع منه بما يحب.

قالت أميـةُ : ما لجسمِك شـاحبا
منذ ابتُذِلْـتَ — ومثلُ مالِكَ ينفع
أم ما لجنبِـك لا يلائم مَضْجعاً
إلا أقضَّ عليـك ذاك المضـجَع
فأجبتُـهـا أنْ ما لجسمِـىَ أنه
أوْدَى بنىّ من البـلادِ فودَّعُـوا

وكذا يصل إلى مايريد. لقد جعلت امرأته تسأل لماذا تغير وعاد مهزولا شاحباً لايكاد يقر على فراش فقال: إن ماترينه من هزال وشحوب وضعف

(١) الديوان ١ : ١ سنلحظ فى القصيدة ثلاثة مشاهد عبر فيها الشاعر عن حزنه لوفاة أبنائه فى الطاعون. والمشاهد تكشف عن تسلط القدر الذى لم ينسه كل شعراء الجاهلية حتى وهم فى سورة لهوهم وفتوتهم.

هو لأن أولاده هلكوا . وهنا يودعنا دفقة هائلة من الحزن ، ويقفنا فى بساطة على مدى مصابه ومبلغ فجيعته .

ثم هو مشغول بنفسه بعد ذلك يصف لواعجه ، وينظر إلى ماحوله نظرة قاتمة فيها كآبة وشجن وفيها دموع وأسى . كل ذلك دون أن يؤبن أولاده لأنه ليس محتاجاً إلى أن يفعل ذلك ، فهو فى نفسه وحسبه أنه وحده من يعرفهم . وهكذا يمضى حتى يقف وجهاً لوجه أمام الدهر فيقر بعجزه أمامه فى البيت التالى :

والدهرُ لايبـقى على حَدَثانه جَوْنُ السَّراة له جَدائدُ أربع

ونحس هنا أنه فى سبيل مأساة يحدثنا فيها عن ريب الدهر . وبطل المأساة هنا حمار وحشى له أتن أربع . وفى هذا يجب ألا ننسى مثل هذا البيت عند ساعدة حين حكى قصة الوعل الأبود . والقصتان تتجهان اتجاهاً واحداً وتنتهيان إلى النهاية المعروفة هى : أنا ضعاف أمام القدر !

ولكن أبا ذؤيب لايقنع فى عينيته بقصة واحدة ؛ وإنما هناك أيضاً قصة تدور حول ثور تبدأ بنفس البداءة الأولى :

والدهر لا يبقى على حَدَثانه شَبَبٌ أفزته الكلابُ مُرَوَّع

فإذا انتهى منها يأبى إلا أن يختم قصيدته بمأساة ثالثة أروع وأقوى .. تمثل صراعاً هائلاً بين فارسين ليقف على أشلائهما أو فوق دمائهما لتكون هذه الوقفة نهاية كل شىء فى هذا العالم . وتبدا المأساة هكذا :

والدهرُ لا يبقى على حدَثانه مُستشعرٌ حلَقَ الحديد مُقنَّع

وفيها يصف حسن بلاء الفارسين ، واصطراعهما فى سبيل المجد ، ومباهاتهما بسلاحهما قبل أن يموتا :

وعفَتْ ذيولُ الريح بعدُ عليهما والدَّهر يحصد ريبُه ما يزرع

فكان ختام المأساة وختام القصيدة كلها !

فإذا أردنا أن نقول شيئاً بعد ذلك قلنا إنه فى رثائه هنا يسلك سبيلاً أخرى غير هاته التى سلكها فى لاميته ورائيته الأولى وداليته ويقترب فى أكثر الأحيان

من الطريق التى اتبعها فى رائيته الثانية . وفى هذه وفى عينيته يتجه اتجاه ساعدة ابن جؤية فى داليته التى يرثى فيها ابن أبى سفيان .

ولندع الاثنين الآن إلى صخر الغى ، فله مرثية قالها حين مات ابنه تليد ومطلعها :

أرقت فبتُّ لم أذقِ المناما وليلى لا أحسُّ له انصراما[1]

يمهد هنا لما يريد أن يعبر عنه من شجى ، فهو سهران ، والحزين دائماً لايعرف النوم سبيلا إلى عينيه ولذا يطول ليله حتى ليبيت يظن أنه لن ينقضى أبداً ، وهو لا يكتفى بذلك فقط فيتبع البيت ببيت يقول فيه :

لعَمرُكَ والمَنايا غالباتٌ وما تُغْنى التميماتُ الحِماما

فلا بد من ذكر المنايا والحمام . وهل فى وسع أحد أن يقف أمام الموت ؟ وهل تجدى العوذ أمام المقدر ؟ وهنا يحس الشاعر ان الفرصة مواتية ليذكر ابنه فيفعل ويقف على قبره قبل أن ينصرف عنه إلى قصة عن غير الأيام يبدؤها بقوله :

أرَى الأيام لا تُبقى كريماً ولا العُصْمَ الأوابد والنعاما

وحين ينتهى منها يقفيها بقصة أخرى اولها :

ولا عِلجان ينتابان رَوْضاً نضيراً نَبْتُه عُمًّا تؤاما

وحين ينتهى نرى انه يقترب من السبيل الثانية التى سلكها ساعدة وأبو ذؤيب فى رثائهما . ولكنه يبعد عن خطواتهما فى اتجاههما الأول وهو يرثى أخاه أبا عمرو ببائيته التى مطلعها :

لعمْرُ ابى عمرٍو لقد ساقه المنا إلى جدث يُوزَى له بالأهاضب[2]

فهو لا يقدم شيئاً فى أول القصيدة لأنه مشغول بأخيه فقط . وليس يعنيه شئ بعد ذلك سوى حزنه على فقده ، فيتكلم عن هذا الحزن حتى يقف عند

---

(١) الديوان ٢ : ٦٢ .

(٢) الديوان ٢ : ٥١ .

مأساة من مآسى الحياة فينصرف إليها ، ويقص علينا قصة وعلٍ مسن يبدؤها بقوله :

فعينىّ لا يبقى على الدهرِ قادر بِتَيْهورة تحت الطِّخافِ العصائب

ويظل يتتبعه حتى يرميه الصائد بسهم يقضى عليه .

وأما أبو خراش فحين يرثى عمراً وسائر إخوته يروعنا بمطلع قصيدته الذى يقول فيه :

فقدت بَنى لبْنَى فلما فقدتُهم صَبَرْت ولم أقطع عليهم أباجلى(١)

فليس ثمة تقديم ، وإنما هو يصرح أول مايصرح بأنه فقد إخوته ، بيد أنه لم يجزع جزع غيره لأنه صبر ولم يقطع عروقه عليهم . ويخلص من ذلك إلى إخوته فيتحدث عنهم كالعادة فهم :

حِسَان الوجوه طيّبٌ حُجُزاتُهم
كريمٌ نثاهم غيرُ لُفٍّ معازلِ

ويظل فى تأبينه حتى يختم قصيدته ببيته التالى :

فلَهفِى على عمرِو بنِ مرّةَ لهفةً
ولهفِى على ميْتٍ بِقوْسَى المعاقلِ

يصور جزعه ولهفته على عمرو وأخيه عروة . فإذا حاولنا أن نقول شيئاً قلنا إنه ينهج النهج الأول الذى لايقدم فيه الشعار لحزنه بشىء ولا يحفل بمأساة يسردها عن ريب الزمن .

إلا أنه فى لاميته التى يرثى فيها أخاه عروة يفعل ذلك . وأولها :

لعمرِى لقد راعت أميمةَ طلعتِى
وإنّ ثَوائى عندها لقليل (٢)

فثمة تمهيد يذكر فيه عتاب زوج أخيه وقد ظنت أنه نسى أخاه ، فردها فى رفق وهو يقول :

(١) الديوان ٢ : ١٢٣ .
(٢) الديوان ٢ : ١١٦ .

ولا تحسَبِي أني تناسَيْتُ عهدَه
ولكنّ صبرى يا أميمَ جميل

فهو لم ينس عهده ولم يجد إلا الصبر وفى نفسه أسى وحزن بالغان . وكذا تتاح له الفرصة ليتحدث عن شجوه والتياعه حتى ينتهى إلى المأساة التى يريدها عن فواجع الدهر فيبدؤها بقوله .

أرَى الدهر لا يبقى على حدثانه
أقبُ تباريه جدائدُ حُولُ

يقص بهذا البيت وما بعده قصة الحمار الوحشى وجدائده ، ويتتبعه على البرز اليفاع ويعكف عليه وهو يندفع بجدائده إلى الماء ثم مقابلة الصياد له لتكون نهايته على يديه وليكون أروع ختام يختتم به حياة الكائنات ، وكل شىء مهما يكن إلى فناء .

وكذا نرى أنه فى تلك القصيدة يحرص على المقدمة يهيئ بها الجو الملائم لحزنه ، ولم ينس مأساة الحياة التى ترد دائماً فى معظم مراثى شعراء هذيل .

* * *

ونتقدم إلى العصر الإسلامى فنجد أن معانى الرثاء لا تزال هى هى كما كنا نراها فى العصر الجاهلى ، فالراحل شجاع كريم أبىّ حسن الهيئة أصيل النسب إلى غير ذلك مما لا نلمس فيه صفة تقصر على هذا وحده أو ذاك فقط ، بيد أنا لا نلمح هذا القصص الذى يصور عجز الإنسان أمام الموت وضعفه وهو فى قبضة الدهر . فكأنما كتاب الله أضفى على نفوسهم أمنا وطمأنينة ، وبث فيها نوعاً من الأمل ، فما عادوا يجدون غناء فى ذلك القصص الحزين .

ولنقرأ على سبيل المثال كل ماقاله أبو خراش فى رثاء زهير بن العجوة وكان قتل يوم حنين . وهو عبارة عن قصيدتين ومقطعة واحدة ، وفيها نحس لوعة صادقة وحزناً عميقاً ويبدو أن زهيراً كان رفيقاً لأبى خراش فى مغامراته :

ولم أنسَ أياماً لنا ولياليا
بحَلْيَةَ إذ نَلقَى بها من نحاول[1]

---

(١) الديوان ٢ : ١٥٠ .

وقد نلقى فى بعض الأحيان بعض قصائد فى الرثاء تبدأ بداءة تقليدية ولكنها لا تتجه إلى القصص مطلقاً. مثل ذلك قصيدة عبد الله بن أبى ثعلب الهزلى يرثى من أصيب فى الطواعين من هذيل بمصر والشام، ومطلعها:

أرِقت وما لك الا تناما وبتَّ تكابدُ ليلا تماما(١)

وفيها ذكر أساه على عشيرته الذاهبين وعدد منهم ربيعاً وأبا محجن وصخراً وجابراً وعصمة وسنانا ومالكا — فكان الخطب بهم عظيما، حتى إنهم لو رزئتهم الجبال لمالت رءوسها من فرط المصاب....

ولو رزئتهم رواسى الجبالِ لمالت رءوسُ الجبال انهداما

. . . . .

بنيّاتهم وأخيّاتهم وأزواجهم لا يُسِغن الطعاما

وفى النهاية نقرأ بضعة أبيات يعزى بها قومه، وبأنهم لن تزلزلهم النكباء، فانفتح الباب أمامه ليزهو بهم.

ولكن هذا النظام ليس مطرداً فهذه قصيدة طويلة قالها أبو العيال أيام معاوية حين قتل ابن عم له بأرض الروم. ومطلع القصيدة هو:

فتَى ما غادر الأجنَا دَ لا نِكسٌ ولا جَنَبُ(٢)

هو يفجؤنا بهذا التعجب ويصيح: أى فتى غادره الأجناد!... إنه لم يكن يوماً ضعيفاً ولا جباناً. والطريق هنا ممهدة يصف ابن عمه ويؤبنه بما ألف من المناقب العامة كشدة البأس والقوة والقدرة على الكلام، حتى إذا ما أحس أنه أعطى لنا بعض مايريد من صورته يعكف على نفسه فيقول:

ذكرت أخى فعاودنى صُداعُ الرأسِ والوَصَب

فهو مريض متعوب، وهو يبكى بدمع غزير...

على عبدِ بنِ زهرةَ طو ل هذا الليل أكتئب

ثم تتاح له الفرصة ليعود ثانية إلى ابن عمه فيعدد مناقبه، ويتحدث عنه

---

(١) البقية — ٦٥.

(٢) الديوان ٢ : ٢٤١.

حديث المعجب بحسبه وكرمه وخروجه للبلاء بأرض الروم ، وظهوره على أقرانه ، وصولاته وجولاته فى القتال ، وسرعة مروره أمام أعدائه حتى ...

إذا ما احتُثَّ بالساقين لم يَصبِر له لَبَب

أجل يكاد يخرج من جلده من شدة جريه . ثم يختم كل مايريد بهذا البيت :

رَزيَّةَ قومه لم يأ خذوا ثمناً ولم يهبوا

جميل ! فلقد ذهب ولم يأخذ أهله ديته ولم يهبوها لقاتله وكذا ضاع دمه . وبذلك قضى الأمر وأرخى الستار . أما أين المأساة ؟ اين قصة هذه الحياة الدامية ؟ فليس من سبيل هنا إليها . بل ليس من سبيل إليها فى كل رثاء هذيل فى العصر الإسلامى .

ونستطيع بعد ذلك كله أن نفهم أسلوب الهذليين فى الرثاء ، واتجاههم العام فيه . وكأنما الخلف كان ينظر إلى السلف فيما يفعل ، فانتهى إلينا من رثائهم نوعان :

أحدهما : مفاجأتنا بالراحل وجزع الشاعر عليه ثم ذكر بعض مناقبه وتعديل صفاته الطيبة ، وأكثر ذلك فى القصائد القصيرة والمقطعات ، ونضع هنا ماقيل فى العصر الإسلامى .

والثانى : يمهد فيه الشاعر لأساه بأى تمهيد كأن يستعبر على شبابه الذاوى ، او يبكى الدمن ، أو يذكر سنة الحياة وما يتصل بها من قضاء وقدر ، ثم بعد ذلك يصل إلى الراحل فيتوجع عليه ويتكلم عن فجيعته فيه وحزنه عليه . وقد يؤبنه أيضاً ولكنه لا ينتهى أو يكف قبل أن يعرض لقصة الحياة والموت ويقظة الدهر وعصفه بالكائنات دون أن تأخذ حظها من البقاء والنعيم ، نلمح كل ذلك أكثر ما نلمحه فى القصائد الطوال التى يستطيع فيها الشاعر أن يتصرف باللغة ، ويمعن فى التخيل ، ويوغل فى التفاصيل .

أما المعانى التى تداولها شعراؤنا فى الرثاء ، فلا تخرج عن المعانى المألوفة . وهم فى هذه الحالة يخضعون لما اعتاد شعراء العرب جميعاً أن يخضعوا له من إتقان الوصف وإجادة النظم . ولكنهم يختلفون عنهم من ناحية أخرى ، هى قدرتهم

الفائقة على إظهار عواطفهم ، وتمثيل أنفسهم ، والتعبير عن حزنهم في قوة دافقة ونغم حزين . وقد نرى غيرهم يفعل هذا ، إنما ذلك ليس دائماً ، فالهذليون وحدهم تميزهم هذه الميزة ، ويختصون بها ؛ لا ينازعهم فيها إلا القليلون .

وقد يكون من الوفاء لبحثنا أن نقف لنرى كيف حدثونا عن أشجانهم وآلامهم . فقال أبو كبير في رثاء أخيه :

ولرُبَّ من دَلَّيتُه لحفيرةٍ كالسيف مُقتَبَلِ الشباب مُحَبَّرِ
ثم انصرفت ولا أبثُّكَ حِيبتى رِعش الجنان أطيش فعلَ الأصورِ(١)

أترى كيف عبر عن فجيعته ؟ لقد أودع اللحد أخاه وهو بعد في ريعان الشباب ، ومضى عنه يشله الأسى ، فلم يبك ولم يبثه حيبته ، أى سوء حاله . يخطو مرتعش الفؤاد موزع الخاطر وكأن فيه صوراً أى شللا .

وقف قليلاً مع صخر الغى حين خرج في الليل ملتاعاً ، مروعا بفقد ابنه تليد فأتاه مع الأنسام صوت حمامة تنوح ثم . . . .

تَجَهنا غادِيَين فساءلَتْنِى بواحدها وأسأل عن تليدى
فقلت لها : فأما ساقُ حرٍّ فبان مع الأوائل من ثَمود
وقالت : لن ترى أبداً تليداً بعينك آخرَ العمرِ الجديد
كلانا رَدَّ صاحبَه بيأسٍ وتأنيبٍ ووجدانٍ بعيد(٢)

فلقد التقى بها وواجهها فسألها عن تليد وسألته هي عن ولدها «ساق حر» فقال لها لقد ودع ابنك الحياة وأصبح مع الأوائل من ثمود . فصاحت : وأنت أيضاً لن ترى ابنك مهما تمتد به الأيام . وكذا رد كل منهما صاحبه بيأس فرجع يحمل في قلبه هماً فوق هم .

وأظن أنى لست بحاجة لأنبه القارئ كيف عبر في البيت الأخير ببساطة عن مدى حزنهما ، وأى خيبة أكبر من أن يرجع المرء يائساً ؛ بل لم يستطع شاعر أن يبكى أحداً كما بكى صخر على فرخى عقاب . وذلك في قوله :

---

(١) الديوان ٢ : ١٠٢

(٢) الديوان ٣ : ٦٧ وفى البيت الثانى ظن الشاعر أن ساق حر ولدها فجعله اسما له .

فُرَيْخان يَنْصاعان فى الفجر كلّما أحسا دَوِىّ الريح أو صوتَ ناعِبِ
فلم يَرَها الفرخان عنْد مَسَائها ولم يَهْدآ فى عشّها من تجاوُبِ [1]

وصور لنفسك جزع الفرخين وهما يتحركان فى الفجر كلما سمعا دوياً لريح أو صوتاً لناعب فيظنان فى الصوت أمهما . ولكنهما لم يرياها وقد انتظراها حتى المساء ، فانطلقا يصيحان دون أن يقرا لحظة واحدة .

وأما أبو خراش فقد بكى خالد بن زهير كثيراً . اسمعه يقول مرة :

إذا ذَكَرَته العينُ أغْرَقَها البُكَى
وتَشْرَقُ من تَهمالِها العينُ بالدَّمِ
فباتت تُراعى النجم عينٌ مريضةٌ
لما عالَها واعتادها الحزنُ بالسُّقْمِ
وما بعد أنْ قد هدَّنى الدهرُ هدَّةً
تضَال لها جِسْمِى ورقَّ لها عَظْمِى [2]

فكلما ذكره استعبر ، وأنشأ يذرف من عينيه الدموع . بل لقد راحت عيناه من فرط تهما لها تشرقان بالدم . وكذا عادتا مريضتين وبات يثقلهما الحزن ويبلغ منهما السقم . فلا عجب أن يهزل جسمه ويرق عظمه بعد أن هده الدهر ونال منه .

وانظر إلى البريق كيف يصور همه وجزعه بعد أن مات أخوه .....

كأن عجوزى لم تَلِدْ غيرَ واحدٍ وماتت بذات الشَّثّ غير عقيمِ [3]

لقد مات أخوه ، وعاد هو وحيداً فى هذه الأرض فكأن أمه لم تلد غيره !

واسمعه يقول :

---

(١) الديوان ٢ : ٥٦ .

(٢) الديوان ٢ : ١٥١ .

(٣) الديوان ٣ : ٦١ .

أودّع صاحبي بالغَيْب إنى أرانى لا أُحِسُّ له حِوارا[1]

ألا تحس مدى حزنه ؟ أين صاحبه ذاك ؟ إنه يودعه وهو يعلم أنه لن يعود !

وقيس بن العيزارة يخاطب أخاه الحارث وكان قد مات فيقول له :

يا حارِ إنى يابنَ أمِّ عميـدُ
كَمِـدٌ كأنى فى الفؤادِ لهَيدُ
والله يَشْفى ذاتَ نفسِى حاجمٌ
أبداً ولا مما إخالُ لَدود
بأبيكَ صاحبُك الذى لم تَلْقَه
بعد المواسِم واللقاء بعيد[2]

أين أنت يا حارث ؟ إنى موجع دنف حتى لكأن فؤادى أصابته لهدةٌ . ولن ينفعنى طبيب يشفينى ، ولن يجدينى دواء أشربه . فلقد ذهبت ولم تعد وعاد غيرك ممن ذهب إلى المواسم !

وأما أبو ذؤيب فيبلغ فى عينيته التى أشرنا إليها أقصى ما يبلغه شاعر يرثى ، فهو يقول :

أوْدَى بَنِىّ وأعقبونى غُصّةً ... بعد الرقاد وعبرةً لا تُقلع
سبقوا هَوَىّ وأعنَقُوا لهواهمُ ... فتُخُرِّموا ولكلِّ جنبٍ مصرع
فَغَبَرْتُ بعدَهمُ بعيشٍ ناصبٍ ... وإخال أنى لاحِقٌ مُسْتَتْبِع
ولقد حَرَصْت بأن أدافعَ عنهمُ ... فإذا المنيةُ أقبلت لا تُدْفَع
وإذا المنيةُ أنشبتْ أظفارَها ... ألفيتَ كلَّ تميمة لا تنفع
فالعين بعدَهمُ كأنَّ حِداقها ... سُمِلَت بشوكٍ فهى عورٌ تدمع

وكذا نرى صورة حية ، يطبق الحزن بآفاقها ، ويملأ لهم نواحيها ، فلقد

(١) الديوان ٣ : ٦٣ .
(٢) الديوان ٣ : ٧٢ .
(٣) الديوان ١ : ٢و٣ .

مضى أولاده وأودعوه غصة يشقى بها ودمعة لاتترك عينيه أبداً . إنهم أسرعوا فى الذهاب فصرعوا وكل جنب لا بد له من مصرع ! ومن ثم بقى من بعدهم مجهداً متعباً ، يظن أنه مذهوب به وصائر إلى ما صاروا إليه . ولكم جعل ينفق أيامه يدافع عنهم ويشقى فى سبيلهم ، ولكن الموت اختطفهم منه ولم يقدر عليه ، وهل فى وسع أحد أن يدفعه عن نفسه ؟ وكذا اصبح يبكيهم حتى لكأن عينه ، قد فقئت بشوك فهى عوراء تدمع .

وبعد ... فلعلنا فهمنا من كل ماقدمنا فَنّ الرثاء عند هذيل كيف كان وطريقتهم فيه ، ومعانيه التى اشتمل عليها ، ومعالجة الشعراء له ، وبراعتهم فيه حتى إننا لانغلو إذا قلنا إنهم كانوا إنسانيين عرفوا الأسى وابتلوا به فقالوه رثاء يشفون به نفوسهم مما تجد .

(ب) وصف الحيوان :

والشعر الهذلى تحدث عن الحيوان كثيراً ، وعنى به عناية تامة ، فوصفه ووصف حركاته ومثل هيئاته ، وقص علينا من عاداته الشىء الكثير . كل ذلك فى استغراق وأناة حتى أصبح فى ديوانهم باباً مستقلاً بذاته . وقد يقال إن شعراء العرب جميعاً لاسيما فى العصر الجاهلى فعلوا ذلك حيث نجد فى معلقات القدماء وفى غيرها إشارات قوية إليه ، بل وقفات طويلة يهتم فيها الشاعر بوصف كل جزء من أجزاء الحيوان كما نرى عند طرفة حين وصف ناقته(١) .

ولكن عناية الهذليين بالحيوان كانت — فيما يبدو لى — أقوى ، واهتمامهم بالتحدث عنه ووصفه كانا أوضح وأشد . وإذا كان قد غلب على شعراء المعلقات أن يصفوا الناقة أو الفرس ، فإن الهذليين لم يعنوا بهما — خاصة الفرس — وحتى هؤلاء الذين وصفوا الحيوان الأخير أخطئوا فى وصفهم لأنه لم يكن فى حياتهم دائماً .

وجه الهذليون أنظارهم إلى البادية ووصفوا ما فيها من وحش ، فتكلموا عن الذئاب والضباع والحمر والبقر ، وعرضوا للظليم والنسور والعقبان ،

---

(١) راجع شرح المعلقات السبع للزوزنى (طبعة السعادة) صفحة ٤٩ وما بعدها .

وتكلموا عن أشكالها وطبائعها ووقفونا على سلوكها فى الفجر وخلال النهار وإذا الليل اقبل . كل ذلك فى تأن وفى ميل كبير إلى نقل كل ما يتصل به نقلاً دقيقاً يدل على قوة ملاحظتهم .

شعر الهذليين فى الحيوان يتكلم عن ذلك كله ، ونراه فى كل موضع بديوانهم حتى ليخيل إلينا أن الشاعر يقحم هذا الوصف فى قصائده إقحاماً ، وكأنما كان يلتمس كل وسيلة ليتحدث عنه . وقد يشبه فى ذلك امرأ القيس أو طرفة أو زيد الخيل حين يعرضون للحيوان بمناسبة وغير مناسبة — فلا يمتاز هو عنهم بشىء ، ولا يجعلنا نحس بأن ليس ثمة إقحام على الإطلاق .

انظر مثلا إلى أسامة بن الحارث وهو يتحدث عن ظعن الحى ويصف نوقه ويختار واحدة منها فيقول عنها :

كأن يديْها إذا أرقَلَتْ   يدا ذاتِ ضِبّين تعرو سِبابا(١)

يصف يديها إذا سارت بيدى امرأة فى صدرها حقدان وتساب أخرى وهى تلوح لها ، ثم مضى فى وصفه لها فقال يشبهها بحمار الوحش :

كأصحَمَ فَردٍ على عانةٍ   يقاتل عن طرتيه الذُّبابا

وهنا يطرح الناقة جانباً ويعكف على الأصحم يتكلم عنه فيقول :

أقبّ طريدٍ بِنَزْه الفلا   ةِ لايرد الماءّ إلا انتيابا
إذا الْخِمْس تم له فى اللقا   ظِ أحدث ورداً له واقترابا
إذا القَطر أخلف أوطانَه   وماءُ الرُّزون يَشيم الذَّهابا
شَنون إذا ريع من فارس   يواثب قَبلَ العوالى وثابا

---

(١) الديوان ٢ : ١٩٧ .

(٢) عانة : قطيع من حمر الوحش ، طرتيه : خطان أسودان على كتفيه ، طريد : طردته الخيل ، بنزه الفلاة : ماتباعد من الفلاه ، انتيابا : ينتاب الماء حينا بعد حين وليس كل يوم ، الخمس : شرب الإبل يوم الرابع من يوم صدرت ، اللقاظ : البقل ، الرزون : الواحد رزن وهو موضع يمسك الماء ، الذهابا : المطر ، شنون : بين السمين والمهزول ، اشتأى : عدا ، وأكظ : داوم ، الأباء : القصب .

إذا ما اشتأى شَرَفاً قبله ... وواكَظَ أوشك منه اقترابا

كوقع الحريق يبُبْس الأبا ... ء تلتهب النَّارُ فيه التهابا

وأين الناقة فى كل ذلك ؟ لا سبيل إليها ، فقد تركها منذ بعيد ولا يعنيه الآن إلا الحمار ، فهو ضامر سريع طردته الخيل فمضى بعيداً عن الناس ولا يقصد الماء إلا لماماً . ولكنه قد يفعل حين تمضى عليه أيام خمسة عقب أكله اللفاظ — وهو البقل — فإذا القطر وماء الرزون أخلفا مغانيه جعل ينظر إلى السحاب يشيم المطر وهو مع ذلك ليس هزيلا ولا سميناً وإذا لمح فارساً وثب وهرب ، فإذا رأى شرفاً فى الطريق يجرى حتى يبلغه ثم يعدو شرفاً آخر وهكذا ، فكأنما هو حريق يأتى على القصب فلا يقف أمامه شىء .

ثم انظر بعد ذلك إلى ساعدة بن جؤية وهو يرثى ابن أبى سفيان ، فيقول فيما يقول :

فما خادرٌ من أُسْدِ حَلْيَةَ جَنَّهُ ... واشبُلَهُ ضافٍ من الغيل أحصَدُ(١)

فيخيل إلينا أنه سيعقب ببيت يخبرنا فيه ما يريد ، واصفاً المرثى متحدثاً عن بأسه وقوته ، ولكنه لا يفعل وإنما يستطرد إلى تصوير حالة الأسد فى غابة ووصف جماعة من القوم حين غشيهم . فبعد أن صور لنا الأسد وأشباله فى مأسدته يستره الغيل وما كثف من الشجر ، قال :

إذا احتضر الصِّرمُ الجميعُ فإنه ... إذا ما أراحوا حَضرَةَ الدار يَشْهَد

وقاموا قِياما بالفِجاج وأوْصَدوا ... وجاءَ إليهم مُقْبلا يتوردَّ

يقصِّم أعناقَ المخاض كأنما ... بمَفرَجِ لحييه الزِّجاج الموتد

بأصدَقَ بأساً من خَليل ثمينةٍ ... وأمضى إذا ما أفْلَطَ القائمَ اليدُ(٢)

إذا اراح الناس مواشيهم وتركوها تسوم وراء الكلأ نهد إليهم وغشيهم

(١) الديوان٢ : ٢٣٨ خادر : كالمخدر وهو الذى اتخذ الغيضة خدرا ، جنه : ضمه ، أحصد : مكتنز أو ملتف .

(٢) الصرم : جمع البيوت ، يتورد : يغشاهم ، مفرج لحييه : فمه ، ثمينة : بلد ، القائم : السيف .

فى بيوتهم ، وراح يكابرهم ويكاثرهم ؛ ثم ينثنى يقصم أعناق المخاض فكأن فى أنيابه زجاج أى رماح قد ثبتت . وفى نهاية الأمر يرجع الشاعر إلى بيته الأول ويخبر الخبر ، فإذا هذا الأسد الذى فعل كذا وكذا ليس أصدق بأساً من ابن أبى سفيان .

وقد لا نرى فى تلك الأبيات وصفاً لهيئة الأسد ؛ ونراها تعنى أكثر ما تعنى بوصف حالة من حالاته . وهنا نسرع فنقول إن الهذليين لم يكونوا يقصرون حديثهم على هيئة الحيوان فقط ؛ بل ربما كانت عنايتهم بوصف حالاته أكثر . ومن هنا نجا شعرهم من هذا الملل الذى قد نشعر به نحن إذا قرأنا وصف أعضائه واحداً واحداً .

وكنت قد قلت إن الهذلى كان فى حديثه عن الحيوان يؤثر الدقة . وهذا فى الواقع شىء ربما شاركه فيه كثير من شعراء الجاهلية إلا أنه يمتاز عنهم بشدة يقظته للحيوان والتفاته إليه حتى إنه ربما قيل إن الهذليين خير من تحدثوا عنه ولا أدرى لذلك سبباً إلا أن تكون حياتهم قد ارتبطت به ارتباطاً شديداً ، لا سيما هؤلاء الذؤبان الذين شُرِّدوا فى القفار . اسمع إلى الأعلم وهو يصف الضبع :

عَشَنْزَرَة جَواعِرُها ثَمانٍ فُوَيْقَ زِماعِها وَشْمٌ حُجُول
تراها الضُّبْعُ أعظمَهن رأساً جُراهِمةٌ لها حِرَةٌ وثيل(١)

قال عنها إنها غليظة وهذا وصف عام . إلا أنه أردف بأن قال إن الخروق التى فوق دبرها ثمانية . وقد قيل إن لها جاعرتين ، وجعل هو لكل واحدة منهما أربعة غضون مع تسمية كل غضن منها جاعرة باسم ماهى فيه . وذهب إلى أبعد من ذلك ونظر إلى زماعها وهى الشعرات الجافة فى مؤخر رجلها فقال إن لها فوقه وشماً كأنه الخلخال . على أن هذه الضبع ليست ككل

(١) الديوان ٢ : ٨٦ ، عشنزرة : غليظة ، جواعرها : خروقها فوق الدبر ، زماعها : شعراتها التى خلف المخالب ، جراهمة : عظيمة الرأس ، حرة : حر ، ثيل : قضيب البعير (يريد أنها خنثى) .٧

ضبع يراها الإنسان ، فهى خنثى ضخمة الرأس ، لها فى أسفل بطنها جراب كجراب متاع البعير .

وفى موضع آخر يصف أولاد الضبع فيقول :

سودٍ سحاليلٍ كأن جُلودَهن ثياب راهبْ
آذانُهن إذا احتضر ن فريسةً مثلُ المذانب
يَنزعن جلْدَ المرء نَز عَ القَيْن أخلاقَ المذاهب(١)

فيعطى صورة صادقة جميلة لها ، فهى سحاليل أى عظيمة البطن ، وآذانها إذا راحت تفترس تشبه المغارف ، وتنزع جلد الإنسان كما ينزع العبد ما قدم من الأخلة المذهبة التى تجعل على جفنات السيوف؟!

وأما ساعدة بن جؤية فهو كذلك مفتون بهذا الحيوان ؛ مفتون بصورته وحالته جميعا ، واقرأ له هذه الأبيات التالية بعد أن عرض لولد حانت منيته :

وغودرَ ثاويا وتأوَّبته مُذَرَّعةٌ ـ أميْم ـ لها فَليلُ
لها خُفّان قد ثَلِبا ورأسٌ كرأس العَوْد شَهبرة نَثول
تبيت الليلَ لا يخفَى عليها حِمارٌ حيث جُرَّ ولا قَتيل
كَمَشيِ الأقبلِ السّارى عليها
عِفاءٌ كالعَباءة عَفشليل
فَذَاحَت بالوَتائر ثم بَدّت يَدَيها عند جانبه تهيل(٢)

والضبع عند ساعدة تريد أن تنبش قبر ذلك الذى ثوى . وقد صورها وفى ذراعيها خطوط ؛ وكل ضبع مخططة الذراعين دائماً . وهى مسنة تمشى مثقلة وئيداً ولذا فإن خفيها يبدوان وكأنهما تكسرا . ولكنها دءوب تقضى ليلها

---

(١) الديوان ٢ : ٨٠ .

(٢) الديوان ١ : ٢١٥ وما بعدها ومذرعة : يعنى ضبعا بذراعيها توقيف ، فليل : شعر ووبر ، شهبرة : مسنة ، نثول : تمشى كأنها مثقلة ، الأقبل : الذى فى عينه قبل شبيه بالحول ، عفاء : شعر ، عفشليل : جاف .

كله بحثا عن فريسة تقتات منها ؛ فلا يفوتها حمار مات أو إنسان قتل . وأما مشيها فكمشى الأقبل الذى يخيل إلينا أن فى عينيه حولاً فهو يمشى بالليل وكأنه يتلفت . فإذا انتهت هى إلى الوتائر حيث القبور متتابعة أسرعت ثم فرقت بيديها التراب تنبش عن الثاوى تحت يديها .

وهذا أبو كبير يصف ذئبة راعها فى أحد المراقب ؛ فهى تمضى عنه متلفتة حولاء كضبع ساعدة تماماً ؛ يقول :

أخرجتُ منها سِلقَةً مهزولةً
عَجفاءَ يبرُقُ نابُها كالمعوَلِ
فزجرتها فتلفتت إذ رُعتُها
كتلفُّتَ الغضبانِ سُبَّ الأقبلِ(١)

هذه الذئبة مهزولة عجفاء ولكنها ضارية فإذا فتحت فمها برق نابها فكأنه طرف معول وحين زجرها مضت خائفة كما يتلفت الغضبان الأقبل ذا سب .

ويبدو أن أبا كبير عرف الذئاب كثيراً ؛ ولذا فهو يهتم بها فى كل وقت . وها هو ذا يقف بنا معها على عين ماء ورده أخوه خالد ؛ قال :

ولقد وردتَ الماءَ لم يشربْ به
بين الربيع إلى شهور الصَيِّف
لا عواسلُ كالمِراط معيدةٌ
بالليل مَوردَ أيّمٍ مُتَغَضِّف
ينسلن فى طرُقٍ سباسبَ حَولَه
كقِداح نبل مجبَّرٍ لم تُرصَف
تعوى الذئابُ من المجاعةِ حولَه
إهلالَ ركبِ اليامِنِ المتطوِّف
زَقَبٌ يظل الذئبُ يتبَعُ ظِلَّه
من ضِيق موردِه استِنانَ الأخلَف(٢)

(١) الديوان ٢ : ٩٧ سلقة : ذئبة ، وفى البيت الثانى قدم وأخر يريد كتلفت الغضبان الأقبل سب .

(٢) الديوان ٢ : ١٠٥ وما بعدها وعواسل : ذئاب تعسل فى سيرها أى تسرع ، المراط : النبال ، أيم : حية ، متغضف : متثن ، الأخلف : العسر المخالف المعوج الذى كأنما يمشى على شق .

لا يرد هذا الماء إلا الذئاب نحيلة كالنّبْل تسرع فى مشيتها وهى تريد أن تشرب منه كما شربت الأفاعى ، على أنها حين تسير كانت تقطع هذه الطرق البعيدة التى كان يجتازها خالد وتروح تعوى فى الآفاق من فرط جوعها . وهنا نراه يلح على ما ألح عليه قبلُ هو وساعدة بن جؤية ، فثمة طريق ضيقة لا يستطيع الذئب أن يمشى فيها إلا على حرف كما يمشى الأخلف إذا مشى .

فهذا التتبع الدقيق للذئب ووصف هيئته يدلان من غير شك على أن الشاعر كان محيطاً بكل شىء عنه ويعرف الكثير من أمره . وقل مثل ذلك عن الأعلم وساعدة حين وصفا الضبْع فكلاهما كان عالماً بكل دقيق عن هذا الحيوان الضارى . بل يستطيعون فى إيجاز لامح أن يصوروه على حقيقته فيصيبوا ، وهذا أبو كبير مثلا يريد أن يصف العقاب فيكتفى بأقل من شطر واحد من بيت فيه فيقول :

حتى انتهيت إلى فراشِ عزيزةٍ سوداء روثة أنفها كالمخصف(١)

ومثل ذلك ماقاله قيس بن عيزارة وهو يعطى الصورة الخارجية لإحدى بقر الوحش فقال :

كُتِبَ البياضُ لها وبورِكَ لونُها فعيونُها حتى الحواجِبِ سودُ(٢)

على أن أظهر ما يلاحظ على الهذليين فى حديثهم عن الحيوان أنهم مرنوا على تسجيل حركاته حتى لنكاد نحس دبيب الحياة فيما يصفون ، اقرأ الآن مايروى لعمرو بن الداخل عن بقرة وحشية ، فهو يقول :

وهاديةٍ تَوَجَّسُ كلَّ غَيْبٍ لها نَفَس إذا سامت نشيجُ
تُصيخُ إلى دَوِىِّ الأرض تَهْوِى
بِمِسْمَعِها كما نَطِفَ الشَّجيجِ(٣)

(١) الديوان ٢ : ١١٠ .
(٢) الديوان ٣ : ٧٥ سامت : سرحت ، تهوى بمسمعها : تنزل بأذنها إلى الأرض ، نطف الشجيج : سال دم المشجوج رأسه .
(٣) الديوان ٣ : ٩٩ .

أترى هذه الالتفاتة الدقيقة ؟ إنه لا يقدر عليها إلا كل من طالت ألفته بالحيوان وراقب هذه البقرة وهي تميل برأسها إلى الأرض حتى كأنها المشجوج الذي تهجم الشجة على أم دماغه فلا يستطيع رفعها . ثم هذا أبو ذؤيب يتكلم عن حمار وحشي ، ويأخذ يصوره حين يعروه السأم فيجلس ...

مُستقبِلَ الريحِ تجري فوق مِـنْسَـجِـهِ
إذا يُراحُ اقشَعَرَّ الكَشْحُ والعَضُدُ
يرمي الغُيوبَ بِعَيْنَيْهِ ومَطْرِفُهُ
مُغْضٍ كما كَسَفَ المُسْتأخِذُ الرَّمِد
فاختار بعدَ تمام الظِّمْءِ ناجِيةً
مِثْلَ الهِراوة ثِنْياً بِكْرها أبِد
إذا أرنّ عليها طارِداً نَزَقت
فالفَوْتُ إن فات هادِي الصَّدْرِ والكَتِدُ(١)

ها هي ذي الريح تندفع نحوه فإذا أصابته اقشعر كشحه وعضده ، ولم يقل كل جسمه لأنه لم يكن ثمة برد كثير ، وعنايته بقشعريرة العضد والصدر أوقع وأدق . ثم إنه يحاول أن عد نظره إلى بعيد ، فهو يريد أن يرى ما يغيب عنه ، فإذا نكس رأسه كان كمن أصابه رمد لا يقدر على الرؤية . ثم اختار له أتانا عساها تملأ فراغه ؛ وكانت ضامرة كالهراوة وولدت بطنين فتأبد ولدها ، وهو إذا اقترب منها فرّت عنه ولا تكاد تفوته إلا بصدرها ومنكبها .

ثم انظر هذه اللمسة الجميلة من ساعدة بن جؤية وهو يتكلم عن حالة أبقار وحشية طوردت إلى أراض صلبة وكان الجو حاراً . إنه قال :

---

(١) الديوان : ١٢٥ الغيوب : ما غاب عنه ، كسف : نكس رأسه ، المستأخذ الشديد الرمد ، تمام الظلم : ما بين الشربتين ، ثنيا : ولدت بطنين ، نزقت : فرت منه ، الكتد : المنكب أو مغرز العنق في الكاهل .

ظَلت صوافِنَ بالأرزَانِ صادِيةً
فى ماحِقٍ من نهارِ الصَّيف محتَدِم[1]

والصوافن هن القائمات على ثلاث قوائم ثانيات سنبك اليد الرابعة . وما أظن أحداً يعنى بهذه الصورة إلا إذا كان متلفتاً لها شاعراً بجمالها وحيويتها ؛ فهو لم يكتف بأن قال إنها ظلت واقفة فى ماحق الصيف ، وإنما قال إنها كانت صافنة . وفى وقفتها تلك ذلة ووداعة وفيها مسكنة الحيوان حين يريد أن يهدأ .

ويعجب أمية بن أبى عائذ بهذا المنظر فيأخذه ويكمله ويقول :

فظلَّت صوافِنَ خُوصَ العيونِ كَبَثّ النَّوى بالرُّبا ـ والهِجالِ
وظل يسوِّف أبوالهَا ويُوفِى زَيازِىَ حُدْبَ التلال[2]

فالأتن كانت متفرقة تفرق النوى ؛ وكانت صوافن غائرة العيون . وأما ذكرها فقد جعل يشم أبوالها حيناً ، ويعلو الحزون حيناً آخر . فثمة حركة ونشاط ، بل ثمة حياة دافقة .

وشىء غير كل هذا امتاز به الهذليون أو الذؤبان منهم ، وقد مر بنا ونحن نتحدث عن فرارهم . ولو رجعنا إلى ما كتبناه قبل لرأينا أنهم كانو يوازنون سرعتهم بسرعة الحيوان ، وكانوا يختارون صنوفه التى عرفت بسرعة العدو فقارنوا أنفسهم بحمار الوحش وقارنوها بالظليم وهكذا .

وقلنا إنهم لم يعرضوا للخيل لأنها لم تكن لها سبيل فى حياتهم ولأن بعضهم أو أغلبهم كان يسبقها !

فإذا تركنا هذا الجانب يبقى لنا شىء أخير ، امتازوا به وأخلصوا له ، وما أظن أحداً استطاع أن يجاريهم فيه . حقاً قد نرى بعض شعراء سواهم يدخلون جانباً من عاطفتهم فى تصوير الحيوان إلا أنهم لم يبلغوا فى ذلك ما بلغه الهذليون .

---

(١) الديوان ١ : ١٩٧ صوافن : قائمات على ثلاث قوائم ، الأرزان : الأماكن الصلبة ، ماحق الصيف : شدة الحر .

(٢) الديوان ٢ : ١٧٨ الهجال : ما اطمأن من الأرض ، يسوف : يشم ، يوفى : يعلو ، زيازى : نتوءات .

لقد تخصص هؤلاء فى التحدث عن بؤس الحيوان وتربص الدهر به . تخصصوا فى ذلك وهم يرثون ،فإذا هذا الحديث كله عاطفة ساخنة ، وإذا لمساتهم فيه تأتى رقيقة مؤثرة إن دلت على شىء فعلى أن حاستهم الفنية كانت على حظ كبير من النضوج .

ألا تذكر استعبار صخر الغَىِّ على فرخيه وقد صيدت أمهما فلم تعد إليهما ؟

اسمعه الآن يتحدث عن حمامة مات ابنها ساق حر وكان تليد ابنه قد مات :

وذكّرنى بكاى على تليدٍ حمامة مَرَّ جاوبتِ الحَماما
ترجِّع منطقاً عجباً وأوْفَتْ كنائحةٍ أتتْ نَوْحاً قياماً
تنادى ساقَ حرٍّ وظلْتُ أدعو تليداً لا تبين به الكلاما[1]

إنه يشرك الحيوان فى آلام البشر !

ثم هذا قيس بن العيزارة يتكلم عن بقرات تعيش هانئة ، فيقول :

حتى أُشِبَّ لها أغيبِرُ نابلٌ يُعرِى ضوارٍ[2] خلفَها ويصيد
فى كل معترك تغادر خلفها زرقاء دامية اليدين تميد
يوماً أراد لها المليك نفادها ونفادها بعد السلام يريد[3]

كانت تشتبك مع الكلاب من حين إلى حين ، وما كانت المعركة تنجلى إلا عن بعضها وقد غشى عليه فهو يميد وقد ازرقت عيناه الموت ، هكذا أراد الله لها ! إنه كتب لها أن تموت فى يوم قدره ! أرأيت إلى هذا الاستسلام الحزين للقضاء ؟

واسمع إلى البريق حين يقول :

وقد هاجنى منها بِوَعْساءِ قَرْمَدٍ وأجزاعِ ذى اللَّهباء منزِلةٌ قفر

(١) الديوان ٢ : ٦٦ مر : موضع ، نوحا : نساء ينحن .
(٢) فى شرح أشعار الهذليين ضوارى بنصب الياء وهو أصح وفى الحالين يستقيم الوزن .
(٣) الديوان ٣ : ٧٥ .

يظل بها الدّاعى الهديلُ كأنه على الساقِ نشوانٌ تميل به الخمر(١)

لقد هاجه من ليلاه طلل دارس ، ولم يكن به سوى حمامة أعياها الأسى واثقلها الألم فهى على الساق تميل وكأنها سكرى . إنه يربط بين ماضيه وحياته وبين هذه الحمامة النائحة . ونوح الحمام يستثير الشجن دائماً !

ثم نستطيع أن نرى أكثر من ذلك فيما يقصونه من قصص عن الحيوان يودعونه آلامهم ، ويبكون فيه حظهم . وسنرى ذلك فيما بعد .

* * *

أما الآن فنسأل سؤالنا التقليدى : وماذا عن العصر الإسلامى ؟ لا أستطيع أن أزعم أنهم تركوا الحيوان جانباً ، فقد ظلت له فى شعرهم بقايا . بل رأينا شاعراً إسلامياً — وهو أمية بن أبى عائذ — ينشد قصيدة جاوزت الثمانين بيتاً وكلها عن ناقته وكيف أنه يسلى بها همومه ، ويطوى عليها القفار ، ويقطع بواسطتها البيد فى ظلام الليل والريح تزأر والبوم ينعب والآفاق تصخب بأصوات الجن والسعالى . ونحن نجتزىء منها بعضها ، قال :

فَسَلِّ الهموم بِعَيْرانةٍ مُواشِكَةِ الرجْع بعد انتقالِ
ذمُولٍ تَزِفُ زفيفَ الظليم شَمَّر بالنَّعْفِ وسْطَ الرِّئال
وتَرْمَدُ همْلاجة زعزعاً كما انخرَط الحبلُ فوق المَحَال
وإن غُضَّ من غَرْبِها رفَدَت وسيجاً وألْوَت بِجَلْس طُوال
ومن سَيْرِها العَنَقُ المسبطرّ والعَجْرَفيّة بعد الكَلال(٢)

---

(١) الديوان ٣ : ٥٨ اللهباء : موضع ، الهديل : الصوت أو ذكر الحمام ، الساق : ساق الشجرة .

(٢) شرح أشعار الهذليين — ١٨٠ وما بعدها ، عيرانة : تشبه العير ، مواشكة : سريعة ، ذمول: تأتى الذميل وهو ضرب من السير ، تزف: تسرع ، النعف: ما ارتفع من بطن المسيل ، ترمد : تسرع بقوة ، المحال : المحالة هى البكرة ، غض : كف ، رفدت : أتت نوعا معينا من السير ، جلس : طويلة الجسم ، العنق : السير المنبسط ، المسبطر : المسترسل ، العجرفية : الخرق فى العمل والسرعة فى المشى .

هذه الناقة تشبه العير وإذا سارت ترجع يدها سريعة ، ذلك أنها مداركة المشى وتعدو كما يعدو الظليم . ولا تزال تمضى مسرعة وهى دءوب ، فان غض من نشاطها رفدت بقوائمها الطويلة ومن سيرها الخطو السهل ، فإذا كلّت لمحت فيها شدة لأنها لا تلين أبداً .

وهنا نراه معنياً بضروب سير ناقته ، حتى إذا استقصاه وآنى عليه نظر إليها من جانب آخر فشبهها بثور برى :

كأنى ورحلى إذا رُعتُها ... على جَمَزَى جازىء بالرمال

ولكنه لا يلبث أن يطرح المقارنة جانباً فلا يعود إلى ناقته ويلتفت إلى الجمزى يصفه فهو هجان السراة حديد القرنين غليظ القوائم أسود العينين يبنى كناسه فى لين التراب ...

هِجانِ السَّراةِ ترى لونَه ... كَقُبطِيَّةِ الصَّوْن بعد الصِّقالِ
حَديدِ القناتين عَبْلِ الشَّوَى ... لُهاقٍ تلألؤه كالهلال
أحَمِّ المدامعِ يبنى الكِناسَ ... فى دَمِثِ التُّرْبِ ينثال هالِ

على أنه لا يديم الوقوف مع هذا الثور فيدعه جانباً ويختار حماراً أصحم يشبه به الناقة ، ولم يكن ضعيفاً بل كان نشيطاً قوياً يجمع عزمه ويثب فوق فجوات الأرض ، وهو فى كل ذلك ...

يُرِنُّ على مُغْزِياتِ العِقاقِ ... ويقْرو بها قَفَراتِ الضِّلال
مُرِبّاً يَهِنَّ له امرُه ... وهُنَّ له حاذِرات قوالى

بصوت على أتن حوامل متضخمات البطون ، ثم يروح يتبع ما تفرق من المطر . بيد أنه لا يريد أن يترك أتنه ولذا فهو يرجع إليهن وهن كارهات لأنهن حبالى .

ويقف أمية طويلاً مع هذا الحيوان ويصور لنا حالته مع أتنه وكيف أنه يسوف أبوالها وهى صافنة ، ثم يمضى عنها يراقب شمس النهار حتى تغيب ، وإذ ذاك يصرخ وينهق حتى لكأنما أصابه فزع . وهنا يظهر رجل فيثور القطيع كله ويعدو ويضرب بحوافره صخور الأرض ، أما الحمار فهو يحث أتنه على الفرار ،

ويجيش عليها بما فار من عدوه وهى جافلة منقلعة عن أماكنها وظل بها حتى أوردها ماء ذا طحلب .

فلما وَرَدْن ابتدرنَ الشُّرو
عَ بَسْطَ الأكُفِّ لأخْذِ العوالى

يريد كما بسط الرجل يده ليأخذ عالية الرمح ، وكذا ألقت أفواهها :

تُجيل الحَبَاب بأنفاسها وتجلو سَبيخَ جُفالِ النُّسالِ
وتُلقِى البلاعيمَ فى بَرْدِه وتُوفى الدُّفوف بِشُرْبٍ دِخال .

فهى تنفخ السبيخ بأنفاسها وتنحى الحباب ثم تلفف يبلاعيمها ما تريده من الماء حتى تنتفخ جنوبها ثم . يسلكها الفحل بعد ذلك مكاناً يظن أن ليس فيه أحد وإذا فيه صائد فقير يعول نسوة عاطلات وفى يده التى مرنت على الرمى قوس ذات وتر قوى . . .

فعيَّثَ ساعة أفْقَرْنَه بالإيفاقِ والرَّمْى أو باستلال

وكذا حانت النهاية وبدأت المأساة .

فعما قليلٍ سَقَاها معاً بِمُزْعِفِ ذِيفانِ قِشْبٍ ثُمال
سِوى العِلْج أخطأه هارباً بِشَجْراءَ ذاتِ غرارٍ طوال

لقد سقاها الموت ، سوى العاج فإنه استطاع أن يهرب .

بشأوٍ له كضَريم الحري
قِ أو شِقَّة البرقِ فى عُرْضِ خال

وبعد ، فتلك وقفات سريعة فى هذه القصيدة الطويلة ، وهى تذكرنا بكل ما نعرفه عن هذيل فى حديثها عن الحيوان . وكأنما كان الشاعر ينظر إلى الوراء وهو ينشدها ، وكأنما أراد أن يجعلنا نعتقد أن عناية قومه بالحيوان ظلت كما كانت . ومن يدرى فلعله أراد أن يروع فحول عصره ببعض ما كانت هذيل تفعل منذ قديم . إلا أنه كان على أى حال دقيق الحس ، يقظ القلب متغلغل النظرة فى ظواهر الطبيعة شديد الانتباه إلى كائناتها .

الفصل الثالث

الخصائص الفنية فى شعر هذيل

اما وقد فرغنا من هذا الوصف الخاص لمعانى شعر الهذليين ، وحددنا اغراضهم التى داروا حولها فيه ، ولمسنا إلى أى حد وقفوا به مع غيرهم من الشعراء وإلى أى حد خالفوهم ، فينبغى أن ننظر فيه نظرة عامة فنذكر خصائصه التى امتاز بها ، ونبين السمات التى قد تضعه لنا فى إطار خاص كهذا الإطار الذى وضعت فيه مدرسة الطفيل الغنوى وأوس بن حجر وزهير (١) .

وقد لا يروق هذا القول فريقاً من الباحثين فيرده ، مالم يرتب شعراء هذيل ترتيباً تاريخياً بل وما لم يثبت أن بعضهم كان راوية للبعض الآخر وانهم كانوا يتدارسون الشعر ويعرضونه على الرءوس منهم ليروا فيه رأياً .

أما من حيث هذا الترتيب فقد وقفت أمامه عاجزا ، ولم يسعفنى قط ماروى حول القصائد ، فكان أكثرها مجهول التاريخ . ومع ذلك فثمة فريق كبير من شعراء هذيل مخضرم شهد من الجاهلية حظاً وعاصر الإسلام فى آخر حياته ، بل لقد امتدت السنون ببعضهم إلى أيام عثمان ؛ ثم ثبت أن ثمة شعراء عاصروا الأمويين كأمية بن أبى عائذ وأبى صخر وغيرهما . ونحن لو اقتصرنا على هؤلاء — وتاريخهم واضح إلى حد ما — لهان الأمر ، ولكن ماذا نفعل وسواهم يربون عليهم عدًا ؟

وأما أن بعضهم كان يروى للبعض الآخر فلم يثبت لى منه إلا ماروى عن

(١) يمكن أن نجعل هؤلاء فى مرحلة شعرية تالية للمرحلة التى ظهر فيها امرؤ القيس ، وهى تاريخيا تصاحب حروب « داحس والغبراء» وفنيا تخرج من نطاق الطبع حيث تنثال الألفاظ انثيالا وتأتى المعانى على الشاعر سهوا ورهوا — كما يقول الجاحظ — إلى الصنعة التى تستعبد الشاعر وتدخله فى باب التكلف .

أبي ذؤيب وأنه كان راوية لساعدة بن جؤية[1] . ولكنى أعلم أن بعض شعراء هذيل كانوا يجتمعون ولا شك أنهم كانوا ينصتون إلى أشعارهم ويتدارسونها، فمثلاً يروى أن حسان بن ثابت خرج من أهله يرتجز بأحياء العرب فمر بهذيل ورجز بهم بقوله:

هل هنا من وُلْدِ قِرد من أحَدْ
يَرُدُّ عنهم رَجَزَ اليوم وغد

فسمعه أبو ذؤيب وأبو خراش وأبو جندب وكانوا مجتمعين فى خباء لهم . فلما سمعوه ابتدروا باب الخباء يسبقهم أبو ذؤيب وهو يقول :

نعم لَعَمْرُ اللهِ نَبْتٌ ذو عَتَدْ
إنى لَذو اليوم وذو أمس وغدْ
بنى هذيلٍ وتميمٍ وأسدْ
والمَرَئِيِّينَ بأعلى ذى اللَّبَدْ
لو وردوا البحر لأمسى كالثمدْ
لو زيد فيهم ألفَ ألفٍ لم يزدْ
ارجع إلى مَعْزِك تَيْساً ذا جِيَدْ[2]

والقصة تعنينا من ناحية دلالتها على ماوراء اجتماع الثلاثة ؛ كان منهم صعلوكان من الذؤبان .

ثم علم أن كان لأبى خراش إخوة عشرة ، وكان كلهم شعراء دهاة كما مر بنا . وعلم أيضاً أن صخر الغى كان أخاً لحبيب الأعلم وكلاهما شاعر مجيد ، كما كان مالك وأسامة ابنا الحارث من أبرز شعراء هذيل ، وقل مثل ذلك عن عمرو ذى الكلب وأختيه جنوب وريطة كما كان أبو قلابة عم المتنخل . وإذن فبين أيدينا طوائف لابد أن تكون لكل طائفة بعض ميزات ، وهذه قد تلتقى بميزات أخرى كبرى تأثروها وهم يتناشدن القصيد ويتناقلونه من لسان إلى لسان . بل ربما كان فى اختلاف الرواة فى نسبة بعض القصائد إلى أصحابها — كما مر

(١) ابن قتيبة فى الشعر والشعراء ٢ : ٦٣٥ .
(٢) ديوان أبي ذؤيب ليوسف هل ٣٦ المرئيين من بنى امرىء القيس بن زيد مناة بن تميم .

بنا — مايدل على وجود هذه الخصائص مجتمعة عند الشعراء ، فلم يستطع الرواة أن يفطنوا إليها ويفرقوا بين أصحابها .

ثم يروى بعد ذلك كله أن المتنخل كان ينظر فى شعر قومه فيحكم عليه ويسقط منه الردىء ، وأظن أن للقبه فى ذلك نصيباً ، فهو اسم فاعل من تنخل، يقال نخلته أى تخيرته ، فكأنك صفيته من نخالته[1] .

أليس فى ذلك كله مايدل على أنا بإزاء مدرسة شعرية أو ما يشبه هذه المدرسة وأن لها صفات معينة ؟ إنى أرجح ذلك ، وأرى أن كان للهذليين — مهما قيل فى أمرهم — خصائص وصفات فنية مشتركة ، فما هى ؟ وكيف تناولها ؟ أننقد هذا الشعر فى لفظه ومعناه وموضوعه ونحوه وعروضه وقوافيه؟ قد يعرض لنا هذا ولكنه لن يكون كل شئ ، ولذا فلن نقطع بأمر هنا حتى نقوم بدراسة الشعر دراسة فنية ، فقد تؤدى الدراسة إلى غير مانظن !

على انى أقف لأقول إنا قسمنا خصائصه إلى ثلاثة أقسام : قسم يعنى بالناحية البنائية للقصائد ، وقسم ثان يعرض لبعض صفات موضوعية للشعر ، وقسم أخير يفسر لنا كيف كان الهذليون يصوغون عبارتهم .

— ١ —
خصائص بنائية

وفى هذا القسم لن نعدو بناء القصيدة .. فنسأل أ كان للقصائد الهذلية بناء خاص ، أهى طويلة مفرطة الطول أم هى قصيرة مفرطة القصر ؟ أم كان الشعراء يتخذون فى صياغتها طريقاً وسطاً ؟ وماذا يمكن أن نقول فى وزن القصيدة وقافيتها ومطلعها ؟ وكيف كانت الألفاظ التى تبنى بها ، أهى جزلة ، أم رقيقة ؟ أفيها غرابة ، أفيها إسفاف ؟

كل هذه مسائل لابد إلى النظر فيها من سبيل . وما كان لنا أن نزعم انا فهمنا شعر هذيل دون أن نحيط بهذه المظاهر إحاطة صحيحة أو تقرب إلى أن

(١) خزانة الأدب ٢ : ١٣٧ .

تكون صحيحة . وليس يكفى أن نقول إن هذيلاً قبيلة شاعرة قالت فى كذا وكذا حتى نظن أنا فعلنا كل شىء .

(ا) الكم :

ونقصد به هنا وحدات القصيدة أو عدد أبياتها ، وقد وجدنا منذ قديم عناية كبيرة بهذه الناحية ، وعرفت طائفة من الشعراء بأصحاب المطولات ، ونقل ابن قتيبة عن الأصمعى أنه قال : ما قيلت قصيدة على الزاى أجود من قصيدة الشماخ ولو طالت قصيدة المتنخل كانت أجود[1] . وما أدرى لماذا يرتكز الأصمعى وغيره على طول القصيدة ، ولماذا يشترطون فيها الطول لتجود ؟

هذا شىء لا يعنينا على أى حال ، وإذا كنا نبحث فى كم القصيدة الهذلية فليس ذلك لبيان جودتها او رداءتها ، إنما ذلك رهين بحاسة الذوق الناقدة .

ولكننا لن نقول قولتنا إلا إذا عدنا نقرأ هذا الإحصاء الذى عمله جودفرى كوزجارتن حين أشرف على طبع ديوان الهذليين الموجود فى ليدن . قال إن فى المخطوط خمساً وأربعين قصيدة تعدت العشرين بيتاً ، وتسعاً وأربعين أقل من العشرين ، وتسعاً وسبعين ومائة مقطعة تقل أبيات الواحدة عن عشرة أبيات[2] .

أرأيت هذا العدد الضخم من المقطعات ؟ أفنقول إن كم القصيدة عند هذيل كان دون المألوف أم نكتفى فنسأل لماذا شاعت هذه الظاهرة لدى الهذليين ؟

لنرجع إلى حياتهم ؛ فهى المصدر الأول الذى يفهمنا شعرهم . . لنرجع إليها كى نذكر من جديد أنها كانت حياة شاقة كلها صراع وسرعة ونهب . لقد كانت تغزو مجمعة ، وكانت تغزو مفردة . وكثر فيها الشذاذ حتى لقد عرفت بقبيلة الشذاذ . وكان فى وجود عنصر الذؤبان فيها ما أضفى على معاشها شيئاً كبيراً من التوثب والاندفاع حتى لكأنما كان كل شىء يؤثر هذه الحياة السريعة التى تأتى أسبابها من أقرب سبيل حتى ولو كان فيه الخطر .

---

(١) الشعر والشعراء ٢ : ٦٤٢ .

(٢) راجع ما قلناه فى الفصل الأول من هذا الباب .

وجود الذؤبان إذن دفع الحياة فى سرعة ، وسرعة الحياة تلزمها سرعة اخرى فى الفن ، والسرعة الفنية لاتحتاج إلى تلك الأناة التى تستلزمها القصائد الطوال ، فهذه سمة الحياة الآمنة القريرة التى تجد دائماً من الوقت فسحة للتفكير المستطيل .

السرعة الفنية لاتميل كثيراً إلى التطويل . ومن هنا جاءت قصائد الهذليين قصيرة حتى لقد غلبت المقطعات على ديوانهم . وذلك أظهر مايكون فى العصر الجاهلى باستثناء بعض قصائد للمتنخل وأبى ذؤيب وساعدة بن جؤية . حتى إذا تقدمت السنون ، وقرّ الإسلام فى نفوس الناس ، وأخذت الحياة سبيلاً آمنة وادعة ، تمادى الشعراء فى وقوفهم على القصيدة فجاءت طويلة ، فينشد أمية بن أبى عائذ مثلاً أكثر من ثمانين بيتاً فى إحدى قصائده ، وينشد أبو صخر قرابة السبعين فى قصيدة له ، ويقول مليح القردى ثلاثة وتسعين بيتاً فى قصيدة أخرى ، ويرثى عبد الله بن أبى ثعلب بعض قومه بأربعة وستين بيتاً جليلاً .

فمسألة الكم إذن ليست هيّنة ، بل هى تتصل بحياة هذيل اتصالاً شديداً ونستطيع ان نلمس بعض مظاهر السرعة فى بعض ما يروى عنهم ، فمثلاً يقال إن ابا ذؤيب أنشد وهو يحارب فى يوم البَوْباة :

أدرك ارباب النَّعَمْ وحمى الضرب وحمْ
بكل ملحوب اشَمْ مُذَلَّق مثل الزُّلَمْ
رُدُّوا السَّبِيَّ والنَّعَمْ يا حبذا ريحُ بِدَمْ(١)

ولسنا نستطيع أن نقول إنه كان يمكن أن ينظم أكثر من هذا حينذاك ، فثمة حركة ودأب ونشاط ، وكان أن أسرع بهذا الرجز مجزوءاً . بل اسمع إلى ما يقول صخر الغى وهو يرى الموت محدقاً به :

يا قومِ ليست فيهمُ غفيره فامشوا كما تمشى جمالُ الحيره
واعلوهمُ بالقُضُب الذكوره(٢)

(١) البقية ٩ ملحوب : الخفيف قليل اللحم ، مذلق : محدد ، الزلم : القدح .

(٢) الديوان ٢ : ٢٣٨ ليست فيهم غفيرة : أى لايغفرون ذنبا ، القضب الذكورة : السيوف .

كان المسكين يدعو قومه بهذا الرجز ، فقتله اعداؤه قبل أن ينجدوه . ولما فرّ أبو الرعاس فى الخندمة امام جيوش الرسول ولامته امرأته قال لها يعتذر :

إنكِ لو أبصرتنا بالخَنْدمهْ إذ فرّ صَفوانُ وفر عِكرِمهْ
وأبو يزيدَ قائمٌ كالمؤتَمَهْ واستقبلتهُم بالسيوفِ المؤمنهْ
ضَرْباً فلا تسمعُ إلا غمغمهْ تَقطَع كلّ ساعدٍ وجمجمهْ
لهم نَهِيت خلفنا وهمهمهْ لم تنطِقى فى الَّلوم ادنى كلِمَهْ

فكان كل شيء سريعاً ، هجوم الرسول وفراره هو مع المشركين ، ثم عودته إلى زوجته ولومها له ورده عليها .

ثم إن كل ما يروى عن غزوات الذؤبان ووصف مغامراتهم لم يكن يطول حتى إنه ليشبه فى ذلك ، الوقت الذى كانت تستغرقه الغزوة .

كل هذا واضح ظاهر ، وهو إن لم يكن يظهر فى حركات مشابهة عند الوادعين الآمنين فقد كان اثره يأتيهم شبه عدوى من الذؤبان . لقد كان هؤلاء فحولاً فصحاء لهم باع طويل فى الشعر ففتنوا قومهم به وببأسهم جميعاً . كانوا أقوى من أن لا يدعوا فى نفوس قومهم بعض الآثار .

افلا ترى كيف كانت مسألة الكم مهمة ؟ بل ستزداد أهميتها من الناحية الموضوعية حين نعرض لها فى صفحات قادمة إن شاء الله .

(ب) تحرر :

اما هذا التحرر ففى مطلع القصيدة ، وأقصد به التخلص من التصريع . ولقد جرت عادة الشعراء ان يصرعوا ، وكان من أميز ما يميز القصائد — لا سيما الكبير منها — أن تكون مصرعة وإلا فقدت نغمة توقيعية كان يألفها الشاعر ويستطيبها ويميل إليها . بل قد رأينا بعض القصائد تصرع أكثر من مرة كمعلقة امرئ القيس . صرعت ثلاث مرات ، فى مطلعها وهو :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ثم فى قوله :

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل فإن كنت قد ازمعت صرمى فأجملى

وأخيراً فى قوله :

ألا ايها الليل الطويل ألا انجل بصبحٍ وما الأصباح منك بأمثل[1]

وهو قد والى بين ثلاثة أبيات مصرعة فى إحدى قصائده فقال :

تروح من الحى أم تبتكر وماذا عليك بأن تنتظر
أمرخٌ خيامهم ام عشر أم القلب فى أثرهم منحدر
وشاقك بين الخليط الشطر وفيمن اقام من الحى هر[2]

واما عمرو بن كلثوم فقد صرع فى معلقته مرتين ، إحداها فى المطلع وهو :

الا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا

والثانية فى قوله :

قفى قبل التفرق ياظعينا نخبرْك اليقين وتخبرينا[3]

وصرع عنترة مرتين متعاقبتين فقال :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم
يا دار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى[4]

وقد يقال إنهم فى الغالب كانوا يفعلون ذلك حينما ينتقلون من موضوع إلى موضوع ، ولكنا رأينا أيضاً أنهم كانوا يصرعون فى الموضوع الواحد . أما الهذليون فلم تكن موضوعاتهم فى القصيدة تتعدد — كما سنرى — بحيث يصرعون عند كل موضوع فضلاً عن أنهم كانوا يدعونه فى المطلع . وما أدرى لهذا التحرر سبباً إلا أن يكون راجعاً إلى شيوع المقطعات ، فهذه لا يشترط فيها التصريع . . لوحظ ذلك فى أكثر ما أنشد منها وإذا كان التحرر من

(١) شرح المعلقات السبع ص ٣ وما بعدها .
(٢) ابن رشيق فى العمدة ١ : ١١٥ .
(٣) شرح المعلقات السبع ص ١١٩ وما بعدها .
(٤) المصدر السابق ١٣٨ .

التصريع ظاهرة واضحة فى شعر المقطعات فقد وضحت كذلك فى كثير من القصائد القصيرة . وأما القصائد الطويلة التى لم تصرع فقد جاءت إما تشبهاً بالمقطعات ، وإما عزوفاً عن التقليد — لسبب ما — وإما لورود المطلع متصلا كما نرى فى قول أبى ذؤيب :

عرفت الديار كرقم الدوا ة يزبرها الـكاتب الحميرى[1]

وقوله :

أصبَـح من أمّ عمروٍ بطنُ مرّ فأجـ ـزاعُ الرجيعِ فذو سِدرٍ فأملاح[2]

ولعل هذا الشاعر كان أحرص شعراء هذيل على التصريع ، فقد ورد أكثر من نصف قصائده مصرعاً ، وأما الجزء الباقى من شعره فوزع بين مقطعات وقصائد صغيرة ، وليس فى قصائده الطوال سوى أربع جاءت بدون تصريع ، إحداها لامية وأخرى بائية واثنتان حائيتان[3] . وقد لوحظ أن الشعراء فى العصر الإسلامى كانوا يهتمون بالتصريع اهتماماً عجيباً .

ومع ذلك فيمكن أن يقال إن خير من يمثل هذا التحرر هم الذؤبان وعلى رأسهم أبو خراش والأعلم وعمرو ذو الكلب ، مع أن لهم قصائد طوالا .

ولقد تبع ذلك التحرر ظاهرة أخرى هى التخلص من المقدمات الغزلية لا سيما عند الذؤبان ، ولماذا كان هؤلاء يتغزلون ؟ أكان لديهم الفراغ ليعقدوا صلات بالنساء ويتحببوا إليهن ؟ إنهم كانوا ينفقون أياماً فى العمل الدائب ، وما كان يتاح لهم ما يتاح لهؤلاء الوادعين الناعمين . وكذا لم يتغزلوا ، بل وكذا لم يبكوا الدمن لأنه لم يكن لهم أبداً عهدٌ قديم يذكرونه ، فهم يعيشون لحاضرهم فقط ! إنها الحياة السريعة التى يحيونها .

وأقول مرة أخرى إن أبا ذؤيب كان أحرص شعراء هذيل على هذه المقدمات فشبَّبَ وبكى الأطلال فى إحدى عشرة قصيدة . وأما ساعدة بن جؤية

---

(١) الديوان ١ : ٦٤ .

(٢) الديوان ١ : ٤٥ .

(٣) الديوان صفحات ٣٤و٧٠و١٠٤و١٢٩ على التعاقب من القسم الأول .

ففعل ذلك فى خمس قصائد فقط ، وقد روى لهذين الشاعرين أكثر مما روى لأى شاعر آخر . وأما المتنخل فلم يذكر الدمن إلا مرة واحدة . وفى العصر الإسلامى شبب أمية مرتين ، واستعبر على الديار مرتين أيضاً مع أن له فى الديوان والأغانى شعراً كثيراً .

وبعد ، فتلك ملحوظات سريعة أثبتناها فى حديثنا عن مطلع القصائد ، وما قد يكون فيها من مقدمات غزلية . وكانت نظرتنا لا تستكنه معانيها ، لأنها ناحية لا تمس البناء ولا هى من حديثنا هنا .

(ح) الأبحر الخمسة :

ولست أدرى لما أريد ان اتحدث عن بحور الشعر وأنا أعلم أن أمرها ليس بأيدى الشعراء ، فما كان الشاعر يوماً مكلفاً أن يقول فى هذا المعنى قصيدة من بحر كذا ، وفى ذلك المعنى قصيدة من بحر غيره . وأذكر أنى قرأت أن ابن العميد دعا إلى وجوب اختيار الوزن والقافية حتى يتلاءما والموضوع الذى يتكلم فيه(١) . ولئن كان الأمر كذلك لكان الشعر تجربة مادية لا أثر فيها للمعاناة النفسية الصادقة ، ولكنا نعلم أنه تجربة شعورية قبل كل شىء ، بل ونعلم أنه يصنع نفسه بنفسه فى أكثر الحالات .

والواقع أن الشاعر الحقيقى لا طاقة له على اختيار البحر أو القافية كما يزعم ابن العميد أو غيره ممن يذهب مذهبه ، لأن له من إحساسه الجياش ما يصرفه عن هذه الإرادة الواعية . وآية ذلك أنا نرى الشاعر يشبّب فى بحر معين ثم يهجو بنفس البحر ، بل هو يشبب ويهجو فى قصيدة واحدة لها نفس البحر والقافية . وما أظن أن من حق احد ان يطالبه بتغيير شىء من قصيدته لأجل هذا ، فما بالك بمن يجعل قصيدته تدور بكل أنواع الشعر المعروفة من غزل وشكوى ورثاء ومديح وعتاب وفخر . . . إلخ . . .

إذن لست مطالباً ان أبحث لماذا قال معقل بن خويلد مثلاً بائيته التى مطلعها :

إما صرمت جديد الحبـا   لِ منا وغـيَّرك الآشب

(١) طه أحمد إبراهيم فى تاريخ النقد الأدبى عند العرب ١٥٤ .

فى المتقارب ، وهم يقولون عنه أنه أخف من أن يضم افكاراً ضخمة أو يسع موضوعاً كبيراً . إنا لو نظرنا فيما تناولته هذه القصيدة لرأينا فخراً ووصفاً وعتاباً وهجاء ، ثم إنها قبل كل شيء قيلت فى مناسبة عريضة ضخمة . . قيلت فى وفود معقل بأسرى الحبش وحمير على النجاشى ليفدى بهم أسرى العرب .

ومن المعروف كذلك ان الطويل والبسيط هما من الجلال والغنى وطول النفس بحيث يسعان كل شيء ، فما بال الشعراء يستخدمون غيرها حينما يتناولون موضوعات متعددة لها خطورتها ؟ إنا نعيد القول مرة أخرى بأن هذه الأمور ليست من السهولة ليُتدخل فيها لأنها من صميم عمل الشاعر .

فإذا كنت قد افردت لها عنوانا فليس إلا لأسجل شيئاً عنّ لى فى أثناء دراستى لأشعار الهذليين . ذلك انهم استخدموا الأوزان الشائعة . استخدموا منها خمسة فقط ، حتى لكأنما كانت هذه وحدها ما عرف حتى نهاية العصر الأموىّ .

أما هذه الأبحر فهى الطويل والوافر والبسيط والكامل والرجز . أنا لا ادرى لماذا اختاروا هذه بالذات ، ولكنى أعلم انهم استخدموها بهذا الترتيب الذى ذكرتها به . كان استخدامهم للطويل أكثر وكانت عنايتهم بالبحر المتقارب دون الخمسة جميعاً فلم أجعله بينها .

ولقد قمت بإحصاء طريف فى الديوان الذى طبعته دار الكتب لهذيل فوجدت أكثر من سبعين قصيدة قيلت فى الطويل ، ونصفها قيل فى الوافر ، وأحصيت قرابة عشرين قصيدة فى البسيط ومثلها فى الكامل . بينما كان باقى شعرها رجزاً باستثناء سبع قصائد صيغت فى المتقارب .

وطبيعى أن هذا الإحصاء يعطينا الفكرة العامة عن سائر الدواوين ، وما أظن أن هذه النسبة تتغير كثيراً . ولكنى أقول إن انتشار الطويل بين الهذليين وإلى جانبه البسيط يفتح الباب لنزعم أنهم كانوا أميل إلى إيجاد وحدات موسيقية متجاوبة فى شعرهم ، فالتفعيلة الأولى لكل من هذين البحرين تساوى الثالثة ، وتتساوى كذلك الثانية بالرابعة . ويبدو أن الوحدات المتساوية التى نراها فى الوافر والكامل والمتقارب لم تكن لتستهويهم دائماً ، أو لم تكن رتابتها تلائم هذه العواطف التى جاشت فى صدورهم :

ولن نحاول بعد ذلك أن نلتمس ما يمكن أن نسميه تنويعاً فى موسيقى الشعر ، فهم لم يفعلوا شيئاً من هذا القبيل . وغاية ماجروا عليه أنهم استخدموا — كغيرهم — مجزوء بعض الأبحر ذات الوحدات المتساوية كالكامل والوافر ، نشاهد ذلك فى بائية الأعلم التى مطلعها :

لما رأيت القوم بالعلياء دون قِدى المناصب

كما نشاهده فى مرثية لأبى العيال أولها :

فتى ما غادر الأجناد لا نِكس ولا جَنَب

وقد مرتا بنا فى حديث سابق .

(ى) غرابة اللفظ :

والألفاظ هى اللبنات التى تبنى بها القصيدة ، ولولاها ما استطعنا أن نقيم من المعنى صورة نعجب بها . واللفظة الواحدة بما هى دالة كائن حى يعيش ويتطور ويصور كل مافى الحياة . فإذا كنا نبعد بها أربعة عشر قرناً ونلتمسها فى البادية فلا نتوقع أن نراها من السهولة بحيث تلائم أذواقنا . وفتش فى دواوين هذيل فستعثر كثيراً ودائماً على كلمات تقف بينك وبين ماتريد من فهم وتذوق واستمتاع . فهل نرى هذه الكلمات عيباً فنقول مع من يقول إن عنجهية البدو تفسد عملهم الأدبى ؟

إن من أعجب ما قرأت ما كتبه القزوينى فى إيضاحه عن الفصاحة والبلاغة إذ قال فيما قال « أما فصاحة المفرد فهى خلوصه من تنافر الحروف والغرابة.. »(١) وأنا أفهم أن تنافر الحروف شىء معول عليه جداً فى سلامة اللفظة من العيوب وفى ميل الأذن لها وإساغتها ، ولكنى لا أفهم أن الغرابة مما يفسد فصاحة الكلمة ، وإلا لأنكرنا على المتنخل طائيته التى مطلعها :

عرَفتُ بأجدُثٍ فنعافِ عِرْقٍ علاماتٍ كتحبير النِّماط

---

(١) الإيضاح لمختصر تلخيص المفتاح ٣ .

ولا يهمنا ذوق كثير من القدماء حين جعلوها من منتقيات العرب[1] ، فهى حافلة بالكلمات الغريبة التى يسميها القزوينى وغيره حوشية . ومع ذلك لم تفسد جمالها ، بل بالعكس أضفت عليها هالات من الجلال وظللتها بظلال رائعة . ولقد روى أن الأصمعى عمل قطعة كبيرة من أشعار العرب فلم ترض العلماء لقلة غرابتها[2] . أفلا ترى أنهم فى أحيان أخرى يشترطون الغرابة فى جودة القصيدة أو أى عمل أدبى ؟

فعلى أىّ أساس نحكم على شعر هذيل ، هل ننكر غرابة كلماته وهى شىء يميز ديوانها ؟ ماذا نقول فى تلك الأبيات التالية التى يرثى بها أبو ذؤيب نشيبة :

وطَعنةِ خَلْسٍ قد طَعَنْتَ مُرِشةٍ
كعَطِّ الرداءِ لا يُشَكُ طَوارُها

مُسَحْسِحَةٍ تَنْفِى الحصَى عن طريقها
يُطيِّرُ أحشاءَ الرَّعيبِ انثارُها

ومُدَّعَسٍ فيه الأنيضُ اختفيتَه
بجرداءَ ينتاب الثَّميلَ حمارُها

وعاديةٍ تُلقِى الثيابَ كأنها
تيوسُ ظباءٍ مَحْصُها وانبتارُها

سَبَقْتَ إذا ما الشمس كانت كأنها
صَلاءةُ طِيبٍ ليطُها واصفرارُها

إذا ما الخَلاجيمُ العلاجيمُ نَكلَّوا
وطال عليهم حَمْيُها وسُعارُها[3]

---

(١) جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى طبعة بولاق ص ١١٨ وقد ذكر ابن قتيبة فى الشعر والشعراء ٢ : ٦٤٣ أنها أجود ما قيل فى قافية الطاء .

(٢) فهرست ابن النديم ص ٥٦ .

(٣) الديوان ١ : ٣٠ وما بعدها وعط : شق ، يشك : يخاط ، طوارها : طولها يصف الطعنة بأنها متسعة ترش الدم ويشبه ما تحدثه فى البدن من الشق بشق الثوب الذى لا يلتئم ، مسحسحة : مسيلة للدماء ، الرعيب : المرعوب ، مدعس : حيث يشتوى اللحم ، الأنيض : اللحم الذى لم ينضج ، الثميل : بقية الماء ، عادية : قوم يعدون ، محصها وانبتارها : نوعان من سيرها ، صلاءة : حجر عريض يدق عليه ، ليطها : لونها حين تصفر ، الخلاجيم العلاجيم : الطوال ، نكلوا : جبنوا ، سعارها : حرها .

افنزعم أنه لم يوفق فيها وقصر ؟ هل يكفى أن نجهل مدلولات الغريب فيها حتى تمجها أذواقنا ؟

لماذا لا ننقر عنها فى كتب اللغة المبسوطة ؟ إن النظر فى معجمات اللغة شائع فى كل لغة ، وليس لنا أن نأخذ الهذليين بألفاظ كانت تجرى على ألسنتهم يوماً ما ثم قل استعمالها على مدى الأيام .

غرابة هذيل إذن ليست مما يشوه جمال أشعارها . بل نحن نحس فيها جلالاً ، ويكفى فى حل مشكلتها أن نرجع إلى قواميس اللغة نستشيرها . افعل ذلك فى هذه الأبيات التى رويناها لأبى ذؤيب فسترى أنها من أجمل ما أُبِّنَ به راحل ؛ تحدث فيها عن بأسه وكرمه وشجاعته وقت النزال حين يشتد أوار الحرب ويفكر الأبطال فى النكوص .

ونستطيع أن نميز غرابة هذيل عن غرابة فحول الأمويين فى نقائضهم ؛ فهؤلاء كنا فى حالات كثيرة نستشير المعاجم فى كلماتهم الغريبة فلا نعثر على شىء ذى قيمة كبرى وراءها ؛ فهى ضخمة ولكن فى مبناها فقط ؛ ويظهر أن تعمدهم إيثارها واختيارها كان يخطئهم الجادة فى أغلب الأحيان . أما الهذليون فكانوا يتكلمون عن طبع أصيل وبكلمات يتداولونها فى باديتهم ؛ فجاءت غرابتهم عن أصالة تحمل من معانى الحياة جمالاً كثيراً . وشعرهم من هذه الناحية شىء قيم حقاً وإن حجبته الغرابة اللفظية .

ولكنا أحياناً لا نجد هذه العنجهية ؛ وإنما تلقانا ألفاظ رقيقة . وأقول رقيقة دون أن أفسرها بالميوعة أو الإسفاف . ونراها فى الغزل بنوع خاص وفى بعض الرثاء واقرأ مرثية المتنخل فى أبيه فستراه يقول :

لَعَمْرُك ما إن أبو مالكٍ ... بِوَانٍ ولا بضعيفٍ قواه
ولا بألدَّ له نازعٌ ... يغارِى أخاه إذا ما نهاه
ولكنه هيِّنٌ ليِّنٌ ... كعاليةِ الرُّمحِ عَرْدٌ نساه
إذا سُدتَه سدتَ مطواعةً ... ومهما وَكَلْتَ إليه كفاه
ألا من ينادى أبا مالكٍ ... أفى أمرِنا أمرُه أم سواه

أبو مالك قاصرٌ فقرَه على نفسه ومُشيعٌ غناه[1]

وهو هو الذى يقول فى رجل فقير جائع :

قد حالَ دون دَرِيسَيْه مؤوِّبةٌ
نِسعٌ لها بعضاه الأرضِ تهزيز
كأنما بين لَحييه ولَبَّته
من جُلبَةِ الجوع جيار وإرزيز[2]

ثم هو قبل كل ذلك صاحب الطائية المشهورة وهى جمة الغريب ؛ وأولها :

عرفت بأجدُثٍ فنِعافِ عرق علامات كتحبير النماط

وفى الغزل نرى سهم بن اسامة يقول :

ألا أرقتنا بالسُّرى أمُّ نوفل فأهلاً بذاك الطارق المتغلغل
كما أرِقت بالطَّفِّ من رَمْلِ عالجٍ أميةُ بعد النَّوْم من أهل مجدل

وهى قصيدة عرضنا لها من قبل ؛ وكل أبياتها رقيقة اللفظ جميلة . ومثلها ما قاله أبو الحنان فى قصيدته التى مطلعها :

ألا يا من لقلبٍ مستهام إلى جمل على ضعف الرّمام

وكنا عرضنا لها أيضاً ؛ وفيها هذه الرقة التى نحن بصددها . ويطول بنا الأمر إذا استكثرنا الشواهد فمن شاء رجع إليها فى مواضعها وهى كثيرة أوضح من أن ندل عليها .

* * *

ولكن ينقصنا أن نسأل : هل ظلت الغرابة سمة الشعر الهذلى حتى بعد أن استقر الإسلام فى نفوس العرب ودفع بهم إلى خارج جزيرتهم ؟ أنا لا أنكر أن تكون الحياةُ الجديدة وما تبعها من تنقل ورحلة قد عملت عملها فى اللغة

(١) الديوان ٢ : ٢٩ .

(٢) الديوان ٢ : ١٦ ، دريسية : ثوبيه الخلقين ، مؤوبة : ريح يجىء مع الليل ، نسع : اسم من أسماء الشمال ، العضاه : كل شجر له شوك ، لبقة : ما تحت رقبته ، جلبة : أزمة ، جيار : حر يخرج من الجوف ، أرزيز : طعنة أو رعدة .

والفاظها ؛ إلا ان ذلك احتاج إلى وقت طويل . ومن هنا رأينا المخضرمين بل ومن جاء بعدهم مباشرة لا يزالون يؤثرون الغريب ؛ واقرأ فى ذلك طائية أسامة بن الحارث وهو من المخضرمين وخال أميـة بن أبى عائذ (١) ، ومطلع قصيدته :

ما أنا والسَّيْرَ فى مَتْلَفٍ يعبِّر بالذَّكَر الضابط

بل اقرأ كل ما روى له من شعر ، فلن تجد فيه ليناً واضحاً ، وإنما هى العنجهية التى عهدناها فى البادية يوم لم تكن هذيل تختلط بأحد . ثم اقرأ لأمية بن أبى عائذ ؛ لاميته التى تحدثنا عنها من قبل وأولها :

ألا يالقوم لطيف الخيال يؤرق من نازح ذى دلال

فهى مليئة بالغريب . ودع أمية إلى أبى صخر فلن تجد أثر التحضر فى شعره كثيراً ، واقرأ له فى ذلك بائيته التى يقول فى مطالعها :

تَعَزَّيْتَ عن ذِكْرِ الصِّبَى والحَبائِب
وأصبحت عِزْهاً للصِّبَى كالمُجَانِب (٢)

وفيها يعرض لظعن له فيهن صاحبات فيقول :

فسربٍ كأمثال الدُّمَى مُنْتَهى المُنَى
يُضِئْنَ الدُّجَى لُفٌّ ثقال الحقائب
قصار الخطا شُمٌّ شموسٍ عن الخَنَى
خِدال الشوى فُتْخ الأكُفِّ خَرَاعِب
كموز السُّقَى فى حائرٍ غَدِقِ الثَّرَى
عِذاب اللَّمَى يُحْبِين طلَّ المَنَاسب
كبيض النَّقا فى حاجرٍ قَرِدِ الثرى
جلَتْه الصَّبَا ميلٍ طوالِ الذوائب

(١) شرح أشعار الهذليين ٢٠٥ .

(٢) البقية ص ٧٥ العزهى : الذى لا يحب اللهو ، خدال : ثقال . فتخ الأكف : من الرخوصة فهى لينة ، خراعب : ينثنين لينا ، السق : التى تسق الماء ، حائر : مجتمع الماء ، حاجر : كثير الماء ، اللمى : اللعس ، طل : أحسن المناسب ، قرد : مجتمع رطب .

وما أظن أحداً يزعم ان قائل هذه الأبيات شاعر طرق بلاط الأمويين وسافر إلى مصر وعاش فيها مليا .

ثم دع هذا أيضاً إلى مُلَيْح فستراه يقول فيما يقول :

هل هيَّجَتْك طلولُ الحيِّ مقفرة
تعفو معارفها النُّكْب السجاسيج
كالمعوذات رجعن السجع فى هَوَج
جُوفٍ لهن على الأولاد تهديج
إذا كَسَرْنَ عن الأطلال عاقبها
حيرانُ دانى عَزَالى الماءِ منجوج
وقد قطعتُ طباقَ الليل تحملنى
أدْماءُ مثلُ نَضِيِّ الجفن حُرجوج
ما طورة الرِّجْل فى أنسائها شَنَج
وفى الذراعين إيناء وتفريج
كأن صفحة بابٍ حُلّة من شَبَحٍ
إلى الشراخيب والدايات منسوج(١)

وليس يخفى على القارئ ما فى كلمات الشاعر من غرابة مما يحملنا على الظن انه لم يترك باديته إلا فى أخريات حياته ، فقد رويت له فى البقية قصيدة ذكر فيها مصر و بعض آثارها(٢) ، وكانت سمتها الغرابة أيضاً .

---

(١) البقية ١٢٨ .

(٢) راجع البقية ص ١٢٦ فى لامية له ، الأبيات ٦ ، ٧ ، ٨

— ٢ —

خصائص موضوعية

وندع تلك المسائل المادية الصرفة لنلقى مسائل أخرى ليست أقل خطورة منها ، بل لعل لها الأثر الأول فى تقويم القصيدة . ذلك أنها تمس معانيها مساً قوياً ، وتتصل بموضوعاتها اتصالا لا يمكن إنكاره . فكيف تصوَّر الهذليون القصيدة من الناحية المعنوية ؟ أخرجوا بها عن المألوف مما شاع أم أخلصوا للتقاليد فلم يفعلوا شيئا ؟ ومم كانوا يلتمسون موضوعاتهم ؟ أحلّقوا فى السماء أم دبُّوا بها على الأرض ؟ كل هذه وغيرها مسائل تعرض لنا فى هذا الحديث ، وما كان لنا أن نهمل أمرها ما دمنا فى سبيل درس فنى ننشد من ورائه خصائص وصفات .

(١) الوحدة الموضوعية :

أتذكر ما قلناه قبل عن مخطوط ليدن وغلبة المقطعات والقصائد القصيرة عليه ؟ إن خمساً وأربعين قصيدة طويلة منها أربع عشرة لأبى صخر وتسع لمليح القردى — على ما جاء فى البقية — يرينا إلى أىّ حد أثر عن الهذليين عدم الإطالة . ولو أضفنا إلى هذا العدد ما روى لأبى ذؤيب وساعدة بن جؤية والمتنخل ممن لم يرد ذكرهم فى المخطوط لما زاد عدد القصائد الطويلة كثيراً .

ونريد من هذا الاستطراد أن نتحدث عن موضوعات هذه القصائد الطويلة ثم نعقب بالقصير منها والمقطعات ، حتى نتنهى إلى وحدة زعمتُها وأنا أضع عنوان هذا البحث . وتنظر الآن فى قصيدة طويلة لأبى شهاب المازنى قالها فى يوم البَوباة ومطلعها :

ألا يا عناءَ القلبِ مِن أم عامرٍ ودِينَتِهِ مِن حُبِّ مَن لا يجاور(١)

ونقرا بعد ذلك ثلاثة أبيات أخرى فى هذا التقديم ، ثم يَدع كل شىء

(١) راجع البقية صفحة ١٠ دينته : عادته أو دينه كأنه أراد ذله وانقياده .

ويفخر بقومه ويصعد بهم إلى السماء ويتحدث عن وقائعهم ويشيد بأسهم. ثم نحاول أن نبحث عن شيء غير هذا فلا نجد .

ولأبي الخنّان الهذلي قصيدة مكونة من اربعة وعشرين بيتاً مطلعها :

الا يا من لقلب مستهام إلى جمل على ضعف الرمام

لقد قرأناها من قبل ورأيناها كلها غزلا بصاحبته « جمل » ووصف حسنها وولعه بها وعذل الناس له ، ثم في ستة أبيات أخيرة يصف ناقة حملته إلى صاحبته . وتنتهي القصيدة ولا شيء غير هذا .

وندع هذين الشاعرين إلى أبي ذؤيب في عينيته فنجده يقصرها كلها على الرثاء . حقا هو يبدأ أبياته بوصف حاله وحديث أميمة له ، ولكنه كان يقصد بذلك الوصول إلى أولاده . ثم يدع كل شيء ويقص علينا ثلاث مآسٍ مفزعة كل واحدة مستقلة عن الأخرى وإن كانت تدور حول فكرة واحدة هي ريب الدهر .

وأما قصيدته التي يرثي بها نشيبة ومطلعها :

هل الدهر إلا ليلة ونهارها وإلا طلوع الشمس ثم غيارها(١)

فإنها تسعة وثلاثون بيتاً ، بدأها بتشبيب بأم عمرو ، واستطرد منه إلى الخمر ، وعند البيت الثامن عشر بدأ يلتفت إلى قومه بقوله :

فإنك لو ساءلت عنا فتخبري إذا البزل راحت لا تدرُّ عشارها

فتهيأت له الفرصة ليفخر بهم ، ولكنه لا يطيل لأنه مشغول بأم عمرو ، ولذا فهو يرجع إليها في البيت الخامس والعشرين ، ويظل معها حتى البيت التاسع والعشرين ، وهنا يتحدث عن نشيبة . .

وإني صبرت النفس بعد ابن عنبس نُشَيبة والهلكى يهيج ادكارها

رثاه ، وابنه ، حتى انتهى ... فنجده يلوّن في الموضوع ، أو يتناول في القصيدة أكثر من موضوع دون أن يبعد عن صاحبته ونفسه هو وجزعها على نشيبة .

---

(١) الديوان ١ : ٢١ .

ولساعدة بن جؤية ميمية تبلغ ستة وأربعين بيتاً مطلعها :

ياليت شعري لا مَنجىً من الهَرَم أم هل على العيش بعد الشّيب من ندم (١)

وفيها لا يلون الموضوع كثيرا ، فهو يذكر شيبه فى سبعة أبيات ، ويوزع سائر الأبيات على ثلاث قصص تدور كلها حول عنت هذا الزمن الغشوم .

ولكنه فى بائيته التالية لا يفعل ذلك . وهى مكونة من اثنين وستين بيتاً أولها :

هجَرتْ غَضوبُ وحُبَّ من يتجنَّبُ وعدَتْ عَوادٍ دونَ وَليْك تَشْعَبُ (٢)

هو يقسمها موضوعات شتى ، فالمطلع غزل تقليدى وبعد اثنى عشر بيتاً ينتقل فجأة إلى وصف البرق والمطر والسحاب . وعند البيت العشرين يلتفت إلى صاحبة له فيتحدث عنها وعن حسنها وثغرها ، ويدفعه حديث شفتيها إلى ذكر العسل ، ومن ثم يستطرد إلى النحل وعناء المشتار . ويترك كل هذا عند البيت التاسع والثلاثين ليتكلم عن سطوة الدهر :

فالدَّهر لا يبقى على حَدَثانه أنسٌ لفيفٌ ذو طوائف حوشب

وذلك فى قصة طويلة ينتهى منها بانتهاء القصيدة .

وأما أبو كبير ، فله أربع قصائد طويلة بدأها كلها بذكر الشيب. وأكبرها قصيدة مكونة من ثمانية وأربعين بيتاً أولها :

أزهيرَ هل عن شَيبةَ من معْدِلِ أم لا سبيلَ إلى الشباب الأوّلِ (٣)

وقد ظل يستعبر على شبابه فى تسعة أبيات . وفى البيت العاشر يصف مغامرة قديمة له أيام كان يصخب بشبابه ، ويلتفت إلى أصحابه فيصفهم . ثم يتركهم عند البيت الرابع عشر ليصف إحدى غزواته مع تأبَّطَ شراً ، وفى البيت السادس والعشرين يتحدث عن أعدائه ، ويستطرد إلى وصف معركة دُحِروا فيها ، ثم يتحدث عن مرقبة من المراقب التى كان يرصد الناس منها . ويبدأ فى البيت

(١) الديوان ١ : ١٩١ .

(٢) الديوان ١ : ٦٧ دون وليك : دون قربك والولْى هو المداناة ، تشعب : تفرق.

(٣) الديوان ٢ : ٨٨ .

السابع والثلاثين وصف سلاحه وينتهي منه عند البيت الرابع والأربعين ليتحدث عن مغامرة نسائية قديمة يختم بها قصيدته .

وبرغم هذا التشعب نجد معظم القصيدة يدور حول مغامراته سواء مع فتيان هذيل أو مع تأبط شراً ، وفى الجزء الأول يتذكر أيامه السالفة ، وفى الجزء الأخير — وهو قصير — يتحدث عن مغامرة صغيرة .

وسائر الذؤبان أكثر ميلاً إلى التركيز فى قصائدهم الطويلة ، فلصخر الغى مثلاً قصيدة مكونة من خمسة وعشرين بيتاً فى رثاء عروة أخيه ومطلعها :

لعمر أبى عمرو لقد ساقه المنا إلى جدث يوزى له بالأهاضب(1)

بدأها بذكر ابنه واستعبر عليه ، ثم قص مأساة العصم والنعام ثم مأساة الملجين . وفى أبيات قليلة فى نهاية القصيدة تغنى بأساه .

ولأخيه الأعلم بائية مكونة من أربعة وعشرين بيتاً اولها :

لما رأيتُ القومَ بالـ ـعلياء دون قِدَى المناصب(2)

وكلها حول موضوع واحد هو هروبه ووصف مطارديه . وفى نهايتها يصف أولاده وهم ينتظرون أوبته .

وأما أبو خراش فله فى رثاء أخيه عروة قصيدة مكونة من أربعة وعشرين بيتاً أولها :

لعمرى لقد راعت أميمةَ طَلعَتى وإنّ ثوَائى عندَها لقليلُ(3)

وكلها أيضاً حول أخيه،ولكنه يقص لنا مأساتين واحدة عن أقب لهجدائد ؛ وأخرى عن أرنب وعقاب ، وهما تدوران حول عنت الأيام .

وكذا نستطيع أن نمضى معك فى كل قصيدة طويلة وردت لشاعر من هذيل فلن ترى تشعباً كثيراً فى موضوعاتها . بل بالعكس سترى أن كثيراً من القصائد الطويلة — لا سيما عند الذؤبان — لا يدور إلاحول موضوع واحد . ومن هنا

(1) شرح أشعار الهذليين ٣٦ .

(2) الديوان ٢ : ٧٧ .

(3) الديوان ٢ : ١١٦ .

كان التباين واضحاً بين شعراء هذيل وغيرهم من شعراء القبائل الأخرى ممن كانوا يطيلون ، فهؤلاء يبدءون بالنسيب أو بالبكاء على الأطلال ثم ينتقلون إلى الرحلة فيصفون الناقة أو الفرس ، ولا بأس إذا قارنوهما فى السرعة بحمار أبود أو بقرة وحشية ، ثم لا بأس أيضاً إذا عرضوا لحياة هذا الوحش ومطاردة الصيادين له ، وأخيرا يصلون إلى الغرض الأول من القصيدة .

أجل كان التباين واضحاً برغم أن هناك من هذيل من نوّع فى الموضوعات كساعدة بن جؤية والمتنخل . إلا أنا لا نأخذ المجموعة بهؤلاء فضلا عن أن منهم من كان يميل بدوره إلى الاقتصار على موضوع واحد تقريباً . فإذا تقدمنا إلى العصر الإسلامى لا نجد ثمة تغيرا ، وظل كل شىء كما هو .

فهذا مثلا أمية بن أبى عائذ فى لاميته التى تحدثنا عنها قبلُ والتى تتكون من ثلاثة وثمانين بيتاً يقتصر على ذكر رحلته وناقته ومقارنتها بالثور تارة ، والحمار تارة أخرى ففيها نوع من التركيز والتفرغ لشىء واحد .

ولأبى العيال كذلك بائية تحدثنا عنها ، وكلها تدور حول امر واحد ، أو كلها تتناول موضوعاً واحداً هو رثاء ابن عمه وتأبينه وكان قُتل فى أرض الروم أيام معاوية .

وقصيدة أبى عبد الله بن أبى ثعلب التى تحدثنا عنها مكونة من أربعة وستين بيتاً ، وليس فيها إلا البكاء على قومه ، حتى إذ يصل إلى البيت الثانى والخمسين يقول :

رُزِئنا فلم تغشَنا كبوةٌ وكنا كِراما مارزِئنا كِراما (١)

فيفتح الباب أمامه ليفخر بهذيل حتى نهاية القصيدة .

وأما مُليح فهو من أكثر شعراء هذيل إطالة ، ولكنه يقصر كل قصائده على شىء واحد هو الغزل . فمثلا نقرأ له قصيدته التى مطلعها :

أجدّ الخليط اليوم أُشْكَ التزايلِ فجُاءةَ فجّاعٍ من البَينُ عاجل (٢)

---

(١) راجع البقية ٦٧ .

(٢) البقية ١١٢ .

فإذا هي ستون بيتاً بدأها بحديث البين وكيف أنه يخشاه ...

وما خفت ذاك البينَ حتى سَمِعتُهم
تنادَوْا بتكبير وردّ الحمائل

ضُحيًّا فطَوَّين الستور وقربوا
لهم كل محبوك القراغير ناحل

ثم وصف الظعن وعرض لليلاه فوصفها وصفاً استغرق ثلاثة أبيات ، ثم راقبها وهي تمتطي الجمل ، ويبدو أنها كانت سمينة فهو يقول :

بنى بيديه صدرَهُ ثم لم يكد يقوم بها لولا اشتداد المفاصل

ولما مضت مع جاراتها جعل يصور جزَعه وتدلُّهَهُ في حبها وإعراضَها عنه وذلك عند البيت الحادي والثلاثين واستمر حتى البيت الرابع والأربعين ، وهنا اخذ يصف الطريق الذي سار فيه إلى صاحبته وتحدث عن نوقه .

وندع مليحاً إلى أبي صخر فنجده قد ترك سنة قومه تقريباً ، فيميل إلى أن يعدد موضوعات قصيدته ، ذلك أنه تأثر بما يجري عليه الشعراء المداحون . ونأخذ له قصيدته التي يرثي بها رجلا يدعى داود وهي مكونة من أربعة وستين بيتاً أولها :

تعزيت عن ذكر الصبي والحبائب وأصبحت عِزْهاً للصبي كالمجانب (١)

فنجده يبكي شبابه ، ثم يتغزل ، ويذكر بعض مغامراته ، ثم عزوف النساء عنه حين تغير وعتب على الأيام ذلك . كل ذلك في خمسة عشر بيتاً ، بعدها انتقل فجأة إلى ذكر من فقد من أهله ، وراح يشكو الدهر وغدره ، وعند البيت السابع والعشرين يترك كل ذلك فجأة وينصرف إلى رثاء داود .

وكل قصائده تجري على هذا النسق ، وليس فيها التركيز او الوحدة الموضوعية التي نتحدث عنها . ولكننا كما قلنا لا نأخذ القلة بالمجموعة كلها ، وحسبنا أن نعيد القول إن من كان يطيل من الهذليين كان أميلَ إلى عدم التشعب بقصيدته فكانت تجيء دائما وفيها الشيء الكثير من التفرغ والتركيز .

---

(١) البقية ٧٥ .

فإذا كان هذا شأن القصائد الطوال فما بالنا بالمقطعات والقصائد القصيرة ؟ إن الأمر لايحتاج إلى كلام كثير لنفهم أن الوحدة الموضوعية هنا تكون أوضح وأظهر، ذلك أن الأبيات القليلة لا يمكن أن تسع أكثر من موضوع ، ولا يمكن أن يقال فى القصائد الطوال إنها أميل إلى الوحدة ثم نحاول فى المقطعات البرهنة على ذلك ، ومع كل هذا فلدينا هنا بائية عبد الله بن مسلم التى يقول فى مطلعها :

يا للرجال ليوم الأربعاء أما
يَنفكُّ يُحدِثُ لى بَعد النُّهى طربا[1]

فهى عن امرأة عشقها الشاعر وكانت تخرج كل عام لتلقاه فى شهر رجب ، معلنة أنها تريد أن تعتمر وتطلب الأجر والثواب ، وكانت بذلك توهم الناس حتى لا يتناولوها بألسنتهم .

ودالية سَلمى بن المُقْعَد التى تبدأ بالمطلع الآتى :

أفلَتَ منا العَلقمىُّ تَزَحُّفا وقد خفَقَتْ بالظُّهرِ واللِّمة اليدُ[2]

لا تحكى لنا إلا قصة رجل من بنى هلال بن علقمة كان مع قومه يحارب بعض هذيل فاندحر قومه ولم يبق إلا هو ، وكان قد فقد كل شىء حتى ملابسه ، فلم يجد بدا من الهرب وهو عريان .

ولصخر الغى دالية رائعة يذكر فيها ابنه تليداً وأولها :

وما إن صوتُ نائحةٍ بليل بِسَبْلَلَ لا تنام مع الهجود[3]

وهى كما مرت بنا تصور لنا صخراً وقد خرج حائراً يلتمس السلوى فيلتقى بحمامة تنوح فيسألها عن تليد وتسأله هى عن ابنها ، فيرد كلاهما صاحبه بيأس ، إذ كان الابنان قد ودعا الحياة إلى العالم الآخر !

---

(١) البقية ٧٤ .

(٢) البقية ٣٢ .

(٣) شرح أشعار الهذليين ٦٧ .

وميمية أبي خراش التي يقول في اولها :

رَفَوْني وقالوا يا خويلدُ لا تُرَعْ فقلت وأنكرت الوجوه هُمُ هُمُ[1]

تدور كلها حول مطاردة عنيفة وتصور أبا خراش يفر من خزاعة والقوم من ورائه يريدون الإمساك به ، ولكنه يتمكن في آخر الأمر من أن يعجزهم فينجو .

ويطول بنا الأمر إذا وقفنا عند كل مقطوعة ، أو كل قصيدة قصيرة ، ولذا فنحن ندع هذا الحديث موقنين أنه قد ثبت أن الوحدة الموضوعية — وهي مما يرفع مستوى العمل الفني — كانت ظاهرة ملموسة في هذه الأشعار التي رويت لهذيل ولا سيما هذه التي سبقت الخضرمة والإسلام .

(ب) الواقعية :

أما وقد انتهينا من مشكلة الوحدة في الموضوع فإنا نعقبها بما نسميه بالواقعية . وإذ نجعلها صفة من صفات شعر الهذليين فليس إلا لأن هذا الشعر جزء من تراث العرب الأقدمين الذي درج على أن يتصل بحياة القبيلة ويصورها . والحياة عريضة كبيرة وشعرهم كذلك عريض كبير حفل بكل شيء وتكلم عن كل شيء . . صور البادية وتحدث عن حيوانها ، وتطلع إلى السماء ونظر إلى الغيب . أو قل هو تحدث عن أهم نواحي الطبيعة الكبرى ، الطبيعة التي يضطرب فيها الإنسان مع غيره من الكائنات .

أفرأيت الناقة وهي تضرب الصخر الصَّلْد في القفر الموحش ؟ وهل رأيت الأقب وهو يعدو ومن خلفه صائده يريد اللحاق به ؟ وهل لمحت هذه السحب وهي تهدر رعداً وتبعث سيلها فوق القمم وتحت السفوح ؟ وهل أحسست فجيعة الأيام وريب الدهر وقسوة الحياة ؟ وهل ذقت لين العيش ووداعة المقام وبسطة النعيم ؟ وهل فوجئت بالعدو المتربص وفاجأت بالهجوم المباغت ؟ وهل شاهدت الدماء تسيل والسيوف تصطك والرءوس تطاح ؟ كل ذلك في شعر هذيل ،

(١) الديوان ٢ : ١٤٤ .

لأنه كان كلّ حياتها . وكل ذلك صوره الشاعر الهذلى لأن حاسته الفنية كانت يقظة دائما وتعى كل ظاهرة مهما تدق وتضؤل .

إنهم فى ذلك يقفون على قدم المساواة مع غيرهم من الشعراء الأقدمين . ولكنهم يمتازون عنهم بأنهم انقطعوا لأنفسهم فقط ، فعاشوا فى جملتهم يتغنون بحياتهم الخاصة ، لا يعنيهم أحد ، ولا يسعون إلى احد ، يقبلون كل ما تأتى به الأيام إلا أن يكونوا عبيدا لرهط من الأرهاط أو نفر من الناس ، وكذا تفشت ظاهرة التصعلك عندهم ... تفشت بشكل قوى حتى إننا لنرى فى حياة الوادعين كثيراً من مغامرات الذؤبان ، مما يحمل على الظن أنهم كانوا يحيون حياتهم فى بعض الأوقات(١) ، وإذن فواقعيتهم إذا كانت تختلف عن واقعية العرب المعروفة فبقوّة الفردية وبروزها ، إنها واقعية تبعد على نحوٍ ما عن واقعية الجماعة ! ومع ذلك فينبغى أن نقول إن واقعية الجماعة كانت موجودة ، ومن مظاهرها قول عمرو بن هميل اللحيانى لخصم من خزاعة :

وإنا نحن أقدم منك عِزا إذا بنيت بِمَخلفةَ البيوتُ
خزيمة عمُّنا وأبى هذيلٌ وكلهمُ إلى عِـزٍّ وليت(٢)

وحين يقول عبد الله القردى :

ونحن رَدَدنا جموعَ الملوك إذا حاولوا أن يُحِلُّوا الحراما
ونحن وفَدنا على ملكِهِم ونحن أسرنا القيول العظاما
ونوفى الجوارَ إذا ما نُجِير حتى نؤدِّىَ عنا الذِّماما .
وندفع عن جُلِّ أحسابنا بِصِدقٍ إذا ما زعمنا الزُّعاما(٣)

وحين يقول البُريق الخناعى لواحد من أعدائه :

لا تَحسِبَنِّى مُحَجَّلا كزِمَ الساقين يبكى أن يظلَعَ الجمَلُ
إنى امرؤٌ فى هذيل ناصِرهُ مُرتجِلٌ فى الحروبِ ماارتجلوا(٤)

---

(١) راجع ذلك فى البقية فهى مليئة بالحوادث الفردية .
(٢) البقية ٤٢ .
(٣) البقية ٦٨ .
(٤) البقية ٢٥ محجل : لازم للبيت ، كزم : قصير ، أرتجل : أركب .

وحين يقول معقل بن خويلد وهو سيد قومه :

بنـــو فالج قومى وهم ولدوا أبى
وخالى ثمال الضيف من آل الضيف(١)

تماماً كما يفعل أىّ جاهلى حين يقول أبى فلان وعمى فلان وخالى فلان ، يزهو بهم ويضعهم فى السماء ؛ يريد بذلك التعالى على أقرانه . وكما يقول السذج فى تيه وكبر ألم نفعل كذا ؟ ومن غيرنا يستطيع هذا ؟ لا تظنوا أنّنا ضعاف وبيننا الصناديد الأبطال . إنه فخر فيه كثير من الادعاء الذى لا يبعد عن واقع الحياة . . تلك الحياة الساذجة المحسوسة التى يرونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم ؛ لا الحياة المعقدة التى يعملون فيها فكرهم وينظرون إلى ما وراءها . هذا شىء لم يقدروا عليه ؛ لأن واقعهم لم يكن فيه أى تعقيد .

ثم نرى ضرباً آخر من الواقعية حين يذهب هذلى إلى عمر بن الخطاب ينشد :

أتيتــك فى والد قاطــع كثيـر الشتيمة لا يُغْـلَبُ
فكن لى ظهيراً ولا أُظْـلَـمَـنْ فليــس وراءك لى مَـذْهب
نفـانى وكنت ابنَـه حِقْبَـةً إليــه أئول إذا أُنسبُ
لزوجـةِ سوءٍ فشا شرها علىّ جِهاراً فَـهِى تَـضْـرِب
على غير ذنــبٍ قُـضـاعيّة لهــا والدٌ فوقه أحـدب

فيرسل عمر إلى أبيه ويقول له : ما يقول ابنك ؟ زعم أنك نفيته ! فقال : يا أمير المؤمنين غذوته صغيراً ؛ وعقنى كبيراً . أنكحته الحرائر ، وكفيته الجرائر . فأخذ بلمتى ، وأظهر مشتمتى !

شَاهَدَ ذلك من هذيلٍ أربعه مسافعٌ وعمُّه مشجّعه
وسيد الحى جميعـاً مالك ومالك محض العروق ناسك

فأمر عمر بالغلام فضرب ، فطفق يقول وهو يجرّ :

شكوت أمير المؤمنـين ظلامتى فكان حبائى أن أُجَـرّ على فمى(٢)

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١٢١ .
(٢) البقية ٦٩ .

نعم نرى الواقعية فى مثل هذه الأخبار التى تحفل بها البقية ولا سيما ما يعرض منها لحياة الصعاليك ، كما نراها فى غزلهم الساذج ورثائهم المحزن ، وهجائهم الطبيعى ، وثورتهم الدائمة ، وقصصهم الحى . أتريد مزيداً من الشواهد ؟ إذن اقرأ قول مليح فى الغزل :

واتبعتُ الظعائنَ طَرْفَ عينٍ ... عُلالةُ دمعها نَضِـرٌ غزير
غَداةَ جرتْ لنا بفراق سُعْدَى ... ظباءُ الجزْعِ سانحةً تعير
ظباء غير ساكنةٍ وحُمُّ الـ ... ـخوافى حتْمُها عَجِل عسير
وشحّاجٌ ينـوء لمنكبيه ... أحمُّ كأنه فَرَسٌ مغير
نذيرا البين قد علما بسعدى ... وأيامُ الفـراق لها نذير
غداةَ البـين أنفـذنى لسعدى ... جلىٌّ فى رماضتـه طرير
إذا ما حال دون كلام سعدى ... تنائى الدار والحَنِقُ الغيور
يظل إذا ذُكِرْتُ له بأرضٍ ... بهـا سعدى لأضلعـه زفير
ولم يصبح من الأحيـاء حىٌّ ... ولا ممن تضمنـتِ القبور
أحب إلىَّ من سعدى وسعدى ... صَدود بالنوال لنا مجور(١)

وابحث فى ذلك عن السبحات الروحية والتهويمات الدافئة فلن ترى شيئاً ، لأن غناءه بحبه لا بد أن يتصل بواقع حياته . وهل حياته إلا البادية وحيوانها ؟ بل هل حياته إلا الظعن فيهن سعدى ؟ هذه التى يحبها وتصدّ عنـه . هذه التى يؤثرها دون غيرها وهى لاهية عنه منصرفة .

بل أبسط مظاهر الواقعية — فى الغزل — التغنى بالأماكن . فهنا يستطيع الشاعر أن يبعث قلبه فى شعره ، ويستطيع أن يجعله مليئاً بالحنين مفعما بالذكريات . ألا ترى قول المتنخل فى لاميته :

هل تعرف المـنزل بالأُهَيِّـلِ ... كالوشم فى المعصم لم يجمـل

إنه يتصور وأنت تسمعه أنك تعرف الأهيل . بل المفروض — عنده —

---

(١) البقية ١٠٩ شحاج : حمار وحشى ، وبنات شحاج هى البغال ، أنفذنى : أرسلنى ، رماضته : حدته وشدة وقعه .

ان يكون السامع يعرف هذا الموضع ، فثمة مشاركة وجدانية . ولكن ماذا يعنيه إن لم يعترف بأنه لا يعرفه ؟ حسبه أن يشعر وحده بما فى هذا الاسم من وقع حبيب فهو يتغنى به . ولذا فهو يقول مرة ثانية :

عرفت بأجدث فنعاف عرق علامات كتحبير النِّماط

إنها طائيته التى ارتفع بها فصار من أصحاب المنشّقيات . ألا ترى أن خير ما يبدأ به هو ذكر أجدث ونعاف عرق ؟ إنهما يثيران فى نفسه ذكريات قديمة عذبة .

والبريق — كغيره من شعراء العرب — يؤمن بالماضى وجماله ، ويرى فيه حياة ود لو كانت تدوم إلى الأبد . وهل كان يكره أن يعيش إلى جوار ليلى دائماً :

ألم تَسْلُ عن ليلى وقد نفِد العُمرُ
وقد أقفرت منها الموازج فالخضر

وقد هاجنى منها بوعساء فَروْعٍ
وأجزاعِ ذى اللهباء منزلة قفر(١)

الموازج والخضر وفروع واللهباء . . . إنها كلها مواضع فى كل منها ذكرى للشاعر ، وهو حريص عليها ويتغنى بها كلما أتيحت له الفرصة .

ولندع الأسماء تذكر فى الغزل فقد تكون تقليداً فنياً ومتابعة مقصودة ، ولنلتمسها فى مواضع أخرى فسترى ساعدة بن جؤية يتغنى بأسماء كثيرة وهو يصف البرق فيقول :

لما رأى عَمْقاً وَرَجَّعَ عَرْضُه
رَعْداً كما هَدَرَ الفنيق المُصْعَبُ

لما رأى نعمانَ حل بِكَرِفىء
عَكَرٌ كما لَبَجَ النزولَ الأركبُ

---

(١) البقية ٢١ والديوان ٣ : ٥٨ .

والسِّدْر مختلج وأُنْزِلَ طافياً
ما بين عَيْنَ إلى نباةَ الأثْاب
والأثلُ من سَعْيا وحليةَ مُنْزَلٌ
والدَّوْمُ جاء به الشُّجونُ فَعُلْيَب(١)

ألا ترى كم موضعاً ذكر ؟ عمقا ونعمان وعينا ونباة وسعيا وحلية الشجون وعليب . . . حتى لكأنما أبياته سِجلّ بأسماء مواضع وبلاد فى هذيل . أليس تغنّى الشعراء بمثل هذه الأماكن دليلاً على الواقعية التى نقول بها ؟

أتحب بعد ذلك أن تلتمسها — أعنى الواقعية — فى رثائهم ؟ اقرأ إذن مرثية المتنخل فى رثاء لثيلة ابنه فهو يقول :

ما بالُ عينِكَ تبكى دمعُها خَضِلُ
كما وَهَى سَرِبُ الأخْرات مُنْبَزِلُ
لا تفتأ الدّهرَ من سَحٍّ بأربعةٍ
كأن إنسانها بالصَّاب مُكْتَحِل
تبكى على رَجُلٍ لم تَبْلَ جِدَّتُه
خَلَّى عليكَ فِجاجاً بينها سُبُل
فقد عجبتُ وما بالدهر من عَجَبٍ
أَنَّى قُتِلْتَ وأنت الحازِمُ البطل(٢)

قف عند هذه الأبيات فهى صورة دقيقة لما بعدها . أترى هذا الإنسان الذى يبكى ؟ إن أول شىء علمتنا إياه الحياة هو أن نبكى حين تدلهم الخطوب ويغيب العزيز . ولكن انظر إلى الواقع كيف يجذب الشاعر جذباً . . انظره فى الشطر الثانى من البيت الأول والبيت الثانى جميعا . إنه تشبيه ، والتشبيه عقد مقارنة قريبة سريعة ، هو أدنى شىء يحسه الإنسان سهلاً واضحاً ، فدموع الشاعر

(١) الديوان ١ : ١٧٣ .
(٢) الديوان ٢ : ٣٣ الأخرات : الثقوب ، منبزل : يقال بزله وبزّ له شقه فتبزل وانبزل ويقال بزل الخمر وغيرها ثقب إناءها ، الصاب : شجر إذا قطع خرج منه لبن حارق ، وفى البيت الأخير يقول : وما بالموت من عجب أنى قتلت أى كيف قتلت وأنت شجاع بطل !

تسيل من عينيه كما يسيل الماء من العرى ، وعيناه قد قرحتا من فرط البكاء فكأنهما سلقتا بالصاب فانهملتا .

ثم انظر إلى البيت الثالث ، إنه يخاطب نفسه ، وهو يعلم أنه فَقَدَ كلّ شيء. ولكن ألا ترى كيف عبَّر عما أراد ؟ لقد مات ابنُه شاباً نخلى عليه فجاجاً بينها سبل سلك عليها من الشر . ثم إن الحياة عوّدته أن القوة كل شيء . وأن البطل هو الذى يستطيع أن يحيا الحياة التى يريدها . ولكن أليس من عجب أن تكون هذه سنة الواقع ثم يموت ابنه البطل ؟

أما إذا أردت أن تلتمس هذه الواقعية فى هجائهم فارجع إلى بعض ما أوردناه فى ذلك لا سيما فى نقائضهم ، ففيها أيضاً ذلك الادعاء الصبيانى ، وفيها تلك المعايرة التى نراها نحن فى واقع حياتنا ، والتى رأيناها عند فحول النقائض فى العصر الأموى .

ثم إذا أردت أن تلتمسها فى القصص ، فستجدها بعد قليل واضحة ظاهرة ، ذلك أننا سنتناول القصصية بشىء من التفصيل .

(ح) القصصية :

وأنا أريد أن أبعد قليلاً ، فأتكلم عن فن القصص كلاماً عاماً أقصد به أن يكون تمهيداً إلى حديث القصة عن هذيل . وما أظن أحداً سيقول : ما لنا والقصص وهو فن لم يعرفه العرب الأولون ؟ أو ما لنا وهذا الجانب الذى اتفق الجميع على أنه ظهر طفلاً فى (كليلة ودمنة) وصبياً عليلاً فى (ألف ليلة وليلة)؟ إن القصيدة شىء والقصة شىء آخر ، هذا ما قرره الدارسون ، واتجاه الفنان فى الشعر ليس اتجاهه فى القصة ، وكل منهما تعبير له طابعه الخاص وأسلوبه المعين .

أنا أومن بذلك ، ولكن ليس إلى حد أن ألغى فيه القصة من الشعر ، أو بعبارة أخرى ليس إلى حد أنكر فيه الشعر القصصى فى أدب العرب . بل ربما أخصص فأقول ليس إلى حد أسقط فيه من حسابى هذا القصص الذى يصادفنا فى شعر هذيل . وأقول القصص لأن فيه مقوماته أو معظم هذه المقومات . وكون القصيدة تعبيراً طبيعياً للعاطفة يهتم بالنقط الهامة ويعرض للإحساس دون

وصفه كـكل شعر غنائى[1] ، لا يحتم عليها خلوها من القصص أو عدم قدرتها على تحمل تفاصيل القصـة ، ومتابعة تطور شخصياتها ، وتحليل عواطفهم ، والانتهاء بهم إلى غاية يهدف إليها الفنان .

وهذا لا بد ينتهى بنا إلى ما قيل فى تقسيم الشعر العربى ، ووضعه بالنسبة للشعر الغربى فى دائرة الغناء ، وما قيل من أنه يخلو من القصص والتمثيل .

أما إنه غنائى Lyric فقط فهذا مالا أرضى عنه . وأما إنه غنائى أحيانا وقصصى أحيانا أخرى فهذا ما يرضينى إلى حد بعيد . وأما التمثيل فـكلنا يؤمن أنه فن ابتـكره الفراعنة واليونان واخذه عنهم سائر الأمم .

نعم ، الشعر العربى غنائى حين يعنى فيه الشاعر بنفسه ويعبر عن خواطره وتأملاته ومشاعره وحبه لهذا الشخص وبغضه لذاك . والشعر العربى أيضاً غنائى قصصى حين يعنى الشاعر فيه بكل ذلك ثم يسرد واقعة أو حادثة ، قد تـكون خيالية وقد تـكون حقيقية ، ولـكنها فى أية حال بعيدة عن ذات الشاعر ، لا ينطق فيها بلسانه ، ولا يلونها بنزعاته وميوله . فهى من هنا من الأدب الموضوعى Objective وليس لها اتجاه الأدب الذاتى Subjective .

وفى شعر هذيل كل هذا جميعاً ، إذ رأينا الغناء ، ورأينا القصص . . رأينا القصص حين كان الشاعر يرثى ويستعبر ، وكان قويا مـكتمل العناصر . ثم رأيناه حين حدثنا الذؤبان عن أنفسهم وكانت الذاتية واضحة فيه .

فى ظلال الرثاء كان الشاعر يسرد واقعة من الحياة ، وكان يطيل ويعنى بالتفصيل والتحليل ، ويتتبع الشخوص فيها ، ويهتم بتطورها حتى ينتهى إلى النهاية التى أرادها القدر — والهذليون معنون دائما بالقدر — وقد يقال إن الشاعر أرادها لنفسه يعبر بها عن أساه أو فجيعته ، فأقول وما القصة إلا أن تـكون لوناً من ألوان التعبير .

---

(١) أحمد الشايب – أصول النقد الادبى ٣٠٢ وأعنى بالمقومات الحادثة والسرد والشخصية التى تتطور بتطور الحادثة بعملية السرد Story — telling وسنعود إلى ذلك بالتفصيل بعد قليل .

كانت القصة الشعرية عند هذيل مذهباً عاما ، وكان الشاعر يلجأ إليها وهو عامد ، وكان يتخيل الحادثة وهو واع لها ، وكان يحدثنا بها وهو متيقظ إلى كل شيء فيها ، وكان ينتهي منها في الوقت الذي يريد ، ثم كان قبل كل ذلك أو بعد كل ذلك لا يتحدث عن نفسه واصفاً لها أو محللا عواطفها . وكل ذلك يبعد الحادثة عن الغناء ويضعها في دائرة القصة ، وقديماً عرفوا من القصص نوعين : ملاحم epic و (بالاد) ballad[1] وقصصنا من النوع الثاني لأنه حوادث صغيرة ، وأما الملاحم فهي وقائع كبيرة وحوادث طويلة ليس لنا أن نتحدث عنها لأنها ليست مما نقصده .

والآن ، وبعد أن بينا مابيناه ، نتقدم إلى القصة المنظومة عند هذيل فنسأل: ما حظها من مقومات أية قصة أخرى ؟ لقد زعمت قبل أن فيها كل مقومات القصة الكاملة أو معظم هذه المقومات ، فما تلك المقومات ؟

لم يتفق اثنان تقريباً على هذه المقومات ، فالكل له وجهة نظر خاصة ، ذلك أن فَهمَنا للقصة وأخذَنا بها ليس واحدا . واختلاف أمزجتنا وتباين طبائعنا لايجعلانا نتفق على شيء ، فقد أحبذ أنا أمراً في القصة لايحبذه غيري ، وقد يعنى فنان بالتحليل مثلا ويستغنى عن الحادثة بينا يرى غيره أن التحليل والحادثة أمران جوهريان فيها .

وهذا محمود تيمور مثلا يرى أن أهم مميزات القصة الحادثة أو العقدة ، والشخصيات الممتازة حين تحلل نفسياتها وتدرس أخلاقها[2] . وهذا جيب Gibb — أحد المستشرقين — يرى أن أهم ما يشترط في القصة متابعة التطور في معالم الشخصية وذلك في سلسلة من الظروف الخارجية والحالات المختلفة ، توضع في إطار من الحياة الاجتماعية واقعية كانت أو خيالية (٣) . والمازني يرى أن المعول في القصة لايكون على مايجرى من الحوادث وإنما المعول على التناول الفني

---

(١) البالاد كلمة مشتقة من لفظ فرنسي معناه الرقص . فكان البالاد كقصة منظومة ينشد أثناء الرقص . ولكن الشعراء المحدثين حين مارسوا هذا الضرب من النظم لم يتجهوا به إلى الرقص ولم يكن لنظمهم علاقة به على الإطلاق .

(٢) راجع (نشوء القصة وتطورها ص ٣٧ المطبعة السلفية)

(٣) راجع العدد السابع من مجلة المنتدى (أول تشرين ١٩٤٤) ص ١٤ .

لها(١) . والعقاد يذهب إلى أن واجب القصاص ربط الشخصيات والوقائع برباط الفن ليكون وحدة حية معروضة فى نطاقها المحدود (٢) .

وهكذا دون أن نقف على شيء نجزم به ، ونعتمد عليه ، ونلمسه فى كل قصة نقرؤها . على أنّا إذا نظرنا إلى المسألة من جانبنا نرى أن فنية القصة أمر يقوم على أربعة أشياء هى المقومات .

أولها الوقائع ، وأعنى بذلك قيام القصة على حوادث مرتبطة بواقع الحياة . ولا أحتم أن تكون حوادثها مما جرى فعلا ، فقد نجد الفنان الماهر يتخيل ولكنه يربط خياله بما يحدث كل يوم فيجيء عمله كاملا لا شائبة فيه ولا بعد . فإذا التمسنا هذه الواقعية — تخيلا كانت أو حقيقة — فى شعر هذيل وجدناها أقوى من أن ينكرها منكر . ولنلتمسها مؤقتا فى إحدى قصص ساعدة ابن جؤية التى يبدؤها بهذه الأبيات :

وتالله ما إنْ شَهلَةٌ أمٌّ واحدٍ ... بأوجدَ منى أن يُهانَ صغيرُها
رأته على يأس وقد شاب رأسها ... وحين تصدّى للهوان عشيرها
فشبَّ لها مثلُ السنان مُبَرَّأً ... إمامٌ لنادِى دارِها وأميرها
عِناشُ عدوٍّ لا يزال مُشَمِّراً ... بِرَجْلٍ إذا ما الحربُ شبَّ سعيرها(٣)

وهنا لا نستطيع أن نفرق هذه المرأة عن أية عجوز تضطرب فى هذه الحياة وتسعى على هذه الأرض . وهو يمضى معها أو بها فى ظروف اجتماعية معقولة مقبولة فيحدثنا عن وجدها حين كرّت بها السنون ولم تنجب ولدا ، حتى إذا يئست وهانت فى عين زوجها — كالعادة — جاءها فاهتمت به وعكفت عليه ترعاه ، فشب قويا صادقا يضطرب فيما يضطرب قومه ، فيثور ويقتل عدوه ويخرج مع الغزاة للقتال .

---

(١) راجع عدد نوفمبر سنة ١٩٤٥ من مجلة الكتاب صفحة ٨٥ .

(٢) راجع مقدمته لقصة (رقيق الأرض) أحد كتب سلسلة اقرأ ص ٩ .

(٣) الديوان ٢ : ٢١٥ وما بعدها وشهلة : امرأة كبيرة ، عشيرها : زوجها ، عناش عدو : معانق عدو ، برجل : برجال .

وفى مهارة القصاص وإحساس الشاعر ودقة الواصف خرج به ذات يوم مع ثلاثة من أقرانه . .

تقدم يوماً فى ثلاثة فتية بجرداء نُصْبٍ للغوازى ثُغورها
فبيناهمُ يُتابعون لينتَهوا بِقُذْفٍ نيافٍ مستقلٍّ صخورها
رأوامن قدَى الكفين قُدّام عدوةٍ محيطاً به من كلِّ أوْبٍ حضورها

فكل شيء مألوف ، والشاعر لم يحلق فى السماء ، ولا يزال مع الفتى وأصحابه يحكى ما لا نستطيع أن نبعده به عن الواقع ، أو نلمس فيه شططا فى الخيال . لقد تقدم مع أصحابه إلى هذه الأرض التى تنتابها العيون والأرصاد ، ولم يكن يدرى ما يخبئه له الغيب ، وظل بأصحابه يسير حتى قابلتهم جبال مشرفة مرتفعة فبدءوا يرقونها متتابعين . وفجأة رأوا انفسهم وجها لوجه أمام أعدائهم يحيطون بهم من كل جانب ، أما الفتى . . .

فَورَّكَ لينًا أخلَصَ القينُ أثرَهُ وَحاشِكةً يَحصَى الشِّمالَ نذيرها

وهنا يفتح الشاعر أروع صفحة من صفحات القتال ، ويصف فى دقة مجالدة الفتى لأعدائه بسيفه وقوسه وتكالبهم هم عليه ، وسقوطه أمامهم ، ثم هرو. أصحابه يدفعهم الفزع ، ويغريهم حب السلامة . ولا يطول الأمر بأم الفتى فقد جاءها اثنان من الأصحاب يبكيان بدموع غزار ، ويحملان لها مصرع وحيدها . .

فقامت بِسِبْتٍ يَلعجُ الجلدَ مارنٍ وَعَزَّ عليها هلْكهُ وغُبورُها

بذلك يمس الحياة فى المجتمع العربى مسًّا قويا ، ويصور لنا هذه العادة التى جرت عليها النساء إذ يبكين . فلقد اشتد حزنها — وهى العجوز — وعز عليها أن يهلك فتاها من دونها ، فقامت تلطم وتضرب وجهها بنعليها .

وكان فى وسعه أن يجعل هذه النهاية ، ولكنه لم يشأ ، وأبى إلا أن يقفنا من أمرها على أمر كثير . فبينا هى تنوح وقد فُتَّ عظمها وذبل لحمها ، بشرها قومها بابنها يأتى إليها سليما صحيحا ، فألقت كل نعل ممزقا ، وقامت تلقى ابنها بوجه ورم مجروح .

هذه هى الوقائع بانية الحادثة القصصية ، وهى تصور لنا معالم الشخصية

فى إطار من الحياة الاجتماعية . وهى ليست حقيقة كلها ، وإنما للتخيل أثر فيها ، لا يظهر فيه نُبُوّ أو خروج عن المألوف . فإذا تركناها إلى غيرها تحدثنا عن ...

الحبكة الفنية ، وهى تشمل البناء لغاية يريدها الفنان . وبعبارة أخرى هى عبارة عن العقدة وحلها . والحقيقة أن القصاص لا يعنى بالقصة من حيث إنها حادثة فقط ، وإنما هو يعنى بها لأنها تصور شيئا أو تصف نزاعا يقصد به أمراً . فتكون المشكلة على الوجه التالى : لماذا فلان يفعل هذا ؟ وكيف ينتهى من هذا ؟ وهل فى وسعه أن يصل إلى الغاية المنشودة ؟ ويظل الفنان يحيرنا بمثل هذه الأسئلة حتى يقفنا فى الختام على ما يريد ، ونجاحه رهين بمشهد ختامى قوى .

ونحاول أن نجد هذه الحبكة الفنية فى شعر هذيل فلا نتعب . فهذا أبو ذؤيب مثلا يتناولها بمهارة فى قصة عن هذا الفتى الذى لم يشأ أن يأخذ ما يعيف فانتهى مصيره إلى الهلاك ، ولو فعل لكان من الممكن أن يعيش .

خرج هذا الفتى تاركا أمه تبكى عليه وتنفض فرشه وتصنع له التمائم وهى لا تغنى شيئا . وكان صاحبه فى الغزاة شابا قويا نشيطا . . .

فَبَيْنَا يمشيان جرت عُقابٌ ... من العقبان خائتةٌ دفوف
فقال له وقد أوحتْ إليه ... ألا لِلّهِ أمُّك ما تَعِيف
بأرضٍ لا أنيس بها يبابٍ ... وأمسلة مدافعها خليف
فقال له أرى طيراً ثِقالا ... تبشّر بالغنيمةِ أو تُخيف
فألفى القومُ قد شربوا فَضَموا ... أمام الماءِ مَنْطِقُهم نَسِيف[1]

فبينا هما سائران شاهدا عقابا تدفّ قرب الأرض وتمر فوقها وهى تخوت ، فقال الصديق وقد هجس به شر : لله أمك ما تزجر ؟ فقال له : إنى أرى طيراً يبشر بالغنيمة[2] أو يخيف ! وإن هى إلا لحظات حتى يروا قوما على ماء يخافتون من صوتهم ويهمسون كلامهم رويداً .

(١) الديوان ١ : ١٠١ وما بعدها وخائتة : منقضة ، دفوف : تمر فوق الأرض ، ما تعيف : ما تزجر ، أمسلة : مجارى الماء ، خليف : طريق وراء الجبل، مانسيف : خافت وئيد .

(٢) ذلك أن الطير لا يوجد إلا حيث الماء ، وثم إبل وماشية فيها غناء لها .

وكان من الممكن أن يحذرهم ويهرب ، ولـكن القوم شعروا به فهاجموه وتقوضوا عليه كما ينقوض الحوض اللقيف :

فلم يَـرَ غيرَ عادية لزَاما كما يـتـَهَـدّم الحَوض اللقيفُ

وحاول أن يهرب ، وراغ عن القوم ، ولـكنهم وصلوا إليه ونالوا منه فطعنوه . ولم يعبأ هو بجروحه ولم يهتم بما سال من دماء ، واندفع إلى سيد القوم وطاعنه ، وترك فيه جروحا تقذف بالدم . على أنه كان متعبا مرهقا فتداعى ثم هوى إلى الأرض :

فلما خَـرَّ عند الحوض طافوا به ، وأبانه منهم عريفُ

فقال : أما خشيت — وللمنايا مصارع — أن تُخَـرِّقَـكَ السيوف

فقال : لقد خشيت وأنبأتنى به العقبان لو أنى أعيف

وقال بعهده فى القوم إنى شَـفَـيـتُ النفسَ لو يـشفى اللهيف

أجل ، سقط عند الحوض . فطاف به أعداؤه مليا حتى عرفه واحد منهم فقال له :

لقد خرجت تغزو ، فهل نسيت المنايا ومصارعها والسيوف ومخارقها ؟ فأجاب :

لقد خشيت فعلا ، وأنبأتى به العقبان ، ولـكنى ما اعتدت أن آخذ ما أعيف ، وها أنذا أموت ، إلا أنى أموت وقد شفيت منكم نفسى !

وهكذا تنتهى عملية السرد داخل البناء الفنى ، وتكون نهاية العقدة وفاة الفتى . وفى كل ذلك نجد أبا ذؤيب يدفع بفتاه إلى مصيره دون أن يخبرنا بنهايته فى أثناء السرد ، حتى إذا تكون يسدل أمامنا ستاراً على مأساة من مآسى الحياة .

. . . ثم ماذا ؟

ثم تطور الشخصية ، وهى ناحية لها خطورتها فى كل قصة . وتطور الشخصية معناه متابعة الفنان لها وملاحظتها ووصفها وهى تسعى هاهنا وهنالك ، وتضطرب فى الحوادث ، وتتدرج مع المواقف المختلفة ، وتفنى فيما يفنى فيه الأحياء من

عواطف ومؤثرات . وكل قصة تخلو من هذه المتابعة يكون مصيرها الإخفاق ، وتكون أشبه بمواقف مبتورة تعرض فى لوحات لا ارتباط بينها ولا وحدة .

والهذليون إذ يقصون يحرصون كل الحرص على هذه الناحية . ويظلون يتعقبون الشخصيات فى أناة وتمهل ، ويسعون خلفها فى دقة الواعى واهتمام اليقظ ، فأعطونا بذلك لمسات إنسانية رائعة ؛ ووقفونا على مشاهد فنية جديرة بالبقاء . وهذا واحد منهم — هو صخر الغى — يتتبع بطل قصته ؛ وهو وعل مسن ، ويتعقبه حتى يموت ، اسمع إلى ما يقول :

أعينىّ لا يَبْقَى على الدهر فَادِر ... بِتَيهورة تحت الطخاف العصائب
تملى بها طول الحياة فقرنه ... له حِيدٌ أشرافها كالرواجب[1]

الوعل فى تيهورة تحت السحاب أو فى موضع مخصب يصيبه المطر . وقد استطاع فيه أن يتمتع بطول الحياة ، فشب مع الأيام وقد طال عمره ، وأشرف قرنه وتثنىَّ . ولكن صخراً لا يعنى فقط بهذا الوصف ولا يقنع به وكأنما يسأل : ماذا كان يفعل الوعل المسن فى تيهورته ؟ انظر إليه كيف يتعقبه ويرصد حركاته :

يبيت إذا ما آنس الليل كانسا ... مَبيتَ الغريب ذى الكساء المحارب
مبيتَ الكبير يَشْتكى غيرَ مُعْتَب ... شفيفَ عُقوق من بنيه الأقارب
تَدَلَّى عليه من بَشَام وأيكة ... نشاة فروع مُرْثَعِن الذوائب
بها كان طفلا ثم أسدس فاسْتَوى ... فأصْبح لِهْما فى لُهوم قَراهب
يُرَوَّع من صوت الغراب فينتَحى ... مَسامَ الصخور فهو أهرَبُ هارِب[2]

أرأيت إلى هذا التعقب الدقيق ؟ أرأيت إلى صخر وهو يعيش مع الغادر صباح مساء ؟ إن هذا الوحش يظل يضرب فى نواحى الأرض طول النهار ، حتى إذا هوّد الليل استتر فى الشجر يريد أن يستريح . ولكنه وحيد ، والوعل

---

(١) شرح أشعار الهذليين ٦ خادر : وعل مسن ، تيهورة : هُوِىّ فى الجبل والرمل ، الطخاف : رقيق السحاب ، تملى : تمتع ، الرواجب : السلاميات .

(٢) شفيف : أذى ، بشام : شجر ، مرثعن : مسترخ ، لهما : مسنا ، مسام : مسارح

لا يبيت ابدا إلا منفرداً ... وحيد كهذا الذى غاضب أولاده فانتحى ناحية منعزلة ، بل ربما أشبه فى مبيته ذلك الكهل الذى اشتكى من أهله عقوقا فتنحى عنهم واعتزلهم دون أن يأخذهم بعتاب وما أكثر هذه الأيام التى عاشها فى مغناه تظلله الفروع . ويحيط به الشجر . لقد كان فيه طفلا صغيراً ، ثم نمت أسنانه وأسدس ، وما برح فيه حتى عاد واحداً من اللهوم القراهب وهنا أو من أجل ذلك يتعلق بأسباب الحياة — وليس أحرص على الحياة من المسنين — ويأخذ حذره من كل شئ ، فإذا سمع مثلا صوت الغراب ظنه خطراً ، وعمد يسرح فى الصخور يبغى الفرار .

ثم يدع صخر فادرَه ويلتمس له صائدا ، ويحدثنا عنه ويتتبعه ، ويكشف لنا من أمره الكثير :

أتيح له يوما وقد طال عمره
جريمةُ شيخ قد تحنَّب ساغب
يحامى عليه فى الشتاء إذا شتا
وفى الصيف يبغيه الجنى كالمُناحب
فلما رآه قال : لله مَن رأى
من العُصْم شاةً قبله فى العواقب
لو ان كريمى صيدَ هذا أعاشَه
إلى أن يغيث الناسَ بعضُ الكواكب(١)

وفى يوم — وكان الفادر قد كبر — دفع القدر له برجل يعول شيخاً جائعاً قد احدودب ظهره وتحنت عظامه . وكان الرجل حريصاً على شيخه حرصاً شديداً يحميه من كل أذى يأتيه به الشتاء ، وفى الصيف يجنى له الثمر يتقوت به . على أنه فى ذلك اليوم قابل الوعل فتعجب من سمنه وعظمه ، وكأنه لم ير مثله طول الحياة ، وقال فى نفسه : لو صدت هذا لكريمى الشيخ لأعاشه إلى أن يُغيث الناسَ بعضُ أنواء النجوم !

(١) جريمة شيخ : كاسب رجل كبير ، تحنب احدودب ، المناصب : الرجل المجاهد ، العواقب : آخر الزمن ، قال إنه لوصيد له لأعاشه إلى أن يغيث الناس بعض أنواء النجوم !

وأصبح كل شيء بعد ذلك مهيئاً ، فقد استحكمت الحلقة ، وجمع صخر فادره والصياد وجهاً لوجه ، فماذا يفعلان ؟ أما الرجل فقد جمع عزمه ثم . .

أحاط به حتى رماه وقد دَنَا ... بأسمرَ مفتوقٍ من النَّبْل صائب

فنـادَى أخاه ثم طار بِشَفْرةٍ ... إليه اجتزارَ الفَعْفَعيّ المُناهب(١)

دنا من الوعل وأحاط به ، ثم رماه بمرهف من النبل مفتوق الشفرتين أى عريضهما . ويسقط الحيوان على الأرض مضرجاً بدمه . فينادى الرجل على صديق له ويسرع وفى يده سكين ، ويعكف على صيده مسرعاً بذبحه كما يفعل الجزار . وكذا ينتهى كل شيء وتحل العقدة ، ويسدل ستار آخر على مأساة من مآسى الحياة .

وأخيراً ؟ . . .

وأخيراً تحليل الشخصيات ، وأقول التحليل مفرقاً بينه وبين وصف هذه الشخصيات وإحصاء حركاتها ومتابعة تطورها ، فهذه ناحية تكلمنا عنها وانتهينا منها . وظاهرة التحليل غاية فى الخطورة لأنها تتطلب من القاص أن يرقب الحياة الاجتماعية وينتقدها فى شخوص قصته . وأقصد بالنقد تصوير نفسية الشخص تصويراً يأتلف ضمن حدود العادات ، فنحن لانريد فقط متابعة خطواتها وإنما نريد أيضاً دراسة خطراتها وتحليل عواطفها .. نريدها سعيدة ونريدها شقية ، نريدها غاضبة ثائرة ونريدها راضية وادعة ، نريدها وهى تضحك من الأعماق ونريدها وهى تبكى من الأعماق أيضاً ، نريدها كائناً يحس ويتألم ويفرح . . كل ذلك فى تصوير صادق لحالات النفس المختلفة .

اقرأ قصة أسامة بن الحارث عن فاردٍ من الصُّحْم سكن العَلاية وطاردته الخيل كثيراً ، فهو متعب . يقول فى أولها :

فو الله لايبقَى على حدَثانه ... طريدٌ بأوطان العَلاية فارِد

---

(١) مفتوق من النبل : العريض النصل ، صائب : قاصد ، شفرة : سكين ، الفعفعى : الخفيف أو الجزار (هذلية) ، المناهب : المسرع .

من الصُّحْمِ مِيفَاءُ الحزونِ كأنه

إذا اهتاج فى وجهٍ من الصبح ناشد[1]

ونجد أسامة هنا مهتماً بحالة هذا الحمار ، فهو أولا مطرود ، والمطرود يشعر أنه ينقصه كل شيء . ولذا هو يدفعه إلى الحزون ويصعد به أول الصبح عليها ، ويصوره لنا ثائراً كأنه يطلب شيئاً ضل له :

يُصَيِّحُ فى الأسحار فى كلِّ صارةٍ كما ناشَدَ الذِّمَّ الكفيلَ المعاهد[2]

إن الحمار لايزال يصيح ، وهو فى كل سحر يرقى قمة من قمم الجبال ويهدر صارخاً . إنه كهذا المعاهد يناشد الكفيل الذم بقوله : أنشدك الله ! إنه قلق ثائر لايكاد يستقر على حال . ويمضى أسامة به فيقص لنا من قصته طرفاً جديداً . لقد دفعته الخيول وحملته على أن يصير فى مكان بين جبال عالية ، فلا يرى خلالها إلا طرة من السماء . ومع ذلك فهو آمن طول الليل ، وأما فى النهار فهو على شرف كأنما يريد أن يحذر الرماة . إلا أنه على أى حال مهموم محزون قلق ، يخشى كل شيء ، ويود من أعماقه أن يأتى الليل فيستريح ويختبئ عن العيون :

يَظَلُّ مُحَمَّ الهَمِّ يَقْسِمُ أمْرَه

بِتَكْلِفَةٍ هَلْ آخِرُ اليوم آئد

أجل ، هل لهذا النهار من نهاية ؟ لقد أُرْهِقَ ، أرهقته هذه الخيول فهى ..

إذا نَضَحَت بالماء وازداد فَوْرُها

نجا وهْو مكدرد من الغَمِّ ناجد

إنها تتعقبه جاهدة وتريد أن تصل إليه ، فهى تتفصد عرقاً ، وهو أمامها قد كدح فيه الغم وأثر ، إنها تريده وهو ينجو منها ، فإلام تدوم المطاردة ؟

يعالج بالعِطْفَيْن شَأْواً كأنه حَرِيقٌ أشاعته الأباءةُ حاصد

إن الفزع يدفع به دفعاً ، والحياة ليست هينة إلى حد يسهل معه الاستسلام ،

---

(١) الديوان ٢ : ٢٠٢ العلاية : مكان ، ميفاء الحزون : يوفى على الحزون أى يشرف .

(٢) يصيح : يغنى ، صارة : قمة جبل ، المعاهد : الذى أعطى عهدا .

وفى عطفيه نفس . ولذا فهو يبذل أقصى ما يستطيع من قوة ، ويجرى ويجرى حتى لكأنه نار أشاعتها الأباءة فلا يقف أملها شيء ، والأباءة هى الأجمة من القصب .

ويظل أسامة مع هذا الفارد ، حريصاً على أن يقص علينا من أمره كل ما يستطيع محللا نفسيته حتى يسقط فى يده ويغلب على أمره . وإذا هو فى نهاية الأمر يسعى إلى حتفه فى سرعة ، فهو يرد ماء يريد أن يروى به ظمأه ، وكان يظن أن هذا الماء بعيد عن أعين الرماة ولكن كان ثمة واحد منهم ينتظره هناك كالقدر :

أنابَ وقد أمسَى على البابِ قَبْلَه
أُقَيْدِرُ لا يُنْمِي الرَّمِيَّةَ صائد

إن هذا الصياد قصير القامة ، ولكنه عظيم البأس ماهر فى الرمى ، إذا ألقى سهمه أصاب صيده وقتله فى مكانه . وكذا ينتهى أمر الفارد ويموت على يد هذا الرجل ، وهو الذى حاول أن يهرب من الخيل !

وفى ذلك لا ننسى ما قصصناه من أمر الفرخين اللذين استعبر عليهما صخر الغى وكيف حلل لنا إحساسهما باليأس والأسى والفجيعة . ثم لا ننسى أيضا آخر مأساة رواها لنا أبو ذؤيب فى عينيته التى رثى بها أولاده ، فلقد نجح فى تصوير بلاء الفارسين ولكنه حين سبر غورها رأى أنهما يبغيان الشهرة والمجد . ثم هذا هو الداخل بن حرام يصور حالة بقرة وحشية ، فيقفنا على نفسيتها القلقة الخائفة :

وهاديةٍ تَوَجَّسُ كلَّ غَيْبٍ
لها نَفَسٌ إذا سَامَتْ نشيجُ
تُصيخُ إلى دَوِيٍّ الأرضِ تَهْوِى
بمسمَعِها كما نَطَفَ الشجيج
أُتيح لها أُغَيْبَرُ ذو حُشيفٍ
غبيٌّ فى نجاشَتِه زَلوج

* * *

ويُهلِكُ نَفْسَه إنْ لم ينلها
وحُقَّ له سحيرٌ أو بعيج

وأمهلها فلما ورَكته

شِمالا وهْى مُعْرِضَة تهيج[1]

رماها فأسدل على حياتها ستاراً . ولكننا نرى كيف نجح فى تحليل نفسها ، فهى متوجسة مذعورة ، تمدّ سمعها كأنها تستشف الغيب . وإذا وقفت فى مكان يحجبها خافت . إنه الفزع . وهى فى كل حالة لها نشيج كأنه يقلع نفسها من جوفها قلعا . وإذا سارت تصيخ إلى الأرض وترهف الأذن ، فهى لا ترفع رأسها أبداً كأنها ذلك الشجيج لا يقدر أن يرفع رأسه .

ويتركها بعد ذلك ويعنى بالصياد فيرسمه فى خطوط سريعة ، ثم يعكف على دخيلة نفسه فيرينا شغفه بها وحاجته إليها ، ولذا فهو يريد أن يقتل فى سبيل الحصول عليها .

ويطول بنا الأمر إذا أحصينا هذه البدرات النفسية . فهى كثيرة فى قصص هذيل المنظوم . ذلك أن شعرهم كان مرآة صادقة لهذا الوجود . كانوا ناسا هيء لهم ما يُهيأ لكل فنان مفتوح العينين والقلب والذهن . لقد عرفوا الحياة وفهموها ، وخبروا نوازع الكائنات فيها ، وردوا كل ظاهرة فكرية كانت أو نفسية أو خلقية إلى مصدرها من الجو الطبيعى الذى تتنفس فيه ، دون أن يبعدوا عن واقع الحياة .

على أنى لا أريد أن يظن أحد أن هذه المقومات الأربعة لا تظهر فى كل قصة ، فهذا بعيد عن الحقيقة إذ أن كل قصة كان لها نصيب من الجميع . وغاية ما هنالك أن هذا النصيب كان متفاوتاً ، فقد نرى التحليل أظهر من غيره فى قصة أو قد نرى الحوادث أكثر من التحليل فى قصة أخرى ، وقد يكتفى الفنان بمتابعة شخصياته ويحصى عليها حركاتها فى قصة ثالثة . إلا أن القصص الثلاث لابد فى حاجة إلى سائر ما ينقصها حتى تستقيم ويمكن لنا أن ننظر فيها . ونطبق هذا على قصة لساعدة بن جؤية تشبه إلى حد بعيد القصة التى سردها لنا أبو ذؤيب عن العجوز وابنها .

---

(١) شرح أشعار الهذليين ٢٦٣ .

كان هذا الولد عند ساعدة مبرأ خالياً من المرض ، أتت به أمه بعد يأس طويل ، وبعد أن ذاقت الأمرين :

رأته على فَوْتِ الشباب وأنها
تراجع بَعْلا مرةً وتَئيم
فَشَبَّ لها مثلُ السنان مبرأ
أشَمُّ طُوالُ الساعدين جسيم(1)

رزقت به على حالين : على أنها قد شمطت وذهب شبابها ، وعلى أنها لا تريد الأزواج فهى تطلق . وهذا أشد لألمها ويأسها . وكان الفتى سليماً صحيحاً طويل الساعدين جسيماً . ثم كان يعولها ويتكسب من أجلها ويأتيها بكل مايغنمه :

وألْذَمَها من معشرٍ يُبْغِضونها نوافلُ تأتيها به وغُنُوم

وهذا لاشك أدعى إلى أن تتعلق به ، فضلاً عن أنه ابنها الوحيد . وكان يمكن أن ينفقا الأيام هكذا ولكن الدهر لا يترك أحداً قريراً :

فأصبح يوماً فى ثلاثةِ فتيةٍ من الشُعْثِ كلٌّ خُلَّةٌ ونديم

إن ساعدة يمضى هوناً فى القصة ، لايريد أن يفوته شيء . فقد دفع فتاه مع ثلاثة من الشعث الغزاة وكلهم خليل ونديم . . . دفعهم إلى جبل ناشز فى شرفاته عرش يستظل به ، وكان بعضه قائماً وبعضه الآخر محطوماً . وظل فيه وهو لايدرى من الغيب أمراً :

فلم ينْتَبِهْ حتى أحاطَ بظهره حسابٌ وسِرْبٌ كالجرادِ يَسوم

ولما انتبه رأى أن قد أحاطَ بظهره عدد كبير من الرجال كأنهم سرب جراد يسرح :

فَوَرّكَ لَيناً لايُثَمْثَمُ نَصْلُه
إذا صابَ أوساطَ العظامِ صميم

ماذا يفعل هذا الفتى ؟ أيستسلم للهم ؟ لا . . وإنما حمل عليهم سيفاً لبناً

---

(1) الديوان 1 : 228 ألذمها : ألزمها وكسبها .

لا يتتعتع ولا ترد ضربته ، وإذا أصاب الجسم قصد العظم وقطعه . وهنا يفتح ساعدة الباب ليصف نضاله وجهاده وسلاحه ثم كيف وقف أمام أعدائه :

وحشَصَتَه تُجرُ الظشّبات كأنها
إذا لم يُغَيِّبْها الجفيرُ جحيم

فألهاهم باثنين منهم كلاهما
به قاربٌ من النجيع دميم

وتنتهى المعركة ويسقط الفتى مغلوباً على أمره ، ويسرع صاحبان له إلى أمه والحزن يعصف بقلبيهما ، والدموع منهما تسيل مدراراً :

وجاء خليلاه إليها كلاهما
يفيض دموعاً غَرْبُهنَّ سَجوم

فقالوا عهدنا القومَ قد حَصِروا به
فلا ريب أن كان ثَمَّ لحيم

إنه الفزع أفقدهما الصواب فظنا أن الفتى قد قتل . ألم يضق القوم به ذرعاً ؟ أو لم يقع هو فى موضع لم يستطع الخروج منه ؟ إنهما لا يعلمان من أمره أكثر من هذا ، ولا شك أنه قتل ، ذلك أن خصومه كانوا يتكالبون عليه فى عنف وعناد !

ويجىء دور الأم فتحزن على فتاها كثيراً ، وتروح تلطم وجهها ، وتضرب بالنعال صدرها ولحمها ، وفى نفسها وجع لاحد له . . .

فقامت بسِبْتٍ يَلْعج الجلدَ وقعه
يُقَبِّضُ أحشاءَ الفؤاد أليم

فهى فى حرقة ، وتستشعر لاعجة لا طاقة بها على احتمالها ، وإذا وقع السبت بها أليمَ فؤادها وانقبض . ولكنها لا تصبر على هذا فقط . وإنما هى تسائلهم كيف أمره ، وأين هو ، وكيف صار ، ولماذا ترك وحيداً . إن قلب الأم لا يستقر ولا يهدأ ، وهى لاتريد أن تستريح :

إذا أنـْزَفتْ من عـَبرةٍ يـَمـْـتـَهـُمُ

تسائلهم عن حِبـّها وتلوم

ألا ترى هذه اللمسة الرائعة ؟ ألا ترى كيف كلما هاجها الشوق وأمضها الحنين وغلبها الفراق تعمد إلى أصحابه والدمع فى عينيها تسألهم عن وحيدها المفقود ، وتأخذهم بلوم وعتاب ؟

ثم يحدث أن يرجع الفتى ويقدم الأصحاب عليها يبشرونها به ، فلا تصدق ، وتخاف أن يكون القوم يعبثون بها ، وتشرد ملياً :

فلما استفاقت فَـجَّـتِ الناسَ دونه وناشت بأطرافِ الرداءِ تعوم

إنها تفيق ، وتذكر حديث القوم لها ، فتقوم مسرعة وقلبها يخفق ، وتندفع متناولة رداءها تلوى به . وتقصد ناحية ابنها وقد استخفها الفرح فهى تعوم فى مشيتها .

وكان الفتى قد اقترب مسرعاً ورأته أمه ، فنَسِيَتْ كل شىء . أما هو فقد جعل يندفع نحوها فى سرعة العقاب أو الظلم . إنه يريدها وهى تريده . فكان اللقاء !

وتنتهى القصة على هذا المشهد الرائع . فنرى كيف استطاع ساعدة أن يجمع فيها هذه المقومات التى أشرنا إليها ، فثمة واقعية وثمة متابعة للشخصية ، وثمة تحليل ، وثمة حوادث أنهاها هذه النهاية الجميلة .

وفى وسعنا أن نعمد إلى غيرها فننقده ، ولكنى أخشى الإطالة . ولذا فأنا أكتفى هنا بإحالة القارئ إلى بعض قصص يجد فيها مصداق ما نقول . فهناك قصة لصخر الغى عن علجين يعيشان فى روض نضير ، ولكنهما لم يسعدا كثيراً ، وانتهى أمرهما كما يريد الدهر أن ينتهى(١). وقصة لأبى كبير يصف فيها بؤس قُبٍّ وعنت الدهر بها(٢) . وقصص كثيرة قد تتحدث عن بعضها فى كلامنا عن أبى خراش فى آخر فصل من هذا الباب . وقصة لأمية بن أبى عائذ ، طويلة ، وتعنى بكثير

(١) الديوان ٢ : ٦٣ وما بعدها .

(٢) الديوان ٢ : ١١١ وما بعدها .

من التفاصيل ، وتصور حياة البادية وقسوة الأيام[1] . ولمالك بن خالد وقيس بن العيزارة وعمرو بن الداخل قصص كلها تقفنا على بؤس الحيوان وتهدف إلى أنّا لا نملك فى هذه الحياة نفوسنا[2] .

فإذا بقى لنا شىء بعد ذلك قلنا إن معظم قصص هذيل يدور حول شىء واحد هو : عنت الدهر . ومهما يختلف الشاعر فى الأوصاف والتفصيلات والتحليلات فليس إلا لينتهى إلى النهاية التى يشرئب إليها هذا الدهر ، فنحن فى هذه الحياة أشقياء . وهى إن كانت تتلون لنا وتختلف فلا تحمل لنا إلا الحزن والفجيعة والألم .

هذا هو جوهر قصصهم . وما رأيت أنه تغير إلا فى حالتين أو ثلاث . وعهدنا بقصة ساعدة ليس يبعيد .

وكان هذا القصص كله أظهر ما يكون قبل الإسلام فلما تقدمت الأيام ضعف هذا الفن بل مات عندهم . ولم يعد أحد فى هذيل يعنى به ، فقد هدأت لاعجتهم وقرت حياتهم ، واستشعروا — على ما قلنا — نوعاً من القرار جعلهم يتفاءلون بالحياة . فضلا عن أنهم — على ما يبدو — وجدوا فى القرآن الكريم غناء أى غناء .

(١) الديوان ٢ : ١٧٦ وما بعدها .

(٢) كلها فى القسم الثالث من الديوان .

— ٣ —

خصائص أدائية

وهى هذه الصفات التى نلاحظها على الهذليين فى أثناء أداء عبارتهم، وتحدثهم بما يختلج فى الأعماق. بل هى الصفات التى لازمتهم فى إبراز المعنى، وتصوير الحدث، وخلق الصورة. فنسأل: كيف كانوا يصوغون العبارة؟ وما الأساليب التى جروا عليها فى الإبانة عن أمر ما أو فكرة ما؟

ذلك ما نريده هنا، وهو ما سنأخذ به أنفسنا فى حديثنا هذا. وسترى فيه ثلاث صفات، ربما شاركهم فيها آخرون. إلا أنها لازمتهم ولزموها هم فى أغلب الأحيان.

(١) التشبيه:

أتذكر ما قلناه عن السرعة الفنية؟ إن التشبيه أظهر مميزاتها. فهو كما نعرف صفة لامحة، أو هو لايحتاج إلا إلى مجرد موازنة بين شيئين قصد إشراكهما فى معنى. إنه من هنا أصأل ألوان البيان وأقربها إلى السذاجة والفطرة، ولو أنه فى أكثر الأحيان يزيد الحس بالجزئيات، ويجسم الصورة تجسيما يبرز جمالها وحسنها.

على أن الصورة عند هذيل أو عند غيرها تعتمد على الحقيقة طوراً وعلى المجاز طوراً آخر، واعتمادها على الحقيقة أمر واضح، فيكفى أن يصور الشاعر منظراً مصطنعاً فيه الصراحة التعبيرية أو مستعملاً اللفظ فيما وضع له، فتكون هذه الحقيقة وهل تظن المعطل أو أبا قلابة — على رأى — يصطنع غيرها حين يقول:

هل يُنْسِيَنْ حُبَّ القَتُولِ مطاردٌ ... وأَفَلُّ يختضم الفَقارَ مُسَلَّس

لَيْنٌ حُسامٌ لا يَليق ضريبةً ... فى متنه دَخَنٌ وأَثْرٌ أخلس

وشريجةٌ جشّاءُ ذاتُ أزاملٍ ... يُخظى الشمالَ بها مُمِرٌ أملس(١)

---

(١) البقية ١٥ مطارد: صحارى، يختضم: يقطع، يليق: يدع، شريجة: قوس، أزامل: أصوات، يخظى: يضخم، ممر: وتر شديد الفتل.

إنه يصف صنوف سلاحه ، فوضع كل لفظة فيما تستعمل له عادة .

ولكننا إذا نظرنا فى المجاز ، وسائر ألوان البيان ، فلن نعثر إلا على جزئيات لا نستطيع أن نحكم بها على الكل ، فهى ليست مطردة الظهور ، وكل شعر لابد تعرض له هذه الألوان لأنها من صميم فن الشاعر ، وهى وسائل مألوفة من وسائل الأداء عنده . وهل ننكر أنا نجد الاستعارة أحياناً ؟ بل هل تنكر أنا نجد صنوفاً من البديع من حين إلى حين ؟

فثمة طباق فى قول أبى صخر :

أما والذى أبكى وأضحك والذى
أمات وأحيا والذى أمره الأمر
لقد تركتنى أحسُدُ الوحشَ أن أرى
أليفين منها لايروعهما الذعر(١)

وثمة اعتراض فى قول أبى خراش :

تقول أراه بعد عروة لاهياً وذلك رزءٌ لو علمتِ جليل
فلا تحسبي أنى تناسيتُ عهده ولكنّ صبرى يا أميم جميل(٢)

وثمة ألوان أخرى نراها مبعثرة ها هنا وهنالك ، ولكنها لا تغنى كثيراً ، ولذا فنحن ندعها إلى اللون الذى ظهر فى شعر الهذليين كثيراً . . . ندعها إلى التشبيه ، هذا التعبير الذى استخلص الشعراء عناصره من حياة البادية حتى حين تقدمت الأيام وعرف بعض الشعراء حياة المدن .

والآن اقرأ معى هذه الصورة التى يرسمها حبيب الأعلم لضياع صغيرة :

وتجرّ مجرية لها لَحْمى إلى أجْرٍ حواشب
سودٍ سحاليلٍ كأن جلودهن ثيابُ راهب

---

(١) حماسة أبى تمام ٢ : ٦١ .

(٢) الديوان ٢ : ١١٦ .

آذانهنّ إذا احتضر ن فريسة مثل المذانب(١)

فالتشبيه هنا قصير، يرسم الصورة لمحاً، ويكتفى بالملاحظة الدقيقة، ويعتمد على الموازنة الواضحة، فلون جلود الضباع كلون ثياب الراهب المخططة، وآذانهن كالمغارف. ولكننا مع ذلك لانزعم أنها فى حاجة إلى كمال وتهذيب.

ثم اقرأ معى بيتين من طائية المتنخل حين يتحدث عن الماء الذى ورده، ويصفه فيقول:

كأنّ وَغى الخَمُوشِ بجانبيه وغى ركب — أميم — ذوى هياطِ
كأن مزاحفَ الحيات فيه قبيلَ الصبح آثارُ السياط (٢)

فالصورة دافقة الحيوية، والتشبيه أطول نوعاً، وفيه شيء كبير من الدقة. أما عناصره فمن واقع الحياة، ويخيل إلينا أنّا نرى ونسمع ما رأى هو عند الماء وسمع.

ودع الطائية الآن، واقرأ ما يقوله صخر الغى فى السحاب والبرق:

كأن تواليَهُ بالملا سفائن اعجم ما يَحْنَ ريفا
أرقت له مثل لمع البشير يقلب بالكف فرضاً خفيفاً
فأقبل منه طوال الذرى كأنّ عليهنّ بيعاً جزيفا(٣)

فهذا من أطول التشبيهات فى شعر هذيل، وهو كما نرى يرسم الصورة رسماً مليئاً بالحياة، نجد فيها المشبه والمشبه به فى حركة واضطراب، ونلحظ وجه الشبه مركباً، فليس تتابع السحاب ومآخيره سفائن أعجم فقط، ولكنها سفائن أعجم كانت فى الريف فعادت منه محملة مثقلة بالسلع. وأما البرق فيه فهو يلمع مثل لمع البشير حين يقلب فى كفه ترسه معلناً أنه غنم. وأما السحب الطوال

---

(١) الديوان ٢ : ٨٠ مجرية : ذات أجر والأجر جمع جرو، حواشب : منتفخة البطون.

(٢) الديوان ٢ : ٢٥.

(٣) الديوان ٢ : ٦٩ تواليه : أواخره، الملا : موضع، ما يحن ريفا : امتحن ريفا، فرضا : ترسا، بيعا جزيفا : أى أخذت له جزافا بلا كيل.

التى يتحدث عنها فى البيت الثالث فهى ثقيلة كالسفن التى حملت بيعاً كثيراً لا مقدار له .

بل نرى الصورة أوضح وأكثر حركة ، وركنى التشبيه أعظم حيوية ، حين نقرأ له ماقاله بعد ذلك عن الغيم :

كأن توالِيَه بالملا نَصارى يُسَاقون لاقَوْا حنيفا

فالمشبه به ليس نصارى فحسب ، ولكنه نصارى رأوا رجلاً من غير دينهم فأرادوا أن يحتفلوا به وجاءوا بالخمر وجلسوا يتساقونها .

الصورة جميلة من غير شك ، ولا يمكن أن نزعم أنها فى حاجة إلى كمال . وعلى الرغم من أنها مكونة من أجزاء مختلفة فإن التناسق فيها ظاهر والالتئام موجود ، حتى كأنما هى قطعة من الحياة تتحرك أمامنا .

ونستطيع أن نسوق الأمثلة نوزعها على أنواع هذه التشبيهات من حيث طولها أو قصرها ، إلا أن هذا لايجدينا نفعاً لأنها لن توضح غامضاً أو تضيف جديداً . وغاية ما يمكن أن يقال فيها إن عناصرها مستخلصة من حياتهم الخاصة . . . من حياة البادية . . . من الطبيعة التى أحسوا بكل دقيق وجليل فيها .

ومع ذلك فيمكننا أن نلتمس فى تلك التشبيهات شخصية الهذليين ، يمكننا أن نرى إلى أى حد ربطوها بطبائعهم وميولهم ، فهم مثلاً يعمدون إلى الحيوان كثيراً فى موازنتهم المألوفة .

ألا ترى إلى أبى شهاب المازنى وهو يقول :

وأنّا غداةَ العرج باءت سيوفُنا بمجد الحياة والمحار المقابِرُ

غداةَ هوَى تحتَ الظُّبات مسافِعٌ كما انقضَّ باز أقتم الريش كاسِرٌ(١)

إنه هنا يصور مسافعا وهو يهوى تحت الظُّبات ، لقد كان يشبه ذلك الباز الأسود الكاسر وهو ينقض من السماء .

---

(١) البقية ١٠ المحار : المرجع إلى المقابر ، يقول يبقى المجدلنا ما بقيت الحياة ، هوى : دخل ، الظبات : جمع مفرده ظبة وهى الحد ، أقتم : اغبر ، كاسر : منحط .

ولكن ساعدة بن العجلان أكثر عنايه بمثل هذا الطير من أبى شهاب. اسمعه يقول وهو يقصد تهورة فى الأرض :

أهوى على أشرافها لا اتقى كذفيف فتخاء القوادم سَلْفَع
تغدو فتطعم ناهضاً فى عشها صبْحاً ويؤْرقها إذا لم يشبع(١)

هو يوازن بين سرعته وسرعة العقاب، ولكن أى عقاب يريد ؟ إنه يريد هذه الجريئة السوداء التى فى جناحها استرخاء. والتى تخرج كل يوم صباحاً ترصد فريستها لتطعم فرخها. وتسرع فى كل مكان من أجله لأنها تعلم أنه يؤرقها إذا لم يشبع. إنها عقاب جادة دءوب !

وأما مُرة بن عبد الله الهذلى فهو ينظر إلى الطير من جانب آخر، وتراه هنا يصف ثياب رجل بقوله :

كأن ثيابه سِلفان رُخْم حواصلهن أمثال الزقاق(٢)

كانت بالية خلقة تشبه حواصل السلفان إذ تكون كأنها جلد جزّ ولم ينتف.

وأبو ذؤيب مأخوذ بسرعة العقاب فهو يقول :

فألقى غمده وهوى إليهم كما تنقض خائتة طلوب(٣)

وندع الطير إلى غيره فنجد خالد بن زهير يقول فى هجائه لرجل :

ويوم عويرٍ إذ كأنك مفرد من الوحش مشعوف أمام كليب(٤)

كما نجد حُذيفة بن أنس يقول :

ونحن جزرنا نوفلاً فكأنما
جزرنا حماراً يأكل القرفَ أصحرا(٥)

---

(١) الديوان ٣ : ١٠٧ .
(٢) البقية ٤٤ .
(٣) الديوان ١ : ٩٥ .
(٤) البقية ٤٥ .
(٥) الديوان ٣ : ٢٠ .

ونوفل هذا كان سيد بنى الدِّيل ، وحين قتلته هذيل كان أشبه بحمار أصحر يأكل قشر الشجر .

ثم نجد عمرو بن الداخل يتحدث عن سهمه فيشبهه بمتن الذئب فى استوائه فضلا عن أنه ليس طويلاً ولا قصيراً ، يقول :

كمتن الذئب لا نِكْسٌ قصير فاغرِقُه ، ولا جَلْسٌ عموج(١)

وأما صخر الغى فيعرض للنمر ويحدثنا عن مشيته حين تهب الريح الباردة فيقشعر وينقبض . . .

وماءٍ وردتُ على زروةٍ كمشى السبنتَى يراح الشفيفا(٢)

لقد كان يمشى على رسله دون أن يسرع ، لأنه كان يخشى أن يجد على الماء بعض عدوه . وكأنه فى مشيته تلك نمر يتلمس خطاه فى ليلة باردة .

ومثله قول أبى المثلم لصخر هذا :

يا صخرُ ثم استقَى ثم استمر كما
يمشِى السَّبَنْتَى سَروبٌ ظهرُه خَضِل(٣)

ولكن الهذليين لا يعنون بالوحش فقط ، وإنما يتحدثون كذلك عن النوق ، فيشبه أمية بن أبى عائذ الليل بإبل عليها أخبية سود :

وليلٍ كأنّ أفانينه صرارِصر جُلّلْن دُهْمَ المطالى(٤)

كذلك يشبه أبو صخر رجالاً من قومه بجمال مصاعب فيقول :

بحور إذا اشتد الشتاء ملاوث وفتيان هيجا كالجمال المصاعب(٥)

وهكذا نرى آثار عنايتهم بالحيوان فى تشبيهاتهم ، وكيف أن اهتمامهم به كان

---

(١) الديوان ٣ : ١٠١ نكس : الذى انكسر نصله فقلب ، جلس : طويل ، عموج : ملتو .

(٢) الديوان ٢ : ٧٤ .

(٣) الديوان ٢ : ٢٣٤ .

(٤) الديوان ٢ : ١٨٨ .

(٥) البقية ٧٦ .

كبيراً حتى لقد ظهر فى صورهم البيانية . فإذا تركنا هذا الجانب إلى جانب آخر نجد أن هذيلا المحاربة فى مثل تشبيهاتها التالية ؛ واسمع مثلا عامر بن سدوس وهو يتحدث عن صاحب له ، إنه يشبهه بنصل السنان ، فيقول :

معى صاحبٌ مثل نصلُ السِّنان   عنيفٌ على قرنه محطم(١)

ويشبهه قول البريق :

معى صاحب مثل نصل السنان   عنيف على قرنه مغشم(٢)

وعبد الله بن أبى ثعلب ينظر إلى السيوف من ناحية بعيدة عنا فيقول عن بعض نساء ينحن :

إذا نَوْحُ ميتٍ قضى عبرة   من الدمع أعقب نوحاً قياماً
شواحب مثل نصال السيو   ف يطحر عنها الجلاء الحساما(٣)

فهن شواحب مثل نصال السيوف إذا تجلى .

ولكن مُليحا الهذلى تعنيه من السيف حدته فيقول :

فإنى لأقرى الهمَّ حتى يضيفنى   بُعَيْدَ الكرى منه ضريرٌ محافل
بعزم كوقع السيفِ لا يستقله   ضعيفٌ ولا يرتده الدهرَ عاذل(٤)

بل ننظر فيما اشتهرت به هذيل .. ننظر فى الرثاء ، فنجد حديث السلاح فى كل موضع . وهذا المتنخل يقول فى رثاء أبيه :

ولكنه هيِّنٌ ليِّنٌ   كعالية الرُّمح عرْدٌ نَساه(٥)

ويصف أبو كبير أخاه وهو يرثيه فيقول :

ولرب مَنْ دلـيته لحفيرةٍ   كالسيف مقتبل الشباب محبّر(٦)

---

(١) البقية ٤٣ .
(٢) الديوان ٣ : ٥٦ .
(٣) البقية ٦٧ .
(٤) البقية ١٢٧ .
(٥) الديوان ٢ : ٣٠ .
(٦) الديوان ٢ : ١٠٢ .

وفى موضع آخر يعنيه مضاء السيف فيقول :

صعب الكَرِيهة لا يُرامُ جَنابُه
ماضِى العزيمة كالحُسام المِقْصَل[1]

وأما أبو خراش فيقول فى رثائه خالد بن زهير :

أشَمَّ كَنَصْلِ السَّيْفِ يرتاح للنَّدَى
بعيداً من الآفات والخُلُق الوَخْم[2]

وبالرجوع إلى الديوان نجد أمثال ذلك كثيراً ، فالسلاح فى موازنتهم قريب ، والحديث عنه يعرض لهم فى الفخر والوصف والرثاء وغير ذلك . مما يجعلنا نحس كيف أصاب محدث حين وصف هذيلا فقال إنها قبيلة الحرب والشعر .

وبعد ، فتلك صورة التشبيه عند هذيل ، وهى كما نرى تقوم على الخيال المنتزع من حياتهم . فيه كثير من الجمال والصدق ، وفيه كثير من الاتزان والواقعية. إنها صورة تمس أصول فن الهذليين ، وتفصح عن تكوينهم النفسى ، وتتحدث عن فطرتهم التى فطروا عليها . حقًّا يعد التشبيه ركنا أساسيا فى كل شعر — جاهلى أو إسلامى — إلا أنه عند هذيل معرض لذوات أفرادها ، ومن ثَمَّ اختلف فى معدنه عن أى تشبيه يضاف إلى غير الهذليين .

(ب) الحكمة :

وما أظن أنه من الغريب أن اجعل الحكمة خصيصة من الخصائص الفنية لشعر الهذليين ، بل أن أجعلها خاصة أدائية بالذات . ومع ذلك فقد اتفقنا على أنى أريد بالخصائص الأدائية هذه الصفات التى لازمت شعراء هذيل فى إبراز المعانى وتصوير الحدث . وقد كان من هذه الصفات الحكمة ، يسوقونها وهم يعبرون عن مشاعرهم ويصورون أحاسيسهم .

---

(١) الديوان ٢ : ٩٤ .
(٢) الديوان ٢ : ١٥٣ .

ولست أجعل الحكمة نوعاً من الفلسفة التى تبحث فى حقائق الأشياء ، وتنظر فيما وراء الطبيعة والإلهيات . وإنما اجعلها درجة من الوعى الفكرى يجمع معانى عامة ، تأتى دائماً عن طريق تجربة أو نظرة فى الحياة . وهذه مرحلة من الشعر لا يصل إليها كل من قال القصيد ، ذلك أن الشعراء جميعاً ليسوا سواء فى نظرتهم إلى الحياة ، فقد يرى البعض منها سطحها فقط ، وقد يرى البعض ما وراءها ولكن دون أن يقف إزاءها مفكراً . ثم هنالك فريق ثالث يراها من كل جانب فيرى فيها رأيا ويكون عنها فكرة ، وكذا كان غالبية شعراء هذيل . واشتهر منهم كثيرون حتى لقد قال المبرد عن أبى خراش: « وهو أحد حكماء العرب » .

ولقد كان نطقهم بهذه المعانى — وهى الحكمة — يأتى لمحاً ، فى أثناء حديثهم عن فجيعة الدهر وريب الزمن وقسوة الحياة .

كانت حكمتهم تصرفات عقلية تعرض لهم وهم يؤدون عبارتهم فيسوقونها شعراً ، فكانت تأتى أشبه بالأمثال تارة ، وأشبه بالنصائح تارة أخرى . وهى على أى حال عميقة المأخذ ، عذبة الموقع ، شديدة الاتصال بواقع الحياة .

فمما جرى مجرى الأمثال شىء كثير لأبى ذؤيب منه قوله :

والنفس راغبة إذا رغبتها   فإذا ترد إلى قليل تقنع

وقوله :

وإذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لا تنفع

وقوله :

وما أنفس الفتيان إلا قرائن   تبين ويبقى هامُها وقبورها

وقوله :   والدهر يحصد ريبه ما يزرع

ومنه أيضا ما روى لساعدة بن جؤية كقوله :

وما إن يتّقى من لا تقيه   منيّته فَيُقْصِر أو يطيل

وما يغنى أمرأ ولد أحمَّت   منيّتُه ولا مال أثيل

وما روى لأبى العيال كقوله :

إن البلاء لدى المَقاوس مُخْرِج ... ما كان من غَيْب ورَجْم ظنون
فإذا الجوادُ وَنَى وأخلف مِنْسرا ... ضُمْرًا فلا تورِقنْ له بيقين

وما روى للمتنخل كقوله :

. . . . . ومحار الفَتَى ... للضُّبْع والشَّيْبَة والمَقْتَل
لاتَقه الموتَ وقيّاتُه ... خُطَّ له ذلك فى المحبل
ليس لميتٍ بوصيلٍ وقد ... علّق فيه طَرَف الموصل

وما روى لأبى خراش كقوله :

وَلَلموتُ خير من حياة على رغم

وقوله : وما للمنايا عن حِمَى النفس من عزم

وقوله : . . . وبعض الشر أهون من بعض

ومنه أيضا قول مالك بن الحارث :

ومن تقلل حلوبته وينكل ... عن الأعداءِ يغبقه القراح

وقول أبى العيال :

وقد يهدى لفعل الخير خيرُ الجدّ والأدبُ

وما أشبه ذلك مما لو تقصيته لكثر وطال ، ولكنى أكتفى بما جئت به هنا عساى أكون قد أعطيت فكرة عن حكمة الهذليين ولونها . ولسنا فى حاجة إلى أن نقول إنها كانت فى جملتها قائمة تتصل إلى حد بعيد بالدهر والموت .

ومهما يكن فقد تأتى الحكمة شيئا آخر إذا اتخذت صورة النصيحة والإرشاد ، وهنا نراها غالبا فى صيغة الأمر والنهى . وإذا كان هذا الضرب مطرد الظهور فى الأدب العربى فإن وجوده فى شعر الهذليين ليس إلا استكمالاً لصورة الشعر جميعا . وهو على أى حال يدل على يقظة شعرائنا وانتباههم إلى نواحى الخير والشر فى الحياة ، يقول أبو ذؤيب ناصحا :

كنفسك فاحفظها ولا تُفش للعدَى ... من السر ما يُطْوَى عليه ضميرها

ويقول أبو خراش لامرأته وقد أخطأت فهم الرجل :

فلا وأبيك الخير لا تجدينه جميل الغنى ولا صبوراً على العدم

يقول لها إن الخير ليس الرجل الغنى ولا الرجل الذى لا يصبر على الفاقة .
وفى موضع آخر ينظر إلى الحياة نظرة عميقة فيقول :

وكلُّ امرئٍ يوما إلى الموت صائر قضاءً إذا ما حان يؤخذ بالكَظْم
وما أحد حىٌّ تأخر يومُه بأخلدَ ممن صار قبلُ إلى الرَّجم
سيأتى على الباقين يومٌ كما أتى على من مضَى حتمٌ من الحتم

ينصح هؤلاء الذين يسرفون فى الأمل ويريدون من الحياة بقاء طويلا ، فيقول لهم إن الموت مكتوب على كل إنسان ولن تطول أيام الأحياء أكثر مما طالت أيام الذاهبين وسيأتى على الجميع يوم يوارون فيه التراب ، فذلك أمر محتوم .

ويشغله هذا الموت فيقول فى موضع آخر :

ولا والله لا ينجيك درعٌ مظاهرةٌ ولا شَبحٌ وشيد

يقول : لا ينجى من الموت باب ولا بناء . ولكن أسامة بن الحارث يلح على هذا المعنى بصورة أكثر طرافة فيقول :

فقلت له : لا المرء مالك نفسه ولا هو فى جذم العشيرة عائد

فالمرء عنده لا يملك أمره على الإطلاق ، فإذا ذهب فلن يعود لأنه ليس من سبيل إلى عودته .

وأبو قلابة كان سيد قومه ، فلا عجب أن يقف بينهم ناصحا فيقول :

إنّ الرشادَ وإنّ الغَىَّ فى قَرَنٍ بكل ذلك يأتيك الجديدان
لا تأمنَنَّ وإن أصبحتَ فى حَرَمٍ إنّ المنايا بجنبَىْ كلِّ إنسان
ولا تقولَنَّ لشىءٍ سوف أفعله حتى تبيّن ما يمنى لك المانى

وكأنما نحس الروح الإسلامى يدب خلال هذه الأبيات ؛ فكل شىء رهن يد القدر ، وما قدر لك واقع عليك ، والموت يسعى بجنبك دائما . فلا تحاول أن تقول : إنى سوف أفعل هذا ، فمن يدرى فلعل المانى قدر لك شيئا آخر !

وتضرب جنوب أخت ذى الكلب على هذا الوتر فتقول فى رثائها له :

كلُّ امرىءٍ بطوال العيش مكذوبُ ... وكلُّ مَن غالب الأيامَ مغلوبُ
وكلُّ حىٍّ وإن طالت سلامتُهم ... يوما طريقهمُ فى الشر دعبوب
وكل من غالبَ الأيام من رجلٍ ... مودٍ وتابعه الشبان والشِّيب

إنها نظرة صائبة فى الحياة ، فالمرء طول عيشه تكذبه نفسه بالأمانى ، وهو يظن أنه يفعل ما يريد ويغلب الأيام مع أنه لا محالة مغلوب . فالجميع مهما تطل سلامتهم سيركبون طريق الشر ثم سيموتون شبانا وشيبا .

وابو صخر شاعر أجاد الغزل ، وتفنن فى حديثه عن النساء ، ولذا فهو ينصح هذا الذى يجد عيشه فى هواه فيقول له :

فلا تأسَ إن صدت سواك ولا تكن ... جنيبا لِخِلّاتٍ كذوب المواعد

ولكنه فى موضع آخر يدع هذا الحديث إلى شيء أكثر عمقا ، إذ يقول :

وإذا امرؤٌ أسدَى إليك أمانةً ... فاطوِ الأمانةَ للضمير الداخلِ
واعلم بأن أمانةً حُمِّلتها ... فحملتَها للناسِ ذات مثاقل
وإذا النَّجىُّ ولو عرفت وجوهَهم ... ولَّوا سواك فلا تكن فى الواغل
واعلم بأنّ لو أننى أو ليتَنى ... وودتُ لا تغنى حبالةُ حابل
إن اللئيم وإن تخلّق عائذ ... للاذةٍ من غِشِه ودغاول

ونحاول أن نجد فيه روح الإسلام فلا نستطيع ، فإن مثل هذا الحديث جرى على ألسنة الشعراء منذ قديم . بل لا نستطيع أن نلتمس هذه الروح عند سائر الشعراء الذين وجدوا أيام بنى أمية . وهنا يمكن أن نقول إن الإسلام لم ينطبع — بطريق مباشرة — فى شعر هذيل الحكمى ، ولعلهم حملوه روحا فى جنوبهم ، ونطقوا به معانى عامة تتناول معاش المرء بالإصلاح والنصح والإرشاد .

(ح) التصوير :

وأريد بقوة التعبير براعة الهذليين فى التمثيل والتعبير الفنى . وأرجو ألا يفهم من كلامى عن التصوير تلك الصور الخيالية من تشبيه ومجاز وكناية ،

فهذا بعض ما أقصده هنا . والتصوير تمثيل الشيء فى صورة ما من التعبير ، وهو فى الشعر أهم ركن فيه ، بل لعله الشعر كله . وقديماً قيل فى تعريف الشعر : إنه تصوير للطبيعة .

والواقع أن التصوير — وهو كل الشعر — لا يرسم الطبيعة كما هى . أعنى لا يعبر عن الجمال الذى فيها بصورتها التى تراها العين العادية . وإنما يصورها صورة أخرى أكمل وأتم . هو يصنعها من جديد ، ويضعها أمامنا على نسق أبدع ونموذج أروع .

والهذليون — كمدرسة شعرية — يمتازون بقدرتهم الفائقة على التمثيل ولهم فى ذلك تعبيرات قوية حادة ، قلما نعثر على مثلها عند الشعراء الآخرين . انظر مثلاً إلى تصوير المتنخل عبثه ومجونه ، فهو يقول :

فإما تُعْرضين — أُمَيمَ — عنِّى
وينزعكِ الوشاةُ أولو النِّباطِ
فحورٌ قد لهوتُ بهنَّ وحدِى
نواعمُ فى المروط وفى الرياط
لَهَوتُ بهنّ إذ مَلْقِى مليحٌ
وإذ أنا فى المَخِيلة والشِّطاط
أبيتُ على معارِىَ فاخراتٍ
بهِنّ مُلوَّبٌ كدمِ العِباط
يقالُ لهنَّ من كرمٍ وحسنٍ
ظباءُ تبالة الأدم العواطِى
يمشِّى بيننا حانوتُ خمرٍ
من الخُرسِ الصَّراصرة القِطاطِ
رَكودٍ فى الإناء لها حُميّا
تلذُّ بأخذها الأيدِى السَّواطى(١)

---

(١) الديوان ٢ : ١٩ وما بعدها .

والصورة هنا واضحة دقيقة، عنى فيها الشاعر بكل شيء. فلقد تحدث عن هؤلاء اللاتى يلهو بهن، وهن نواعم فى رياطهن. وصور نفسه فتى عابثاً كثير التودد، جم الملق، حسن القوام، ظاهر الخيلاء. وزاد فى تصويره لعبثه فإذا هو على فرش فاخرة يأخذ حظه مما لا بد للنساء من كشفه. وكن مطيبات، وعلى جانب كبير من الجمال، حتى ليشبهن فى حسنهن ظباء تبالة. وقد يخيل إلينا أن صورة لهوه قد تمت إلى هنا، ولكنه لا يراها كذلك، فما زال ينقصه شيء، وما زال فى حاجة إلى الخمر، ولذا لم ينس أن يصور لنا الساقى وهو يسعى بأقداح الشراب. وكان هذا الساقى أعجم من هؤلاء الصراصرة الجعاد. وأما الخمر فهى فى إنائها صافية ساكنة تتناولها أيدٍ لذت أصحابها سورتها.

ومن أروع ما أثِر عن هذيل فى دقة التصوير ما أنشده ساعدة بن جؤية فى الكبر والهرم: يقول:

ياليت شعرى ولا مَنجَى من الهرمِ
وهل على العيش بعد الشيب من ندم
فالشَّيبُ داء شديد لا دواء له
ولا لصاحبه بُرءٌ من السَّقم
فى منكبيه وفى الأوصال واهنةٌ
وفى مفاصله غمر من العَسَم
تراه تُرعَدُ كفاه بمحجنةٍ
وإن خطا فهو نِضوٌ طائشُ القدم(1)

أترى هذا المحدودب الظهر؟ إنه ينوء بحشد هائل من العلل والأوجاع، وإذا سار استند إلى عصاه يدب بها على الأرض وئيداً. اما كفاه فمرتعدتان. وأما قدماه فهما طائشتان لا تعرفان سبيلاً. ثم أين هذا الكلام المنثور من الصورة الشعرية التى يرسمها ساعدة؟

وهذا بعد ذلك أبو خراش، يبدع فى تصوير نفسه، ووصف حاله حين رأى جماعة من القوم فظنهم أعداءه وجرى خلفهم حتى..

(1) حماسة البحترى – تحقيق لويس شيخو ٢٠٧.

كأنى إذ عدَوا ضمَّنتُ بزّى
من العِقْبان خائنةً طلوبا

جَريمة ناهض فى رأسِ نِيقٍ
ترى لعظامِ ما جمَعت صليبا

فلاقته ببلقعةٍ بَرازٍ
فصادم بين عينيها الجبوبا (١)

إنه تصوير سهل ، ولكنه حى دقيق . فهل ترى هذه العقاب ؟ إنها تسعى من أجل فرخها فى شمراخ من شماريخ الجبل . ويحدث أن ترى من بعيد صيداً فتجمع عزمها وتشد حيازيمها وتنطلق خلفه . ثم راقبها فى حركتها أو راقبها وهى تتعقبه . إنها تمضى وراءه وتجد فى المضى حتى تلتقى به فى فضاء بارز ليس حوله شيء . ولكنها لم تصل إليه ، لأنها حين انقضت تريده أخطأته فصكت الجبوب — أى الأرض — برأسها .

ويمكن القول هنا بأن أبا خراش عنى كثيراً بالحركة . يشبه فى ذلك سائر شعراء قومه ، إذ يهتمون بكل حركة ، بل بكل شكل ولون فى محيط الطبيعة الواسع .

وهذا أمية بن أبى عائذ يرسم صورة للصياد فإذا هو رجل عرف الفاقة والجوع ، ولكنه يجاهد فى سبيل العيش . إنه يقول .

فلما وَرَدْن صَدَرْن الثَّقيل
كأوبِ مَرامى غوىٍّ مُغالى

فاسلكها مَرْصَداً حافظاً
به ابنُ الدُّجى لاصقاً كالطِّحال

مُقيتاً مُعيداً لأكل القنيـ
ـصِ ذا فاقةٍ مُلْحِماً للعيال

له نسوةٌ عاطلاتُ الصدو
رِ عوجٌ مراضيع مثل السَّعالى

(١) الديوان ٢ : ١٣٣ .

تَـراح يَـدَاه لمحشــورة

خَـواظِـى القِـداح عِـجَـافِ النّـصال(١)

كان يتحدث عن نحل ، وأتنه ، فقال إنه أسلكها مرصداً . . أسلكها مكاناً حيث يرصد ابن الدجى ، وابن الدجى هذا هو الصياد . وكان راقداً على الأرض ، ملتصقاً بها كما يلتصق الطحال بجنب الإنسان . وهو فقير ، ولكنه مقتدر اعتاد أكل القنيص ، وعود أولاده أن يطعمهم اللحم . وأما نساؤه فليس عليهن حلى . وهن مهازيل يرضعن أولادهن مثل السعالى . وكأنما الرجل يشعر بعبثهن ، فهو لذلك يحرك يديه للرمى فى خفة ، فيبعث من قوسه نبالاً متينة مرهفة رقيقة .

تصوير أمية هنا تصوير دقيق صادق ، ينطبق على كل صياد هذلى . وهو فى صورته تلك يعمد إلى الواقع فيضفى عليه من نفسه شيئاً كثيراً من الحياة ، ويعرضه بحيث يعصف بالنفس ، فيسجل بذلك صورة رائعة فى بساطتها .

ومن دقيق التصوير أيضاً قول أسامة بن الحارث يصف مشرب نحل من الفحول فهو يقول :

له مشرب قـد حُلـِّئَتْ عن ٍمماله

من القيظ حتّى أوْحشَتْه الأوابدُ

كأن سبيخَ الطير فوق ٍجمامه

إذا ضربته الرّيح صوفٌ لبائدُ

بمظمأةٍ ليست إليها مفـازةٌ

عليها رماةُ الوحش مَثْنَى وواحدُ(٢)

فالمشرب فى مظمأة ليست إليها منجاه ، ولكنا نرى عليها الرماة اثنين وواحداً . وأما الوحش فقد هجرته لاتأتيه ، وكأنما عافت ٍمماله . ونلمح فوق

---

(١) الديوان ٢ : ١٨٣ .

(٢) الديوان ٢ : ٢٠٦ .

جمامه سبيخ الطير(١) ، فإذا ضربته الريح كان كأنه صوف قد تلبد .

ولسنا بحاجة لنعيد القول فى بساطة هذا التصوير ، ولكنه مع ذلك دقيق جميل . بل لا شك أن الدقة فى التحديد هى التى أضفت على الصورة كل هذا الجمال .

وأما أبيات مالك بن خالد الخناعى فهى خطوط سريعة للوحة موفقة . يقول :

.. لنْ يعجز الأيامَ ذو حَيَدٍ ... بِمُشْمَخِرٍّ به الظَيَّانُ والآسُ
فى رأسِ شاهقةٍ أنبوبُها خَصِرٌ ... دون السماءِ له فى الجوِّ قُرناس
من فَوقِهِ أنْسُرٌ سودٌ وأغربةٌ ... وتحته أعنُزٌ كُلْفٌ وأتياس(٢)

أجل ، هذه صورة موفقة لأحد المصورين . إنها ترسم ثوراً فى جبل نما به الياسمين والآس : على أن هذا الجبل ذو رأس شاهق بارد . والثور يسعى ها هنا وهنا لك تحلق فوقه أنسر سود وغربان ، ومن تحته أعنز سود وأتياس من الوعول .

وأروع تصويرات هذيل ذلك القسم من عينية أبى ذؤيب الذى يمثل به صراعا بين فارسين . بل ربما كانت أروع شعر قرأته من حيث جمال العرض ودقة الإخراج وروعة التصوير . يبدؤه أبو ذؤيب بالعبارة المألوفة :

والدهر لا يبقى على حدثانه ... مستشعر حلق الحديد مقنع(٣)

ثم يصور هذا الذى استشعر الحديد وتقنع به فإذا هو حميت أسود ، تعدو به فرس غائرة العينين سهلة السير سريعة الخطوات . وبينما كان هو عليها يقاتل الكماة أتيح له رجل جرىء الصدر يحمله جواد خفيف القوائم حتى لكأنه ظبى . .

---

(١) السبيخ : هو ما يتطاير من ريش الطير ، الجام : ما اجتمع من الماء ، السمال : بقية الماء الواحدة سملة .

(٢) الديوان ٣ : ٢ ذو حيد : ثور ، الظيان : الياسمين ، أنبوبها خصر : طريقة باردة فى الجبل (هذلية) ، قرناص : رأس الجبل ، كلف : غبر تميل إلى السواد .

(٣) الديوان ١ : ١٥ .

فتنادَيا وتواقَفَتْ خيلاهُما وكلاهما بطَلُ اللقاءِ مُخَدَّعُ
مُتَحامِيين المجدَ كلٌّ واثقٌ بِبَلائه واليومُ يومٌ أشنع
وعليهما مَسرودتانِ قضاهما داودُ أو صَنَعُ السَّوابغِ تُبَّع
وكلاهما فى كفّه يزنيّةٌ فيها سِنانٌ كالمنارة أصلع
وكلاهما متوشحٌ ذا رَوْنقٍ عَضْباً إذا مسّ الضريبةَ يَقْطع
فتخالسا نفسَيْهما بنوافذٍ كنوافذِ العُبُطِ التى لا تُرْقَع
وكلاهما قد عاش عيشة ماجدٍ وجنىَ العلاءَ لو أنّ شيئا ينفع(1)

ألا ترى كيف بدأ فسجل لحظة اللقاء ؟ لقد تناديا — كعادة العرب — فوقفت خيلاهما وتهيئا للقتال . إنها لحظة حاسمة ، استطاع أبو ذؤيب أن يودعها بيته ذاك ، وكأنما نستشعر فيها هذه الرهبة التى تقابلنا فى الساعات الحرجة . على أن كلا منهما بطل مجرب خدع مرة بعد مرة حتى حذر وفهم كل شىء عن القتال .

وكان لابد أن يحدثنا الشاعر عن الفارسين . . عن وجهة نظرهما فى هذا الصدام المنتظر ، فإذا كل منهما يجرى وراء المجد ويسعى خلف البطولة ، ويثق فى فوزه مع أن اليوم يوم عصيب . وما فتئا يتباهيان بسلاحهما ؛ فمن درع صنعها داود أو تبع ، إلى قناة يزنية سنانها كالسراج يبرق ، إلى سيف ذى رونق عضب . ثم لم يبق بعد ذلك كله إلا اللقاء .

فتخالسا نفسيهما بنوافذ كنوافذ العُبُط التى لا ترقع

ألم نقل إن كلا منهما كان مجربا مخدعا ؟ إنهما ظلا يتحاوران ويدوران حتى سدّدا الطعنة التى كأنما تختلس اختلاسًا. أجل كانت هذه هى النهاية . لا بل كانت بداية النهاية وإذا بالطعنات تتبادل فتبدو فى اتساعها كأنها شقوق فى ثياب جديدة .

---

(1) الديوان 1 : 18 وما بعدها ، ومخدع : مجرب لأنه خدع مرة بعد مرّة حتى حذر وفهم ، صنع : الحاذق بالعمل ، كالمنارة : كالسراج ، أصلع : لامع ، عضبٌ : قاطع ، الضريبة : ما وقع عليه السيف ، بنوافذ : بطعنات نوافذ تشبه فى اتساعها شقوقا فى ثياب جديدة لا ترقع .

ويشرع الشاعر بعد ذلك فى إنهاء المأساة ، إذ لم يعد بعد ذلك من هذه الحياة القاسية الشقية إلا هباء . .

وكلاهما قد عاش عيشةَ ماجدٍ وجنى العلاءَ لو أنّ شيئاً ينفع
فعفَت ذيولَ الريح بعدُ عليهما والدهر يحصد ريبُه ما يزرع

كلاهما وصل إلى المجد ، وانتهى إلى ما ينتهى إليه الكريم . ولكن هيهات فهل ثمة شيء لهم ؟ وهل هناك منجى من الموت ؟ ها هى ذى ريح الغناء تعفو عليهما ، وها هو ذا الدهر يحصد اليوم ما زرعه بالأمس .

ولقد تحدث الهذليون كثيرا عن الشيب وبكى الشعراء شبابهم الذاهب ، وها نحن أولاء هنا نثبت إحدى صورهم فى ذلك ، وهى لأبى صخر ، إذ قال :

بكَرَ الصِّبا منا بكورَ مُزايل عَجِل الشبابُ به فليس بِغافل
بانا معا وتُركتُ فى مَثواهما أبكى خِلافَهما بكاءَ الثاكل
أخَوَا صفاء فارقا ببشاشةٍ وبلذّةٍ من عيشنا وفواضل
وجنائب غَدَوية تَنْدَى ضُحى وغياطلٍ لِلَّهْو بعد غياطل
وبيوتِ غزلانٍ يُهاب دخولُها وهواجرٍ موصولة بأصائل
فأناخ شيبُ العارضين مكانَه لا مرحبا بك من مُقيمٍ نازل
جاوزتَنا بِقِلَى لذاذات الصِّبا والغانياتِ وكلِّ عيش شامل
قالت أثيْلة قد تَنَقَّصَكَ البِلَى ونُكِسْتَ فى أطمارِ أشعثَ ناحل
أأثيلَ إن السيف يخلق غمده ويَرثُّ وهْو على غِرار قاصل(١)

لقد ذكَّره الراحلان بالسنين المقبلة ، وقارن بينها وبين ماضيه يوم كان شابًّا يمرح ويملأ هذه الأرض حياة ومجونا . كانت له أيام ، أما الآن فها هى أثيلة تعيب عليه وتصوره شيخا يدنو من قبره . وهو يرفل فى أطماره الخلقة . وما ينفع ما يقوله فى آخر بيت له . إذ الشيب — كما قال ساعدة — داء نجيس لا دواء له .

وعلى ذكر ساعدة أريد أن أختم حديثى هذا بصورتين جميلتين له . .

---

(١) حماسة البحترى ١٩١ بانا : غابا ، غياطل : نعم ، غرار قاصل : حد قاطع .

صورتين لا أظن أن أحداً ينكر قوة بيانهما وروعة التعبير عنهما، وهما متلازمتان متصلتان إحداهما نتيجة للأخرى. ويبدأ ساعدة الصورة الأولى بما يشبه تلك العبارة التي اعتاد الهذليون أن يفتتحوا بها حديثهم عن الدهر:

هل اقْتَنَى حدَثانُ الدَّهْر من أنَسٍ
كانوا بِمَعْيَطَ لا وَخْشٍ ولا قَزَمِ(١)

محال، فما يقتنى الدهر أحداً. وما كان له أن يصبر على هذا الأنس الذي كان ينزل بمعيط. إنه يصورهم ذوى بأس، لهم كتائب وجيوش حتى لقد صاروا كأنهم أفناد الجبل. وكانت الأخبار تأتيهم من كل مكان، بيد أن كل ذلك لم ينفعهم ونزل بهم القدر، وإذا بهم يفجأون بالجيوش تغزوهم..

بمُقْرباتٍ بأيديهم أعنّتُها خُوص إذا فزعوا أُدْعِمن فى اللُّجُم
يُوشونهنَّ إذا ما نابَهُم فزعٌ تحت السَّنَوَّر بالأعقاب والجِذم
فأشرَعوا يزنيّاتٍ محرَّبةً مِثْلَ الكوا كب يسّاقون بالسُّمَم
كأنما يَقَع البُصْرِىُّ بينهمُ من الطوائف والأعناق بالوَذَم
يُجَدِّلون مُلوكا فى طوائفهم ضرباً خراديل كالتشقيق فى الأَدَم(٢)

إنه هنا يصور ميدان الحرب، والخيل تجرى ها هنا وهنالك، ويستخرج الفرسان ما عندها من الجرى بأرجلهم وبالسياط. فلما التقى الجمعان أشرعت القنان الغاضبة وسددت الطعنات الصائبة، والقوم فى ثورة ونشاط، يسقى بعضهم بعضاً الطعن كأنما يتساقون بالسم فيتساقطون. كل ذلك والسيوف البصرية تقع بينهم فتقط الرقاب، وتقطع الأيدى، ويصرع الملوك ممزقى الجلد مقطعى الأطراف.

---

(١) الديوان ١ : ٢٠٠ معيط : بلد هذلى، وخش : أنذال، قزم : لئام.

(٢) الديوان : ١ : ٢٠٣، وما بعدها وبمقربات : بخيول تظل عند البيت على أهبة، خوص : من الخوص بتحريك الواو وهو ضيق العين وغؤورها، يوشونهن : من أوشى فرسه إذا استخرج ما عنده من الجرى، السنور : الدرع، الجذم : السياط، محربة : كأن بها غضب، السمم : جمع سمه بتشديد الميم وهى القطعة من السم، الوذم : مفردها وذمة وهى السير بين العرقوة وأذن الدلو، يجدلون : يصرعون، خراديل : من خردل الثوب أى قطعه.

أرأيت هذه الصورة الرهيبة المخيفة ؟ إنها مقطع قوى عن حالة الحرب ، وتصوير دقيق لساحة القتال ، لا يقدر عليه إلا شعراء من هذيل مرنوا على التمثيل وقدروا عليه وأجادوه . والآن دع هذه الصورة إلى الصورة الأخرى . إن ساعدة يريد بها أن يتم المنظر ، فبعد أن انتهى من الموقعة صور لنا القوم مندحرين ، وقد انهاروا من كل جانب كأنهم جرف استخفه اليم فتثلم . وأما المنتصرون فقد مضوا يسوقون أمامهم الأسرى والجمال(١) :

ماذا هنالك من أَسْوانَ مكتئبٍ
وساهفٍ ثملٍ فى صَعْدةٍ حِطَمِ
وخِضرِمٍ زاخرٍ أعراقُه تَلِفٍ
يؤوى اليتيمَ إذا ما ضُنَّ بالذَّمم
وشرجَبٍ نحرُه دامٍ وصَفْحتُه
يصيحُ مثلَ صياحِ النَّسرِ مُنْتَحِمِ
مُطَرِّفٍ وَسْطَ أولىَ الخيل مُعْتَكِرٍ
كالفحل قَرْقَرَ وسْطَ الهَجْمة القَطِم
وحرَّةٍ من وراءِ الكُور واركةٍ
فى مركبِ الكُره أو تمشى على جشَم
يُذْرِين دمعا على الأشفار مُنْحَدراً
يرْفُلن بعد ثياب الخال فى الرُّدُم
فاسْتدبَروهم فهاضُوهم كأنهمُ
أرجاءُ هارٍ زَفاه اليمُّ مُنْثَلِم

(١) الديوان ١ : ٢٠٤ وما بعدها ، ساهف : عطشان ، حطم : كسر ، خضرم : واسع الخلق ، تلف : هالك ، يؤوى اليتيم إذا ما ضن بالذم : يؤويه فى ذمته إذا لم يتكفل أحد بأى يتيم ، شرجب : طويل ، منتحم : من الانتحام وهو شبيه بالنفس من الصدر ، مطرف : الذى يرد أوائل الشىء ، معتكر : يعتكر وسطها فيقبل ويدبر القطم : يقال فحل قطمه : أى صئول مهتاج ، الردم : الثياب المرقعة ، فهاجنوهم : فكسروهم : هار : بجرف منهار ، فجلزوا : فمضوا بخفة ، زمامهم : حبالهم ، كحزيم : كوسط .

فجَدَّزوا بأُسارَى في زِمامِهِمُ
وجاملٍ كحزيم الطَّوْد مُقْتسم

أرأيت كيف بدأ الصورة ؟ ثم هل ترى آثار المعركة ؟ هذا حزين مكتئب ، وذلك عطشان ثمل بالجراح مضطرب فى نزعه . وهناك صرع رجل كريم اعتاد أن يؤوى اليتيم ، وهناك رجل شجاع طويل دامى النحر يئن تارة ويصرخ تارة كالنسر وكان قبل يصرخ وهو يحمل على العسكر كما يصرخ الفحل وسط إبله . ثم هذه امرأة أسرت وكانت من قبل حرة ، إنها اليوم تسير فى مركب الكره ، وتمشى على مشقة وفى تثاقل ، وتذرف دمعها بينا راحت ترفل فى ثوب خلق وكانت ترفل فى البرد المخطط .

لقد انهار القوم الأعزة .. كسرهم العدو الغازى فهاضوهم كأنهم أرجاء هار استخفه اليم فتداعى ، وهاهو ذا الغالب المنتصر يمضى فى خفة يسوق أمامه أسرى القوم وقطعان الإبل التى تشبه الطود .

وبعد . . فتلك لمحات عن تصوير هذيل ، رأينا فيها دقة وروعة ، ونستطيع إذا تأملنا فيها أن نرى إلى أى حد استطاع الهذليون أن يعبروا عن المعانى تعبيرات قوية ملموسة ، لا تقل فى دلالتها عن أى لوحة يرسمها مصور ، بل ربما تمتاز عنها بما يشيع فيها من حركة دائبة نشيطة . ويمكن إذا أردنا منها مزيدا أن نلتمسها فى القصص ، وسكوتنا عنها ليس فيه إغضاء لشأنها وإنما لأنا تحدثنا فى هذا الجانب ما فيه الكفاية .

* * *

وبذلك نكون قد انتهينا من الصفات العامة فى شعر هذيل . وهى إذا كانت تشترك فى بعضها أو أغلبها مع غيرها فليس من الممكن إهمالها لهذا الشأن ، لاسيما وأن الشعر العربى كله كان يسير فى تيار واحد وله خصائص واحدة ، ومن الصعب أن نلتمس فيه وجوه اختلاف تفصل بعضه عن بعض فصلا بعيداً .

الشعر العربى كله صورة للمجتمع الذى عاش فيه — وكان رتيباً فى الغالب — إلا أن هذه الصورة كانت ذات أوضاع متعددة . وكان لهذيل وضع خاص ميزها عن غيرها . ونستطيع أن نعود من جديد إلى ماقلناه — سواء فيما تناولته من فنون

أو فيما كان لها من خصائص وصفات — فسنرى الآية واضحة . فقد كان الهذليون يتلاقون مع غيرهم حين يفخرون ويتغزلون ويهجون . ولكنهم كانوا يختلفون عنهم حين يلحون على الرثاء ويديمون الوقوف إزاء الحيوان . .

ماذا أقول ؟ بل كانوا يختلفون عنهم حين شاعت بينهم ظاهرة التصعلك الثائرة ، فلونت شعرهم ألوانا قد لانراها عند كثير من القبائل ، ولا يظنن أحد أن فى وسعه إنكار هذه الظاهرة ، وإلا فإنه يحرم الشعر الهذلى أخصَّ صفة من صفاته .

ويستمر هذا الشعر فى أغلب جوانبه بهذه الصورة ، فإذا بعضها قوى الشبه بما نراه فى الصورة الكبرى للشعر العربى . وإذا بعضها الآخر بعيد عن هذا الشبه حتى لتقوى فيه شخصية هذيل ، فنراها مرة تجيد الرثاء ومرة أخرى تجنح إلى القصص ومرة ثالثة لا تمدح ، خاصة فى العصر الجاهلى .

وإذا نظرنا إلى هذا الشعر — من جانب الصناعة نفسها أو من جانب الفن الخالص وما يتصل به من نقد وتقدير وتقويم — فسنرى أن أصحابه لم يكونوا يسيرون به وَفقَ ماهو مألوف ، وإن كانوا يعمدون كثيراً إلى هذه التقاليد التى تتبع فى الأساليب والمعانى والموضوعات . فالجاهليون كانوا يطيلون القصائد ويحرصون على أن يقدموا لها بمقدمات غزلية حرصهم على أن يكون المطلع مصرعا ، فضلا عن أن منهم من كان يغرب ويقول الحكمة ، وأن كلهم كان يتناول أكثر من موضوع فى خيال فطرى واقعى .

أما الهذليون فلم يكونوا يطيلون ، وكثيرٌ منهم لم يعْنَ بالتصريع أو يحفل بالمقدمات الغزلية ، وتكلفوا الحكمة كثيراً ، وعمدوا إلى القصص يحكون به قصة الدهر الفاجعة ، وحرصوا على أن يكونوا متعلقين بالواقع . وأنا لا أنكر أن فى الشعر العربى مثل هذه الصفات ، إلا أنها كانت أقوى وأشد ظهوراً عند الهذليين فكان من حقها علينا أن نعرفها بها .

غير أن هذه الصورة العامة يعتريها شىء من التغير حين يظهر الإسلام وتتقدم السنون ويقبل بنو أمية ، فيتوارى الفخر والهجاء تقريبا ، ويقوى

الغزل والمدح ، وتندثر هذه الفنون التي كنا نراها عند الذؤبان ويستبدلون بها الرثاء ذلك الفن الذي عرفوا به منذ قديم .

ومن الناحية الفنية تطول القصائد ، وتتلاشى القصصية ، وتتعدد المقدمات ولكن أغلب الصفات يظل ملازما الشعر كله ، فنرى الروح الهذلي قويا يتردد في أكثر أجزاء القصيدة . وهذا كله مما كان يدفعني إلى أن أجعل الهذليين مدرسة لها اتجاهها المرسوم وتقاليدها المعينة وصناعتها الخاصة . ولكني أعلّق هذا الحكم بما هو موجود فعلاً من شعر ، وهو قد يتغير إذا اهتدينا إلى دواوين القبائل الأخرى وفحصنا شعرها مثل هذا الفحص الناقد .

الفصل الرابع

لغة هذيل

— ١ —

خصائص وصفات

إذا كان لأداة التعبير التى فهمنا بها أشعار هذيل حق على الباحثين أن يقفوا عندها ويبحثوا فيها ، وينظروا خصائصها وصفاتها ، فإن علينا أن نقوم بذلك ما دمنا تعرضنا للقبيلة وتحدثنا عن شعرها وقوّمناه . وما نظن أنها كانت تنشط لما نشطت له وهى تستخدم — دون خلاف — هذه اللغة التى حملها لنا كتاب الله وانتهت بها قصائد الشعر القديم . فإن هذا لا يستقيم مع ماعرف عن العرب واختلاف ألسنتهم وتباين لهجاتهم(١) .

ومن المحقق أن التوافق العنصرى أو التآلف الجنسى يستلزم لغة واحدة ، إلا أن هذه اللغة قد يعتريها من التغير والاختلاف ما تستلزمه الظروف الجغرافية والاجتماعية المختلفة . وليس خطأ أن نقول إن قبائل معدّ كلها قد تكلمت لغة واحدة حين كان يضمها الحجاز ، فلما تفرقت وتباينت مساكنها بدأ لسانها يتغير تبعاً لتغيّر البيئة والحياة .

وما يعنينا أن نتتبع بالتفصيل هذا البحث ونخوض فيه ، ونتعرض لمشكلاته ، فليس المجال مجاله . ولكننا إذا أمعنا النظر فى مدى هذا التغير نراه شيئاً لايمس الجوهر . وفى نظرى أن هذا راجع إلى شيئين : الأول أن افتراق العرب لم يقع قبل الإسلام بوقت طويل ، فلما نزل القرآن عمل على تقارب اللهجات

---

(١) لايعدو أن يكون تباين اللهجات عند العرب ما هو حادث اليوم فى مصر بين الصعيد وشمالى الدلتا ، أو بين أسوان والقاهرة .

بل على إلغائها(١) ، والثانى أن احتكاك الألسنة ضاعف من اتساع هذه الخلاف فكان ثمة صراع لغوى مستديم .

لهذا نستطيع أن نتكلم عن لغة أهل الشمال — وفيهم هذيل — ونحن مطمئنون إلى أن لهجاتهم كانت تختلف قليلا باختلاف القبائل . وهذه كانت على أى حال خليطاً من مجموعتين عظيمتين . واحدة حجازية والأخرى نجدية أو تميمية ، يؤيد ذلك ما يذكره اللغويون دائماً حين يعرضون لخلاف ما(٢) .

وقد ذكرنا قبل أن العرب كانوا يتوارثون لغتهم ، فلما جاء الإسلام أخذت هذه اللغة فى الاتساع وتكلم بها أبناء الدولة الإسلامية فبدأ الفساد يظهر فيها ، حتى إذا خيف على اللغة شره شرع العلماء فى جمع شتيتها فكان من ثمرة ذلك كل هذا الشعر الذى يروى لهذيل .

ولا نزال نذكر هذه النصوص التى مرَّت بنا وتحدثَتْ عن تلك القبائل التى أُخذت عنها العربية ونزل بلغتها القرآن الكريم ، وقد رأينا أن هذيلا كانت واحدة ممن ذكرهم الأقدمون ، ذلك أنها أُثِر عنها فصاحة فى اللسان وصحة فى النطق ودقة فى البيان(٣) .

على أن علماء اللغة كانوا يجدون اختلافاً كبيراً فيما يأخذونه عن الأعراب ، وكان هذا مافرق لغة عن لغة وباعد لساناً عن لسان . ولو رحنا نجمع مظاهر ذلك كله لطال بنا الأمر ، ولعرضنا للذميم والمستكره من اللغات ، ولتحدثنا مثلاً عن الشنشنة والكشكشة والوتم والتلتلة مما لا سبيل إليه فى بحث خاص بهذيل . إلا أنا إذا قصرنا بحثنا على لغة هذيل وحدها أمكننا أن نتعرف على بعض خصائصها نعرض لها بشىء من التفصيل لنقف على مدى ما كانت تختلف فيه عن غيرها .

---

(١) يذكر الأستاذ حسن إبراهيم فى كتابه (تاريخ الإسلام السياسى) ١ : ٣٣ أن قضاعة ظعنت إلى الشام فى الوقت الذى هاجر فيه عرب اليمن إلى العراق ، وكانت قضاعة أولى القبائل التى ارتحلت عن تهامة فى مبدأ صراعها على ما يذكره البكرى . فإذا صح هذا نرى إلى أى حد كانت هذه الهجرة قريبة العهد بظهور الإسلام . فالمعروف أن هجرة اليمنيين بدأت بعد انهيار سد مأرب وكان ذلك حوالى سنة ٥٤٢ ميلادية (راجع فيليب حتى فى كتاب تاريخ العرب ١ : ٨٤) .

(٢) راجع على سبيل المثال لسان العرب ٢٠ : ٢٨٣ وكتاب القراءات واللهجات ٣٤ .

(٣) راجع ما قلناه فى ذلك فى الفصل الأول من هذا الباب .

١ — صورة النطق أو جرس الكلمة :

وأريد بذلك طريقة أداء اللفظ ، وإعطائه صورة منغومة ذات طابع خاص وأشهد أنى أقحم هذا القسم هنا إقحاما ، إذ ليست بين يدى النصوص الصريحة التى تبين لنا حقيقة الطريقة التى كان ينطق بها الهذليون كلماتهم . والثابت أن كثيراً من القبائل كانوا يختلفون فى أداء اللفظة من حيث صفات حروفها كالشدة والرخاوة والتفخيم والإمالة والإخفاء والإظهار والترقيق والتأنى والسرعة . ولكن هذا ليس من الاختلاف الذى يتنوع فيه اللفظ والمعنى ، لأن هذه الصفات المتعددة فى أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظا واحداً .

وفى ذلك يروون مثلا[١] أن قضاعة كان عندها إخفاء فإذا تكلمت لا تبين، كما يروون أن الإمالة والفتح لغتان فاشيتان على ألسنة الفصحاء من العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، وكان الفتح لغة أهل الحجاز ، والإمالة لغة عامة أهل نجد من تميم وأسد وقيس ، قاله الدانى[٢] ، وأن يُرْوَى أن تميما كانت أشد العرب حرصا على الإمالة وبها عرفت .

وليس ببعيد والحال هذه أن تختص هذيل ببعض هذه الصفات الأدائية . ألم نر ما ذكره الدانى ؟ إنا نفهم منه أن هذيلا كانت تفتح ، وعبارة العالم واضحة الدلالة على ذلك . ولكن ماذا نقول فيما تواتر عن عبد الله بن مسعود من أنه كان يقرأ « طه » بالإمالة فيكسر الطاء والهاء[٣] ، وقد ذهب مذهبه

(١) النشر فى القراءات العشر ١ : ٣٠ .
(٢) المصدر السابق ٢ : ٢٩ .
(٣) نفس المصدر ٢ : ٣٠ .

فيما بعد أبو القاسم الهذلى(1) ، فرويت عنه الإمالة المحضة فى ذوات الراءات نحو : ذكرى وأسرى والقرى ، وفى بعض كلمات أخرى(2) .

من الجائز جداً والأمر كذلك أن تكون هذيل واحدة ممن كان يميل ، أو ربما كانت تظهر فى بعض الألفاظ ، وتشدد فى بعضها الآخر ، وتفخم فى كلمات غير هذه وتلك ، ولكننا لا نستطيع الجزم بأمر كهذا بحيث نقف على بعض ما كانت تتبعه القبيلة فى تنغيم كلماتها ، وإعطائها صورة صوتية معينة لاسيما فى قراءة الشعر ، ولذا فنحن نسكت عن هذا القسم مضطرين لأنا نعلم أن أحداً لم يعن به ، وإن وجد الكثيرون ممن حملوا لنا ألوانا مختلفة من قراءات القرآن الكريم .

— ٢ —

بنية الكلمة ونسجها

وأقصد بذلك هيكل اللفظ وصورته ، وما يعترى حروفه من إبدال وتصحيح وإعراب وبناء وما يجرى هذا المجرى . وهذا البحث لاشك يهدينا إلى جزء لابأس به من ذلك الجانب الذى اختلفت فيه هذيل عن غيرها . وأما مبعث هذا الاختلاف فنرده إلى الأشياء التالية :

(ا) الإبدال :

وهو وضع حرف مكان آخر ، وفى ذلك أثر عن هذيل فحفحتها واستنطاؤها . . .

أما الفحفحة فهى أن تبدل الحاء عينا فتقول فى حتى « عتى » . وفى كتاب الاقتراح للسيوطى أن من الفحفحة قول هذيل (عل) فى (هل) . ولا نجد سوى ذلك ، حتى ليخيل إلينا أن كل الفحفحة مقصورة على هاتين اللفظتين فقط . بل إن رواية السيوطى فى الاقتراح شىء ينفرد به هو ولم يقل به أحد ، فى حين

(1) هو أحد الأئمة الذين ألفوا فى القراءات ، توفى سنة ٤٦٥ هـ (النشر ١ : ٩٠ وما بعدها ، ٢ : ١٨٩).

(2) النشر ٢ : ٣٩ ، ٤١ .

أن رواية مزهره متواترة استند فيها العلماء إلى مايروى من أن عبد الله بن مسعود قرأ قوله تعالى « حتى حين » عتى حين فأرسل إليه عمر إن القرآن لم ينزل على لغة هذيل فأقرئ الناس بلغة قريش(١) .

وهكذا نرى أن الإبدال ليس مطرداً فى كل حاء . يؤيد ذلك أن ابن مسعود لم يقل (عتى عين) واكتفى بقلب الحاء عينا فى (حتى) فقط . فإذا التمسنا هذه الظاهرة فى أشعارهم لا نعثر عليها ، إذ لم ترد (عتى) فى أى بيت لأى شاعر ، فهل كانوا يعتبرونها شيئاً مخلا بالفصاحة فازوروا عنها أم نطقوا بها فغيرها الرواة من بعدهم ؟

لسنا نقطع بواحد من الرأيين ، وإن كنا نرجح أن الفحفحة لم تكن عند كل بطون هذيل ، ونطق بها بعضها قليلا ، فلم تنتشر وآثر إهمالها من كان يقولها من الشعراء .

وأما الاستنطاء فيجعله كل من السيوطى والزبيدى لسعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس والأنصار(٢) . ويجعله الجوهرى لليمن فقط ذاكراً أنهم يجعلون العين الساكنة نونا قبل طاء . فيقولون (أنطاه) فى أعطاه ، وقرئ « إنا أنطيناك الكوثر » قراءة شاذة وعن الرسول أنه قال لرجل (انطه كذا) أى أعطه ، وفى حديث له « اليد المنطية خير من اليد السفلى » (٣) .

وظاهر أن ماورد من هذا الاستنطاء مقصور فقط على الفعل (أعطى) وما يتصرف منه فقط ، إذ لم نجد فى غيره هذا الإبدال مما يجعلنا نوقن أنهم لم يجعلوا كل عين ساكنة قبل طاء نونا . وهنا نحب أن نسأل : أظهر هذا الاستنطاء فى شعر هذيل .

الجواب لا . ولا أظن أن الرواة بدلوه فى الوقت الذى كان فيه الرسول يعنى به ويخلص له . وذلك ينتهى بنا إلى أن نعيد النظر فيمن كان يأخذ به من

---

(١) السيوطى فى كتابى الاقتراح فى أصول النحو والمزهر ١ : ١٠٩ ، الزبيدى فى تاج العروس ٨ مقدمة ، الأميرى فى حاشية مغنى اللبيب ١ : ١١١ .

(٢) راجع مقدمة تاج العروس ٨ والمزهر ١ : ١٠٩ .

(٣) تاج العروس — مادة نطا .

القبائل ، وهنا نجد أن من ذكرهم الزبيدى كانوا جميعا من اليمن سوى هذيل . وينفرد هو بذلك فيختلف عن الجوهرى . مع أنه يذكر فى نفس الموضع أن : تناطى الكلام تعاطاه على لغة اليمن[1] . وأما صاحب اللسان فيذكر فى بساطة بعد أن نقل أحاديث شتى للرسول أن الإنطاء لغة فى الإعطاء بلغة أهل اليمن ، ولم يعرض لهذيل [2] .

نستطيع بذلك أن نبعد الاستنطاء عن هذيل . ونجعله لقبائل اليمن فقط . وإذا صح ماقيل من أن هذيلا كانت ممن تأخذ به فلا يبعد أن يكون من يعنى به رهط صغير منها جاور اليمن أو تكون هذيل اليمن ، فقد كانت ثمة قبيلة يمنية تحمل هذا الاسم على نحو ما ذكرناه فى أول فصل من الباب الأول .

ثم شىء فى الإبدال خاص بما كان على وزن فِعال أو فِعالة بكسر الفاء فى كل ، وفيه ذكر ابن دريد أن هذيلا تبدل الواو المكسورة المصدرة همزة ، فتقول إشاح فى معنى وشاح[3] ، وذكر هذا أبو حيان عند تفسيره قوله تعالى من سورة يوسف « فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه » فقال : قرأ ابن جبير « من إعاء أخيه » بإبدال الواو المكسورة همزة ، كما قالوا إشاح وإسادة فى وشاح ووسادة . وذلك مطرد فى لغة هذيل[4] .

على أنى لم أقرأ فى شعرهم (إشاح) ولم أعثر عليها فى دواوينهم . مع أنى قرأت كثيراً « إلْدَه وإلدك » مكان ولدٌ وولدك ، قال مالك بن خالد :

لِإلدَكَ أصحابى فلا تزد هيهمُ ... بِسايةَ إذْ مُدَّتْ عليكَ الحلائبُ[5]

وقال المعطل :

لَهُ إلْدَةٌ سُفْعُ الوجوه كأنهم ... يصَفِّقُهم وعْكٌ من الموم ماهن[6]

---

(١) تاج العروس ١٠ : ٣٧٢ .

(٢) لسان العرب – مادة نطا .

(٣) جمهرة اللغة ٢ : ١٦١ .

(٤) راجع البحر المحيط فى تفسير سورة يوسف آية ٧٦ .

(٥) الديوان ٢ : ٩ .

(٦) الديوان ٣ : ٤٩ .

وقرأت « إعاء » ، قال الأعلم :

هواءٌ مثلُ بعلكِ مستميت على مافى إعائك كالحيال[1]

وهناك إبدال فى الفعل المعتل الآخر فى مثل . أتى يأتى . قال أبو بكر « أتا يأتو أتوا على لغة هذيل . وفى ذلك أنشد لخالد بن زهير يريد أبا ذؤيب :

ياقومُ ما بال أبى ذؤيبِ كنت إذا أتَـوْته من غَيْب
يشمّ عطِفى ويمس ثوبى كأننى قد رِبْتُه بِرَيْب[2]

(ب) التصحيح والإعلال :

أما التصحيح فهو إبقاء حرف العلة على حاله وعدم التعرض له بتغيير ما ، فى حين أنا فى الإعلال نستطيع أن نغير حروف العلة بالقلب أو الحذف والإسكان ، وسنعنى هنا بالسماعى فقط دون القياسى لأن الأول هو الأصل .

وفى ذلك روى عن هذيل تحريك الواو والياء فى مثل :جوزات ويضات . ووجه الخلاف أن ما كان اسماً على وزن فعلة كجوزة (مفتوح الفاء وبعده واو ساكنة أو ياء ساكنة فإنه فى المشهور يجمع جمعاً مؤنثاً على فعلات كجوزات باسكان العين بعد الفاء المفتوحة) ولكن هذيلا تحرك حرف العلة تبعاً لفاء الكلمة مثل الصحيح العين فتقول:جوزات كضربات ، وقرأ الأعمش قوله تعالى « الذين لم يظهروا على عَوْرات النساء » عوزات بفتح الواو[3] . وجاء على هذا قول الهذلى يمدح جواده بأنه مثل ظليم له بيضات فهو يوالى سيره ليصل إليها :

أخو بَيضَاتٍ رائحٌ متأوّب رفيق بمَسح المنكبين سبوح

وفى شرح مفصل ابن يعيش عن ابن جنى أنه قال : فتح حرف العلة فى بيضات لغة هذيل وليس من قبيل الضرورة[4] . وقال البغدادى : لغة هذيل

---

(١) الديوان ٢ : ٨٣ .

(٢) الديوان ١ : ١٦٥ .

(٣) القراءات واللهجات ١٢٦ .

(٤) شرح المفصل ٥ : ٣٠ .

فتح عين فعلات جمع فعلة المعتلة العين مثل جوزة وجوزات وبيضة وبيضات[1].

هذا والشائع عند العرب بقاء ألف المقصور على حالها عند إضافته لياء المتكلم فيقولون عصاى وفتاى وهواى ، فإذا كان قبل هذه الياء حرف من حروف العلة المعروفة فإنهم يدغمون الألف فى الياء فيقولون . إلىّ وعلىّ . ولكن هذيلا تلجأ إلى الإدغام فى الحالتين جميعاً فتقول عصىّ وفتىّ وهوىّ ، وروى على ذلك قول أبى ذؤيب فى أولاده :

سبقوا هوىّ وأعنقوا لهواهم فتُخرموا ولكل جنب مصرع[2]

وفى الأشمونى أن انقلاب ألف المقصور ياء عند إضافتها لياء المتكلم لغة حكاها عيسى بن عمر عن قريش[3] وهذا عجيب حقاً ، بل لقد حكى الواحدى فى البسيط أن هذا لطيء[4] فتأمل .

وذكر الأستاذ عبد الوهاب حمودة أن أبا الطفيل قرأ فى قوله تعالى « قال يابشراى هذا غلام » يابشرىّ بقلب الألف ياء وإدغامها فى ياء الإضافة على لغة هذيل وناس غيرهم[5] ، وقرأ عبد الله بن أبى إسحاق وعاصم الجحدرى « قال هى عصىّ أتوكأ عليها » .

(حـ) وجوه الإعراب وغيره :

وأول شيء يلقانا فى ذلك «متى» والشائع عند العرب استعمالها اسم استفهام واسم شرط . ولكن هذيلا تستعملها بمعنى (من) الجارة ، وقد سمع من كلامها : أخرجها متى كمه أى من كمه ، وقال أبو ذؤيب :

شربن بماء البحر ثم ترفعت متى لُججٍ خُضْرٍ لهنّ نئيج[6]

(١) خزانة الأدب ٣ : ٤٢٦ .

(٢) الديوان ١ : ٢ .

(٣) الأشمونى ٣ : ٥٤٣ .

(٤) نفس المصدر ٣ : ٥٤٦ .

(٥) القراءات واللهجات ٢٨ .

(٦) الديوان ١ : ٥٢ .

كما قال ساعدة بن جؤية :

أخيلُ برقا متى حابٍ له زجل إذا يُفتر من تَوْماضِهِ حلجا(١)

وورد فى الأشمونى أن مجيء (متى) على هذا الوجه خاص بهذيل وحدها. وذهب ابن ولاد إلى أنها عندهم اسم بمعنى وسط فإذا قالوا : جعلها متى كمه فإنهم يقصدون وسط كمه ، فتكون بذلك ظرفاً ، ويترتب على هذا أن تكون معربة بحركات تقدّر على الألف إذ لا سبيل إلى بنائها والحال هذه . ويذهب مذهبه ابن سيده ويقول هى بمعنى وسط .

على أنها تكون مبنية إذا اعتبرناها بمعنى (من) الابتدائية ، ذلك أنها تكون حينئذ أشبه بالحرف . وهنا تكون أقرب إلى حقيقة معناها لدى الهذليين ودليل هذا بيت أبى ذؤيب .

وليس هذا كله ينفى استعمال هذيل (متى) للاستفهام والشرط ، فقد قال مالك بن خالد :

متى تنزعوا من بطن ليّةَ تصبحوا بقرن ولم يضمر لكم بطن محمر
فلا تتهددنا بقحمك إننا متى تأتنا تنزلك عنه ويعقر(٢)

وكذا نلمس إلى أى حد بلغت مرونة هذه الكلمة عندهم ، مع أنها لم تقع فى كتاب الله إلا استفهامية نحو قوله تعالى « متى نصر الله »(٣) .

وفى الفعل الأجوف — وهو الماضى الثلاثى المعتل الوسط — نكسر الحرف الأول منه ونقلب حرف علته ياء إذا بنيناه للمجهول فنقول فى : باع وقال بيع وقيل . ولكن بعض هذيل يشاركون أسداً وبنى فقعس وبنى دبير فى قلبهم الألف واواً فيقولون : بوع وقول بإخلاص الضم فى أول اللفظ(٤) .

وفى الفعل أو الاسم المنتهى آخره بياء مكسور ما قبلها تشبع حركة الكسرة فى وصل الكلام ووقفه فنقول : يعطى ويهدى ويشجى . ولكن هذيلا

---

(١) الديوان ٢ : ٢٠٩ .

(٢) الديوان ٣ : ٧ .

(٣) راجع الأشمونى ٣ : ١٩٠ ومغنى اللبيب ٢ : ٢١ .

(٤) راجع البحث المنشور فى مجلة الرسالة عدد ٨٢٧ بعنوان القبائل والقراءات .

تجتزئ بالكسرة عن الياء فى حالتى الوصل والوقف فتقول : يعط ويهد ويشج .
وأنشد على لغتها :

كفاك كف ما تليق درهما جودا وأخرى تعط بالسيف الدما

وعلى ذلك أيضاً قرئ « ذلك ما كنا نبغ » و « الليل إذا يسر » و « الذين جابوا الصخر بالواد» (١) .

على أنى لم أجد فى شعر الهذليين هاتين الظاهرتين السابقتين ، ولم يقل بهما أحد منهم مما يدل على أنهما كانتا نادرتى الوجود بينهم ، وكانوا يأخذون بالشائع المشهور .

وجاء بعد ذلك أن (نعم) بكسر النون إذا اقترنت بها (ما) فالمشهور إسكان العين ولكن أبا حيان وقف عند قوله تعالى « إن تبدوا الصدقات فنعما هى »(٢) فقال إن ابن كثير وورشاً وحفصاً قرءوا (فنعما) بكسر النون والعين هنا وفى سورة النساء عند قوله « إن الله نعما يعظكم به »(٣) وذكر أن وجه هذه القراءة على لغة من يحرك العين ويتبع النون بحركتها وهذه لغة هذيل(٤) . ويذكر ابن دريد أن هذيلاً تقول (نعم) بفتح النون وكسر العين إذا أرادت ضد (لا) وهى لغة فصيحة(٥) .

هذا وتقول (المرّ) فى (المرء) رُوى لأبى خراش :

جمعتَ أموراً ينفذ المرَّ بعضُها من الحلم والمعروف والحسب الضخم (٦)

وتقول (أطرقا) جمعا لطريق ، وذلك كما فى قول أبى ذؤيب :

على أطرقا باليات الخيـا م إلا الثمـام وإلا العصىّ (٧)

(١) المصدر السابق عدد ٨٢١ .
(٢) سورة البقرة ٢٧١ .
(٣) آية رقم ٥٨ .
(٤) البحر المحيط ٢ : ٣٢٤ .
(٥) جمهرة اللغة ٣ : ١٤٢ .
(٦) الديوان ٢ : ١٥٣ .
(٧) الديوان ١ : ٦٥ .

وتقول (نُجُد) بضمتين متعاقبتين على النون والجيم تريد نجْداً بسكون الجيم وأنشد لأبى ذؤيب :

فى عانة بجنوب السِّىِّ مَشْرَبُها غَوْر ومصدرها عن مائها نُجُد(١)

وقال الهذلى :

هذيلية تدعو إذا هى فاخرت أبا هذليا من غطارفة نُجْد(٢)

وإسكان الجيم فى هذا البيت ضرورة شعرية .

كذلك تقول فى (يَتَّقِى) بتشديد التاء (يَتَقِى) بتخفيفها وفتحها لا غير ، وفى ذلك قال ساعدة بن جؤية :

يَتَقِى به نفيانَ كلِّ عشيَّةٍ فالماء فوق متونه يتصَبَّبُ(٣)

كما قال :

ولو أنَّ الذى يُتَقَى عليه بِضَحْيَانٍ أشَمَّ به الوعول

لآبته الحوادثُ أو لأمْسَى به فَتْقٌ روادفُه تزول(٤)

وتقول هذيل أيضا فى عنَّ يعِن بكسر عين المضارع عنَّ يعُن بضم هذه العين ، وأنشد فى ذلك بيت حبيب الأعلم الذى يقول فيه :

كأن مُلاءتىّ على هِزف يعُن مع العشية للرئال(٥)

وتقول (تخذت) فى (اتخذت) وأنشد لأبى جندب :

تخذت عراز إثرهم دليلا وفروا فى الحجاز ليعجزونى(٦)

ويروى ابن دريد أنها تقول هذه عصا وقفا (عصن وقفن فى نسخة ليدن) وعصين وقفين فتثبت النون والياء(٧) .

(١) الديوان ١ : ١٢٤ .
(٢) الانصاف ١٥٤ .
(٣) الديوان ١ : ٦٩ .
(٤) الديوان ١ : ٢١٨ .
(٥) الديوان ٢ : ٨٣ .
(٦) الديوان ٣ : ٩٠ .
(٧) جمهرة اللغة ٣ : ٤٨٨ .

وما أكثر ذلك الذى يروى وهو يجرى هذا المجرى ! ونقر صغير فى مؤلفات اللغة ومعجماتها يقفنا على حشد هائل مما تستقل به هذيل عن غيرها من القبائل . وها نحن رأينا أن الشعراء عنوا بلهجتهم فأثبتوا بعضها وحفظه لهم الرواة بما فى وسعهم .

— ٣ —

معانى الألفاظ

وهذا وجه يميز هذيلاً عن غيرها ، ونرى فيه ثمة تبايناً فيم ترمى إليه من معانى بعض الألفاظ : فقد تطلق قبيلة كلمة بمعنى ما فيكون لهذا المعنى لفظ آخر عند هذيل . وقد تختلف الدلالة للكلمة **الواحدة** باختلاف الألسنة التى تتكلم بها جميعاً ، ومن هذا الفرع المشترك والمترادفات والأضداد .

من ذلك ما يروى أن هذيلاً تقول : فلان لا يألو أن يفعل كذا وكذا أى لا يقدر والمشهور عند العرب لا يقصر(١) ، ومنه أنها تقول : لم أرج تريد لم أبال ، وتسمى الشيخ (شنجا) فتقول : شنج على عنج أى شيخ على بعير ثقيل(٢) . ومنه أنها تسمى البقرة الخزومة والجمع خزوم وقد قال الراجز : أرباب شاء وخزوم ونعم (٣).

ونرى مثل هذا فى دواوينهم . قال ابن دريد : أشاح الرجل إشاحة فهو مشيح ، وهذيل تجعل المشيح الجاد فى أمره(٤) ، وقال السكرى فى شرح بيت أبى ذؤيب الذى يرثى به :

بدرتَ إلى أولاهمُ فسبقتهم وشايحت قبل اليوم إنك شِيح

المشايحة فى كلام هذيل : الجد والحمل ، وفى كلام الناس المحاذرة والشفق(٥)

---

(١) جمهرة اللغة ١ : ١٨٨ .

(٢) الجمهرة ٢ : ٩٧ .

(٣) الجمهرة ٢ : ٢١٨ .

(٤) الجمهرة ٢ : ١٦١ .

(٥) الديوان ١ : ١١٦ .

وعلق على بيت أبي خراش الذي يقول فيه :

وشوط فضاح قد شهدتُ مشايحاً لأدرك ذَحلاً أو أشيف على غنم

بقوله : والمشايح هو الجاد الحامل في كلام هذيل(١).

وفي تاج العروس أن (العَدِيّ) كغني جماعة القوم بلغة هذيل يعدون للقتال وقال مالك بن خالد الخناعي :

لما رأيت عدّى القوم يسلبهم طَلْحُ الشواجن والطرْفاءُ والسَّلم
كفَّتُ ثوبيَ لا ألوى على أحد إني شنئتُ الفتى كالبَكر يُختَطم(٢)

وأنشد ابو ذؤيب :

لقد لاقى المطيّ بجنب عفر حديثٌ ـ لوعجبتَ له ـ عجيبُ

قال أبو سعيد : المراد بالمطى هنا الرفاق في السفر ، الواحد مِطْو بكسر أوله وسكون ثانيه أو مطا بفتح الميم وهي هذلية(٣) ، وقال الشاعر نفسه يريد وقبة العسل :

تدلّى عليها بين سب وخيطه بجرداء مثل الوكف يكبو غرابها(٤)

ذكر ابن دريد أن الخيطة في لغة هذيل هي الوتد(٥) .

وأنشد ساعدة بن جؤية في رثائه لابن عمه :

هو الطـِّرْف لم تحشش مطى بمثله ولا أنَسٌ مستوبد الدار خائف

وقال أبو سعيد : الطرف في لغة هذيل هو الكريم(٦)

وهذيل تجعل (الزبر) للكتابة (والذبر) للقراءة قال الشاعر :

عرفت الديار كرقم الدوا ة يَذبرُها الكاتب الحميرى

---

(١) الديوان ٢ : ١٣٠ .

(٢) راجع الديوان ٣ : ١٢ ومادة عدا في التاج .

(٣) الديوان ١ : ٩٢ .

(٤) الديوان ١ : ٧٩ .

(٥) الجمهرة ٢ : ٢٣٣ .

(٦) الديوان ١ : ٢٢٣ .

ويروى أيضا (يَزْبرُها)[1]:

وتجعل (الضحضاح) الكثير والمشهور أنه الماء الذى يتضحضح على وجه الأرض فيكون رقيقاً . وفى بيت أبى ذؤيب الذى يقول فيه :

يجش رعداً كهدر الفحل تتبعه   أدم تعطف حول الفحل ضحضاح[2] .

زعم أبو سعيد أنه يريد جماعة إبل صغيرة على اعتبار أن الضحضاح هو الماء الرقيق ولكن صاحب اللسان حين روى هذا البيت نقل قول خالد بن كلثوم فقال : إن الضحضاح فى البيت الإبل الكثيرة وهى لغة لا يعرفها غيرهم .

وفى اللسان والجمهرة أن الفعفعانى فى لغة هذيل هو الجزار ، وفعفع القصاب جلد الشاة إذا أساء سلخها[3] ، ولكنى لم أعثر إلا على (الفعفعى) قال صخر الغى يريد وعلاً :

فنادى أخاه ثم طار بشفرة   إليه اجتزاز الفعفعى المناهب

وفسر أبو سعيد الفعفعى هنا بأنه الخفيف والمعنى لا يستقيم[4].

وتقول هذيل « زخة » تريد الغيظ ، وفى ذلك قال صخر الغى يهجو :

فلا تقعدن على زخّةٍ   وتضمر فى القلب وجداً وخيفا

وقال أبو سعيد : على زخة على غيظ ولم أسمعه فى كلام العرب ولا فى أشعارهم إلا فى هذا البيت[5].

وتسمى هذيل الأسد (السرحان) ، قال أبو المثلّم يرثى صخراً :

هباط أودية حمّال ألوية   شهّاد أندية سرحان فتيان

قال أبو سعيد : السرحان فى كلام هذيل الأسد ، وفى كلام غيرهم الذئب[6] . وتسميه أيضاً (السّيد) .

---

(١) الديوان ١ : ٦٤ والجمهرة ١ : ٢٥٠ .
(٢) الديوان ١ : ٤٨ والجمهرة ٣ : ١٥١ .
(٣) اللسان مادة فعفع والجمهرة ١-١٥٩ .
(٤) الديوان ٢ : ٥٥ .
(٥) الديوان ٢ : ٥٥ .
(٦) الديوان ٢ : ٢٤٠ .

قال حذيفة بن أنس :

بنو الحرب أرضِعْنا بها مُقْمَطِرّةً
فمن يُلْقَ منا يلْقَ سِيدٌ مدرَّبُ

فرافرةٌ أظفاره مِثلُ نابه
وإن يُشوِ نابُ الليث لايُشوِ مخلبُ

وذكر أبو سعيد أن السيد فى كلام هذيل الأسد(١) .

وفى اللسان أن أنبوب الجبل طريقة فيه وهى هذلية ، وأنشد لمالك بن خالد الخناعى قوله :

فى رأس شاهقة أنبوبها خَصِر   دون السماء له فى الجوّ قرناص

وفسر البيت فقال أن الأنبوب طريقة نادرة فى الجبل وقد مر بنا ذلك . ونقل ابن سيده فى المخصص ما قاله السكرى من أن الأنبوب طريقة الجبل أى طريقتها باردة ، وعن أبى جنى أن همزة أنبوب زائدة وينبغى أن تكون من نبّ ينبّ وهو صوت التيس لأن الأنبوب من القصب ونحوه يضيق على الصوت فيخرج منه ، وكذلك الأنبوب من الجبل هو طريق فيه ضيق فالريح شديدة الصوت فيه(٢) .

وفى لغة هذيل (الثواب) بمعنى آخر ، قال أبو جندب :

ألا أبلغا سعد بن ليث وجندعاً   وكلباً أثيبوا المن غير المكدر

قال أبو سعيد : أثيبوا من الثواب وهو الشكر بلغة هذيل(٣) .

وهى تقول للشىء المملوء (هو مفرم) أنشد للبريق :

وهى حلول لهم سامر   شهدت وشعبهمُ مفرم

قال أبو سعيد : سمعته من أهل ذلك الشق ولم يعرفه من كان من شقنا .

---

(١) الديوان ٣ : ٢٥ .
(٢) اللسان مادة نبب والمخصص ١٠ : ٧٥ .
(٣) شرح أشعار الهذليين ٨٩ .

وفى اللسان أن المفرم هو المملوء هذلية . وذكر الزبيدى أن أفرم الحوض ملاه فى لغة هذيل (١) .

وذكر ابن دريد أن المكر عند هذيل هو العجب ، وقال أبو سعيد هو أشد العجب قال أبو كبير :

فقد الشبابَ أبوكِ إلا ذكرَهُ فاعجب لذلك فِعلَ دهر واهكر (٢)

وفى مواضع مختلفة من كتب اللغة نجد أن (اليسوم) بمعنى الجماعة الكثيرة و (الحوف) هو الثوب و (الكوهاء) نقرة القفا أو الوجه والرأس بأسره و (الفلاط) المفاجأة و (الهكع) السعال و (الجمسة) النار و (الجعسوس والجعموس) النخل و (الحال) الزوجة و (العوق) الجبان و (المعصوب) الجائع و (الليث) البليغ اللسن ، وغير ذلك مما لانستطيع أن نحصره ، وكثير منه ظهر فى الشعر .

---

(١) الديوان ٣ : ٥٥ واللسان والتاج مادة فرم .

(٢) الجمهرة ٣ : ٤٨١ والديوان ٢ : ١٠١ .

— ٢ —

بين النحويين واللغويين

تلك بعض صفات للغة هذيل نقلناها من مظانها وحاولنا أن نلتمس مظاهرها فى شعرها . ولكننا إذا كنا نقصر البحث على ذلك فقط فإنا نظلم الهذليين جميعاً ، لأن لغتهم لم تكن مدار بحث لما اختصت به فقط وإنما كانت — منذ تدوين العربية — مرجع العلماء فى الاستشهاد على صحة المفردات ، واعتمد عليها المفسرون فى تفسير ماالتبس من محكم الآيات ، ونظر فيها النحويون طويلاً . ومن هنا ظل الشعر الهذلى دائماً جعبة شواهد اللغة وملتقى الدارسين والحفاظ والعلماء .

كانت لغة هذيل مثلاً حياً فى فصاحة اللسان وسعة البيان ، وكانت بعيدة دائماً عن المؤثرات الخارجية فاحتفظت بمقوماتها وصحتها وبعدت عن الدخيل . ولم أقع فى كل شعرها إلا على ثلاثة ألفاظ معربة أحدها جاء فى شعر أبى ذؤيب ، واثنان وردا فى شعر البريق .

أما عن أبى ذؤيب فقد قال :

كأن عليها بالة لطمية ... لها من خلال الدايتين أريج

وفى المعرّب أن أبا عبيد وابن قتيبة قالا : البالة هى الجراب وبالفارسية (باله) وقد تكلمت بها العرب وفى اللسان أن بالة معرب (پاله) وقيل إنه معرب (بيله) نقله عن الجوهرى[1] .

وأما عن البريق فقد أنشد يصف سحاباً :

سقى الرحمنُ جزع نبايعات ... من الجوزاء أنواء غزاراً

بمرتجزٍ كأنّ على ذُراه ... ركابَ الشام يحملن البُهارا

---

(١) الديوان ١ : ٥٩ والمعرب من الكلام الأعجمى للجواليقى ٥١ واللسان مادة بول .

قال أبو سعيد : البهار هو متاع البيت . وقال أبو منصور الجواليقى : البهار بضم الباء معرب وقد تكلمت به العرب[1] .

وقال أيضاً حين أرادت بنو لحيان قتل معقل بن خويلد :

جزتنى بنو لحيان حقن دمائهم   جزاء سنمارٍ بما كان يفعل

ذكر الجواليقى أن (سنمار) اسم أعجمى تكلمت به العرب ، وجرى به المثل فقالوا جزاء سنمار . وأخبرت عن هلال بن المحسن الرمانى عن الحلوانى عن السكرى فى قول البريق بن عياض :

جزتنى بنو لحيان . . . .

قال : سنمار غلام أحيحة بن الجلاح الأنصارى وكان بنى له أطما[2] .

فأنت ترى أن هذه الألفاظ أقرب إلى العربية من أن نضعها فى الفارسية ، فلقد شاعت وذاعت حتى نطقها جميع العرب دون استثناء . ومن هنا نرى كيف ظلت هذيل نقية العناصر الأجنبية بعيدة عن أن يدخلها الدخيل فتفسد . وكذا استشهد بها اللغويون على نحو ماذكرنا ، ولم يستشهدوا بمن أثر عنهم اختلاطهم بالعجم .

١ — مع اللغويين :

من مظاهر عناية اللغويين بها فى تفسيرهم الغريب ماقالوه فى أبيات للداخل ابن حرام :

وبيضٍ كالسلاجم مرهفات   كأن ظباتها عُقُر بعيج
أطاف الناجشان بها فجاءت   مكاناً لا تروغ ولا تعوج
فراغت والتمستُ بها حشاها   فخرَّ كأنه خوط مريج

قال البكرى : عقر النار مَوقِدها ، والبعيج أن يبعجها المُوقِدُ بعود ، والناجشان الحائشان اللذان يحوشان الوحش ، وخوط مريج أى غصن يقلق

---

(١) الديوان ٣ : ٦٢ والمعرب ٦٢ .
(٢) الديوان ٣ : ٩٤ والمعرب ١٩٥ .

من مكانه(1) . وكان ابوعلى لم يفهم المقصود من (خوط مريج) وزعم أنه سهم اختلط به الدم(2) .

واضطرب أبوعلى أيضاً فى فهم معنى التعقية ، ومذهب العرب فيها . وقال فى تفسير قول المتنخل :

عَقَّوا بسهمٍ فلم يشعرْ به أحدٌ ثم استفاءوا وقالوا حبَّذا الوضَحُ

عقَّى بسهم إذا رمى به نحو السماء لا يريد به أحداً(3) . وقال البكرى إن التعقية هى سهم الاعتذار ، وروى لأبى العباس ثعلب أن الأعراب قالت : إن أصل هذا أن يقتل رجل فيطالب قومه بالدية إذا عجزوا عن الثأر ، ويتعللون برمى سهم نحو السماء ، فإذا رجع مضرجاً دماً فقد نهوا عن أخذها ، وإن رجع كما صعد أخذوها . وما كان السهم يرجع قط مضرجاً (4) .

وأورد البكرى بعد ذلك حائية الشاعر التى منها هذا البيت وعكف على تفسير غريبها .

وفى أوصاف الشىء البالى رجع أبو على إلى هذيل مرتين فقال : الحشيف الخلق وأنشد الهذلى :

أُتيح لها أقيدر ذو حشيف إذا سامت على الملقات ساما

وكذلك الدرس والدريس ، قال المتنخل :

قد حال دون دريسيه مؤوِّبة نِسْعٌ لها بعضاه الأرض تهزيز

وذكر فى تفسير البيت أن المؤوبة ريح تجىء مع الليل ، ونسع أو مسع اسم من أسماء الشمال(5) . وفى مادة (درس) عرض القالى للدريس فقال إنه الثوب الخلق وأنشد بيت المتنخل السابق .

---

(1) التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه ١٣٠ .
(2) راجع الأمالى ٢ : ٣١٠ .
(3) المصدر السابق ١ : ٤٢٨ .
(4) عن التنبيه بتصرف ٨٠ .
(5) الأمالى ١ : ٣٨ .

وفى مادة (غور) رجع أبو على إلى قول عبد مناف بن ربع الهذلى :

ماذا يغير ابنَتَىْ ربع عويلهما لا ترقدان ولا بؤسى لمن رقدا

وقال : قال أبو نصر يقال غارهم يغيرهم إذا مارَهمُ والغيار المصدر[١] .
وقال أبو سعيد : يقال فلان يغير أهله ويمير أهله ، والمصدر الغير والمير[٢] .
وعبارة البغدادى لا تخرج عن ذلك[٣] .

وفى حديث الأوس بن حارثة ونصيحته لابنه مالك يستعين القالى ببيت لأبى ذؤيب فى شرحه الغريب من قول الأوس : « فلعل الذى استخرج العَذْق من الجريمة والنار من الوثيمة أن يجعل لمالك نسلاً ورجالاً بسلاً . . . » وقف عند (بسلا) فقال : الباسل الكريه المنظر . وإنما قيل للأسد باسل لكراهة وجهه وقبحه ، يقال : ما أبْسَل وجهَ فلان ! قال أبو ذؤيب :

فكنت ذنوب البئر لما تبسلت وسُربلت أكفانى وَوُسِّدت ساعدى

تبسلت : فظع منظرها وكرهت[٤] .

وذكر لأبى كبير بيته الذى يعرض فيه لتأبط شرًّا ويقول فيه :

حملت به فى ليلة مزءودة كرهاً وعقد نطاقها لم يحلل

ونقل عن الكسائى أنه قال : جئث الرجل فهو مجئوث ، وجث جثا فهو مجثوث ، وزئد زؤدا وزؤدا فهو مزءود . وفى نفس الموضع عنّ له أن يفسر (الإفزاز) فذكر أنه قيل (الأفزاع) وأنشد لأبى ذؤيب :

والدهر لا يبقى على حدثانه شَبَبٌ أفزّته الكلاب مروع

ثم قال : الشبب والشبوب والمشب هو المسن من الثيران . والإفزاز عندى الاستخفاف ، وأفزته استخفته ، ومنه قيل لولد البقرة فزّ لأنه يستخفه كل شىء رآه أو أحس به[٥] .

---

(١) المصدر السابق ١ : ٥٩ .
(٢) الديوان ٢ : ٣٨ .
(٣) راجع خزانة الأدب ٣ : ١٧٤
(٤) راجع الأمالى ١ : ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٦٨ .
(٥) نفس المصدر ٢ : ٣٢٠ .

فأنت ترى أن أبا على لا ينسى هذيلا فى شىء، ويرجع إليها فى كل حين، ويعرض لشعرها عمداً أو مصادفة، ويستعين بما قالت على توضيح ما يقول. وأما زميله السكرى فهو يحاول أن يقفه على ما اضطرب فيه أو أخطأ، ويخوض فى شعر القبيلة خوض الرجل الذى أحاط بكل دقيق. وندع الآن هذين العالمين ونلتمس معجماً من المعاجم فسنرى فيه نفس الاهتمام.

فمن الغريب الذى يعرض له لسان العرب «الإرزيز» فقال إنه الرعدة، وأنشد بيت المتنخل الذى يقول فيه:

كأنما بين لحييه ولبته ... من جلبة الجوع جيار وإرزيز

على أنه فى موضع آخر قال إن معناه فى البيت الطعنة، ونقل عن ابن برى فى نفس المكان إنه الرعدة(١).

وحين تكلم فى مادة (هضب) ذكر بيت صخر الغى الذى يقول فيه:

لعمر أبى عمرو لقد ساقه المنا ... إلى جدث يوزى به بالأهاضب

وقال إن أهاضيب جمع أهضوبة وهى مثل الهَضْب بفتح الهاء وسكون الضاد، جمع هضبة. وذكر السكرى فى تفسير هذه الكلمة ما نصه: وقوله بالأهاضب يقال للجبل المفترش بالأرض ليس بالطويل هضبة، وهضبات وهضاب وأهاضب وأهاضيب للجمع.

وأنشد لنفس الشاعر بيته الذى يتكلم فيه عن علجين ويقول فيه:

كأنهما إذا علوا وجينا ... ومقطعَ حرة بعثا رجاما

وقال إن الرجام حجر يشد فى طرف الحبل ثم يدلى فى البئر فتخضخض به الحمأة حتى تثور ثم يستقى ذلك الماء. وهذا كله إذا كانت البئر بعيدة القعر لا يقدرون على أن ينزلوا فينقوها. وقيل هو حجر يشد بعرقوة الدلو ليكون أسرع لانحدارها. وذكر أبو سعيد أن الرجام حجر يجعل فى طرف الحبل وفى الطرف الآخر دلو فينخرط انخراطاً، فالشاعر يقول: إنهما ينخرطان فى العدو(٢).

---

(١) مادتا رزز وجلب.

(٢) الديوان ٢ : ٦٤ ومادة رجم فى اللسان.

وفى مادة (عرى) ذكر بيت أبى كبير الذى يقول فيه واصفا أعداءه :

متكورين على المعارى بينهم ضرب كتعطاط المزاد الأنجل

وفسر المعاوى بأنها مبادى العظام حيث ترى من اللحم ، كما فسرها — على رأى آخر — بأنها الوجه واليدان والرجلان . وأما أبو سعيد فيقول عن المعارى إنها السوءات(١) .

وفى مادة (سفف) يروى بيتاً ينسبه للداخل بن حرام وهو :

لعمرى لقد أعلنتُ خرقاً مبرّأ وسفا إذا ماصرح الموتُ أروعا

وقال فى شرحه : أراد رجلاً مثل السُّف (بضم السين) حية تطير فى الهواء .

والسكرى ينسب البيت للمعطل ويذكر أن السف ضرب من الحيات خبيث ويقال هو الشجاع كما يقال هو الحية الذكر(٢).

وفى مادة (شبث) يتحدث عن دابة يقال لها الشَّبث فيقول فى تعريفها إنها دويبة ذات قوائم ست طوال ، صفراء الظهر ، سوداء الرأس ، زرقاء العين ، وقيل هى من أحناش الأرض كثيرة الأرجل ، ثم روى بيت ساعدة بن جؤية التالى :

ترى أثره فى صفحتيه كأنه مدارج شبثان لهن هميم

وذكر أبو سعيد أن الشبث دابة تشبه العقربان وتكون فى المواضع الندية (٣) .

وتناولنا للسان يذكرنا بالتاج ، ففيه استطاع الزبيدى أن يجمع الكثير من المعارف ونلاحظ أنه ليس دون صاحب اللسان عناية بالرجوع إلى شعر الهذليين مستشهداً به مفسراً بواسطته الغريب الذى يعرض له . روى مثلا فى مادة (لطم) بيت عبد مناف بن ربع الذى يقول فيه :

---

(١) الديوان ٢ : ٩٦ .

(٢) أشعار الهذليين ٢٧٥ .

(٣) الديوان ١ : ٢٣٠ .

أنحى صبى السيف وسط بيوتهم   شقَّ المعيِّث فى أديم الملطم

وقال إن الملطم أديم يفرش تحت العيبة لئلا يصيبها التراب .

وعرض فيما عرض لنبايع بضم النون أو نبايعات على الجمع . قال كأنهم سموا كل بقعة نبايع ، كما يقال لوادى الصفراء صفراوات — واد فى بلاد هذيل قال أبو ذؤيب :

وكأنها بالجزع جزع نبايع   وأولات ذى العرجاء نهب مجمع

وشك فيه الأزهرى فقال . نبايع اسم مكان أو جبل أو واد . قلت : هكذا رواه أبو سعيد . وجعله ابن جنى رباعياً ذاكراً أن سيبويه قال : ويكون على يفاعل نحو اليحامد واليرابع ، فأما إلحاق علم التأنيث والجمع به فرائد على المثال . وفى العباب : والدليل على أن نبايع ونبايعات واحد قول البريق الهذلى يرثى أخاه :

لقد لاقيت يوم ذهبت تبغى   بحزم نبايع يوماً أمارا(١)

وفى مادة (رفأ) تحدث عن رفأة ترفئة وترفيئاً إذا قال له بالرفاء والبنين أى بالالتئام والاتفاق والبركة والنماء وجمع الشمل وحسن الاجتماع . وعن ابن السكيت : وإن شئت كان معناه السكون والهدوء والطمانينة ، فيكون أصله غير الهمز من قولهم رفوت الرجل إذا أسكنته ، وعليه قول أبى خراش الهذلى :

رفونى وقالوا ياخويلد لا ترع   فقلت وأنكرت الوجوه هم هم

يقول سكنونى : وقال ابن هانىء يريد رفّونى فألقى الهمز ، والهمزة لا تلقى إلا فى الشعر وقد ألقاها فى هذا البيت ومعناه إنى فزعت فطار قلبى فضموا بعضى إلى بعض .

وفى مادة (عمر) وقف عند أم عمرو وأم عامر وقال : الأولى نادرة وكلاها الضبع ، والعامر جروها كما فى التكملة ، وعبارة اللسان : يقال للضبع أم عامر كأن ولدها عامر ومنه قول الهذلى :

وكم من وجار كجيب القميص   به عامر وبه فرعل

---

(١) عن تاج العروس بتصرف ٥ : ٥٠٧ .

وفى نفس المادة ذكر أن (عمر) جبل يصب فى مسيل مكة . ونقل عن الصاغانى أنه أنشد لصخر الهذلى :

فلما رأى العمق قدامه ولما رأى عمراً والمنيفا
أسال من الليل أشجانه كأن ظواهره كنّ جوفا

وفيها أيضاً قال مانصه : وبنو عمرو بن الحارث قبيلة ، وقد تعمر انتسب إليه ، وبه فسر قول أنس الهذلى :

لعلكمُ لما قتلتم ذكرتمُ ولن تتركو أن تقتلوا من تعمرا

ويطول بنا الأمر إذا رحنا نتقصى مافى القاموس ، فضلاً عن أن ماجئنا به يعطى مثلاً واضحاً لعناية الزبيدى بما أثر عن هذيل . ونريد أن نختتم هذا بشىء رواه ابن سيدة وهو من علماء القرن الخامس الهجرى .

قال فى باب فَعلة وفِعلة (بكسر الفاء الثانية وفتح الفاء الأولى) يقال لفلان فى بنى فلان حوبة وبعضهم يقول حيبة وهى الأم أو الأخت أو البنت ، وهى فى موضع آخر الهم والحاجة ، قال أبو كبير :

ثم انصرفت ولا أبثك حيبتى رعش الجنان أطيش مشى الأصور (١)

وفى باب « مما يؤنث من سائر الأشياء ولا يذكر » تكلم عن الخزرج فقال إنها ريح الجنوب ، وقيل الشديدة الباردة ، قال أبو ذؤيب :

غدون عُجالى وانتحتهن خَزرجٌ مقفية آثارهن هدوج (٢)

وذكر سباط وقال هى فى كل حال أنثى ، وهى من أسماء الحمى ، قال الهذلى ـ هو المتنخل :

أجزت بفتية بيض خفاف كأنهمُ تَمَلُّهُمُ سباط (٣)

كما ذكر الضرب فقال إنه العسل الأبيض ، فإذا غلظ يذكر ويؤنث ، قال ساعدة :

(١) المخصص ١٥ : ٩٤ .
(٢) ١٧ : ٣ .
(٣) ١٧ : ٩ .

وما ضرب بيضاء يسقى دبوبها دُفاق فعروان الكراث فضيمها(١)

وفى حديثه عن أسنان أولاد البقر تكلم عن الطلا مخالف ماذهب إليه أبو على حين تكلم عن الشبب ونقل عن ابن السكيت أنه يقال للطلا إذا تمت أسنانه شبب ومشب وشبوب ، وقيل هو المسن منها وأنشد لأبى ذؤيب :

والدهر لا يبقى على حدثانه شبب أفزنة الكلاب مروع(٢)

وفى حديثه عن أسماء أوقات الليل والسير فيه تكلم عن (التوة) ونقل عن ابن جنى قوله . مضت توة من الليل — أى حين يطول — وأنشد الهذلى :

فغاضت دموعى توة ثم لم تفض علىّ وقد كادت لها العين تمرح(٣)

وفى أسماء العيون تكلم عن (القصب) فقال إنه مجارى الماء من العيون ثم روى عجز بيت لأبى ذؤيب هو : على قصب وفرات نهر ، وعبارة أبى سعيد أنها مقيمة بين ركايا وبين ماء عذب يجرى ، فالركايا تفسير للقصب ، وواضح أنه الماء القليل لأنه عقب بقوله وكل ماء كثر فقد استنهر ، يريد فرات النهر (٤) .

وما نظن أنا بحاجة بعد ذلك لنقف على اهتمام ابن سيدة بما يروى عن هذيل . بل ما نظن أنا بحاجة بعد ذلك إلى كتب أخرى فى اللغة لنرى مبلغ هذا الاهتمام وقيمته ، فكل شئ واضح ، فلقد تكلم اللسان والتاج والمخصص والأمالى بما فيه الكفاية ، مما له صلة بلغة هذيل . بيد أن نظرة عجلى فى كل من فهرستى اللسان والجمهرة ترينا العدد الهائل من الأبيات التى استشهد بها صاحبا المؤلفين ، وقد ذكرت من قبل أنهما كشفا لنا عن أسماء شعراء لم يرد لهم شعر فى الدواوين .

* * *

(١) المخصص ١٧ : ٢٥ .
(٢) المخصص٨ : ٣٣ والأمالى ٢ : ٣٢٠ .
(٣) المخصص ٩ : ٤٥ .
(٤) المخصص ١٠ : ٣٣ والديوان ١ : ١٤٦ .

٢– مع النحويين :

وأشهد أن اهتمام النحويين بلغة هذيل كان دون اهتمام اللغويين ، إلا أن هذا لا يعنى إهمال علماء النحو لها . والواقع أن عناية هؤلاء بكلام العرب كلفهم متابعة دقيقة لما كانوا ينطقون به ، ومن ثم لاحظوا أنهم كانوا يلتزمون خصائص معينة باطراد ، كما كان بعضهم يحيد عن هذه الخصائص فيجيء الشاذ أو القليل أو النادر أو ماشئت من هذه التسميات التى تطلق على ما اختلف فيه .

ونظم العرب إذا كلفناهم التزام هذه الخصائص المطردة لأن ذلك يتنافى مع ما عرف لهم من لهجات وأساليب فى الأداء . فإذا كان العلماء يروونها عنهم ويثبتونها ويقعدون بها قواعد النحو ، فإن المنحرف من هذه الخصائص جاء استكمالا للصورة التى تكلم بها العرب .

ومن هنا رأينا لهذيل المطرد كما رأينا لها المنحرف ، وفى كل هذا استطاع النحويون أن يمثلوا لنا لغتها كما كانت . ولسنا نملك بعد ذلك أن نحكم برأى قاطع فى هذا المنحرف فنقول بصحته أو خطئه ، وكل ما ندرى ان يكون مرجع ذلك كله ما استقر فى ذهن الشاعر من لغته أو أنه كان يتكلم بالسجية فيتصرف ويرتجل ويخترع مالم يكن .

ومع ذلك فسنصادف من لا يرى فى المنحرف شذوذا ، فيأخذ به مستشهدا وها نحن أولاء نقف وقفات على مسائل مختلفة أثبت ابن الأنبارى بعضها فى إنصافه ، وجاء بعضها نتفا فى كتب مفرقة .

من ذلك ما لاحظته فى ديوانهم مثل قول مالك بن خالد الخناعى :

واللهِ ما هِقْلةٌ حَصّاءُ عَنَّ لها ... جَوْنُ السَّراةِ هِزَفٌّ لحمُها زِيَمُ

بأسرعَ الشَّدَّ منى يومَ لانِيَةٍ ... لما عَرَفْتُهُمُ واهتزتِ اللِمم

بكسر نية ، والنية كعدة الفترة ، من ينى نية إذا فتر . وهو هنا نفى بلا وترك ما بعدها مجرورًا بالإضافة . وذكر أن مثله قول الشماخ :

إذا ما أدلجتْ وصَفَتْ يداها ... لها الإدلاج ليلةَ لا هجوعِ

بكسر العين . وقول رؤبة بكسر الفاء الأخيرة (لقد عرفت حين

لا اعتراف)[1] . والإشكال فى إعراب ما بعد لا النافية مضافاً إلى اسم قبلها وفى ذلك إلغاء لعملها ، والمألوف نصب الاسم . وكان يكون هذا الاسم وعامله وخبره المحذوف فى موضع المضاف إليه .

وندع هذه المسألة الآن ولنقف مع البغدادى عند آخر بيت لعبد مناف ابن ربع فى قصيدة له يقول فيه :

حتى إذا أسلكوهم فى قتائده شَلاًّ كما تطرد الجمالة الشردا

ونحن نرى البيت سيق بغير جواب ، فتكلم صاحب الخزانة عن حذف جواب الشرط ، وذكر فى هذا البيت أن الجواب محذوف لتفخيم الأمر أى : بلغوا أملهم ، وعلق عليه بقوله وهذا هو الصواب من أقوال ثلاثة[2] . وعن أبى سعيد الأصمعى أنه سمع خلفًا الأحمر ينشد رجزًا عن أبى الجودى :

لو قد حداهن أبو الجودىٍّ برجز مسحنفر الهوى
مستويات كنوى البرنىٍّ

فلم يجعل للو جوابا . وقد يقال إن قوله (شلا) جواب كأنه قال : إذا أسلكوهم شلوهم شلاًّ[3] .

وأما السيوطى فقد علّق على بيت أبى ذؤيب الذى يقول فيه :

نهيتُك عن طلابك أم عمرو بعاقبة وأنت إذٍ صحيح

بقوله : . . . والبيت استشهد به الأخفش على أن (إذٍ) معربة لعدم إضافة زمان إليها وقد كثرت . وأجيب بأن الأصل (وأنت حينئذ) ثم حذف المضاف وبقى المضاف إليه[4] . على أن ابن يعيش وضع البيت نفسه فى مبحث حذف المضاف إليه وقال ما نصه : وأعلم أنه قد جاء عنهم حذف المضاف إليه وهو أقل من حذف المضاف وأبعد قياسًا ، وذلك لأن الغرض من المضاف إليه التعريف والتخصيص . وإذا كان الغرض منه ذلك وحُذف كان نقضًا للغرض

(١) راجع الديوان ٣ : ١٥ .
(٢) خزانة الادب ٣ : ١٧٣ .
(٣) راجع الديوان ٢ : ٤٢و٤٣ .
(٤) شرح شواهد المغنى ص ٩٢ .

وتراجعا عن المقصود . فمن ذلك قولهم (إذ وحينئذ) وأصله أن (إذ) تكون مضافة إلى جملة إما ابتدائية أو فعلية نحو (جئتك إذ الحجاج أمير ، وإذ قام زيد) وإذا كانت اسما تضاف إلى جملة لتوضيحها وتزيل إبهامها . فإذا تقدمتها جملة فعلية أو اسمية ربما حذفوا الجملة المضاف إليها (إذ) لدلالة الجملة المتقدمة عليها ، فجاءوا بالتنوين بعد (إذ) عوضا عن المحذوف ، وذلك نحو قولهم (إذ) من قول الشاعر :

نهيتك عن طلابك أمَّ عمرو   بعاقبة وأنت إذٍ صحيح

وأصله وأنت إذ نهيتك ، فحذف الجملة وعوض منها التنوين . ومثله حينئذ وساعتئذ ويومئذ والمراد إذ كان كذا وكذا ، وساعة إذ كان كذا وكذا .

وقد علق الشارح فى الهامش بقوله : والشاهد فيه قوله (إذ) حيث جاء بالتنوين عوضا عن الجملة والأصل (وأنت إذ الأمر على هذه الحال [1]) . وعبارة البغدادى وأنت إذ الأمر ذاك[2] .

ونحاول بعد ذلك أن ننظر فى بعض ما جاء فى الإنصاف ، فسنجده مشفوعا بأشعار الهذليين ، يستدل بها الكوفيون تارة والبصريون تارة أخرى ، وقد يستعين بها ابن الأنبارى فى تأييد ما يأخذ به . ففى المسألة التاسعة مثلاً ينظر البصريون فى شعر هذيل ويستشهدون ببيت لمالك بن خالد الخناعى على مايذهبون إليه من أنه يجوز تقديم خبر المبتدأ مفرداً كان أو جملة على المبتدأ نحو : قائم زيد ، أبوه قائم زيد .

والكوفيون ينكرون ذلك لأن التقديم يؤدى إلى تقدم ضمير الاسم على ظاهره ، مع أن رتبة ضمير الاسم بعد ظاهره : واحتج البصريون بأن قالوا : إنما جوزنا ذلك لأنه جاء فى كلام العرب وأشعارهم ثم ساقوا نصوصا من هذا الكلام أردفوها بثلاثة أبيات أحدها قول الهذلى :

فتى ما ابنُ الأغرّ إذا شتونا   وحُبَّ الزاد فى شَهرَى قُماحَ

---

(١) شرح المفصل ٣ : ٢٩ .

(٢) خزانة الادب ٣ : ١٤٧ .

وتقديره . ابن الأغرفتى ما إذا شتونا . وأما أبو سعيد فقد قال : ما زائدة ، وبعضهم ينشد ما ابنَ الأغر ينصبه على النداء ، كأنه قال : يافتى ابن الأغر [١].

وفى المسألة الرابعة بعد المائة ذهب الكوفيون إلى أن الاسم الظاهر إذا كانت فيه ألف ولام وصل كما يوصل الذى ، وذهب البصريون إلى أنه لا يوصل أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا ذلك لأنه قد جاء فى كلامهم واستعمالهم ، قال الشاعر [٢] :

لعمرى لأنت البيت أكرم أهله وأقعد فى أفيائه بالأصائل

فقوله (لأنت) مبتدأ و (البيت) خبره و (أكرم) صلة الخبر الذى هو (البيت) وهذا كثير فى استعمالهم .

وبعد أن أورد ابن الأنبارى رأى البصريين ، التفت إلى الكوفيين وقال : أما احتجاجهم بقوله :

لعمرى لأنت البيت أكرم أهله وأجلس فى أفيائه بالأصائل

فلا حجة لهم فيه من وجهين : أحدهما أن يكون (البيت) خبر المبتدأ الذى هو (أنت) و (أكرم) خبر آخر كما تقول : هذا حلو حامض . . . والوجه الثانى أن يكون (البيت) مبهما لا يدل على معهود . و (أكرم) وصف له فكأنه قال (لأنت بيت أكرم أهله) كما يقال : إنى لآمر بالرجل غيرك ومثلك وخير منك ، فيكون غيرك ومثلك وخير منك — وهى نكرات — أوصافا للرجل ، لأنه لما كان مبهما لا يدل على معهود . . . ويحتمل أن يكون التقدير : لأنت البيت الذى أكرم أهله ، فحذف الاسم الموصول للضرورة [٣].

وفى موضع ثالث استشهد ابن الأنبارى بشطر لأحد شعراء هذيل ، وذلك فى رده على الكوفيين فى المسألة الخامسة والستين . وخلاصة ما ذهب إليه أن (رب) تعمل الخفض بنفسها — موجودة كانت أو مقدرة — ولا تنوب عنها الواو التى قد تسبقها . وكما أنها تضمر بعد هذه الواو بحيث نقول : وبلدة ليس

---

(١) الإنصاف فى مسائل الاختلاف ٣٥ والديوان ٣ : ٥ .

(٢) هو أبو ذؤيب ١ : ١٤١ .

(٣) الإنصاف ٣٠٤و٣٠٥ .

بها أنيس ، فإنها تضمر أيضاً بعد بل والفاء . وأورد في استشهاده على الفاء قول الهذلي :

فحورٍ قد لهوت بهن وحدى(١)

وفي موضع آخر استشهد بنفس الشطر لنفس المعنى ، أى إن رب تعمل الخفض مع حذفها بعد الفاء والدليل على ذلك أنها يحسن ظهورها فنقول : فرب حور قد لهوت بهن وحدى(٢) .

وفي المسألة السابعة والثلاثين عرض الكوفيون والبصريون للحرف واختلفوا حول جواز دخول الحذف عليه أو عدمه . وابن الأنبارى يسلم بالحذف فيعارض الكوفيين ويقول : وأما قولهم إن الحرف لايدخله الحذف قلنا لا نسلم ، بل الحرف يدخله الحذف . ألا ترى أنهم قالوا في رُبَّ (رُبَ) بالتخفيف . وقد قرئ به ، قال الله تعالى « رُبَمَا يودّ الذين كفروا لوكانوا مسلمين » وقال الشاعر :

أزهير إن يشب القذال فإنه رُبَ هيضل لجب لففت بهيضل(٣)

والشاهد أن الشاعر حذف إحدى الباءين من رب(٤) .

وهنا يعنّ لنا أن نسأل : وماذا عن المتقدمين أو هذه الفئة الإسلامية ؟ هل رجع العلماء إلى أشعارهم ؟ هل نظروا إليها كما نظروا إلى الجاهليين والمخضرمين ؟ إن رأى هؤلاء في الاستشهاد بشعر المتقدمين جميعا واضح ؛ فهم يجوزون ذلك على الصحيح ، ويجمعون أمرهم على النظر في شعرهم ، ذلك أنه كان لا يزال على غرار الأساليب العربية ، بعيداً عن لوثة العجمة وفساد الدخيل .

وكذا نرى في كتاب ابن الأنبارى هذا الاهتمام بأشعار الإسلاميين من هذيل . وهذا ابن الأنبارى يحتج بشعرهم احتجاج غيره من العلماء ؛ ففي

(١) هو صدر لبيت المتنخل وعجزه : نواعم في المروط وفي الرياط – الديوان ٢ : ١٩ .
(٢) الإنصاف ١٦٦و٢١٥ .
(٣) البيت لأبي كبير – انظر الديوان ٢ : ٨٩ .
(٤) الإنصاف ١٢٧ .

المسألة الرابعة والعشرين ينظر فيما قاله أبو صخر ويؤيد به رأيه . وخلاصة المسألة أن الكوفيين يذهبون إلى أنّ (أنْ) المخففة من الثقيلة لا تعمل النصب في الاسم ويرى البصريون أنها تعمل .

وموضع الاستشهاد هو ما ذكره ابن الانبارى عن البصريين ، وما قالوه في (أن) التي تخفف مع الفعل . وقال إن هذه لا تخفف معه إلا ضمن أربعة أحرف هي : لا وقد وسوف والسين . كقوله تعالى (علم أن سيكون منكم مرضى) وكذلك علمت أن سوف يخرج زيد ، وعلمت أن قد خرج عمرو ، وقال أبو صخر الهذلي :

فتعلمي أن قد كلفت بكم ثم افعلي ماشئتِ عن علم

ولا تخفف من غير واحد من هذه الأحرف لأنها جعلت عوضاً مما لحق (إن) من التغيير[1] . يريد أنها تخالف « أن » المخففة التي تعمل النصب في الأسماء ، أما التي تختص بالأفعال فتميزها هذه الأحرف التي تعقبها والتي بينها البصريون . فلامحل إذن لاختلاطهما ، وكذا تعمل «أن» الخفيفة النصب في الأسماء .

وفي المسألة الثانية والثلاثين يكون أحد أبيات أبي صخر موضع نزاع بين الكوفيين في جانب والبصريين وابن الأنبارى في جانب آخر ، وخلاصة المسألة أن الكوفيين يذهبون إلى أن الفعل الماضى يجوز أن يقع حالاً ، وذهب البصريون إلى أنه لايجوز أن يقع حالاً وأجمعوا على أنه إذا كانت معه قد أو كان وصفاً لمحذوف فإنه يجوز أن يقع حالاً .

أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا : الدليل على أنه يجوز أن يقع الفعل الماضى حالاً النقل والقياس . أما النقل فقد قال الله تعالى (أو جاءوكم حصرت صدورهم) فحصرت فعل ماض وهو في موضع الحال ، وتقديره حَصِرةً صدورهم . والدليل على صحة هذا التقدير قراءة من قرأ (أو جاءوكم حَصِرةً صدورهم) وهي قراءة الحسن البصرى ويعقوب الحضرمى والمفضل عن عاصم . وقال أبو صخر الهذلي :

---

(١) الانصاف ٨٨ .

وإنى لتعرونى لذكراك نُفْضَةٌ   كما انتفض العصفور بللّه القطر

فبللّه فعل ماض وهو فى موضع الحال فدل على جوازه .

ويقف ابن الأنبارى مع البصريين ويقول عن بيت أبى صخر إنه جاز فيه ذلك لأن التقدير فيه وقد بلله القطر ، إلا أنه حذف لضرورة الشعر . فلما كانت (قد) مقدرة تنزلت منزلة الملفوظ بها ، ولا خلاف أنه إذا كان مع الفعل (قد) فإنه يجوز أن يقع حالاً[1].

وبعد ، فهل نحن بحاجة إلى مزيد لندل على أن شعر هذيل كان موضع عناية العلماء واهتمامهم . لقد كانت له مكانة رفيعة فى نفوسهم فاتخذوه عوناً على ضبط اللغة وتدوين خصائصها . وهم فى ذلك وقفونا على ما اختلفت فيه لغة هذيل عن اللغات الأخرى أو عن لغة الأدب بوجه خاص . وما ندرى أصواب ماعدوه منها من المستهجن أم خطأ ، إلا أنها كانت على أىّ حال صورة للهجة عربية فصيحة بعدت عن طغيان الدخيل .

ونحن من جانبنا لا نملك أن نرد ما قاله العلماء فى شعر شعرائها ، ولكننا نستطيع أن نرى أنه كان من أغزر المواد التى اعتمدوا عليها فى ضبط اللغة ووضع نحوها .

---

(١) الإنصاف ١١٣ .

الفصل الخامس

شاعران متمايزان

لقد درسنا المجتمع الهذلى من وجهين ، وقسمناه بحيث رأينا انفسنا أمام مجتمع مستقر عرف لين الحياة وإن عانى من الفقر أحيانًا . ومجتمع ثائر فهم الحياة على أساس من القوة ، فكان يغزو وينهب ويروع الآمنين ، يريد بذلك أن يقضى على الفاقة . كان المجتمع الأول يأخذ من الحياة طريقها المرسوم ، وكان المجتمع الثانى يأخذ منها طريقها الشاذ .

الأول مجتمع الوادعين ، والثانى مجتمع الصعاليك الذؤبان .

ثم درسنا شعر أولاء وهؤلاء ، فإذا هو مجموعة لها مظهران متباينان : مجموعة بعضها يمثل هؤلاء الوادعين ، وبعضها الآخر يمثل الذؤبان الثائرين . وأريد فى هذا الفصل أن أتحدث عن شاعرين ، كل منهما أعطانا صورة لما كان يأخذ به قومه فى معاشهم فاستطاعا أن يمثلا هذين الوجهين من حياة هذيل .

أما الشاعران فهما : أبو ذؤيب و أبو خراش .

فحلان من فحول هذيل ، كما يدل على ذلك شعرهما ، وكما يتفق عليه من تكلم عنهما من الأقدمين .

— ١ —

أبو ذؤيب

(ا) حياته :

أبو ذؤيب واحد ممن كانوا يقتفون أثر الحياة فى كل خطوة من خطواتهم . وكان يسجل فى فنه ما يشاهده ، ويترجم عن رؤية العين واختلاج العاطفة وإحساس القلب ترجمة صادقة ، حتى إنه لم يكن يضيق بشبح المأساة — وهى

قد صبغت شعره بلون قاتم — فألح عليها إلحاحا عجيبا دون ان يجعلنا نحس منها رهقا .

كان كذلك شاعرنا . إلا أنه لم ينل من مؤرخى الأدب ماهو جدير به من الدرس والنقد والتحقيق . فلا تزال أخباره ضئيلة ، ولم يعن أحدٌ بتحقيق حياته . وإنك لتفتش فى كتب الأدب — وما أكثرها عندنا — فلا تعثر إلا على صورة غامضة لهذا الشاعر الكبير[١] . ولولا مرثيته التى احتفل بها النقاد ما آتانا من أخباره إلا ما أتى عن شعراء قومه من قلة وغموض لايجديان شيئا . وانظر على سبيل المثال كتاب (المؤتلف والمختلف) لأبى القاسم الآمدى فستجد دليل ما نقول .

على أنهم يذكرون انه كان أشعر قومه وأنه لم يكن فيه غميزة ولا وهن[٢] ، كما يجمعون على أن عينيته فى بنيه من أحسن ماقيل فى الرثاء ، وقد جعلوه بها من أصحاب المراثى ، واختارها له أبو زيد القرشى فى كتابه (جمهرة أشعار العرب)[٣] وزعم ابن شبّة أنه تقدم بها شعراء قومه[٤] .

وتحدث عنه ابن سلام حديثا مقتضبا مبتورا ، واكتفى بأن جعله من شعراء الطبقة الثالثة[٥] ، ولما ترجم لشعراء هذه الطبقة لم يقل عنه إلا تلك العبارة التى ذكرناها قبل ، ثم ساق رأى حسان بن ثابت فى أشعر الناس ، وزعم أنه صاحب عبارة (وأشعر هذيل غير مدافع أبو ذؤيب)[٦] ، وذكر البغدادى هذه العبارة بشيء من التغيير فقال إنه (أشعر هذيل من غير مدافعة)[٧] .

أما أبو القاسم الآمدى فلم يعن به إلا بمقدار ما قال : أبو ذؤيب الهذلى

---

(١) لاحظ ذلك يوسف هل — اقرأ مقدمته لديوان الشاعر ص ٢ .
(٢) طبقات الشعراء ٤٧ .
(٣) نفس المصدر ص ١٢٨ .
(٤) معجم الأدباء ١١ : ٥٠ .
(٥) طبقات الشعراء ٤٣ .
(٦) نفس المصدر ٤٧ .
(٧) خزانة الأدب ١—٢٠٣ .

واسمه خويلد بن محرّث[1] بن زبيد بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن مازن ابن معاوية بن تميم بن سعد بن هذيل الشاعر المشهور الذى يقول :

والنفس راغبة إذا رغّبتها فإذا تردّ إلى قليل تقنع[2]

وكأنما ظن أن نسب الشاعر هو كل شىء ، ولولا هذا البيت الذى قال عنه الأصمعى إنه أبرع بيت قالته العرب ما عرف أبو ذؤيب .

وأما ابن قتيبة ففى كتابه ترجمة ضئيلة وشعر موفور للشاعر ، إلا أنه عنى عناية خاصة بقصته مع أم عمرو ، وتتبعها فى أناة ومهل[3] . ويظهر أن الشاعر كان قد اشتهر بها حتى لقد غطت على معظم ما عرف عنه .

وأبو الفرج خير من كتب عنه ، إذ جمع فى كتابه كل ما قاله الأقدمون . فروى عن ابن سلام وغيره ، واهتم بما اهتم به ابن قتيبة ، وتعقبه فى جاهليته وإسلامه .

ومهما يكن فنحن لا نرى إلا عدة ضئيلة من المعلومات ، ولكنها تحدد الخطوط البارزة فى حياته . وهو يبدؤها بالسفه والطيش ونزق الشباب ، فيضرب فى البادية أخذا بالجانب الرغد منها ، عاكفا على الملذات ، منصرفا إلى قلبه يسعد به حينا ويشقى به حينا آخر .

وبيته الذى يقول فيه :

لعمرى لأنت البيت أكرمُ أهله وأقعدُ فى أفيائه بالأصائل

نقطة البدء فى الموضوع ، فهو الرجل الوادع الذى عرف القرار وكانت له دار يأوى إليها ويلزم فناءها حين يميل ميزان النهار ، وتستطيل الظلال على الأرض ، وتجنح الشمس إلى الغروب .

---

(١) فى طبقات الشعراء : ابن محرث بن زبيد بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحرث ابن تميم بن سعد بن هذيل ٤٣ ، وفى الاغانى ابن محرز بن زبيد بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل ابن الحرث بن تميم بن سعد بن هذيل ٦ : ٥٦ .

(٢) المؤتلف والمختلف ١١٩ .

(٣) الشعر والشعراء ١٥٤ وما بعدها .

بيد أنه لم يكن بالذى يزورُّ عن القوم ساعة الخطر، فهو يخرج معهم مهاجمًا أو مدافعًا، وفى الحالين هو الرجل القوى الذى يريد لرهطه خيرًا، والذى يلعب بالسيف فى جرأة، ويُنشد الشعر وهو فيهم، ألم تره فى يوم البوباة يقول:

أدرك أرباب النعم(١)

فإذا نزلت بهم الضائقة كان أحد الذين يحزنون لها. فهو شاعر الجماعة، وليس بالشاعر الذى يستقل بنفسه لا يعنيه أحد. وأظن أنّا لا نزال نذكر يوم الهزر حين بيت بنو سليم ناسًا من هذيل وقتلوهم غدراً فقال أبو ذؤيب رائيته التى مطلعها:

عرفت الديار لأم الرهين بين الظبــاء فوادى عشر

وحين يفرغ من كل ذلك ويخلص لنفسه، يصبح هذا المتلاف المغرور الذى لا يهتم بأحد سوى النساء، فهو يتعقبهن ويتحدث لهن، وهنّ يعجبن به ويحدثنه، وينصرفن إليه فيكون له معهن أمور وأمور:

وسِربٍ يُطلّى بالعبير كأنّه دماءُ ظباء بالنّحور ذبيحُ
بذلتَ لهن القول إنك واجدٌ لما شئتَ من حلو الكلام مليح
فأمكنّه مما يريدُ وبعضُهم شقيٌّ لدى خيراتهنّ نطيح
ونازعهُنّ القولَ حتى ارعوتْ له قلوبٌ تفادَى مرةً وتريح(٢)

ويتحدث عن حديث صاحبته له:

وإن حديثاً منك لو تبذُلينَه جَنَى النحل فى ألبان عُوذٍ مطافل(٣)

ويستكمل صورة ذلك الترف حين يتكلم عن الخمر فيكثر ويطيل، حتى ليصبح أكثر شعراء قومه حديثًا عنها، وسنرى بعض هذا فيما بعد.

على أن أهم الأحداث فى حياته حبه لأم عمرو وغدرها هى به. وكانت — كما تبدو من خلال ذكرياته — بارعة الجمال جمة الدهاء. وفيما يرويه

---

(١) راجع ما قلناه فى ذلك اليوم وانظر البقية ٩ وديوان أبى ذؤيب تحقيق يوسف هل ٢١.
(٢) الديوان ١ : ١١٧و١١٨.
(٣) ١ : ١٤٠.

الأصمعي أنها كانت صاحبة لرجل من قومه يقال له عويمر بن مالك بن عويمر، وكان أبو ذؤيب رسوله إليها، فما لبثت ان طالعته بألوان من الإغراء فأحبها وأنكر وفاءه لصاحبه وخانه فيها.

وما ندرى كم طالت علاقته بأم عمرو، إذ لم يحدثنا أبو الفرج أو غيره بذلك. ولكننا نرى أنفسنا أمام الشاعر وقد اصطنع خالد بن زهير رسولا إلى صاحبته. وخالد هذا أحد أبناء عمومته كما يروى كل من أبي سعيد وابن قتيبة(١)، أو ابن أخته كما يقول المرزباني وكما جاء في الديوان الذى طبعته دار الكتب(٢)، وروى أنه كان ابن أخته وابن عمه معًا(٣).

وقد عصف الفساد برسوله خالد، وداخله من الوله بأم عمرو ما جعله يصنع صنيع صديقه من قبله. ولما علم شاعرنا بذلك ثار وغضب، ولم يملك إلا قطيعته. وحاولت صاحبته أن تترضاه ولكنه كان عصيا وانطلق يقول:

تريدين كيما تجمعيني وخالدًا
وهل يُجْمع السيفان — ويحك — في غمد

ثم عكف على خالد يؤنبه، ويقول له فيما يقول:

أخالد ماراعيتَ مني قرابة ... فتحفظني بالغيب أو بعض ما تبدى
دعاك إليها مقلتاها وجيدها ... فملت كما مال المحبُّ على عمد(٣)

وكان يمكن أن يسدل الستار على ذلك. إلا أن خيانة صاحبه أحدثت في فؤاده جرحا أبى أن يندمل، وانطلق يستعبر على حبه، ويعيب على خالد غدره، بينا راح خالد يردّ عليه، ويعلن له في صراحة أنه سار على سنته التى شرعها، فكان لنا من ذلك ملاحاة ومناقضة (٤).

ويبدو أن شيئا يحدث في ذاك الحين. ربما كانت نقائض خالد مع معقل بن خويلد، وتدخل أبي ذؤيب ليصلح بينهما على نحو ما مر بنا، أو ربما كان مرض خالد وجزع شاعرنا عليه حتى إنه ليقول له:

---

(١) شرح أشعار الهذليين والشعر والشعراء ١٥٥.
(٢) معجم الشعراء طبعة القدسى ٣٧١ والديوان ١ : ١٥٦.
(٣) ديوان أبي ذؤيب تحقيق يوسف هل ٣١.
(٤) الديوان ١ : ١٥٩.

فإنى على ما كنت تعهد بيننا وليدين حتى أنت أشمطُ عانس(١)

أى أنا على الذى كنت تعهد بينى وبينك من الوداد والمحبة ونحن غلامان إلى أن وخط الشيب رأسك .

ثم تقف الأخبار ، وينقطع الحديث عن الشاعر فلا نظفر بصورة واضحة للمرحلة التى شهدت ظهور الإسلام ووثبة الرسول واستقرار الدين الجديد . بل لا نظفر بتاريخ دقيق لإسلامه ، فهم يقولون إنه أسلم دون أن يرى النبى ، وقرّ فى باديته حتى إذا سمع بمرضه رغب فى زيارته ، ولكنه عليه السلام يتوفى والشاعر فى الطريق إليه . ويقولون إنه أسلم فعلاً ، ثم أراد أن يرى النبى ولكن الموت عاجله ، فحضر الشاعر مبايعة أبى بكر فى السقيفة ، وشهد الصلاة على جثمان الرسول ورجع(٢) .

وفى أيام عمر يخرج هو وابنه وابن أخ له يقال له أبو عبيد حتى يقدم بهما على أمير المؤمنين ، فيسأله أى عمل أفضل بعد الإيمان بالله ورسوله ، ويخبره عمر : الجهاد فى سبيل الله . فيخرج بولديه ويغزو أرض الروم مع المسلمين(٣).

وفى تلك الآونة يموت له بنون خمسة أو سبعة . وقيل فى ذلك إنهم طعنوا ، وقيل بل شربوا لبنًا ولغت فيه حية وماتت به . وقيل قتلوا فى الحرب(٤) ، فينشد عينيته المختارة وتكون أكثر المراثى نفاذاً إلى القلب ، وإثارة للمشاعر ، وتحريكاً للشجن(٥) .

وتكر السنون وتقبل سنة ست وعشرين ، فيخرج شاعرنا للجهاد وهو شيخ ، ويصحب جند عبد الله بن أبى سرح إلى أفريقية ، فيمكث فيها حتى يتم النصر للمسلمين ، وإذ ذاك يرجع مع عبد الله بن الزبير — وله فيه مديح — إلى عثمان(٦).

---

(١) اعتمدت فى رواية القصة على الجزء السادس من الأغانى وعلى بعض مواضع فى الديوان .
(٢) الديوان ١ : ١٦٠ .
(٣) راجع معجم الأدباء ١١ : ٤٨ وما بعدها ، وهامش الديوان ١ : ١ .
(٤) الأغانى ٦ : ٦١ .
(٥) راجع الديوان ١ : ١ والأغانى ٦ : ٥٦ وديوان أبى ذؤيب ١ .
(٦) راجع الديوان ١ : ١٢٩ والأغانى ٦ : ٥٦ وديوان أبى ذؤيب ٢٨ .

ولا نكاد نستريح إلى هذا الخبر حتى تقابلنا بقية القصة التى تصور خروجه مع ابنه وابن أخيه ، فهى تقول إن المسلمين حين قفلوا أخذه الموت فأراد الولدان أن يتخلفا معه ، فأبى صاحب الساقة ، واقترع عليهما ، فبقى ابن أخيه ورحل ابنه مع الركب .

وتنتهى القصة بعودة أبى عبيد ليحكى على قومه كيف أمره عمه أن يحفر له قبره ويدليه فيه وينشد وهو يجود بنفسه :

أبا عبيدٍ رُفع الكتابُ   واقترب الموعد والحسابُ
وعند رحلى جمل نجابُ   أحمر فى حاركه انصبابُ

وكان يقال : إن أهل المسلمين أبعدوا الأثر فى بلد الروم ، فما كان وراء قبر أبى ذؤيب قبر يعرف لأحد من المسلمين[1] . على أنه يروى أن الذى دلاه فى قبره هو ابن الزبير نفسه فى طريق مصر[2] .

ومن المحتمل أن يحدث كل هذا ، كما أنّ من المحتمل أن يكون بعضه مدخولاً ، وقد لا يبعد أن يرحل أبو ذؤيب إلى مصر ثانية فيمكث فيها حتى يموت ، وذكر أبو الفرج أنه قبض فيها فعلاً[3] . وقال ابن الأثير فى حوادث ست وعشرين إن عبد الله بن سعد عاد إلى مصر من أفريقية بعد أن أقام فيها سنة وثلاثة أشهر ، ولم يفقد من المسلمين إلا ثلاثة نفر قتل منهم أبو ذؤيب[4]. فكأن قصة ابن أخيه حين حفر له قبره لاموضع لها فى تاريخ شاعرنا ، ولاحظ ذلك يوسف هل فوضع بيتى الشاعر اللذين يخاطب بهما أبا عبيد فيما نحل للشاعر وهو ليس له .

وعلى أى حال فإن الآراء كلها تجمع على وفاته فى العام الذى حدده ابن الأثير ، بعد أن جاهد ملياً فى سبيل الله .

---

(١) راجع الأغانى ٦ : ٦١ .
(٢) ديوان أبى ذؤيب ١ .
(٣) الأغانى ٦ : ٥٦ .
(٤) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٤٤ .

(ب) معانى شعره :

ينظر القدماء إلى أبى ذؤيب من زاويتين لا ثالثة لهما . الأولى أنه كان فصيحاً كثير الغريب متمكناً من الشعر لا غميزة فيه ولا وهن ، والثانية أنه وإن كان أشعر هذيل فقد تقدّم سواه بعينيته التى يرثى فيها بنيه[1] . وإذا كانوا يذكرون بعد ذلك شيئاً فهو أنه كان راوية لساعدة بن جؤية ، وهنا نلمس أول علاقة تربط بين الشاعرين ، إذ كان شعر هذا أيضاً محشوًّا بالغريب والمعانى الغامضة[2] على أننا سوف نرى أن هذه العلاقة لم تكن علاقة غريب فقط ، بل كانت كذلك علاقة متابعة وتَقَصٍّ حتى جاء شعر الرجلين فى الغالب نسخة واحدة .

وإذا حاولنا أن ننظر فى المعانى التى دار أبو ذؤيب حولها نجده يمثل مجتمعه الوادع تمثيلاً صحيحاً ، فهى لاتخرج عن أن تكون غزلا وهجاء ومدحاً قليلا وفخراً أو تحفياً بالقبيلة ، وظهرت عنده بالإضافة إلى ذلك نواحٍ أخرى دلت على ما لازم مجتمعه من قرار ، وهى وصف البرق ووصف الخمر ووصف اشتيار العسل . ونلاحظ أن ساعدةَ عَرَضَ لها فى شعره وأكبر الظن أن شاعرنا كان تلميذه فيها .

كما رأينا أن ما اشترك فيه مجتمعا هذيل يدور حول الرثاء ووصف الحيوان ، وأبو ذؤيب رثى وتحدَّث عن الحيوان كثيراً ، بل لقد أجاد الرثاء حتى تقدم شعراء هذيل فيه ، كما أنه برع فى تسجيل حركات الحيوان ومتابعته فى البادية ، يظهر ذلك فيما كان يقصه من قصص .

ولست أريد أن أقف عند كل نقطة كما وقفت من قبل ، لا ولا أريد أن أتكلم عما سبق وتكلمت عنه ، فلن نجنى الكثير من ذلك كله ، ولن نجد إلا تكرارا لا طائل تحته . ولذا فأنا أعرض عما هو واضح عند الجميع وأكتفى بالتنبيه على ما ظهر عنده بصورة قوية ، حتى ليوشك أن يتفرغ له ويشتهر به . فما أتركه هنا ما قاله فى الفخر والغزل والهجاء معلنا فى صراحة أن شاعرنا

(١) معجم الأدباء ١١ : ٤٩ والأغانى ٦ : ٥٦ وطبقات الشعراء ٤٧ .

(٢) المؤتلف والمختلف ٨٣ .

كان أرستقراطيا لا يمتدح أحداً ، لأنه لم يكن بحاجة إلى أن يستجدى .. وفى المديح بالذات لا نكاد نعثر له إلا على قصيدة اختلف فى شأنها ، فواضح أنها قيلت فى ابن ترنى وكان — على ما جاء فى شرح السكرى — أحد شعراء هذيل(١) ولكنها وردت بديوانه الذى حققه يوسف هل فى مدح عبد الله بن الزبير على نحو ما رأينا . فإذا صح ذلك فإنها تكون ثانى قصيدة له يمكن أن نجعل لها تاريخا معينا فى حياة الشاعر(٢) ، وتكون أيضاً دليلا على أن المدح لم يظهر بين الهذليين فى شىء من الوضوح إلا بعد إسلامهم .

١ — أما الخمر فقد تكلم عنها ساعدة إلا أن أبا ذؤيب كان أكثر حرصاً عليها منه ، وكان يخوض فيها كثيراً ، فيحدثنا عنها وعن لونها وسبائها . ورحلة صاحبها بها ، وارتفاع ثمنها ، وعكوفه هو وأصحابه عليها . ويأتى ذلك كله عرضا أو بالمناسبة ، فالأصل أنه يتحدث عن ثغر صاحبته ، ثم يريد أن يسجل طعمه فيتجه فى وثبة سريعة مفاجئة إلى الخمر ويطول به السرى ويحدثنا من أمرها ما نراه إقحاما أو استطرادا لا داعى له . فمثلا هو يقول :

وما أن فضلة من أذرعات كعين الديك أحصنها الصروح(٣)

وهنا ينفتح الباب ليجعل هذه الفَضْلة أساسا فى الموضوع ، فيلح عليها إلحاحاً عجيبا — دون ملل فيه — حتى ينتهى إلى أنها ليست . .

بأطيَبَ من مُقبَّلها إذا ما دنا العيّوق واكتَتَم النُّبُوح

وبين البداية والنهاية أمور . وليس يضيره أن تكون هذه الأمور كثيرة ما دام هو يستطيع أن يدير دفتها نحو ما يبتغيه ، بل إن إطالته قد لا تعنى — فى نظره — سوى شىء واحد هو أنه يكد كد صاحب الخمر فى سبيلها . أفتظن أنه يقبل أن يجعل الخمر رخيصة التناول ؟ إن هذا لا يعنى إلا صغر صاحبته وهوان ثغرها .

الخمر هى المقياس الذى يقيس به فتنة المرأة . أو قل هى الأصل ، فهل فى وسعه أن يجعل الأصل مهينا ؟ فليقل إذن :

---

(١) صفحة ٢٣٢، ج

(٢) الأولى عينيته وقيلت أيام عمر بن الخطاب .

(٣) الديوان ١ : ٦٩ — وما إن فضلة : يريد الخمر ، الصروح : القصور واحدها صرح .

فما فَضْلَةٌ من أذرِعات هَوَتْ بها مذكّرة عَنْسٌ كهادية الضحل

سُلافَةُ راحٍ ضمّنَتْها إدواةٌ مقيّرة ردْفٌ لآخرة الرحل(١)

أترى كيف بدأ ؟ لقد نظر لها وهى فوق هذه الناقة المذكرة ، واختار هذا النوع من النوق لأنه أكثر صبرا على المشى . وأراد أن يطمئننا على وعائها فقال إنه مقير حتى يضمن شيئا طيبا . فإذا قرأت له ما يقول بعد ذلك راعك منه وصفه للناقة وهى تخرج بالخمر من مصر وغزة فى سرعة ودأب :

فوافَى بها عُسفَان ثم أتى بها مَجَنّةَ تصفو فى القلال ولا تغْلى

فرَوَّحها من ذى المجاز عَشيّة يبادر أولى السابقات إلى الحبْل

إنه يُغِذّ السير بها ، يريد أن يبادر الذين يقفون بجبل عرفة — وهو جبل — حتى يستطيع أن يبيعها . وفى هذه الأثناء تكون الرواحل قد تعبت فيعكف الرجل على ناقته يمسح عرقها :

فجئن وجاءت بينهنّ وإنه

ليَمْسح ذِفْراها تَزَغّمُ كالفحل

ولا بأس إذا أدّى الرجل العمرة ، لا سيما أنه باعها . فإذا تم له ذلك اشترى بدراهمه عسلا :

فبات بجمع ثم تم إلى منى

فأصبح رأْداً يبتغى المِزْج بالسَّحْل

ونقلته تلك تشعرنا بأنه لم ينس فكرة الحديث الأساسية ، فهو يريد أن يمزج العسل بالخمر حتى يقول :

---

(١) الديوان ١ : ٧٠ العيوق : كوكب أحمر مضىء بحيال الثريا من الشمال ، النبوح : أصوات الناس وجلبتهم ، فى هذا الوقت يكون الناس قد ناموا وهدأ كل شىء وتتغير الأفواه ولكنها إذ ذاك تكون طيبة الفم .

(٢) الديوان ١ : ٣٩ مذكرة : ناقة خلقتها خلقة الفحل ، هادية : صخرة فى مقدم الماء ، الضحل : الماء الرقيق ، مقيرة : طليت بالقار ، إداوة : وعاء .

(٣) الديوان ١ : ٤٠ عسفان ومجنة وذى المجاز والحبل : مواضع ، روحها . راح بها ، يبادر أولى السابقات إلى الحبل : يسبق الذين يقفون بجبل — وهو بعرفة — ليبيع خمره .

فما إن هما فى صَحْفَةٍ بارقيةٍ
جديدٍ أُرِقَّت بالقَدوم وبالصَّقْل
بأطيب من فيها إذا جئتُ طارقاً
ولم يتبين ساطع الأفق المُجْلى

وبعد، فهل نحن بحاجة إلى مزيد من هذا الحديث؟ إننى أحدد للقارئ بعض مواضع فى الديوان عرض الشاعر فيها للخمر، وفى وسعه — إذا شاء — أن يرجع إليها وهى صفحات ٢٤ و ٦٩ و ٧٢ و١٤٨ من القسم الأول.

(٢) وأما اشتيار العسل فيأتى قبل حديث الخمر أو بعده، فيكون وسيلة أخرى إلى وصف حسن مذاق ثغر المرأة. ولكنه غالباً ما يأتى بعيداً عن ذلك فيكون ظاهرة اختص بها مجتمع هذيل المستقل. والواقع أن أبا ذؤيب وأستاذه عنيا عناية خاصة بحياة النحل، ووصفا حياة الرجل الذى يشتار عسله، واهتما بمتابعة مغامراته وعنائه فى الحصول عليه اهتماماً كبيراً. فكان لهما فى ذلك لمسات بارعة، واستطاعا أن يجعلا شعرهما من هذه الناحية اجتماعياً صادقاً.

وأنا هنا أكتفى بصورة واحدة رسمها شاعرنا للنحل ومشتار عسله، لتكون مثلا لما أعرض له. وسنرى كيف جمع فيها بين الصدق والدقة وقوة التعبير. بل سنرى كيف جعل الحياة تنتفض بين أيدينا بعواكب لا تحصى من الخلجات النفسية واستطاع أن ينتقل بحاسته المصورة مع ذلك الرجل البائس الذى حمل روحه فى كفه أو أودعها حباله ومضى صعدا إلى قمة الجبل:

جَوارِسُها تأرى الشُّعوفَ دَوَائباً
وتنقضُّ إلهاباً مَصِيفاً شِعابُها
إذا نَهَضَتْ فيه تَصَعَّدَ نَفْرُها
كَقِتْر الغلاءِ مُسْتَدِراً صِيابُها
تظل على الثَّمْراء منها جَوَارس
مراضيعُ صُهْب الريش زُغْبٌ رقابُها

فلما رآها الخالدى كأنها
حصى الخذف تكبو مستقيلاً إيابها

أجدَّ بها أمراً وأيقن أنه
لها أو لأخرى كالطحين ترابها

فقيل: تجنبها حرام، وراقه
ذراها مبيناً عرضها وانتصابها

فأعلق أسباب المنية وارتضى
ثقوفته إن لم يخنه انقضابها

تدلى عليها بين سب وخيطة
بجرداء مثل الوكف يكبو غرابها

فلما اجتلاها بالإيام تحيزت
ثبات عليها ذلها واكتئابها[1]

يقول إن جوارس اليعاسيب[2] تعمل فى الشعوف والقمم، ثم هى إذا أرادت أن تعسل انقضت إلى أحد ألهاب الجبل[3]. وفى كل ذلك تراها سريعة دائمة النشاط حتى لتشبه فى سرعتها قتر الغلاء[4]. هذا بينما تظل صغار اليعاسيب على الثمراء[5] كأنما هى فى انتظار الكبير منها. فلما رآها المشتار وقد أوفت على الجبل وراحت تزل من لينه أحكم أمره وعقد عزمه على أن يصل إليها أو يهوى فوق الأرض أشلاء ممزقة. وقد نصحه قومه بأن يتجنبها ولكنه أبى، وعلق حباله دون أن يخاف أن تنقطع به. ثم تدلى عليها جريئاً وشرع يطردها بالدخان حتى حصل على بغيته.

٣ — وللشاعرين بعد ذلك فى البرق والسحاب والرياح والأمطار معان رائعة

(١) الديوان ١ : ٧٥ وما بعدها.
(٢) اليعاسيب رءوس النحل وأمراؤها والجوارس أواكلها.
(٣) أى الشقوق فيه.
(٤) أنصال السهام.
(٥) جبل أو شجر.

صاغا بها قصائد من أرقى الشعر الغنائى . وما قرأت لهما فى ذلك شيئاً إلا أحسست مدى ارتباط حياة المجتمع المستقر بأنواء السماء ، وكيف كان القوم يسعدون حين يلتمع البرق فى الأفق ، فيرون فى ومضاته السُّقْـيا والخصب والنماء . وكان يشاركهما فى ذلك بعض شعراء أمثال البريق والمتنخل ومُلَيْح القردى ، إلا أن هؤلاء لم يكونوا يعكفون عليه عكوف الشاعرين . ومن هنا لم أتحدث عن هذا الجانب كظاهرة عامة شملت كل شعر القبيلة .

على أن شاعرنا حين يستوحى الأنواء لايجعل فنه مجرد مرآة تعكس هذه الظاهرة بما فيها من نشاط وحركة واضطراب ، فهو ليس مجرد شاعر وصاف ، وإنما هو شاعر يعبر عن حياة كاملة لصنف خاص من ناس لهم ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية . . يعبر عن حياة قوم أخذوا أنفسهم بلون معين من العيش ، فإذا هو تغنى بالمطر ووصف السحاب فليس إلا احتفالا بالحياة القادمة ، ومن يدرى فلعله كان يجد فى البرق خفقاناً كخفقان قلبه ، ويرى فى الغيث ريًّا لنفسه العطشى ، ويلتمس فى جلجلة الرعد أصوات إبله وهى تهدر . اسمعه يقول عن السحاب وبرقه :

يَجُشُّ رعداً كَهَدْر الفحل تتبعه
أُدْم تَعَطَّفُ حوْلَ الفحل ضحضاح(١)

ويقول فى موضع آخر :

يضىء ربابا كَدهم المَخَا
ضِ جُلِّلْنَ فوق الولايا الوَليحا(٢)

فالبرق عنده يبعث فى الأرجاء أصواتا متواصلة ، حتى لكأنما هى فحل يهدر وحوله إبل كثيرة مجتمعة . ثم إن هذا البرق — فى صورته الثانية — يضىء

(١) الديوان ١ : ٤٨ يجش رعدا : يعنى البرق يستخرج رعداً كما تجش البئر تكسح ويخرج ما فيها ، ضحضاح : الأصل ماء رقيق وأراد هنا جماعة إبل قليلة ، ولكن الضحضاح فى لغة هذيل «الكثير» لا يعرفها غيرهم !

(٢) الديوان ١ : ١٣٠ المخاض : الحوامل ، الولايا : البراذع مفردها ولية ، الوليحة : العديلة .

سحابا كثيفا كدهم المخاض وضعت فوقها البراذع . ونستطيع من هنا أن نرى عناية الهذليين بالإبل وهى كل مال العربى كما رأينا .

ولا يجد شاعرنا حين يتحدث عن صاحبته إلا أن يدعو لها بالسقيا كعادة العرب فيقول :

كأن ثِقال المُزْن بين تُضارع
وشامةَ بركٌ من جُذامَ لبيج

فذلك سُقْيا أم عمرو وإننى
لما بذّلت من سيبها لبهيج (١)

فلا يزال يشبه السحاب بالإبل ، ويختار البارك منها ، كما يقول :

سقى أم عمرو كلَّ آخر ليلةٍ
حناتم سود ماؤهن ثجيجُ (٢)

فيكون ذلك وسيلة لأن يتكلم عن البرق والسحاب والمطر . ولكن هذا ليس مطردا ، لأنه يجعل حديث المطر موضوعا مستقلا لا صلة له بما قبله أو بما بعده ، كما نرى فى قصيدته التى يقول فيها :

أمنك برقٌ أبيت الليلَ أرقبه
كأنه فى عراض الشام مصباح (٣)

وكما نرى فى حائية أخرى له يقول فيها :

رأيت وأهلى بوادى الرجيع فى أرض قيلة برقا مليحا (٤)

ولكنه قد يبدأ قصيدته بهذا الحديث فيقول :

أمنك البرقُ أرقبه فهاجا فبتُّ إخاله دُهْما خلاجا (٥)

وهو فى كل ذلك يقف وقفات جميلة حية ، فنقرأ له يريد السحاب :

---

(١) ١ : ٥٦،٥٥ برك : إبل ، لبيج : لا يبرح
(٢) ١ : ٥١ حناتم : سحائب .
(٣) ١ : ٤٧ .
(٤) الديوان ١ : ١٢٩ .
(٥) ١ : ١٦٤

مَـرَتْـه النُّـعامى فـلم يعـترفْ　　خلاف النُّـعـامى من الشام ريحا
فحَـطَّ من الحُـزَن المقفـرا　　ت والطـيرُ تَـلْـثَـق حتى تصيحا
كأن الظبـاء كُـشُـوح النسا　　ءِ يطفون فوق ذراه جنوحا(١)

كما نقرأ له فيه :

تـكَـركره نجـديةٌ وتمـدُّه　　يمـانيةٌ فوق البحار مَـعـوج
له هَـيْـدَب يعلو الشِّـراج وهيدبٌ　　مسفٌّ بأذناب التـلاع خلوج
ضفادعه غرقى رِواءٌ كأنهـا　　قيانٌ شُـروبٍ رجعهن نشيج (٢)

وذلك تصوير دقيق ووصف جميل ، كان شاعرنا خلالهما يقظا إلى ما يرى منتبها إلى كل شىء ، فهو يتكلم عن الطير وهى تبتل فتنطلق صائحة ، وهو يعرض للظباء ويتبعها وهى تطفو فوق ذرا السيل ، ثم هو يحدثنا عن الضفادع وقد غمرها الماء فراحت تنق فإذا أصواتها كأنها نشيج قيان يقتلعنه من جوفهن.

٤ — أما الرثاء فقد كان كجميع قومه يجيده ، وكان فؤاده يزخر ببحر مضطرب من الأشجان . ولم أر شاعراً من قومه يفوقه فى هذا المضمار ، لا ولم أجد واحداً استطاع أن يبلغ فيه ما بلغه هو من سمو وتفوق . وكان القدماء قد رفعوه بعينيته فى بنيه ، ولست أريد أن أقف عندها وقد فعلت ذلك من قبل كثيراً ، إلا أنى أذكر أنها إذا تقدمت على كل شعره فإن فى هذا الشعر روائع رثائية لا تقل عنها تحريكا للعاطفة وإثارة للمشاعر . وأنا على كل حال اضع رثاءه فى مقدمة كل ما روى له من شعر .

وشاعرنا اشتهر برثاء رجل من قومه يقال له نُشَيْبة ، حتى إن أكثر من نصف رثائه قاله فيه ، ويبدو — من خلال ما قاله — أنه كان شهما سيداً ، وكانت

(١) ١ : ١٣٢ وما بعدها — ومرته : استنزلت ، النعامى : الجنوب ، المغفرات : التى فيها أغفارها أى وعولها ، تلثق : تبتل ، جنوحاً : مغضيات .

(٢) ١ : ٥٤ وما بعدها — تكركره : الماء للسحاب يريد تردده ، البحار : المدن والقرى معوج : تجرى على البحار ، الشراج : شقوق الجدار ، هيدب : ذيل ، خلوج : يجتذب الماء ، نشيج : رجع أصواتهن ، شبه أصوات الضفادع بالمغنيات تنشج بكاء كأنهن يقتلعنه قلعاً من أجوافهن .

تربطه بالشاعر صداقة جعلته لا ينساه أبدا . بيد أن المعانى التى ذكره بها هى نفس المعانى التى يدور بها المدح عادة . فهناك الكرم والشجاعة ، وهناك أصالة النسب ، وهناك الجرأة وقوة البأس ، ثم هناك حسن القوام وصباحة الوجه . وغاية ما فى الأمر أن يوضع كل هذا فى إطار من الفجيعة والأسى .

ويظهر لى أن مصيبة أبى ذؤيب فى أم عمرو هى التى طوحت به إلى هذا الجانب الحزين . وأى جرح أعمق من جرح تمزقه خيانة امرأة أحبها ورجل يربطه الدم به ؟ . ومن يدرى ، فربما كان ينفث عن أحزانه برثاء صاحبه لا سيما وقد عاد إليه كثيراً وفى إلحاح عجيب . فلا نستغرب بعد ذلك حين نراه يمزج بين الرثاء وأم عمرو فيقول مثلا :

فإن تَصْرمى حَبْلى وإن تتبدلى خليلاً . . ومنهم صالحٌ وسميجُ
فإنى صبرت النفسَ بعد ابن عنْبَس وقد لجَّ من ماءِ الشئون لجوج
لأحْسَبَ جَلدا أو لينبأ شامت وللشر بعد القارعاتِ فُروج
فذلك أعلى منكِ فقداً لأنه كريمٌ وبطنى بالكرامِ بعيج(١)

أقول إن هذا شىء يعزى به نفسه فى مصيبته فى أم عمرو . ذلك أن الأسى يبعث الأسى والهم يثير الهم ، والأحزان ينبوعها واحد وإن تفرقت جداولها التى تسيل منها . فهل نتوقع ألا يجيد حين يقول فى صاحبه :

يقولون لى : لو كان بالرَّمل لم يمُتْ نُشَيْبة والطُّراق يكذب قِيلُها
ولو أننى استودعته الشمس لارتقتْ إليه المنايا عينُها ورسولها
وكنت كعظم العاجاتِ اكتنفنه بأطرافه حتى استدقَّ نحولها
على حين ساواه الشباب وقاربت خُطاىَ وخلت الأرض وعثاً سهولها
حدرناه بالأثوابِ فى قعر هُوَّةٍ شديدٍ على ما ضُمَّ فى اللحد جُولها(٢)

بل هو رثاء جيد ، بعيد عما سميناه تأبيناً . وشاعرنا يمزج فيه نفسه بنفس صاحبه الراحل ، ويتلاشى فيه ، حتى إذا استعبر عليه كان دمعه حارًّا صادقا .

---

(١) الديوان ١ : ٦٠ وما بعدها — وسميج : ليس عنده خير ، جلداً : متجلداً ، فروج : انكشاف ، بعيج : مشقوق ألما .

(٢) الديوان ١ : ٣٣ و ٣٤ .

وليس أبلغ على أساه من البيت الرابع الذى فجع فيه بصاحبه يموت وهو فى ريعان الشباب ، فى حين انه قصرت خطاه وعاد يرى — لكبر سنه — سهول الأرض حزونا .

٥— وقلنا من قبل إن الهذليين برعوا فى تصوير الحيوان ولا سيما وهم يتحدثون عن ريب الدهر ، واستطاعوا أن يمثلوا بذلك الحياة بكل ما فيها من نشاط ودأب . ولكن لا لينظروا إليها نظرة باسمة ، وإنما لينظروا إليها نظرة قاتمة سوداء . وكأنما هذا التصوير وما فيه من جمال وحيوية لا يعدو أن يكون مقدمة للغرض الذى يهدفون إليه ، وهو أن القدر يرصد الجميع ، وليس لأحد أن يرد الموت عنه . وكذا يبدو أنهم يرون هذا الموت لا يكون أكثر دلالة على ضعف الكائنات إلا إذا شعرت بنعمة الحياة قبله .

وأذكر أنى عرضت لأبيات من دالية للشاعر تصوّر حمارا وحشيا وهو يقف يستقبل الريح ويرمى الغيوب بعينيه وهو مطرق الرأس كالمستأخذ الرمد ، ونحن إذا قرأنا عنه ما قاله أبو ذؤيب قبل ذلك نرى آية ما زعمنا ، فهو نشيط فى عنفوان عمره ، يصيح فى طرب حتى لكأنه يحس بما عنده من فتوة وشباب :

تالله يبقى على الأيام مبتقلٌ جوْنُ السراة رَباعٌ سِنه غرد(١)

وهو يظهر لنا ومعه جماعة من الأتن يشربن فى غور تهامة ويرعين فى سهول نجد . ويقضى معهن لباناته حتى إذا انقضى الليل ازور عنهن واستقبل حزون الأرض يشرف عليها ، ولكنه لا يرى حوله أى نبات ، بل لعله يحس حينذاك بوحشة وسأم ، فيقف ويطيل الوقوف والريح تجرى فوق منسجه فيقشعر كشحه وعضده ، ويطرق مليا ثم يغمض عينيه ، ولكنه لا يستسلم إلى الكآبة طويلاً ويهرع إلى أتنه مسرعاً .

فاختار بعد تمام الظمءِ ناجية مثل الهراوة ثنياً بكرها أبد
إذا أرنّ عليها طاردا نزقت فالفوت إن فات هادِى الصدر والكتد

---

(١) الديوان ١ : ١٢٤ مبتقل : يأكل البقل ، رباع : أى رباع فى سنه ألقى رباعيته وهى السن التى بين الثنية والنساب .

وهنا يكتفى أبو ذؤيب بما صور ويدع لنا أن نتصور الباقى . فلقد ظن الحمار أنه ملك الحياة من جديد ، ولم يكن يدرى أن هذا اليسر لا يدوم . وعلينا أن نراه بعد ذلك وقد مات ، ألم يقل الشاعر فى أول ما قال إنه لا يستطيع أن يبقى على ريب الأيام ؟

ويبدو أن شاعرنا لم يكن يقنع بهذه النهاية الخاطفة فعاد يختار ثوراً لقصة أخرى ، والثور فى هذه المرة كبير ، ولعله عمد إلى ذلك لتكون شخصيته الجديدة أكثر صبرا على الحياة ودراية بها ، وكان الثور مطرودا :

من وحش حوضَى يُراعى الصَّيدَ مبتقلاً
كأنه كوكبٌ فى الجو منجرد

ويريد الشاعر أن يرينا أن هذه الحياة قد تخدعنا فى أمرها ، فنظنها تقبل علينا بخير وهى تضمر لنا الشر كل الشر ، ولذا يطلع علينا بثوره :

فى رَبرَبٍ يَلَقٍ حُورٍ مدامعُها كأنهن بجَنبَي حَربَةَ البرد

ثم تكون غفلة الكائنات وانصرافها إلى الدعة بينا يقف القدر يقظا يحصى الخطا ويريش سهمه . وهنا الثور مع القطيع آمن لا يخشى شيئاً ، والأبقار إن كانت تحذر أحداً فليس إلا ضوارى الكلاب .

وكن بالروض لا يُرغمنَ واحدة
من عيشهن ولا يدرين كيف غَد

أجل ، فالغد فى طوايا الغيب عدم ، وليس لهن إلا لحظتهن . ثم ماذا ؟ ثم يظهر الصباح ، فإذا بنبأة تعلو وإذا بالقانص يظهر . وهكذا يسرع شاعرنا إلى غرضه فى غير التواء . وهل يستطيع أن ينكر أن الموت آت لا ريب فيه ؟

وتبدأ معركة الموت والتنازع على البقاء ، والقطيع يجرى والثور بينه والكلاب خلف الجميع . على أن الثور لا يقنع بالهروب لأن الحياة ليست هرباً دائما ، ويلتفت إلى الكلاب أو لعلها أدركته ، ويعمل فيها قرنه ، فكلت ووهنت وسقطت على التراب صرعى وقد أعطاها ما عنده من طعن ، ثم . .

غادرها وهى تكبو تحت كَلكَلِه
يكسو النحور بوردٍ خلفه الزبد

فهل نجا من الموت ؟ إن القانص فى الطريق إليه ، وها هو ذا يقترب منه ويرميه بسهم من سهامه فيسقط المسكين . وهل يبقى على ريب الدهر أحد ؟ وتذكرنا هذه القصة بقصة الثور التى حدثنا بها فى عينيته ، وهى ثانى مأساة فى هذه المرثية ، ويبدؤها بقوله :

والدهر لا يبقى على حدثانه   شَبَبٌ أفزته الكلاب مُروَّع[1]

وهى إن كانت تختلف فى بعض التفاصيل إلا أن الخطوط البارزة فيها متشابهة ، فالثور مطرود مضطرب والرياح تهب والأمطار تهطل فيأوى إلى شجرة يحتمى بها . إلا أن هذا الاحتماء لا يطول ، ويخرج فإذا الكلاب قد عادت إليه ، بل لقد عادت إليه مجتمعة تسد عليه الطريق ، فيجرى ، ولكنها تصل إليه ليبدأ النضال ، وإذا كل سلاحه قرنه فيستطيع أن يسقط منها كثيراً ، ويهرب الباقى حتى ليظن أنه نجا . ولكن القانص يظهر وبيده السهام ، فتكون النهاية المحزنة ، والدهر هو دائما لا يبقى على حدثانه أحد .

وهكذا تتم صورة الحيوان فى شعر أبى ذؤيب ، بل فى شعر قومه جميعا ، وتؤدى الغرض الذى من أجله اتخذوه مادة للحديث . فإذا قيل إن فى عودتهم إليه دائما تكرارا لا داعى له قلنا إنه تكرار ظاهرى فقط وأما من حيث كونه أثراً فنيا فهو أشد دلالة على ما فى الحياة من تلون ، برغم ما يبدو منها من رتابة خادعة واطراد زائف .

وأبو ذؤيب فى كل ذلك يتحدث عن الحيوان الوحشى كالحمار والثور والوعل ، ولكنه قد يتكلم عن النوق أحيانا ، وفى هذا يقف مع سائر شعراء قومه فى جانب . وهو يبعد عنهم حين يقف مع ساعدة بن جؤية بعيداً فيتحدث مثله عن الفرس . وفى هذه المرة لا يجعل الفرس شخصية تمثل رواية الحياة والموت ، ولكنه يأخذه من الناحية التى اعتاد شعراء العرب أن يأخذوه منها ، فيصفه ويتكلم عن أعضائه ويقف عند سرعته .

والعجيب أنه يخطئ فيما يقول ، ولكن ساعدة لا يخطئ ويحسن الوصف[2] ويقف الأصمعى عند قوله فى فرس :

---

(1) الديوان ١ : ١٠

(2) ١ : ١٨٥

قصر الصبوح لها فَشرح لحمها   بالنَّىّ فهى تثوخ فيها الإصبع

فيقول : وهـذا من أخبث مانعتت به الخيل ، لأن هذه لو عدت ساعة لانقطعت لـكثرة شحمها ، وإنما توصف الخيل بصلابة اللحم ، وأبو ذؤيب لم يـكن صاحب خيل(١) .

ولا نريد أن نتلبث هنا طويلا ، وقد تلبثنا عند هذه الناحية فى أحدالفصول الماضية . إلا أنا نذكر أن وصف الخيل لم يـكن كثيراً فى شعر الرجل ، وأن التفاصيل التى ذكرها كانت فى مستوى أقل من التفاصيل التى يذكرها عادة عن حيوان آخـر . وكذا نرى كيف أصاب الأصمعى حين أخرج الخيل من حياة الشاعر .

(حـ) الخصائص الفنية فى شعره :

ونستطيع أن نلتمس الوصف العام لشعر أبى ذؤيب فيما حددناه بشأن الشعر الهذلى كله ، فالخطوط الـكبرى ، بل وكثير جدا من التفاصيل نجدها هنا وهناك ، ولو كان هناك خلاف ما فليس فى شىء يمس الجوهر ، لأن شاعرنا واحد من شعراء قومه ، وما يصح عنهم هو هو مايصح عنه .

١ — وتعنينا أول ما تعنينا خصائص فن الشاعر البنائية ، فنرى أنا ذكرنا فى كم الشعر الهذلى أن أبا ذؤيب اختلف عن قومه بأنه كان مطيلا فى قصائده ، يشبه فى ذلك ساعدة ، والاثنان يسيران فى الدرب التى سار فيها المتنخل . إلا أن هذا لايعنى إهماله للشعر القصير ، فهو له بعض المقطعات وبعض الرجز أقربه إلى ذاكرتنا ماقاله فى يوم البوباة وما قاله يردّ به على حسان بن ثابت .

وما أظن أنى أعارض ما قلته من قبل عن السرعة الفنية وكونها لا تميل إلى التطويل فهذه الخاصة شائعة عند الهذليين ، إلا أنها ليست بحظ واحد لدى الشعراء جميعاً . فهى عند الصعاليك الذؤبان أقـوى ، وهى عند أبى بثينة وساعدة ابن العجلان — من المستقرين — أظهر مما عند مالك بن خالد وحذيفة بن أنس ، ثم هى عند هؤلاء جميعا دون ماعند أبى ذؤيب . فثمة تفاوت ، وثمة شعراء لا يتصفون بها على الإطلاق .

(١) الديوان ١ : ١٦

وحياة أبى ذؤيب هى أصل ذلك .

إنها حياة مستقرة ، مأمونة الجانب ، موفورة العيش . وفيها كان الشاعر يستطيع أن ينصرف إلى نفسه وإلى لهوه ، فيفكر ويطيل التفكير ، بل ويطيل فيما يقوله إطالة يسمح بها وقته .

ومن هنا ينبغى أن نفهم شعر أبى ذؤيب بعيداً عن تأثير الذؤبان . وآية ذلك ما رأيناه ، وما نجده فى حرصه على التصريع وتعلقه به . وكنا ذكرنا أنه روى أكثر من نصف شعره مصرعا ، ونقول هنا إن قصائده الكبرى كلها صرعت باستثناء أربع ، فالتقى فى هذا مع كثير جداً من الشعراء الجاهليين . وما بقى له بعد ذلك كان قصائد قصيرة لم يعن فيها بهذه الظاهرة .

ولقد تبع ذلك التقليد ظاهرة أخرى هى عنايته بالمقدمات الغزلية ووقوفه على الطلل . ونعيد النظر فيما قلناه خاصًّا بهذا الجانب فنرى أنا ذكرنا أنه شبب واستعبر على الدمن فى إحدى عشرة قصيدة . وهو رقم ضخم بالنسبة إلى ماروى لغيره من الشعراء . وإحصاء لما قاله ساعدة بن جؤية نشعر بالفرق الكبير ، لأن هذا لم يعن بهذه المقدمات إلا فى خمس . وقد يتضاعف دهشنا إذا ذكرنا أن المتنخل لم يذكر الدمن إلا مرة واحدة ، وذلك فى ست قصائد هى كل ماروى له (١) .

أما عن ألفاظه فإن المتتبع لشعره يرى فيها ملامح القوة ومظاهر الغريب . ولعل هذه الظاهرة هى أقوى ما استلفت نظر القدماء ، فقالوا عنه — كما رأينا — إنه فصيح كثير الغريب . وقد استشهدنا برائيته التى رثى بها نشيبة ، وذلك فى حديثنا عن غرابة اللفظ فى شعر هذيل(٢) ، وها نحن أولاء نذكر هنا بائيته التى يشبب فيها ويذكر النحل ويعتب فى نهايتها على صاحبته أم عمرو ، ومطلع القصيدة هو :

أبالصرم من أسماءَ حدثكَ الذى ... جرى بيننا يوم استقلت ركابها(٣)

---

(١) راجع القسم الثانى من الديوان .

(٢) راجع هنا ورقة رقم ٢٢٨ .

(٣) الديوان ١ : ٧٠

وقراءتنا لها ترينا كيف كان الشاعر متمكناً من لغته ، ناصعاً فى أسلوبه ، قادراً على فن القصيد . كما نذكر حائيته فى الرثاء ، التى يقول فى أولها :

نام الخلى وبت الليلَ مشتجراً كأن عينى فيها الصاب مذبوح[1]

فهى تمثل هذه العنجهية الجاهلية التى حاول فحول النقائض أن يسمو بها شعرهم فى عصر متأخر . ونرى العبارة فيها مستقيمة تكتنفها خشونة مستملحة .

٢ — وندع تلك المسائل البنائية إلى الجانب الموضوعى من شعر الشاعر ، ويعنينا منه أولاً ما قلناه عن الوحدة الموضوعية فنؤيده بقليل من الحذر ، ذلك أن القراءة قد تسفر عن شىء يعارض هذه الوحدة ، فلا نجدها ، ولا نجد ما يراعى فيها من وحده فى التفكير ووحدة فى التنسيق . ولا ننكر أن ليس فى قصائده كلها هذه الوحدة إلا أنها كثيراً ما تظهر عنده ، وقد يبدو فى هذا تناقض مع ما قلناه من أنه شاعر مطيل ، وفى الإطالة تشعب كما هو مألوف لدى المعروفين من شعراء العرب .

ويظهر أنا لو تعمقنا درس بعض ما يبدو فيه التشعب يمكن أن نرده إلى وحدة أعمق مما نريدها .. إلى وحدة فى الشعور ، وهذه قد تتلون فتبدو مرة بكاء على الطلل ، ثم تبدو غزلاً ، والصلة بين الطلل والغزل واضحة . وقد نرى الشاعر ينفلت من هذه الدائرة فيصف الخمر كما فعل شاعرنا فى رثائه لنشيبة بقصيدته التى أولها :

هل الدهر إلا ليلة ونهـارها وإلا طلوع الشمس ثم غيارها

وقد عرضنا لها[2] فنرى ثمة شذوذاً أو نشازاً ، ولكنا لو علمنا أنه إنما وضعها ليوازن بين طعم الخمر وطعم ثغر صاحبته لرأينا كيف كان هذا الاستطراد استطراداً فى ذات المعنى الذى يدور حوله . وآية ذلك أنه يرجع بعد هذا الوصف إلى أم عمرو ثانية ، وذلك فى البيت الخامس والعشرين . ويظل معها حتى البيت التاسع والعشرين ثم ينتقل إلى الرثاء .

---

(١) الديوان ١ : ١٠٤

(٢) ورقة رقم ٢٠٥ ، ٢٤٦

وأستطيع أن أزعم أن هذا الرثاء ليس إلا صدى لفجيعته فى حبه لأم عمرو ، ألم تغدر به ؟ إنه يريد أن يستعبر ويبكى ، ولكن شيئا من رجولته يحول دون هذا الضعف ، فكيف يخفف عنه آلامه ؟ إن صديقه الراحل هو الباب الذى ينفذ منه ليبعث بالشجى والأسى . ألا ترى كيف امتدت العلاقة فربطت بين أجزاء القصيدة ؟ بل هل تنكر أن القصيدة التى بدت مفككة التأليف إن هى إلا أصداء لذكريات مريرة تعصف بنفس الشاعر ؟

فى مثل هذه القصيدة نجد وراء ما يبدو فيها من اضطراب وهلهلة وحدة ما . سمها وحدة شعورية أو وحدة فكرية أو ما شئت من هذه التسميات ، ولكن لا تنكر أن فيها شيئاً من وحدة الموضوع .

ومع ذلك فثمة قصائد واضحة الوحدة ، واضحة بالمعنى الذى نفهمه .

هى وحدة حقيقية طبيعية ، أكثر منها صناعية شعورية . أتريد أن تراها فى بعض شعره الطويل ؟ اقرأ له أصول قصيدة حفظها لنا الرواة . اقرأ له عينيته فى أولاده ، فستراها كلها رثاء ، وسترى فيها إلى جانب الوحدة النفسية الشعورية الداخلية الوحدة الموضوعية ، فهى عبارة عن حديث عن سوء حاله وتغيره . ثم ثلاث قصص عن الدهر تنتهى إلى أن أحداً لا يستطيع أن يبقى على حدثانه .

أما الوحدة فى قصائده القصيرة فأظهر من أن ندل عليها أو نقف عندها . والتمسها مثلاً فى قصيدته التى يقول فى مطلعها :

ويلُ أمِّ قَتْلى فويق القاع من عُشَرٍ
من آل عجْرة أمسى جدُّهم هُصِرا(١)

وفى غزليته التى يبدؤها بقوله :

يا بيت خثماء الذى يُتجنَّبُ ذهب الشباب وحبها لا يذهب(٢)

وفى غزليته الأخرى التى يقول فى أولها :

جمالك أيها القلب القريح ستلقى من تحب فتستريح(٣)

---

(١) الديوان ١ : ٤٤
(٢) « ١ : ٦٣
(٣) « ١ : ٦٨

إلى غير ذلك مما لا نجد داعيا إلى تعديده وتعيينه . إلا أنا ننتهى دائما إلى أن شاعرنا كان كشعراء قومه ، أكثر ميلا إلى التركيز فى قصائده ، فظهرت مع إطالته الوحدة الموضوعية ظهوراً جليًّا .

وندع هذه الخاصة إلى الواقعية ، وهى شىء يتصف به شعراء الهذليين وفيهم أبو ذؤيب . والحق أن هذا الرجل صور حياته وحياة مجتمعه بما فيه من خير وقبح وشذوذ ، وأمعن فى وصف البيئة التى عاش فيها حتى لكأنه كان يؤمن أن الإنسان مسير بحكم هذه القوة الجبارة . ونستطيع أن ندل على هذه الواقعية بعد ما بيناه فى حديثنا السابق عنها ، فنراها فى كل جانب طرقه تقريبا .. نراها مثلا فى غزله — واقعيا كان أو تقليديا — وذلك فى مثل قوله :

صَبَا صبوةً بل لجّ وهو لجوجُ
وزالت لها بالانعمين حدوجُ
كما زال نخلٌ بالعراق مكمّمٌ
أُمِرَّ لهُ من ذى الفرات خليجُ
فإنكَ - عَمْرى - أىَّ نظرة عاشقٍ
نظرتَ وقدسٌ دوننا ودَجوجُ
إلى ظعن كالدَّوم فيها تزايل
وهزة أجمالٍ لهنّ وسيجُ
غدَوْن عُجالى وانتحتهنَّ خزرَجٌ
معقّيةٌ آثارَهن هدُوجُ(١)

وإنه وإن تكن هذه الواقعية من الأسس الهامة فى كل شعر قاله المتقدمون فإننا نستطيع أن نجعل شاعرنا مثلا واضحا لهم . ألا ترى إلى وقائع هذه الحادثة الصغيرة — فى نظرنا — كيف ربط بين أجزائها يريد أن يشدنا إلى الهدف النهائى له ؟ فما الأنعمان وقدس ودجوج عندنا ؟ إنها لاشىء ، ولكنها

---

(١) الديوان ١ : ٥٠،٥١ — حدوج : هوادج ، مكمم : المكمم من النخل ما أخرج أكمامه ، وسيج : ضرب سريع من السير ، خزرج : اسم ريح ، هدوج : صوت الريح .

عند شاعرنا كل شيء ، فإذا رأيناه يتبع صاحبته إلى مثل هذه المواضع فلا تظنن أنه يفعل ذلك عبثاً ، ولكنه يفعله لأنه حياته كلها .

فهو إذن يصور البيئة التى عاش فيها ، أو عاشت فيها صاحبته ، أو عاش فيها أى شخص آخر يعرفه ، ويعيننا على فهم النفوس ، وعلى أن نرى أطرافا من حياة عفت عليها الأيام منذ بعيد .

ودع الغزل إلى الرثاء ، إلى القصص ، إلى الفخر ، إلى أى فن تناوله الشاعر فستجده حريصا على الواقعية متمسكاً بها . ولعل ذلك هو ما أفاض على شعره هذه الحيوية التى أبقته دهراً كبيراً .

وحديثنا عن تلك الخاصة يذكرنا بالقصصية التى يتسم بها شعر الشاعر لا سيما حين يرثى . ولو عرفنا أن أكثر ما قاله أبو ذؤيب رثاء أدركنا أنه كان أكثر شعراء قومه عناية بالقصص ، ألم نقل من قبل أن الشعر القصصى نما فى ظل الرثاء ؟

ولا أريد أن أعود إلى ما قلته من أن فى شعرنا العربى قصصا ، فقد فرغنا من التدليل عليه . إلا أن ما يأخذه علينا فريق من الأدباء فى قصور لغتنا عن إيجاد قصائد طوال كقصائد هوميروس مردود خاصة إذا عرفنا أن الإلياذة طرقت أغراضاً منوعة ، ولم تكن يوماً فى موضوع واحد .

وشاعرنا الذى يقصد القصائد فيطيل — بالنسبة إلى ما نألف فى الشعر العربى — كان فى وسعه أن يأتى بشيء يشبه مافى الإلياذة . ولكن عنايته بالغناء — ككل الجاهليين — وقف فى سبيل هذه الغاية . ومع ذلك نرى أنه ضرب فيه بسهم ، وخلطه فى غنائه فجاء مكتملا ناميا مليئا بالوصف البديع والتصوير الخلاب . ولا نريد أن نقف عند هذه الخاصة بعد ما ذكرناه فى حديثنا السابق عن القصص ، وبعد ما قلناه فى فائيته التى مطلعها :

تُؤمِّل أن تُلاقىَ أمَّ وهْبٍ بمخلفةٍ إذا اجتمعت ثقيف(١)

وما قلناه فى المآسى الثلاث التى قرأناها له فى عينيته .

---

(١) الديوان ١ : ٩٨ – مخلفة : طريق وراء الجبل .

٣ — وننتقل إلى الخصائص الأدائية التى تظهر فى شعر الرجل فنجد كل ما قلناه عن شعراء قومه ينطبق عليه ، فالتشبيه هو اللون البيانى الذى يصور به الشاعر صوره ، ولو أن مرجعه ليس إلى السرعة الفنية وإنما إلى الحاسة المقلدة ، وإذا عرفنا أن هذا اللون هو كل بضاعة الجاهليين أو أثمن بضاعة لهم لما استكثرنا وجودها عند شاعرنا .

نفهم التشبيه إذن عند شاعرنا على غير الأساس الذى نفهمه عند الذؤبان وعند كثيرين غيرهم . نفهمه على أنه ظاهرة عامة عرفها العرب المتقدمون ، وعرفها أبو ذؤيب أيضا إما مقلداً قومه وإما مقلداً جنسه الأكبر . وفى أى الحالين نراه مصوراً ماهراً ينتزع مادته من البيئة التى يعيش فيها ، فيقول فى حمار وأتنه :

وكأنهن ربابةٌ وكأنه يَسَرٌ يُفيض على القداح ويصدع
وكأنما هو مِدْوَسٌ متقلبٌ فى الكف إلا أنه هو أضلع
فوردن والعيوقُ مقعدَ رابئ الضـ ـرباء فوق النظم لا يتتلَّع(١).

أترى كيف شبه حماره فى جمع أتنه وتفريقها فى كل ناحية وهو يصيح بينها كصاحب قداح الميسر يجمعها فى خرقه ثم يفرقها على أصحابه وهو دائم الصخب . إن هذه الصورة هى صورة قومه إذ يقدمون على الميسر ويأخذون به فى شغف .

والصورة الثانية فيها الدلالة نفسها ، فقد شبه الحمار فى اجتماع جسمه وصلابته بالمسن الذى تصقل عليه السيوف ، بل إن الحمار أغلظ من هذا المسن وأشد . صورة ساذجة إلا أنها مأخوذة من واقع حياته .

وفى البيت الثالث يرسم واحدة من اللوحات الجميلة . فقد وصل الحمار وأتنه إلى الماء ونجم العيوق يقظ مترقب . أهو القدر ؟ أهو الموت ؟ إن الشاعر لا يوضح ذلك ، ولكنه ينظر ثانية إلى ما رآه فى القوم وهم يقامرون ، فهذا النجم يشبه مراقب اللعب فى الميسر وكأنما الحمار واتنه قداح يديرها رجل فى اللعب .

---

(١) الديوان ١ : ٦ — ربابة : قداح الميسر ، يسر : الذى يلعب بالقدح ، مدوس : مسن السيف ، أضلع : أغلظ وأشد ، الضرباء : الذين يضربون القداح والرابئ هو الرجل الذى يربأ أى ينظر إلى ضاربى القداح ، يتتلع : يتقدم .

الشاعر حين يصور شيئاً ينظر حوله فإذا راعته ضربات سيف أو طعنات رمح صاح :

بضَرْبٍ يقضّ البيضَ شِدّةُ وقْعِهِ
وطعنٍ كَركْضِ الخيل تقلي مهارُها(١)

يشبه الدم فى سرعة خروجه بركض الأفراس التى فصلت عنها أولادها ، فهى تذب عنها بأرجلها وتدفع من أراد فصلها عنها .

وإذا فتنه لون الخمر قال فى بساطة وواقعية :

عُقارٌ كماء النّيء ليست بخَمْطَةٍ
ولا خَلَّةٍ يكْوِى الشُّروبَ شِهابُها(٢)

فهى صافية تشبه فى لونها ذلك الماء الأحمر الذى يقطر من اللحم قبل أن يطهى .

وإذا أُخذ بصورة الأبطال وهم يقاتلون هتف :

وصرّح الموتُ عن غُلْبٍ كأنهمُ
جُربٌ يدافعها الساقى منازيحُ(٣)

فهم يشبهون الإبل الجربة التى لايدنى منها ، بل يشبهونها وهى تطلب الماء من بعيد . والساقى يحذر اقترابها من إبله السليمة فيدفعها عن غشيان الماء ، وهى تغالب الساقى وتزدحم ، عليه إنها لوحةمنتزعةمن صميم مايرى ، وهى كل ما يقدر عليه فى فنه .

ويمتد بنا القول إذا وقفنا أكثر من ذلك عند هذه الخاصة ، ولذا فنحن نتركها إلى الحكمة وكنا جعلناها صفة أدائية فى شعر الهذليين .

والحكمة فى شعر أبى ذؤيب مطردة الظهور ، وبخاصة حين يرثى أحداً . وفى هذه الحالة تكون مظللة بظلال سود أو تدور حول القدر . . هذه القوة

---

(١) الديوان ١ : ٣٠
(٢) « ١ : ٧٢
(٣) « ١ : ١٠٩

التى شقى بها الهذليون جميعا . من ذلك ما أجمع عليه الأقدمون من أن أبرع بيت قالته العرب :

والنفس راغبة إذا رغبتها فإذا ترد إلى قليل تقنع

وقد احتفل الأصمعى بهذا البيت احتفالاً كبيراً(١) ، ففيه تتجلى عبقرية العرب ، ويسبر غور النفس البشرية ويقف على دقيق منزعها . فإذا نظرنا إلى هذا الشطر الذى يقول فيه :

والدهر ليس بمعتب من يجزع

نجدهم يقولون إنه أشعر وأحكم نصف بيت قالته العرب(٢) . وقد يكون هذا حقاً لاسيما أنه شديد الإيجاز وهم يرون فى الموجز إعجازاً .. هكذا تعودوا ، وهل ينكرون الشاعرية على واحد يقول إن الدهر لا يعطى العُتْبى لأحد ولا يدع من أجله ما كان يغضب عليه إلى ما يرضيه بعد إسخاطه عليه . . يقوله فى نصف بيت فقط ؟

وتجربة شاعرنا قد تظهر بعيداً عن تذكر الموت فنجده يقول مثلاً :

وما يحْفَظ المكتومَ من سرٍّ أهلِهِ إذا عُقَدُ الأسرار ضاع كبيرُها(٣)

إلا أن هذا ليس كثيراً لأن الشىء الذى يهتم به ، بل ويخشاه هو الموت ، ذلك الشبح الرهيب الذى يقض المضاجع ويثير الأحزان ، فيقول :

لعمرك والمنايا غالبات لكلٍّ بنى أب منها ذَنُوب(٤)

نعم لكل امرئ نصيب فى المنايا . فماذا نملك فى هذه الحياة التى يحف بها الموت من كل جانب ؟ تلك هى الحقيقة ، أو هى نظرة الشاعر وفلسفته فى هذا الوجود . وإن شئت فقل هى حكمته يبعث بها فتأتى مثلا يعجب به سامعوه فإذا قال بعد ذلك :

---

(١) بلوغ الأرب ٢ : ١٤٠ ، الشعر والشعراء ١ : ١٠ .
(٢) البيان والتبيين ١ : ١٦٧ .
(٣) الديوان ١ : ١٥٦
(٤) الديوان ١ : ٢١٢ ــ لكل بنى أب : لكل قوم ، ذنوب : نصيب .

فنفسَكَ فاحفظها ولا تُفْشِ للعدَى
من السر ما يطوَى عليه ضميرُها(١)

نجده يتخذ سمة الرجل الناصح الذى يريد خيراً للناس فيقول :

أعاذِلَ لا إهلاكُ مالىَ ضرَّنى
ولا وارثى — إن ثُمِّرَ المالُ — حامدى(٢)

فليس شىء ينفع حتى المال ، وما فى وسع أحد أن يحظى بوساطته بما يريد ويكسب به احترام الغير ، والغنى لا يغتر بغناه فيظن انه محمود عند قومه ، والفقير الذى يفقد ماله لا يحسب أنه فقد كل شىء لأن ضياع المال لا يضر أحدا . هذا ويقول :

فدَعْ هــذا ولا تغتبطْ لخير ولا تتباءَسْ لضُرّ
وخفِّضْ عليك من النائبات ولا تكُ منهـا كئيبا بشرّ
فإن الرجالَ إلى الحادثا ت فاستيقَنَنَّ أحبَ الجَزر(٣)

دع عنك هذا اللهو ولا تغتبط لشىء تسر به . فإذا نزل بك الضر فلا تبتئس أو لا يجب أن تشقى ، لأنا لا نملك فى هذا الوجود أمراً . فهوّن عليك ، والتمس حولك القناعة ، ولا تحزن لشر لأن فى هذا موتاً لك ، والموت — كما يجب أن تعرف — مولع بالناس .

هكذا كان شاعرنا ، برغم لين الحياة الذى اضطرب فيه ، وبرغم عبثه ولهوه وانصرافه إلى النساء . فإذا التمسنا العلة لذلك لا نجدها إلا فى تعرض قومه للموت ؛ تعرضهم له فى كثرة واطراد فتألم — وهو المرهف الحس — ثم حاول أن يجد منفثاً لألمه فوجد الرثاء ، وفيه صهر تجربته المرة . والذى لا شك فيه أن طول الإحساس بالألم والعجز عن الخلاص منه خليق بأن يقود إلى نوع من اليأس الفكرى ، فيرى كل شىء ولكن دون أن يؤمن بوجوده وبقائه .

وندع الحكمة وقد طال وقوفنا عندها لنرى ماذا يمكن أن نقول فى آخر

(١) الديوان ١ : ١٥٦
(٢) الديوان ١ : ١٢٣
(٣) « ١ : ١٤٩ و ١٥٠

صفة لشعره ، وكنا رأيناها عند قومه بعنوان (التصوير) ولقد سبق فقلت أن الهذليين — كمدرسة شعرية — يمتازون بقدرتهم الفائقة على التمثيل والتعبير ، وسقت بعض المقطوعات الشعرية دعمت بها هذا الرأى ، وكان مما جئت به هذا القسم من مرثية أبى ذؤيب الذى يبدؤه ببيته التالى :

والدهر لا يبقى على حدثانه مستشعر حلق الحديد مقنع

ولا حاجة بنا إلى أن نعيد القول فيه لنقف على اللمسات القوية التى صنعها بشعره ، فذلك شيء مضى أمره . كما أنا لسنا بحاجة لأن ننبه إلى براعته الفائقة فيما صور عن حياة النحل ومشتار عسله وذلك فى قسم من بائية له يقول فى أوله :

جوارسها تأرى الشعوف دوائبا وتنقض إلهابا مصيفا شعابها

ثم عُدْ إلى ما قلناه فى التشبيه فتجد الشاعر فى هذا اللون البيانى يعطى صوراً حية صادقة تدل على حاسته الفنية اليقظة ، مثله فى ذلك مثل قومه ، ولا غرابة فقد كانوا عظيمى الحس والوجدان .

ومع ذلك فنحن لا نعدم صوراً أخرى ، بل لعل كل قصيدة له تضم أكثر من لوحة نستطيع أن نرى فيها حياة دافقة ووصفا دقيقا . من ذلك ما يقوله عن ظبية قد قوى ولدها وظل يتبعها ، وهى تتنـاول ثمر الأراك وتجتذب غصونه بفمها :

فمـا ام خشفٍ بالعلاية شـادنٍ
تنوش البريرَ حيث نال اهتصارها
مولعـة بالطرتين دنا لهـا
جنى أيكة يضفو عليهـا قِصارها
به أبلت شهرى ربيع كليهمـا
فقـد مارَ نَسْؤها واقـترارها

وسوَّدَ ماء المرْد فاها فلوْنُه
كلوْن النَّوور فهْى أدْماءُ سارها(١)

وقف قليلا عند تصويره إياها وهى تنوش ثمر الأراك . أتحس هذه الحركة فى هذا التعبير ؟ ثم وقف عند وصفه لها باختلاف الألوان فى طرتيها ، وعند دفعه إياها إلى أيكة دانية الثمار سابغة عليها أغصانها القصيرة . أتنكر أنها لوحة جديرة بريشة رسام ماهر ؟ ثم مر على ما يقوله عنها وقد اجتزأت بالرطب عن الماء خلال شهرى ربيع فى غاب الأيكة حتى جرى فيها السمن ورقت أبوالها . أقول مر على هذا التصوير وقف أخيراً عندما يلتفت إلى هيئة ظبيته فيمر بريشته فى خطوط سريعة ، فإذا ثمر الأراك قد ترك على فيها ماءه الأخضر فلونه ، حتى لكأنما أتى عليه النوور(٢) فاخضر ، وأما هى فأدماء تعلو جلدها غبرة .

وفى حديثه عن الخمر ومزجها بالعسل نراه يقول :

أتوْها بريحٍ حاوَلَته فأصبحت
تُكفَّتُ قد حلَّتْ وساغ شرابها

بأرْىِ التى تهوِى إلى كلّ مُغْربٍ
إذا اصفر ليطُ الشمس حان انقلابُها

لقد ساغ شراب هذه الخمر بارى نحلة اعتادت أن تطير إلى كل موضع مجهول، فإذا اصفر لون الشمس عادت .

ولكن البيت الثانى ليس بهذه البساطة ففيه وقفات دقيقة حين يقول : تهوى ومغرب وليط ، ففى الكلمة الأولى اندفاع صاخب هادر ، وفى الكلمة الثانية كل ما ننشده من الخفاء والغموض وفيها ترى كيف تكون النحلة مسوقة إلى هذه المواضع التى لاتدرى ما وراءها . والكلمة الثالثة أشد دلالة على ما يريد مما إذا كان قد وضع مكانها كلمة (لون) والليط كما يقول أبو سعيد هو القشر

---

(١) الديوان ١ : ٢٣ ومابعدها — أم خشف: ظبى ، تنوش البرير : تتناول الأراك ، مولعة : ملونة ، مار : جرى ، نسؤها : أوائل سمنها ، اقترارها : نهاية سمنها ، المرد : الغض من الأراك ، سارها : سائرها ، النوور : دخان الشحم يعالج به الوشم ويحشى به حتى يخضر

(٢) الديوان ١ : ٧٤

من كل شئ ، وليط الشمس لونها المنطفئ الباهت ، يشبه هذه القشرة التى تخفى وراءها ذلك اللون الزاهر الزاهى . اترى لماذا لم يقل الشاعر (لون الشمس) ؟ إن لكل كلمة لونها الخاص ودلالتها المعينة ، ونجاح الشاعر يقوم دائما على اختياره مايلائم حالته . أقول نجاحه قائم على اختياره الكلمات الموحية . .

وغير ذلك كثير مما لانستطيع أن نستوعبه هنا ، مما يرينا أن شاعرنا لم يكن دون قومه فى قوة تعبيرهم وبراعة تمثيلهم وقدرتهم على تصور الحقيقة فى ثوب شعرى جميل .

(ى) خاتمة :

وبعد ، فهل رأيت كيف كان شاعرنا يقف فى كل شئ مع سائر شعراء قومه وكيف جمع فى شعره هذه الصفات التى رأيناها عند غيره . إنه فى ذلك مثل واضح لهم ، ثم هو مثل آخر ، إذا نظرنا فيما تناوله فى شعره من معان ، إلا أنه فى هذه الحالة لايخرج عن الدائرة التى ضرب فيها المستقرون الوادعون .

شاعرنا رجل عرف وداعة الحياة ولينها فتكلم عن ذلك ، ثم هو رجل مثل قومه فى اتجاه له معالمه الخاصة . فهل نجحنا فيما أردناه من هذا الحديث ؟

أبو خراش

١ — حياته :

من العجيب أن هذا الشاعر أيضاً لم يكن أكثر حظا من أبي ذؤيب . بل لم يحظ من القدماء إلا ببعض ما حظي به شاعرنا الأول على قلته . لقد أهمل كما أهمل غيره من الهذليين ، أهمل مع أن فى حياته نواحى تدعو — لطرافتها — إلى ألوان من البحث والمناقشة ، فلطالما اهتزت لشعره الأفئدة ، ولطالما أثارت مغامراته النفوس . إلا أن كثيراً ممن أرخ للعرب كان يرى البونَ شاسعا بينه وبين غيره من الذؤبان كعروة بن الورد وتأبط شراً والشنفرى . ولولا أبو الفرج — فى رأيي — لما أتانا من أخباره شيء .

ولعل مما ينفرد به أبو خراش بين الشعراء الذين نقرأ عنهم أنه طورد ونقم عليه فى الجاهلية ، حتى إذا أشرقت الأرض بنور الإسلام أقبل الناس عليه ، وحزن عمر بن الخطاب على وفاته حين نهشته حية ، وأتى — من أجله — بما يشبه الجور وهو الخليفة العادل .

بل قد نراه فى الجاهلية أحيانا يأخذ من الحياة سبيلها الميسرة ، ثم لا تلبث أن تدور الدائرة فإذا هو مطلوب مطارد !

ولا نعلم — بأية حال — كيف شبَّ شاعرنا ومتى ولد ، وإن كنا نستطيع أن نجعل وفاته أيام عمر . ولا يذكر أحد كم سنة عاشها ، وكم سنة شهدها قبل أن يسلم . والظاهر أن هذا الجانب لم يثر انتباه أحد فأعرضوا عنه ، أو ربما لم يجدوا غناء فى البحث فيه .

وكل ما يذكر عنه — فى المظان القديمة — أنه شاعر فصيح مفلق ،

أو فحل من شعراء هذيل المذكورين الفصحاء ، أو أحد فرسان العرب . ولكن هذا ليس بالكثير فمعظم الكتب تعرض عنه ، و بعضها يلتفت إليه عرضا كما فعل أبو القاسم الآمدى حين ذكر جميل بن معمر ، فقال وجميل يقول أبو خراش :

وفجع أصحابى جميل بن معمر   بذى فجر تأوى إليه الأرامل[١]

وجميل هذا هو الذى قتل زهير بن العجوة صديق الشاعر ورفيقه فى مغامراته[٢] .

ويكتفى ابن قتيبة بأن يورد نسبه مفصلا ، وسطراً واحداً يتضمن حياته ، ثم يذكر أن عروة وأبا جندب مع أخويه كانا من شعراء هذيل المعدودين[٣] .

والبغدادى — وهو الذى نظر فى كتب هائلة لمن تقدم — لا يعتمد إلا على ابن قتيبة والذهبي ، وينقل عن الأول نسبه ثم يورد تقريبا نفس ما قاله [٤].

ولسنا بعد كل هذا أو برغم كل هذا نستطيع أن نشبع رغبتنا فيما نريد عنه ، فهو خويلد بن مرة أحد بنى قرد . يقول أبو الفرج : واسم قرد عمرو ابن معاوية بن هذيل بن إلياس بن مضر بن نزار[٥] ، ولكن ابن قتيبة يجعل قرداً ابنا لعمرو بن معاوية بن تميم بن سعد[٦] ، فيختلف عن أبى الفرج حين يزعم أنه هو عمرو . وأيد ذلك — فيما بعد — البغدادى فى خزانته[٧] .

وأسرة شاعرنا — فيما تحدثنا أخباره — لم تعرف إلا الثورة والاضطراب ،

---

(١) المؤتلف والمختلف ٧٣
(٢) راجع الأغانى ٢١ : ٤٠
(٣) الشعر والشعراء ١٥٧
(٤) خزانة الأدب ٢ : ٢١٢
(٥) الأغانى ٢١ : ٣٨
(٦) الشعر والشعراء ١٥٧
(٧) خزانة الأدب ٢ : ٢١٢

فأمه تموت ويعقد أبوه على امرأة أخرى (١) ، فيكون ذلك أول عامل يهيئ شاعرنا لأن يجيد فى الرثاء ، فإذا ضممنا إلى ذلك مايروى من ان إخوته — العشرة كما نعرف — كانوا من الذؤبان العدائين وأن فيهم من كان شديد الوطأة حتى على قومه كأبى جندب ، أمسكنا بأول خيط يهدينا إلى مفتاح شخصيته ، واستطعنا أن ندرك مالا بد أن يكون قد وقر فى نفسه من إحساس بالضعة والمهانة ، وأن نفهم بعض الأسباب النفسية التى حملته فيما بعد على أن يجعل الشرف هو الصبر على الجوع ، وحب الزاد هو الأثرة ، وأنه ليس لرجل أن يحيا — وهو فقير — على رغم وذلة لأن الموت — عنده — خير من حياة على رغم (٣) .

كل ذلك واضح فى شعره كما هو واضح فى سيرته ، فهم يروون مثلاً أنه أقفر من الزاد أياما ، فمر على امرأة شريفة من قومه فأمرت له بشاة ، فلما وجد بطنه ريح الطعام قرقر ، فاستاء وضرب بيده عليه وقال : إنك لتقرقر لرائحة الطعام ، والله لاطعمت منه شيئا . ثم قام يلوك فى فمه تمرة ، وركب بعيره ومضى لا يلوى على شيء (٢) .

أرأيت كيف لم يشأ أن يكون عبداً لبطنه ؟ إن هذا لون من التسامى يريد أن يستشعره ويلتذ به وهو الذى لا جاه له فهل نَدْهَشُ حين يقول بعد ذلك بيته المشهور :

وإنى لأثوى الجوع حتى يملّنى فيذهب لم يَدْنَسْ ثيابى ولا جِرمى

وكان شاعرنا فيما يتصف به ممن يعدو فيسبق الخيل فى غارات قومه

---

(١) راجع الديوان ٢ : ١٤٢
(٢) راجع ميميته فى الديوان ٢ : ١٢٥
(٣) الأغانى ٢١ : ٤١

وحروبهم[1] . ولا نزال نذكر ما رواه عنه الأصمعي حين سبق فرسي الوليد ابن المغيرة ، وحدثنا هو بشعره كثيراً عن هذه الخاصة ، وكان يعجب بها إلى حد بعيد ، حتى إنه حين لدغته الحية بعد ذلك — وقد تقدمت به الأيام — لم يتحسر قط على شيء كما تحسر على ساقه .

وليس بين أيدينا في ترجمته نص واضح نستطيع أن نعتمد عليه في تحديد بدء تصعلكه . وكل ما هنالك من روايات لا تدل إلا على أنه فتى كثير الغزو للعشائر التي يعيش بينها قومه . بل هي تدل في صراحة على أنه أحياناً لم يغزها إلا لينتقم لإخوته ، فثمالة مثلا قتلت أخاه زهيراً فانبعث يغير عليها حتى قتل منها أهل حلتين ثم هو يغزوها بأخيه عمرو وبعض بني زليفة حين قتلت أخاه الثاني عروة ولم ينكشف القوم إلا بعد أن قتلوا عمراً[2] .

والروايات التي يسوقها أبو الفرج في أمر تصعلك شاعرنا فيها من الطرافة شيء موفور . ولكنها لا ترينا الشاعر إلا مطلوبا من عشائر كثيرة ، فثمالة تريده ، وبنو الديل يتربصون له . وفهم وكنانة تبحثان عنه وعن كل إخوته . وهو مع كل هذا يفر من الجميع ويوقع بالجميع . أما قومه فيبدو أنه لم يكن يغزوهم . ولعل هذا يفسر لنا هذه الحالات التي نراه فيها يعيش في توافق معهم دون أن يخشى أحداً إلا من غيرهم .

فهم يقصون أنه خرج مع امرأته — أو مع زوج أبيه في رواية أخرى — يريدان مكة وكان يحذر بني الديل آنذاك ، وذهب خفية يقضي حاجة له . بينا ترك المرأة وحدها فتعرف عليها قوم من أعدائه وعلموا منها أن أبا خراش في مكة ، فتربصوا له ، ولكنه استطاع أن يفلتها بناقتها بينما تصدى هو للقوم فتصايحوا . أخذاً أخذاً ، ثم رمياً رمياً ، والمرأة تسمع حتى ذهبت إلى أبيه

---

(١) الأغاني ٢١ : ٣٨

(٢) الأغاني ٢١ : ٤٣ و ٤٤

فقصت عليه كل شيء ، فانطلق العجوز ينادى عليه وقد أدرك أنه لا بد أعجزهم .

قال أبو الفرج : وإذا هو وافاهم على أثرها ، وقال فى ذلك :

رفونى وقالوا يا خويلد لا تُرَع فقلت وأنكرت الوجوه همُ همُ(١)

فعلى أساس هذه الروايات نستطيع أن نتصور شاعرنا يعيش مع قومه طالما وجد القوت موفوراً ، حتى إذا أملق وأقفر من الزاد كان شديد التحول عنهم ويتنكب طريقهم ويضطرب فيما يضطرب فيه الذؤبان . وهنا نلمح أن الثورة النفسية عنده لم تكن تنفجر إلا فى حالات العسر والفاقة . ولو قد صح هذا أمكن أن نقول إنه ليس وراء شذوذ هذا الشاعر إلا الجوع .

وإذا كانت هذه الآفة قد ظهرت عنده فى شكل ثورة نفسية على كثيرين ممن كانوا يحيطون به فإنها كانت كذلك صدًى لثورة على النظام الاجتماعى والاقتصادى . ومن هنا يجب أن نقبل كل ما يقوله فى ذلك على أنه من رجل كان يطمع فى لين الحياة فلم يجد منها إلا قسوتها . نقبله من رجل محروم أحس نقصا وضعة فتعالى ونظر إلى كل ما حوله ومن يحيط به نظرة فيها تأبٍّ وتسامٍ .

وقد أنشأت الأيام تكر وهو فى هذا الصراع حتى أذن محمد فى الناس بالدين الجديد . وهنا يقبل شاعرنا على الإسلام فيحسن إسلامه كما يقولون . ويذكر البغدادى أن فى تاريخ الذهبي ما يدل على أن إسلامه كان يوم حنين . وفى هذا اليوم بالذات يقتل زهير بن العجوة وكان — كما قلنا — رفيقاً له من رفقاء المغامرة والغزو فينطلق أبو خراش بشعر فيه ثورة وعنف مما يجعلنا ندهش كيف استطاع أن يتغنى به وقد تغيرت الحال :

أفى كل مُمْسىً ليلةٍ أنا قائلٌ من الدَّهر لا تبعدْ قتيلَ جميلِ

فما كنت أخشى أن تنال دماءنا قريش ولما يُقْتَلوا بقتيل

---

(١) الديوان ٢ : ١٤٤ والأغانى ٢١ : ٤٢

وأبْرَح ما أُمِّرتمُ وملكتمُ يدَ الدهر مالم تُقتَلوا بِغليل(١)

ولكنه يستسلم للأوضاع الجديدة ، وهو يعلم أن كل شيء لم يعد هو هو . وهل تجدى الثورة فى فترة سادها الدين الجديد ؟ إن الظلم والاستبداد والطغيان والباطل . . هذه كلها مضى عهدها ، وأصبح على الجميع أنْ يعرفوا أنّ هناك عدلا وسماحة وحقا وفضيلة . إن ثمة سلاسل أحاطت برقبته كما أحاطت برقاب أمثاله من الذؤبان :

فليس كعهد الدار يا أمَّ مالك ولكنْ أحاطت بالرقاب السلاسِل
وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى العدْل شيئا فاستراح العواذل
فأصبح إخوان الصفاء كأنما أهال عليهم جانبَ التُّرْب هائل(٢)

وظاهر من هذا أنه لم يكن بعد قد أخلص للإسلام ، أو لعله لم يكن يستطيع أن ينهى نفسه عما اعتادت عليه فيقصد إلى الخير عن رغبته ، فهو لا يزال يجد من نفسه ضدا معانداً ، وهو لا شك قد أنفق فى ذلك زمناً ربما كان سجلا لصراع الشر والخير فى نفسه . وقد انتهى — فيما نظن — إلى أن المرء ما دام فى هذه الدنيا فلا بد أن يختار جانب الحق منها ، وكذا تصفو نفسه وتلين فيعرفه الناس فى صدر الإسلام رجلا وقوراً طيباً يخلع رداء الطيش والنزَق .

وأكبر الظن أنه حاول أن يلتقى النبي كما فعل أبو ذؤيب . إلا أن الروايات عنه لا تدل على أنه التقى به أو رآه — على الأقل عقب الفتح — ويعرض له ابن حجر فى القسم الثالث من الإصابة فيمن عرض لهم من المخضرمين الذين لم يرد فى خبر قط أنهم اجتمعوا بالرسول عليه السلام(٣) .

ويبدو أن شاعرنا كان آنذاك شيخاً كبيراً ، فهو لايخرج للغزو مع المسلمين بينما يتكفل ابنه بالخروج ويوغل فى أرض العدو ، ويقضى فى ذلك دهراً طويلا ، فيقدم أبو خراش إلى المدينة ويجلس بين يدى عمر ويشكو إليه شوقه

(١) الديوان ٢ : ١٥٧
(٢) الديوان ٢ : ١٥٠
(٣) الإصابة ٢ : ١٥٢

لابنه ، وكيف أنه أصبح رجلا قد انقرض أهله وقتل أخوته ولم يبق له ناصر سوى وحيده خراش ، وأنشأ يقول داليته التى مطلعها :

ألا من مبلغ عنى خِراشا　　وقد يأتيك بالنبأ البعيد

وفيها نجد عاطفة حزينة دافقة ونلمس هذا الاستسلام الوادع إلى الشيخوخة والكبر . ونجده فى نهايتها يتحدث إلى ابنه حديثا فيه كثير من روح الإسلام ، فليس البر أن يهاجر الابن غازياً لينال أجر الشهادة وهو يدع وراءه شيخاً ضعيفاً فى حاجةٍ إلى أيده وعزمه ، أليس من البر الصادق أن يبدأ الابن فيرعى أباه ؟

ألا فاعلم خراشُ بأنَّ خير الـ　　مهاجر بعد هجرته زهيد
فإنك وابتغاءَ البرِّ بعدى　　كمخضوب اللَّبان ولا يصيد[1]

قال أبو الفرج بسنده : فكتب عمر رضى الله عنه بأن يقبل خراش إلى أبيه ، ولا يغزو من كان له أب شيخٌ إلا بعد ان يأذن له[2] .

ثم لم يزل شاعرنا نموذجاً بديعاً للرجل المسلم حتى ينزل عليه قوم من اليمن جاءوا حجاجا — قال الأصمعى عن عمه — وكان الماء غير بعيد فقال : يا بنى عمى ما أمسى عندنا ماء ، ولكن هذه شاة وبرمة وقربة فردوا الماء وكلوا شاتكم ثم دعوا قربتنا على الماء حتى نأخذها . قالوا : والله ما نحن بسائرين فى ليلتنا هذه ، وما نحن بارحين حيث أمسينا . فلما رأى أبو خراش ذلك أخذ قربته وسعى نحو الماء تحت الليل حتى استقى ، ثم أقبل صادراً فنهشته حية قبل أن يصل إليهم . فأقبل مسرعاً حتى اعطاهم الماء وقال : اطبخوا شاتكم وكلوا . ولم يعلمهم بما أصابه ، فباتوا على شاتهم يأكلون حتى أصبحوا ، وأصبح أبو خراش فى الموت ، فلم يبرحوا حتى دفنوه[3] .

---

(١) الديوان ٢ : ١٧١
البيت الثانى مثل يعنى أن الكلب يلطخ حلقه وصدره بالدم يرى بذلك الناس أنه صاد ولم يصد !
(٢) الأغانى ٢١ : ٤٧
(٣) الأغانى ٢١ : ٤٧

والطريف أنه وهو يعالج الموت — على ما يقول الأصمعى — أنشد :

لعمرك والمنايا غالبـاتٌ على الإنسان تطلع كل نجد
لقد أهلكتِ حيةَ بطنِ أنفٍ على الأصحـاب ساقا بعد فقد[1]

فهو لا يأسف على شىء قط إلا على ساقه . ألا تراه مخلصاً لها وقد أعانته فى حياته دهراً طويلا ؟ اسمعه يقول مرة أخرى :

لقد أهلكت حية بطن أنف على الأصحاب ساقا ذات فضل
فما تركتْ عدوّاً بين بُصْرى إلى صنعاءَ يطلبه بِذَحْلِ[2]

ولا شك أنه يجوز لبعضنا أن ينكر مثل هذا الشعر ، خاصة وأنه لم يقل إلا ساعة الموت . إلا أنا لا نستكثر ذلك على شاعر لم يسعفه شىء على قوته مثلما أسعفته قدماه . قل كان يهذى أو كان لا يريد أن يجعل أصحابه يجزعون عليه وقد رأوه يتغير فانطلق يقول شعرا يطمئنهم به إلى أنه لا يزال بخير .

وعن الأصمعى أنه لما بلغ عمر بن الخطاب خبره غضب غضباً شديداً وقال : لولا أن تكون سنة لأمرت الا يضاف يمنى على الإطلاق ولكتبت بذلك إلى الآفاق ، إن الرجل ليضيف أحدهم فيبذل مجهوده فيسخطه ولا يقبله منه ويطالبه بما لا يقدر عليه كأنه يطالبه بدين أو بتبعة ليفضحه ، فهو يكلفه التكاليف حتى أهلك ذلك من فعلهم رجلا مسلماً وقتله .

قال الأصمعى : ثم كتب إلى عامله باليمن بأن يأخذ النفر الذين نزلوا بأبى خراش فيغرمهم ديته ، ويؤدبهم بعد ذلك بعقوبة جزاء عملهم[3] .

ألا ترى كم كان مقدار حب أمير المؤمنين لأبى خراش ؟

إن هذا الرجل — كما رأينا — ظل طوال سنى حياته فى جهاد وعراك ، وانطوت صفحته على أسطورة فى الفروسية والشجاعة . فلا عجب أن يقال عنه إنه أحد فرسان العرب ، ولا عجب أن يعجب به عمر وقد رأى نفسه تصفو وتطمئن بعد مرحلة من العناد والثورة والانطلاق .

---

(١) الديوان ٢ : ١٧١ والأغانى ٢١ : ٤٧
(٢) الأغانى ٢١ : ٤٨
(٣) الأغانى ٢١ : ٤٨

(ب) معانى شعره :

فلا وأبيك الخيرُ لا تجدينه جميل الغنى ولا صبوراً على العدم

بهذا البيت تتركز — فيما أظن — مأساة أبى خراش ، على أن نفهم أنه هو ذلك الرجل الذى لم يستطع الوصول إلى ما يريد . أفتحسبه يرضى وهو يرى أناساً منعمين دونه ؟ إن كل شئ يدل على أن هؤلاء هم الذين ألهبوه بالسياط وعذبوه عذاباً لاحد له ، وماذا يفعل وعقدة الفقر أظهر ما تكون حين يستشعر صاحبها الحرمان ؟ وهل فى وسعه أن يعرفه دون أن يرى غيره ينال فى يسر ما يريد ؟

لقد كان فقيراً ، فليقل إن الفقر ليس آفة . وكان جائعاً فليقل :

وإنى لأثوى الجوع حتى يملنى فيذهل لم يدنس ثيابى ولا جرمى

إنها فلسفته الخاصة . . فلسفة الرجل المحروم الذى لا يملك إلا أن يرضى بالواقع المقدر له . فلنسم هذا تسامياً كما فعلنا ولكن على أن نحتاط وندرك أنه ليس سموّاً يأتى عن رغبة فى نفس صاحبه . إنه تسامى الرجل المقهور المغلوب على أمره .

وآية ذلك أنه لا يرضى عنه طويلا ، ويحل المشكلة بأسلوب الطبيعة الفطرى ، يحلها بالعنف والقوة فيقسم قائلا :

لست لمرة إنْ لم أوفَ مرقبة يبدو لى الحرف منها والمقاضيب

فهو يتربص للناس يريد بعض ما يقضون به حاجة أنفسهم . وهل من العدل أن يجوع وهم يشبعون ؟ فإذا أحس خطراً ورأى أنه هالك لا محالة انطلق يهرب ، لا يجد غضاضة فى ذلك ، فهو يقول :

أقاتل حتى لا أرى لى مقاتلا وأنجو إذا خفت بعض المهالك

وهكذا حدد الشاعر طريقه الذى ينبغى أن يسير فيه . وهو طريق شاق محفوف بالخطر . ولكن ماذا يفعل والجوع يؤرقه ولا سبيل إلا هذا ؟

الدافع الأول إذن هو الجوع ، فإذا رأيناه يتحدث عنه فى كل وقت فيجب إلا نستكثره عليه ، ولنسمح له أن يذكره حتى فى الرثاء . اسمعه يقول وقد أراد أن يمدح دبية سادن العزى :

فنعم معرَّس الأضياف تذحى رحالهم شآمية بليل
يقاتل جوعهم بمكللات من الفرنى يرعبها الجميل (١)

فالضيفان مثله جياع ودبية يقاتل جوعهم — وتأمل فى يقاتل هذا التعبير المائل — يقاتل جوعهم بهذا الخبز الغليظ وهذه المكللات التى يملؤها الشحم . إنه يحلم بهذا الصنف من الطعام .

وهو يصرح فى الرثاء بأنه لم ينس زهير بن العجوة لأنه جائع محتاج إليه . وهو الذى وجد عنده الزاد . . .

ولا والله لا أنسى زهيراً ولو كثر المرازى والفقود
أبى نسيانه فقرى إليه ومشهده إذا اربدّ الجلود (٢)

ونحاول أن نرى ماذا قال فى دبية بعد أن قتل — وكان حذاه نعلين فمدحه — فإذا هو :

كابى الرماد عظيمُ القِدْر جفنته
عند الشتاء كحوض المنهل اللّقِف (٣)

فالشىء الذى يسترعى نظره هو هذا الجانب الذى يعرف فيه الشبع . وماذا يريد منه غير هذا ؟

إننا نفهم الآن نفسية شاعرنا ، فأىّ غرابة أن يناقض نفسه وينزل عن كبريائه فيمدح ؟ إن الجوع أكبر من أن يخضع لمنطق ، بل هو محنة تتحطم أمامها كل السدود . ولقد يكون فى هذا ما يتفق مع ماروى عن كثير من الشعراء ، إلا أن الوقوف عند هذا الفهم لايرينا من نفسية أبى خراش إلا شكلها الخارجى ، ونحن أحوج لأن نصل إلى صميمها وهو — فيما أعتقد — لا يتأتى إلا عن هذه الطريق التى سرنا فيها .

---

(١) الديوان ٢ : ١٤١ — تدحى : تسوق ، الفرنى : خبز غليظ نسب إلى الفرن الذى يختبز فيه ، يرعبها : يملؤها ، الجميل : الشحم .

(٢) الديوان ٢ : ١٦١

(٣) الديوان ٢ : ١٥٦ — كابى : عظيم ، المنهل : الذى إبله عطاش ، اللقف : الذى يتهدم من أسفله .

هذه هى حقيقة شاعرنا . . . .

بل حقيقة كل الشعراء الذؤبان . وواجب النقد أن يُعنىَ بها من هذه الناحية ، حتى نقف على ما وراء التجارب التى تبتلى بها النفوس ، فنفهمها ونتعمقها على أساس صحيح .

وبعد ، فلست أرجو أن أضع شعر الشاعر — بعد ذلك — فى الأبواب التى وضعت فيها شعر الذؤبان من قبل ، ذلك أنا إذا فعلنا فلن تغنينا شيئا لاسيما وإنا إستشهدنا بشر الشاعر فى كل باب تقريبا .

فلقد تحدث أبو خراش عن مغامراته ، ووصف سلاحه ، وتحدث عن المراقب ، وعرض لفراره وسرعة عدوه ، ورثىَ ، وتكلم عن الحيوان . . إلى غير ذلك مما رأيناه خاصا بالشعراء الثائرين . فاذا ضربنا هنا عن كل هذا فليس إلا لأنا لا نريد أن نعيد ما قلناه حتى فى صورة أخرى وأسلوب جديد . ولو قيل إنا فعلنا ذلك حين تحدثنا عن أبى ذؤيب قلت إنا فعلناه لأنا لم نستشهد بشعره فى كل باب طرقه قومه ، فاستحق من هنا أن نعودَ إليه ثانية .

ولكن قد يسأل سائل عن المجموعة الإسلامية فى شعر أبى خراش وما طرقه من المعانى فيها . وفى هذه الحالة يجب أن نقول إن الإسلام — وقد غيرّ أوضاع الحياة — لابد أن يحصر هذه المجموعة فى الموضوعات العامة التى يعرفها الشر العربى من مدح ووصف وغيرهما . على أنا نظلم الشاعر إذا لم نذكر له الرثاء بوجه خاص ، بل إن المعروف عنده من المجموعة كلها يكاد يكون كله رثاء باستثناء القصيدة التى أنشدها عمر فى شأن ابنه خراش ، إلى جانب هذه الأبيات التى رويت له ساعةَ أنشأ يحتضر .

وبين أيدينا الآن ثلاث قصائد ومقطوعتان فى الرثاء ، نقبل منها القصائد كلها ومقطوعة واحدة ، وأما الأخرى فلا أظن أنها قيلت فى هذه الفترة برغم ما شفعت به من تعليق ، فهى فى رثاء دبية ، ودبية قتل فى الجاهلية يذكر ذلك أبو سعيد ، كما نذكر أنه هو الذى دل جيش العير الظفرى على أخواله من هذيل فمات يوم أنف عاد ورثاه عبد مناف بن ربيع(١) :

---

(١) الديوان ٢ : ٤٣ و٤٦

ومع ذلك فالمعلِّق — وأظنه الشنقيطى — يقول عقب بيت أبى خراش التالى :

مالدبية منذ العام لم أره
وسْطَ الشُّروب ولم يُلمم ولم يَطف

دبية كان سادنا لبعض الأصنام فضرب خالدُ بن الوليد عنقه[1] وكان ذلك عقب فتح مكة وإرسال السرايا حولها لهدم الأصنام . فنحن نستبعد أن يكون دبية هو سادن العزىّ الذى قتله خالد ، وعليه فإن الأبيات التى يرثيه بها أبو خراش ليست إلا جاهلية ، ومن ثم نعرض عنها .

أما الباقى فكله قيل فى زهير بن العجوة ، وكان الشاعر فيه صادقا ، وتتجلى لوعته وفجيعته عليه فى كثير من الأبيات التى يتكلم فيها عنه . غير أنا نرى أن كل ما قاله فى تأبينه لا يتجاوز هذه المعانى المألوفة من شجاعة وكرم ووفاء وبأس ، إلى غير ذلك من الصفات العامة التى لا ترسم صفة خاصة للمرثى .

وقد نرى مرة آثار ماضيه فى بعض ما يتكلم به عن زهير ، نلمح ذلك حين يقول :

إلى بيته يأوى الغريب إذا شتا
ومُهْتلكٌ بالى الدَّريسَين عائل[2]

فهو لا يزال يذكر أيامه السوالف ولم تبرح مخيلته بعد صورة الفقير الجائع الذى لا يضع على جسمه سوى الإطار ، فإذا مضينا معه نراه يقول :

فو الله لو لاقيته غير مُوثَق
لآبك بالجزع الضِّباع النواهل[3]

ألا ترى أنه لا يزال يعيش مع هذه الضباع الشرهة التى تنتظر أشلاء القتلى فى منعطف الوادى ؟ بل نحن فى قراءتنا أبياته التى قالها وهو يحتضر نشعر إلى أى حد ظل وفياً لساقه التى طالما أعانته فى ساعات اليسر . إن فى أعماق

---

(١) الديوان : ٢ : ١٥٥
(٢) « : ٢ : ١٤٩
(٣) « : ٢ : ١٥٠

شاعرنا ذكريات كما يرى من الوفاء أن يعرض لها فى شعره !

وأما الأبيات التى أنشدها عمراً فى ابنه خراش فقد رأينا كيف استطاع أن يودعها روحاً إسلامية سمحاء . ولكننا برغم كل ذلك لانجد الفرق واضحاً بين ما قاله فى هذه الفترة وما قاله فى جاهليته ، حين كان ينطلق لا يعوقه حد من الحدود أو يقف فى سبيله أحد السدود .

(ح) الخصائص الفنية فى شعره :

شعر أبى خراش فى ملدته وموضوعه وطريقة أدائه يقوم على ما يقوم عليه شعر الهذليين جميعاً ، ولا داعى للإطالة هنا فى ذلك ، فطالما أخذنا من شعره ونحن نتحدث عن الصفات العامة التى يشترك فيها شعراء قومه ، إلا أنا نكتفى هنا بإيراد بعض الصفات الكبرى — فى عرض سريع — معرضين عن غيرها حتى لا يكون فى حديثنا رتابة مملة . ونحن إذ نفعل ذلك لانزال نضع شعر شاعرنا فى الدائرة نفسها التى وضعنا فيها شعر قومه ، ثم لا نزال نعدّه هو واحداً من فحول هذيل برغم إعراض كثير من الكتب القديمة عنه ، بل برغم إهمال ابن سلام له وكان قد قال إنه إنما يترجم للمشهور المجيد فقط من الشعراء .

١ — وأول شيء نلحظه فى شعر الرجل هو كم القصيدة وكان عنده دون المألوف وهو بذلك يؤيد ما قلناه من قبل من أن شعر قومه كان على العموم يميل إلى ذلك ، فقد كان فيهم كثير من الذؤبان وهؤلاء لم تكن تهيأ لهم الفرصة للإطالة . واستقراء شعر أبى خراش لا يرينا إلا ثلاث قصائد طويلة ، اثنتان منها فى الرثاء والثالثة هى التى حدثنا فيها عن آرائه ونظرته فى الحياة ، وكان يخاطب بها امرأته وقد رأى أنها أعرضت عنه لرجل غنى ، وهى تبلغ ثلاثة وعشرين بيتاً مطلعها :

لقــد علمت أمّ الأديبر أننى
أقول لها هَدِّى ولا تَذْخَرى لحمى(١)

---

(١) الديوان ٢ : ١٢٥

أما الرثائية الأولى فتبلغ أبياتها أربعة وعشرين قالها فى رثاء عروة اخيه وأولها :

لَعَمْرى لقد راعت أميمةَ طلعتى ... وإن ثَوائى عندها لقليل(١)

والثانية عشرون بيتاً فقط أنشدها الشاعر حين مات منافس أبى ذؤيب فى أم عمرو خالد بن زهير ومطلعها :

أرِقتُ لِهَمٍّ ضافنى بعد هجْعَةٍ ... على خالدٍ فالعَيْنُ دائمةُ السَّجْمِ(٢)

وفيما عدا ذلك فشعره كله قصائد قصيرة ومقطعات تتكون من بيتين أو ثلاثة. فهو يمثل السرعة الفنية خير تمثيل وظلّ يمثلها حتى بعد أن أسلم. وكان يصحب ذلك تحرره من ظاهرة التصريع التى كانت شائعة عند العرب. ونستطيع أن نجعل لثورته على الأوضاع اليد الطولى فى هذا. وإلى جانب ذلك كله لا نلمح المقدمات الغزلية حتى فى قصائده الطويلة.

أما لفظه فهو مثال صادق للشاعر الفطرى القديم. بل مثال صادق لهؤلاء الشعراء الذين عاشوا فى البيد وألفوها وعرفوا ضواريها، فكان يصدر عنه بعفوية دون أن يهتم به أو يزينه ويتأنق فيه، إنما هو غريب خشن متلاحق حتى لكأنه يعدل فى سرعته سرعة حياته ويشبه فى صلابته صلابة ايامه.

فإذا جاء رقيقاً حلواً يسيل عذوبة فاعلم أنه رثاء وإن كنت لا تعدم فيه غرابة البادية. واقرا له فى هذا ذلك الجزء الذى يحكى إحدى قصص الدهر من رثائيته فى عروة له :

أرى الدهر لا يبقى على حدثانه ... أقبّ تباريه جدائدُ حُول(٣)

كل ذلك دون أن نستطيع إبعاده عن الدائرة الإنسانية. بل كثيراً ما استطاع بلفظه ذاك ان يجعلنا نحس بصوته خارجاً من أعماقه فى نغمات حارة فيرينا إلى

(١) الديوان ٢ : ١١٦

(٢) الديوان ٢ : ١٥١

(٣) الديوان ٢ : ١١٧ : حول : الإبل لم تحمل

أيّ حد كان ينجح فى استخدام عناصر اللغة فى التعبير عما فى نفسه وإثارة العواطف وتحريك الأفئدة . اسمعه يقول لأخيه وقد لطمه بيده :

لعلّك نافعى يا عُمْرُوَ يوماً إذا جاورتُ من تحت القبور
إذا راحوا سِواى وأسلمونى لخشناءِ الحجارة كالبعير
أخذتَ خُفارتى وضربت وجهى فكيف تُثيب بالمَنِّ الكثير
بما يممتُه وتركتُ بِكْرِى بما أطعمتُ من لحم الجَزور
ويوماً قد صبرتُ عليك نفسِى مع الأشهاد مرتدِىَ الحرور(١)

أترى هذه الألفاظ كيف هى غنية بما تحمل من إحساسات دقيقة قريبة من نفوسنا أليفة بها ، إنها إحساسات الرجل الذى أساء إليه أخ فأخذه بعتاب حنون .

٢ — ومن الناحية الموضوعية لسنا بحاجة لنعيد القول فيما زعمناه عن الوحدة ، فهى عنده واضحة لا سيما وقد كثرت فى شعر المقطعات والقصائد القصيرة . وهذه — كما نعرف — لا تحتمل التشعب والاستطراد . ولكننا نرى الشاعر لا يكلف نفسه شيئا فى ذلك ويكتفى بذكر ما تلقنه إياه الطبيعة فنرى الواقعية عنده بأجلى معانيها .

أجل ترى كل شعره فى دائرة الواقعية ، فهو لا يفكر إلا فى شىء يراه ، ولا يعجب إلا بالمشهد الذى يحسه بنفسه ، ولا يشعر إلا بهذه العاطفة التى تتجاوب مع الطبيعة التى يضطرب فيها . وهو لذلك لا يتكلم إلا عن تجربة صادقة ، وكذا كان شعره فى موضوعه يعتمد على الحقيقة . . يتناولها فيكسوها بفنه وروحه كساء أمينا على ما يضم :

أفَاطم إنى أسبق الحَتْفَ مُقبلا
وأتركُ قِرنى فى المزَاحِف يَستدمى

(١) ٢ : ١٣٦ — وما بعدها وخشناء الحجارة : القبر ، كالبعير : كأنه بعير بارك ، خفارتى : ذمتى وأمانى ، يممته : قصدت له ، بكرى : ابنى ، الأشهاد : الشهود ، الحرور : السموم .

وليلة دَجْنٍ من جُمادَى سَرَيْتُها
إذا ما استَهَلَّت وهى ساجيةٌ تَهمى

وشَوطٍ فِضاح قد شهدت مُشايحاً
لأدرِكَ ذَحْلا أو أشيفَ على غُنْم

إذا ابتَلَّتِ الأقدام والنَّفُ تحتَها
غُثاءٌ كأجواز المقرَّنةِ الدُّهْم

ونعل كأشلاء السُّمانَى نَبَذْتُها
خلافَ ندًى من آخر الليل أوْ رِهَم

إذا لم ينازعْ جاهلُ القوم ذا النُّهَى
وبَلَّدَت الأعلام بالليل كالأكْم(١)

تراها صِغاراً يحسر الطرف دونَها
ولو كان طَوْدًا فوقه فِرَقَ العُصْم

فأية بساطة فيما يقول، وأىّ قرب من واقع الحياة. تلك الحياة التى لا تريحه وتدفع به إلى المهالك. ولكنه لا يستسلم لها، فهو يسبق هؤلاء الرجال الذين يحملون له الموت. وما أكثر هذه الليلات الجمادية التى أنفقها يسرى وسماؤها تسيل عليه. إنه يسعى وراء ثأر أو غنيمة يريدها، وهو يظل يسعى والأقدام يبللها الندى ويلتف تحتها غثاء الشجر الكثيف.

ومر على سائر الأبيات فسترى هذه الواقعية التى تقول بها لا سيما فى حديثه عن نعله الممزقة، وفى وصفه للمرتفعات حين يغشيها الظلام فيحسر الطرف دونها وتبدو ضئيلة حتى وإن كانت أطواداً فوقها فرق الوعول. ثم تراها فى غير ذلك مما تناوله من معان مختلفة.

وأما القصصية فهى تتحول عنده إلى حديث عن مغامراته وغزواته. ولا نرى له سوى قصتين، واحدة عن ريب الدهر فى لاميته التى يرثى فيها أخاه

---

(١) الديوان ٢ : ١٣٠ و ١٣١ — المزاحف : مواضع القتال، الدجن: إلباس الغيم الأرض، تهمى : تسيل، شوط فضاح : يقول إن سبق فيه رجل افتضح، مشايحاً : المشايح الجاد الحامل (هذلية) أشيف : أشرف، كأجواز : كأوساط الدهم من الإبل، رهم : مطر ضعيف، الأعلام : الجبال، يحسر الطرف : يكل الطرف .

عروة ، والأخرى في الدالية التي يرثى بها زهيراً بن العجوة . وانتحاؤه هذا المنحى لا يدل إلا على إحدى ثوراته التي عرف بها .

٣ — وإذا حاولنا بعد ذلك أن ندل على شعر أبي خراش من صفات أدائية وجدنا أظهرها شيئين : أحدهما التشبيه والثاني براعة التمثيل . أما التشبيه فهو أظهر مميزات السرعة الفنية التي تحدثنا عنها ، ومنابعه عند شاعرنا مستخلصة من حياته وحسه وملاحظته فهو مبتدع عن إطالة لا متبع عن تقليد . اسمعه يقول :

فلما رأين الشمسَ صارت كأنها فُوَيْقَ البَضيع في الشعاع خَمِيل(١)

فترى إلى أية درجة بلغت ملاحظته . وإلى أيّ حد اعتمد على عينيه في تصوير هذا المنظر الجميل . فإذا وصف نعله البالية — في البيت الذي قرأناه له — شبهها بشلو سمانى ممزقة فتلمس كيف اتخذ طريقا لم يتجه إليه واحد من قومه .

ولكننا لا ننكر أنه يلتقي مع هؤلاء في كثير مما يقولون . ألم نر من قبل أن غير واحد شبه سرعته بسرعة العقاب ؟ اسمع الآن شاعرنا يقول :

كأني إذْ عَدَوْا ضَمَّنْت بزى من العقبان خائتةً طلوبا(٢)

فترى أنه لا يختلف عنهم في شيء ، ومثل هذا حين يشبه خالد بن زهير بنصل السيف وذلك في قوله عنه :

أشمّ كنصل السيف يرتاح للندَى بعيداً من الآفات والخُلُق الوَخْم(٣)

أما براعة التمثيل فذلك أظهر شيء يمثل قومه ، ولشاعرنا فيه مشاهد حية تجمع بين بساطة التصوير ودقة الواقع . وهل تذكر ما أوردناه له في بائيته وهو يصور نفسه بعقاب تسعى من أجل فرخها ، فلا تكاد ترى صيدها حتى تندفع وراءه ، وينتهي أمرها بأن تخطئه فترتطم بالأرض ؟ وفي هذه الأبيات ترى كيف كان الشاعر مهتما بحركة الطير واندفاعه .

---

(١) الديوان ٢ : ١١٩ — البضيع : الجزيرة ، خميل : قطيفة

(٢) الديوان ٢ : ١٣٣

(٣) الديوان ٢ : ١٥٣

وعلى هذا النحو كل صوره ، فهى تدل على قدرته الفائقة فى التعبير عما يريد تعبيرات تجسم المعانى وتجعلها لا تقل فى دلالتها عن أى منظر يرسمه مصور ، هذا فضلا عما يشيع فيها من نشاط وحياة . وانظر إلى ما يقوله عن أحد العلجان وقد . .

تخطاه الحتوف فهو جَوْنٌ ... كِناز اللحم فائله رَديد
غدا يرتاد فى حَجَرات غيثٍ ... فصادف نوءَه حَشْفٌ مُجيد
غدا يرتاد بين يدىْ قنيصٍ ... تدافعه سَفَنَّجَةٌ عنود(١)

ثم يطرح العلج جانباً ليصور لنا هذه الفرس التى تشبه السفنجة فإذا هى :

جَمومٌ نهدةٌ تَبْتٌ شَظاها ... إذا ركبتْ على عَجَلٍ تَصيد
فألجمها فأرسلها عليه ... وولَّى وهو مُنْتَفِذٌ بعيد
كأن المَرْوَ بينهما إذا ما ... اصاب الوعْثَ منتفقاً هبيدُ(٢)

بينهما أى بين الفرس والحمار ، وانظر كيف دقق النظر فإذا المرور وما تكسر منه بحوافر فرسه أشبه بحنظل نقف وأخرج ما فيه . ولكن هذا لا يصرفك عن الحمار نفسه وقد لحقه غيث السماء فغدا يرتاد بينه وبين يدى الفارس الصياد . ثم لا يصرفك عن الفرس وهو يشير إلى سرعتها وجريها المتلاحق .

على أن من أبدع تصويراته ما يروى له أنه قال :

لما رأيت بنى نفاثة أقبلوا ... يُشْلون كل مقلّص خنّاب
فنشيْتُ ريح الموت من تلقائهم ... وكرهتُ كل مهندٍ قضّاب
ورفعتُ ساقا لا يخافُ عثارها ... وطرحت عنى بالعراء ثيابى

---

(١) الديوان ٢ : ١٦٢ وما بعدها — وجون : حمار الوحش كناز اللحم : صلبه ، فائله : الفائل هو اللحم الذى على خرب الورك والخرب ثقب رأس الورك ، حجرات : أنحاء ، قنيص : صائد ، سفنجة : فرس كالنعامة ، عنود : جمة النشاط .

(٢) الديوان ٢ : ١٦٣ و ١٦٤

جموم : جمة الجرى ، شظاها : عظمها إلى جانب وظيف اليد ، المرو : الحجارة البيض ، هبيد : حنظل مكسر .

أقبلت لا يشتدُّ شدِّى واحدٌ عِلْجٌ أقَبُّ مسيَّرُ الأقراب(۱)

لقد رأى بنى نفاثة يقبلون عليه وكانوا على خيول طويلة القوائم تندفع نحوه فرفع ساقه التى تعرف كل شبر فى الصحراء وانطلق وقد طرح عنه ثيابه ، وكان آنذاك أشبه بعلج مخطط يجرى .

إنها من أصدق الأبيات فى الدلالة على حياته وتصويرها . وما أكثرها تعبيرا عن البادية حين يتنكر من فيها لرجل يريد أن يعيش .

ويبلغ الشاعر فى الأبيات التى يتكلم فيها عن ابنه منتهى ما يصل إليه شاعر فى روعة تصوير الوحشة والألم . فهو يقول :

يناديه ليغْبقَه كليْبٌ ولا يأتى ، لقد سَفِهِ الوليدُ
فرد إناءه لا شىء فيه كأن دموع عينيه الفريد
وأصبح دون غابِقِه وأمسى جبالٌ من حِرار الشام سود(۲)

لقد اعتاد كليب أن يقوم لمولاه يسقيه اللبن ، وها هو ذا يناديه . . ولكن هيهات . فقد سفه خراش وغاب . ويحزن كليب ويمسك بالإناء فارغا وهو يرسل من عينيه دموعا متألقة . وما تجدى هذه الدموع . فإن خراشا بعيد وتفصله عنه جبال سود . ألا ترى كيف استطاع أن يودع هذه الصورة لمحات من أجمل ما تحبه النفس وترتاح إليه ؟

وبعد فتلك كانت صور أبى خراش .

صور كانت تقوم على الخيال المنتزع من الطبيعة والواقع . معبرة عن كل ما يشغله فى حياته المضطربة القلقة .

(ى) خاتمة :

وفيها أقول إن السمات التى تطبع شعر أبى خراش لا تكاد تخلو منها قصيدة من قصائد الهذليين جميعا . وبذلك ننتهى إلى ما نريد من هذه العجالة ، وتتحقق

---

(۱) ۲ : ۱٦۸ و ۱٦۹ يشلون : يدعون ، مقلص خناب : فرس طويل القوائم ، فَتَنَشَّيتُ : فشمت ، مسير الأقراب : أى فيه خطوط .

(۲) الديوان ۲ : ۱۷۰ و ۱۷۱

لنا تلك الصلة التى تجمع بين الشاعر وقومه . كما تدل على انهم كلهم ينضوون تحت مدرسة لها بعض المميزات التى يمكن أن تنفرد بها إلى جانب هذه الصفات الأخرى التى نراها عادة عند شعراء العرب .

ونحن حين نقف هنا ، نرجو أن نكون قد استطعنا أن نعطى القارئ صورة واضحة عن هذيل : حياتها ، شعرها وخصائصه ، وأن نكون قد وفقنا إلى كشفٍ نرجو أن يكون نقطة انطلاق إلى كشف أكثر منه عمقاً وجدوى .

مراجع البحث

(ا) المراجع العربية

١ — الآمدى (أبو القاسم): المؤتلف والمختلف — مطبعة القدسى سنة ١٣٥٤

٢ — الألوسى: بلوغ الأرب — المطبعة الرحمانية سنة ١٣٤٢

٣ — الاصطخرى: كتاب مسالك الممالك — طبعة ليدن سنة ١٩٢٧

٤ — ابن الأنبارى: الإنصاف — طبعة ليدن سنة ١٩١٣

٥ — ابن الأثير: تاريخه — المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠١

٦ — البحترى: كتاب الحماسة — طبعة بيروت سنة ١٩١٠

٧ — البغدادى: خزانة الأدب — مطبعة مصر سنة ١٢٩٩

٨ — البكرى: معجم ما استعجم — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٤٥

٩ — البلاذرى: فتوح البلدان — مطبعة بريل سنة ١٨٦٦

أنسب الأشراف — مطبعة أورشليم سنة ١٩٣٦

١٠ — احمد بن عبد ربه: العقد الفريد — المطبعة الجمالية سنة ١٣٣١

١١ — أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسى — مطبعة الاعتماد سنة ١٩٤٥

تاريخ النقائض فى الشعر العربى — « « ١٩٤٦

أصول النقد الأدبى — « « ١٩٤٢

١٢ — الجاحظ: البيان والتبيين — مطبعة الاستقامة سنة ١٣٦٦

١٣ — ابن الجزرى: النشر فى القراءات العشر — مطبعة التوفيق بدمشق سنة ١٣٤٥

١٤ — الجواليقى: المعرب من الكلام الأعجمى — طبعة دار الكتب.

١٥ — ابن حبيب: المحبر — حيدر آباد الدكن سنة ١٩٤٢

١٦ — ابن حزم: جمهرة أنساب العرب — طبعة مصر ١٩٤٨

١٧ — الحلبى: السيرة الحلبية — المطبعة الأزهرية سنة ١٣٢٠

١٨ — ابن خرداذبة : كتاب المسالك والممالك	طبعة ليدن سنة ١٣٠٦
١٩ — ابن خلدون : تاريخه	مطبعة التقدم سنة ١٢٨٤
٢٠ — ابن دريد : جمهرة اللغة	طبعه حيدر آباد الدكن ١٣٤٤
٢١ — ابن رشيق : العمدة	مطبعة هندية سنة ١٣٤٤
٢٢ — الزمخشرى(أبو القاسم) : الجبال والأمكنة والمياه	طبعة ليدن سنة ١٨٥٥
٢٣ — أبو زيد القرشى : جمهرة أشعار العرب	مطبعة بولاق سنة ١٣٠٨
٢٤ — ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير	طبعة ليدن سنة ١٣٢٥
٢٥ — ابن سلام : طبقات الشعراء	مطبعة السعادة
٢٦ — السهيلى : الروض الأنف	مطبعة الجمالية سنة ١٣٣٢
٢٧ — السويدى: سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب	مطبعة دار الطباعة بغداد سنة ١٢٨٠ هـ.
٢٨ — ابن سيدة : المخصص	المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣١٨
٢٩ — الطبرى : تاريخ الرسل والملوك	طبعة ليدن سنة ١٨٩٠
٣٠ — عبد الوهاب حمودة : القراءات واللهجات	مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٤٨
٣١ — عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب	مطبعة الهاشمية سنة ١٩٤٩
٣٢ — أبو الفداء : كتاب تقويم البلدان	طبعة درسدن سنة ١٨٤٠
٣٣ — أبو الفرج : الأغانى	طبعة ساس إلا الأجزاء الثلاثة الأولى فهى طبعة دار الكتب
٣٤ — ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار	طبعة دار الكتب سنة ١٩٢٤
٣٥ — القالى (أبو على) : الأمالى	طبعة دار الكتب سنة ١٩٢٦
٣٦ — ابن قتيبة : الشعر والشعراء	طبعة البابى الحلبى سنة ١٣٦٤ — ١٣٦٦
٣٧ — ابن الكلبى : كتاب الأصنام	طبعة دار الكتب سنة ١٩٢٤
٣٨ — المبرد : الكامل	طبعة ليبزج سنة ١٨٧٤
نسب عدنان وقحطان	لجنة التأليف والترجمة سنة ١٩٣٦
٣٩ — المسعودى : مروج الذهب	المطبعة البهية سنة ١٣٤٦
٤٠ — الميدانى : مجمع الأمثال	مطبعة مصر سنة ١٢٨٤
٤١ — ابن النديم : الفهرست	طبعة ليبزج سنة ١٨٧٢

٤٢ — النويرى : نهاية الأرب — طبعة دار الكتب

٤٣ — ابن هشام : السيرة — طبعة وستنفيلد سنة ١٨٥٩

٤٤ — الهمدانى : صفة جزيرة العرب — طبعة ليدن سنة ١٨٨٤

٤٥ — هيكل : فى منزل الوحى — طبعة دار الكتب سنة ١٣٥٦

٤٦ — الواقدى : كتاب المغازى — طبعة كلكتا سنة ١٨٥٥

٤٧ — ياقوت : معجم الأدباء — مطبعة دار المأمون سنة ١٣٥٥

معجم البلدان — طبعة ليبزج سنة ١٨٦٦

(ب) مراجع مترجمة وأفرنجية

١ — اميل دوركيم : قواعد المنهج فى علم الاجتماع

٢ — بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام

٣ — جوستاف لوبون : حضارة العرب

٤ — Semple ; Influences of Geog. Environment.

٥ — T. P. Hughes, a Dictionary of Islam.

٦ — The Encyclopaepia of Islam.

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

— ٩٦ —

التأليف (٦٨)

الأدب (٥٦)

القاهرة

١٣٨٩هـ — ١٩٦٩م